إبداعات عالمية

343



رواية من الأدب الصيني

ورقة في الرياح القارسة



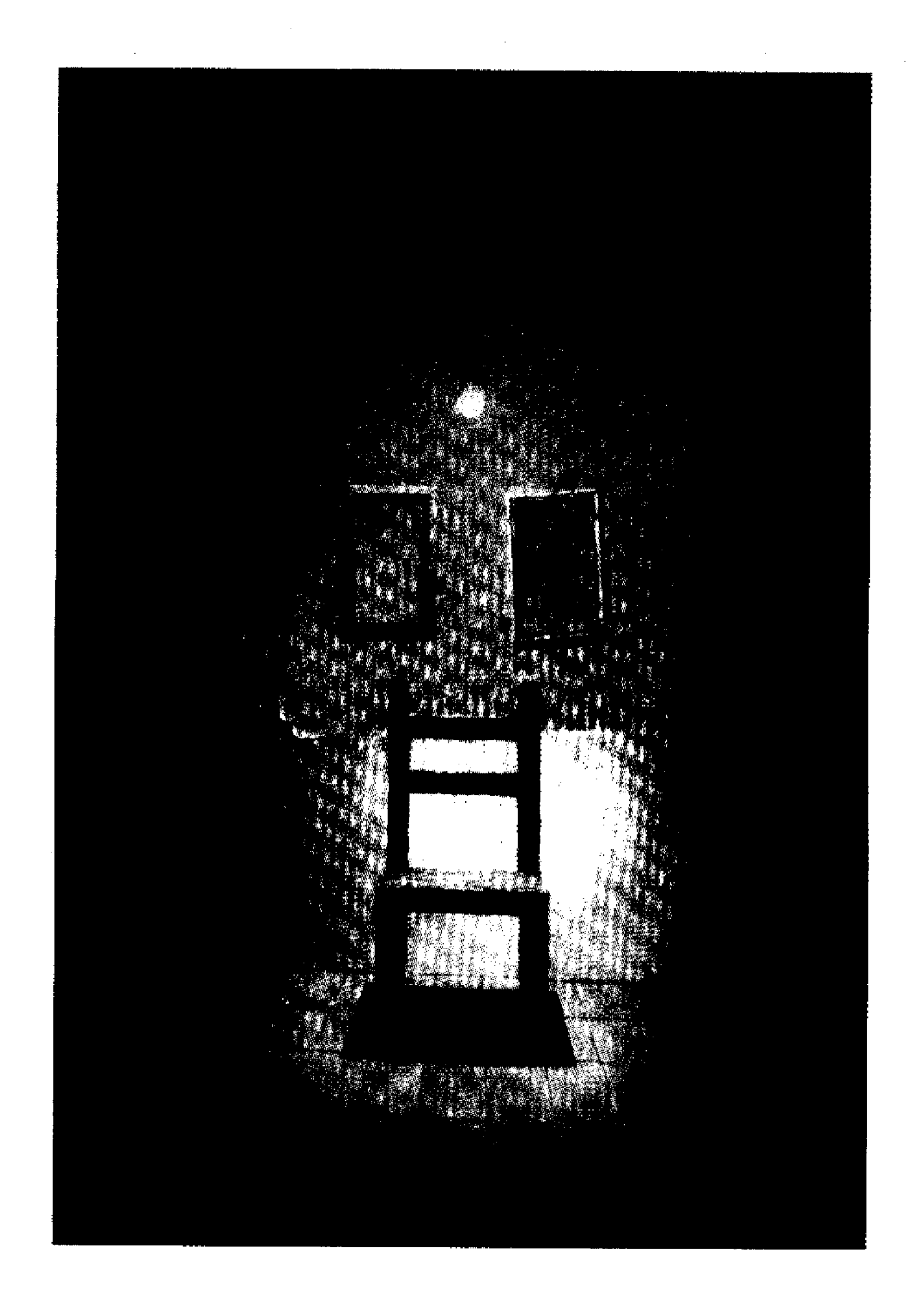
تأليف: تنغ-هسنغ يي

ترجمة: عبدالهادي عبلا

مراجعة: د. ليلى المالح

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

أغسطس 2003



اسم اللوحة : القبيح
الفنـــان : إبراهيم حبيب / الكويت
المــادة : زيت على توال
القياس : ١٠٠ x ٧٧ سم



• ورقة في الرياح القارسة

رواية من الأدب الصيني

تأليــف: تــنــغ - هــســنــغ يــي
ترجمــة : عــبــدالهــادي عــبــلا
مراجعــة: د. لــيــلــى المــالــح

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار امريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي13147
دولة الكويت

ردمك ٧ - ١٠٩ - ٠ - ٩٩٩٠٦
ISBN 99906 - 0 - 109 - 7

• ورقة في الرياح القارسة

رواية من الأدب الصيني

العنوان الأصلي :

• A Leaf in the Bitter Wind

ترجمت عن اللغة الانجليزية

الطبعة الأولى : (٢٠٠٠)

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 2003م

إبداعات عالمية - العدد 343

صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٦٩م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(١٩٢٣ - ١٩٩٠)

اسم اللوحة : القبيح

الفنــان : إبراهيم حبيب / الكويت

المــادة : زيت على تـوال

القياس : ١٠٠ X ٧٧ سـم

«رواية طويلة تستحوذ على الذهن تسرد الحياة المضطربة لامرأة أيام الثورة الثقافية في الصين. لم أستطع تركها قبل النهاية»

جان وونغ

مؤلف «أغاني الصين الحمراء الحزينة»

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى ذكرى:
والدتي: لي هسيو فنغ
والدي: يه رونغ فنغ
العمة الكبرى: تشين فنغ - ماي

شكر واعتراف

كان اختيار العنوان مجرد جزء بسيط من مساهمة وليام بل الكبرى لهذه الرواية. في عملية طويلة صعبة، وأحيانا مبكية، وكان عونا لي حتى خط النهاية؛ كما مكنتني ثقته بي ورعايته لي من إنجاز هذه الرواية.

كنت محظوظة بصداقة جون بيرس لإيمانه بهذا المشروع وتشجيعه وتوجيهه، وكان لحكمته وخبرته قيمة عالية، كما أعبر عن امتناني لجيل بيرس لقراءتها المتأنية للمخطوط ونصائحها القيمة.

وأود أن أشكر جميع رفاقي هنا في كندا لدعمهم لي، كما أتقدم بالشكر من أعماق قلبي إلى وليام تالبوت الذي لولا مساعدته في إدخال أعمال غريبة إلى هذا البلد في المقام الأول لبقيت هذه القصة مجرد ذكريات مؤلمة.

أود أيضا أن أشكر المجلس الكندي للمساعدات التي قدمها لي.

وأزج تقديري الأخير إلى أخوتي وأخواتي في الصين لاهتمامهم وحبهم وقصصهم وأبحاثهم، وآمل أن يكون هذا الكتاب قد أنصف ذكرى والدينا والعمة الكبرى وما عانيناه نحن الخمسة معا.

ملاحظة حول اللفظ الصيني

استخدمت نظام «هان يو بين ين» للكتابة بالأحرف الرومانية (اللاتينية). وتركت بعض الأسماء مثل «يانغ تسي» و«شان كاي تشك» بالهجاء القديم لأن صيغة «بين ين» يمكن أن تكون غير مألوفة.

سيجد المتحدثون باللغة الإنجليزية أن معظم الحروف في نظام بين ين تلفظ تقريبا كالحروف في الإنجليزية فيما عدا بعض الشواذ وهي:

تس C = ts، تش Q = ch، هس X = hs، دز Z = dz، دج Zh = j

ملاحظة المؤلف

عندما تستخدم كلمة «كبير السن» (لاو)، و«صغير السن» (هسياو) مع اللقب فهي عبارات عامة تدل على الاحترام في الصين، وبالتالي كان الآخرون (باستثناء أفراد عائلتي) يخاطبونني هسياو يه.

وما عدا الشخصيات العامة المعروفة وأعضاء أسرتي، فقد أعطيت كل الشخصيات الصينية في هذا الكتاب أسماء أخرى غير أسمائهم الحقيقية.

تسلسل الأحداث خلال السنوات ١٩١١ حتى ١٩٩٤:

عائلتي

ولادة العمة الكبرى فينكس سستر.

ولادة والدي ووالدتي.

قامت والدة عمتي الكبرى بإعطائها إلى عائلتي بصفة خادمة من دون أجر.

وذهب والدي إلى شنغهاي لإدارة أعمال العائلة التجارية، وذهبت العمة الكبرى معه للعناية به.

ثم التحقت والدتي بوالدي في شنغهاي.

و جاءت ولادة الطفل الأول والثاني، ثم مغادرة العمين غير الشقيقين إلى تايوان، وولد الطفل الثالث، وقامت حملة الأعداء الثلاثة.

تم تخفيض درجة والدي من صاحب مصنع إلى عامل، بعد أن استولت عليهاالحكومة، وكان ذلك بعد ولادة الطفل الرابع (أنا) والخامس. التحقت بالمدرسة وتوفي والدي إثر عملية خرقاء أجريت له؛ فاضطر الابن الثاني إلى ترك المدرسة والعمل لإعالة الأسرة. أما الابن الأول والثالث، فقد دخلا المدرسة المتوسطة والتحق الأول بعد ذلك بجامعة «جياد تونغ»

في شنغهاي ثم توفيت والدتي...

تعرضت لهجوم الحرس الأحمر في المدرسة وأتوا إلى منزلنا وأوسعوا جدي ضربا عند قيامه بمنعهم من هدم قبر أبي... تخفيت كحارس أحمر في رحلة الحج إلى بكين... ومن ثم قررت البقاء في البيت مع إخوتي.

أجبر الابن الثاني على خوض معارك دامية ضد زملائه العمال. أما أنا، فقد نُفيت إلى سجن العمال في مقاطعة «يانغسو». وأبعد الابن الخامس إلى مزرعة مقاطعة «يانغهسي» والأول أيضا أبعد إلى مقاطعة «غيودجو». بقيت على قيد الحياة بعد اصابتي بزحار أميبي في المزرعة، وهناك اتهمني ممثلو الجيش بأنني معادية للثورة، حاولت الانتحار لما قاسيته من إجراءات التحقيق والإذلال. حكم علي وأعيد تأهيلي بعد موت «لين بياو»، وأعيد فتح الجامعات أمام الطلاب والجنود والعمال والفلاحين.

تزوج الأول. عينت لمساعدة القادمين من الشبان إلى مزرعة السجن، بدأت بدراسة اللغة الإنجليزية وآدابها في الريف، وعدت عند نهاية السنة الأولى. عوقبت لحضور جنازة «تشو إين لاي»، فأرسلت إلى منطقة «تانغ شان» ضمن فريق إنقاذ ضحايا الزلزال.

ولادة الطفل الثاني

مغادرة العمين غير الشقيقين إلى تايوان.

ولادة الطفل الثالث

حملة الأعداء الثلاثة.

ولادة الطفل الرابع (أنا)

ولادة الطفل الخامس

استولت الحكومةعلى مصنع والدي.

تخفيض درجة والدي من صاحب مصنع إلى عامل.

التحاقي بالمدرسة الابتدائية

عملية والدي الخرقاء.

وفاة والدي

اضطرار الابن الثاني لترك المدرسة والعمل لإعالة العائلة.

الابنة الثالثة والابن الأول يبدآن المدرسة المتوسطة، التحاق الأخ الأكبر (الابن الأول) بجامعة جياد تونج في شنغهاي.

وحدثت وفاة والدتي، هاجمني الحرس الأحمر في المدرسة، مجيء الحرس الأحمر إلى منزلنا، ضرب جدي المبرّح لدى محاولته منعهم من هدم قبر والدي. تخفيت كحارس أحمر في رحلة الحج إلى بكين (بيجنغ).

البقاء في البيت مع إخوتي.

يجبر الأخ الثاني (الابن الثاني) على خوض معارك دامية ضد زملائه العمال.

نفيت إلى مزرعة سجن العمال في مقاطعة يانغسو.

نُفِيت الأخت الصغرى (الابنة الخامسة) إلى مزرعة مقاطعة يانغهسي الأخ الأكبر إلى مقاطعة غيودجو. بقيت على قيد الحياة بعد الإصابة بزحار أميبي في المزرعة.

اتهمني ممثلو الجيش في المزرعة بأنني معادية للثورة، التحقيق والإذلال ومحاولتي الانتحار.

الحكم عليّ وإعادة تأهيلي بعد موت لين بياو، إعادة فتح الجامعات أمام الطلاب (الجنود والعمال والفلاحين).

زواج الابن الأول

عُيِّنت لمساعدة القادمين الشبان إلى مزرعة السجن.

بدأت بدراسة الإنجليزية وحدي.

قابلت هيساو جاو في المزرعة، الانتساب إلى جامعة بكين (بيجينغ).

دراسة اللغة الإنجليزية وآدابها في الريف، العودة عند نهاية السنة الأولى.

عوقبت لحضور جنازة تشو إين لاي، أرسلت إلى منطقة تانغ شان ضمن فريق إنقاذ ضحايا الزلزال.

إعلان التخرج المبكر. تخرجت في جامعة بكين وندبت للعمل في المخابرات الصينية، انتدبت كمترجمة إلى حكومة شنغهاي.

عودة الابن الخامس من المزرعة، انتساب الابن الأول إلى

الدراسات العليا في شنغهاي، وإصابة العمة الكبرى بنوبة قلبية بسيطة. تزوجت هسياو تشاو. وولدت ابنتي تشي - مينغ. بدأت الدراسات العليا في كلية الشؤون الخارجية في بكين. وحصلت على شهادة الدراسات العليا في كلية الشؤون الخارجية. قُبلت في جامعة يورك في تورنتو، المغادرة إلى كندا. عودتي إلى شنغهاي للبحث عن تشي - مينغ.

الصين

اليابان تغزو الصين، وقتل شنغهاي، استسلام اليابان. اندلاع الحرب الأهلية بين الكمنتانغ والشيوعيين عام ١٩٤٩ وإقامة جمهورية الصين الشعبية. الحرب الكورية، الحكومة تصدر سندات النصر الشعبي. أثناء حملة الأعداء الخمسة، الخطة الخمسية الأولى، وإصدار سندات البناء الاقتصادي، وحركة التأميم. حركة المائة وردة، الحملة ضد اليمينيين، القفزة الكبرى إلى الأمام عام ١٩٥٩. المجاعة في الصين عام ١٩٦٢.

بداية الثورة الثقافية البروليتارية (١٩٧٦). ثوار «عاصفة يناير» في شنغهاي يستولي المتمردون على السلطة في قاعة المدينة، وانتشار القتال الفئوي في البلاد، اشتراك الجيش في الثورة الثقافية. اشتباك عسكري مع الروس، المؤتمر التاسع للحزب يقنن الثورة الثقافية، لين بياو يخلف «ماوتسي تونغ»... القوات الجوية

لجيش التحرير الشعبي الموالي للين بياو تستولي على مزرعة السجن. الصين تصعد من استعدادات الحرب ضد روسيا، اختيار محظيات من المزرعة لابن لين بياو؛ إقامة المنشآت في المزرعة لتحويلها إلى إحدى قواعد انسحاب لين بياو. مات لين بياو وزوجته وابنه في حادث طائرة أثناء هروبهم من الصين، الحركة المعادية للين بياو في المزرعة، مغادرة ممثلي الجيش للمزرعة. نيكسون يزور الصين، وانسحاب الجيش من كل المهمات المدنية في البلاد، وعودة دين هسياو بينغ إلى السلطة، إعلان «الاقتراحات للانتساب إلى الجامعة»، إجراء امتحانات انتساب الطلاب (الجنود والعمال والفلاحين).

حركة انتقاد لين بياو وكونفوشيوس. موت تشو إين لاي، المظاهرات في ساحة تيان آن مين، عزل دينغ هسياو بينغ، زلزال تانغ شان، موت ماوتسي تونغ، القبض على عصابة الأربعة. أعيدت امتحانات دخول الجامعة على مستوى الأمة. عودة دينغ هسياو بينغ إلى السلطة، سياسة الصين الاقتصادية الجديدة والباب المفتوح على العالم الخارجي. إعادة دينغ هسياو بينغ لبرنامج حقول التحديث الأربعة، وتبني سياسة «طفل واحد للعائلة الواحدة»... مظاهرات الطلاب الواسعة في شنغهاي.

مقدمة المؤلف

في غرفة والدي ووالدتي الساكنة، أقف وحيدة أرتدي ثياب الحداد البيضاء وأحدق في السرير الذي جرد من كل شيء عدا حصيره المنسوج من الخيرزان. رائحة البخور تفوح في الهواء الرطب، وخارج النافذة المفتوحة يهس مطر الربيع على قرميد السطح الأحمر.

لقد توفي والدي: السرير الفارغ الذي كان يستلقي فوقه مشلولا دليل على ذلك. وعلى مزينته تلمع نظارته في الضوء الخافت، وفرشاة الكتابة والخط ملقاة لا يلمسها أحد. ولكن أين والدتي؟ يخطر ببالي أنني لم أرها منذ مدة، ماذا؟ بضعة أيام؟ أشهر؟ وحتى سنوات؟ أخبرني أخي الأول أن والدتي هربت من شنغهاي بسببي وهي تعيش في جزيرة مجهولة الاسم ولا تريد أن يجدها أحد.

«لا يا أمي، أرجوك! لا تعاقبيني بالمزيد، كنت مجرد طفلة في التاسعة وكان خبثي مجرد أمنية لم تدم أكثر من جزء من الثانية، عودي إلى المنزل!».

أستيقظ في الظلام على صوت كلماتي. غرفتي هادئة بشكل غريب، وقد تلاشى صوت حركة سير شنغهاي الليلي مع الحلم، وبدلا من ذلك، يذكرني صوت أنين الريح

الرقيق في القيقب الباسق برحلتي الطويلة إلى هذه المدينة الصغيرة في جنوب أونتاريو.

وكما يحدث في كل مرة أرى فيها الحلم، يتردد صدى كلماتي في رأسي وينتابني بعدها شعور مسمِّر طاغ بالذنب. لقد مضت سنوات طويلة على هروبي في عام ١٩٨٩، منذ بدأت حياتي الجديدة في كندا، ولكن الكابوس المتكرر يلاحقني عبر المحيط الهادي. رحل والدي ووالدتي قبل أكثر من عقدين من السنين، ومع أنني قبلت وفاة والدي فإن ذكرى وفاة والدتي لا تزال تطاردني.

تنغ - هسنغ يي

الجزء الأول

رياح الدموع

١٩٥٢ - ١٩٦٦

ولدت في شنغهاي بعد ظهر أحد أيام يونيو الحارة ١٩٥٢ - وكنت الطفل الرابع للعائلة، ولذلك سمتني آه سي.

قرر والدي أن يتوقف عن الإنجاب ولكنه بدلا من اللجوء إلى تحديد النسل، الذي لم يحظ بالتشجيع في ذلك الوقت، فقد وثق بقوة وسحر الألفاظ. لم يكن الاسم الرسمي للطفل مسألة تافهة: فلقد تطلب الموازنة بين التقاليد والعادات.

يعني لقبي (يه) «ورقة»، واسمي الأوسط (هسينج = كُفْؤَة) قرره جدي الأكبر لوالدي بعد رمي عيدان الفأل الخيزرانية في قاعة الأجداد، ولذلك سمي كل أطفال والدي بـ «هسينج». سمى والدي إخوتي الثلاثة الكبار باسم المزايا التي أعجب بها، إذ كان أخواي يدعيان «المستقيم» و«المثابر» وأختي تدعى «الدؤوبة». واختار لي اسم «تينج» وهو لفظ مجاني يعني «الرشاقة» إن كتب، و«توقف»، إن قرئ.

ولكن السحر لم ينفع، فبعد سنة ونصف ولدت أختي «مابل»، وهي الخامسة والأخيرة.

لم تكن العمة الكبرى تتعب من إخبار أي شخص مستعد للاستماع بأن مجيئي إلى هذا العالم مشؤوم - وهذه إشارة أكيدة إلى استنكار التنين - الملك، فهو إله المطر. كذلك أن التنين - الملك يسكن في بيت من الكريستال في قاع البحر الشرقي، محاطا بجنرالات من السرطانات، وجيش من الجمبري، وكلهم من الذكور. وغالبا ما كان يغويني أن أسألها من يقوم بالأعمال المنزلية البغيضة إذا لم تكن هناك نساء كجدتي ووالدتي والعمة الكبرى. لكنني تعلمت في سن مبكرة أن هناك موضوعين على المرء ألا يتساءل عنهما: الآلهة والحكومة.

ونظرا إلى ميلادي المشؤوم، فقد نصحت العمة الكبرى بتخصيص مكان مقدس، إله السموات، من أجل حمايتي، وقد وضع تمثاله في وسط الطاولة ومعه سلطانية أرز وثلاثة صحون وشمعتان حمراوان ورزمة من عيدان البخور. هذا الطقس يجب أداؤه مرة في السنة في عيد ميلادي، الأمر الذي وافقت عليه والدتي بكل سرور، هذا الطقس وإن كان على عدم فعاليته تماما، مثلما أثبت اختيار والدي لاسمي عدم جدواه.

بعد أسبوع من ولادتي أخرجتني والدتي من مستشفى البيت الأحمر الذي سمي بذلك لأن الصبغ الأحمر غطى جدرانه الآجرية وإطارات نوافذه وأبوابه الخشبية، وحتى شقة عائلتي ذات الغرف الثلاث في وسط المدينة. امتد شارع وودينج المظلل بأشجار الدلب شرقا وغربا، واتصلت به أزقة كثيرة - بعضها بعرض عربتين متجاورتين وبعضها بعرض الكتف فقط - فشكلت حيا هادئا كثيف السكان.

كنا نسكن في زقاق «زي يانج لي» ويعني أشعة الشمس الأرجوانية: إذا استطعت أن تتخيل مدينة عرضها عشرة أميال وطولها عشرة أميال وسكانها حوالى ٦ ملايين نسمة، فلربما تكونت لديك فكرة عن كثافة السكان في وسط زقاق أشعة الشمس الأرجوانية.

كانت بنايتنا الآجرية ذات الطابقين بيتا تقليديا من طراز شنغهاي تزينه الأقواس الحجرية.

سكن في الشقق الأربعة ما مجموعه ثماني عائلات - اثنتان في كل طابق. واستخدمت حنفيتا ماء في الممر الضيق في الخلف

لكل العائلات، وقد نظمت استخدامهما بدقة، وأشرفت عليهما، جارتنا، الجدة نينج بو.

ومن شرفة السطح كان بإمكاني أن أرى مصنع والدي، زينج تاي، للأحذية المطاطية.

وحيث يتقاطع زقاق أشعة الشمس الأرجوانية مع شارع وودينج هناك سوق الأغذية (كاي تشانج).

إنه مركز حيّنا، يفتح في السادسة صباحا وإن كانت طوابير الراغبين (الصفوف) في شراء الأغذية المطلوبة - مثل عظام الخنازير ودهنها الأرخص ثمنا والتي تتطلب كوبونات تقنين أقل - تبدأ في التشكل قبل ذلك بساعات. بعض السكان المغامرين يستيقظون باكرا ويحتلون أماكن قرب مقدمة الصف لشراء هذه السلع ومن ثم بيعها مقابل بضعة سنتات. بعد الظهر بقليل، تفرغ الأكشاك فيستخدمها السكان لوضع الألحفة عليها أو لتهوية فرشهم.

ولعدة سنوات انحصر عالمي في صحن البناية، والزقاق، والسوق المزدحم.

كانت شنغهاي في الخمسينات هي «باريس الشرق» بسكانها الأجانب الذين يبلغون ٦٠,٠٠٠ نسمة ويعيشون في «مناطق امتيازات» شبه مستقلة، تسيطر على كامل وسط المدينة، وكانت شنغهاي أكبر مركز صناعي في آسيا. ولكن عندما استولى الشيوعيون على السلطة، قبل ٣ سنوات من مولدي،غادرها الأجانب تاركين عمل الأطفال والعبيد والبغاء المنتشر وتجارة الأفيون، والكثير من الأعمال التجارية التي ازدهرت وعززت ثراء المدينة.

«كنجيانج» مدينة صغيرة عاش فيها أجداد والدي، وهي على بعد سفر ساعة بالحافلة من ووهسي، وهي مدينة على بعد سفر ساعتين بالقطار إلى الشمال الغربي من شنغهاي. كانت المنطقة تعرف بأرض التربة الزراعية والأسماك نظرا إلى أراضيها المنبسطة الغنية التي تجتازها الأقنية، وتتوزع فيها البحيرات الصغيرة والكبيرة. كانت الأرض خصبة إلى درجة أن أهلها كانوا يدعون أن بزرة تبصقها من فمك سرعان ما تنمو لتصبح بطيخة. وأحاطت بكنجيانج قرى عديدة اتخذت كل منها اسم القبيلة المسيطرة.

بدأ صانعو الزيجات في قرية عائلة تشن - التي كانت تعيش فيها العمة الكبيرة وعائلتها - يترددون على بيتها عندما بلغت السابعة عشرة. كانت تتمتع بـ «حسن المظهر»، والأفضل من ذلك أن قدميها كانتا كسوسنة لا يزيد طولها على ٣ بوصات، وهو ما يعتبر أهم إشارة إلى الجاذبية الأنثوية. وخلال سنة أصبحت خطيبة لابن عائلة فلاحية من الشريحة العليا من الطبقة الوسطى في قرية مجاورة. (الفلاح من الطبقة الوسطى أو الشريحة العليا من الطبقة الوسطى هو الذي يزرع أرضه الخاصة ويستأجر العمال في المواسم).

قُبِلت هدايا الخطبة وجرى التخطيط لحفلة الزفاف بعد ذلك بعام واحد. وأجريت كل هذه الترتيبات كما هي العادة دون استشارة العروس نفسها.

يقول المثل القديم: إن تزويج فتاة كدلق سطل ماء. لم يكن هناك لعائلة العروس ما تجنيه أكثر من التخلص من عبء. وفي حالة فنج ميه، كان الوالدان يتوقان إلى التخلص منها نظرا

لأنها الأكبر عمرا بين ثلاث أخوات، والتقاليد تحتم ألا تتزوج الصغرى قبل الكبرى، وإلا فإن العائلة تفقد احترامها. كانت عائلة العريس هي المتلقية ولها الحق في الموافقة على العروس، ولم يكن ضروريا أن تعرف العروس الكثير او القليل حول زوج المستقبل، ولا حتى شكله.

كانت ترتيبات الزواج الخاصة بفنج ميه مقامرة، ذلك أن العريس كان في المرحلة الثالثة من مرض السل، وكانت الخطّابة في عجلة من أمرها جيئة وذهابا بين العائلتين لكون العريس على فراش الموت. كانت عائلته والخطّابة تأملان أن توقف هذه الترتيبات مرضه القاتل - وهي خرافة تقوم على أن فأل الزواج القوي يبعد سوء حظ المرض - كما لو أن مزج حمرة الزواج مع بياض المأتم سيحل المشكلة.

ولكن الأمور لم تكن وردية أبدا. مات العريس، لكن موته لم يحرر الخطيبة. كان على فنج ميه أن تبقى نصف أرملة لمدة سنة كاملة بعد تاريخ الزواج، وألا تتزوج ثانية إلا بعد مضي ١٨ شهرا. استعيدت هدايا الخطبة، ولم يبق بعد ذلك سوى الإيمان بأن حياة فنج ميه لم تكن جيدة بما فيه الكفاية لتنقذ حياة خطيبها.

كان ترتيب فنج ميه، في الأصل، العاشر على سلم خطّابة، غير أن هذا الترتيب هبط إلى الدرجة الخامسة عندما أتت إلى والدتها خطّابة أخرى. أصبحت فنغ ميه فتاة في الثانية والعشرين من العمر. هذه المرة لم تكن هناك هدايا خطبة ولا حتى خطبة. أخذتها والدتها والخطابة إلى منزلها الجديد، مصحوبة برجل استؤجر لحمل حاجياتها القليلة على عمود يسند على الكتف.

لم يكن زوج فنج ميه الجديد شابا وسيما، بل أرملا يكبرها بعشرين عاما، والأسوأ من ذلك أنه كان يشكو من ربو حاد ألزمه الفراش. فلا عجب إن لم تكن هناك وليمة زفاف أو جمع من الأقارب للاحتفال. كان الأمر كله صفقة تجارية: اكتسبت عائلة العريس عاملة جديدة مجانية للعناية بالمريض المقعد، في حين أنقذت عائلة العروس سمعتها بالخلاص من ابنة العائلة الكبرى.

بعد شهرين أصبحت العروس الجديدة أرملة حقيقية، كما أن موت زوجها كان أيضا بشكل ما موتها هي، ولم يعد أقرباء زوجها مهتمين بقبولها عاملة مجانية مدى الحياة، كما كانت تسمح بذلك التقاليد القديمة. وبدلا من ذلك أطلقوا عليها اسم «امرأة يجب ألا تقترب من أي رجل»، امرأة سيئة الحظ إلى درجة أنها تسببت في موت زوجها. أعيدت ثانية إلى عائلتها وأسماها القرويون «حساء الفاصولياء».

في أحد الأيام سافرت والدة فنج ميه من قرية أهلها إلى كنجيانج لزيارة جدتي الكبرى. طلبت المرأة الذاهلة - والدموع تملأ عينيها - من جدتي الكبرى أن تقبل ابنتها الكبرى كخادمة مقيمة مجانية، فمن جهة أولى ستساعد فنج ميه في الأعمال المنزلية، ومن جهة أخرى أسرت المرأة أن ابنتها ستجلب العار لعائلتها إن هي عاشت في المنزل. كانت فنج ميه آنئذ في الثالثة والعشرين وعرفت فنج ميه باسم الأخت الكبرى (جي جي)، وهو الاسم الذي قدمت به إلى والدي وأخوته.

وعلى عكس أخويه غير الشقيقين، اللذين كانا يديران أعمال العائلة في صنع المطاط في شنغهاي، فإن جدي «بي»

كان دائما يعتبر المدينة مكانا فاسدا وسيئا، ولكن كان عليه أن يواجه الحقيقة القائلة أن ابنه رونج - نج (توفيق) - الذي أصيب بشلل في إحدى ساقيه بعد إصابته بمرض السّحايا قبل أربع سنوات - لم يخلق لحياة الريف، حيث كان رصيد الفرد قوته الجسمانية. وكان للسمعة دورها أيضا. فكيف يستطيع الاستمرار في الاعتماد على أخويه غير الشقيقين وأولادهما لإدارة نصيبه من المنشأة، وولديه ابن في السادسة عشرة من العمر وهو سن كاف لاستلام المسؤولية عن أبيه. ازدهرت مصانع العائلة الثلاثة في شنغهاي وتوسعت خلال ثلاث سنوات، وخصوصا في صناعة الإطارات والألعاب. كما أن أكياس المياه الحارة من ماركة «إلى الأبد» تدلت على جدران آلاف كثيرة من منازل شنغهاي.

وهكذا - بعد بداية السنة الصينية الجديدة في عام ١٩٣٧، أرسل والدي، رونج تنج، إلى شنغهاي. وعندما وجد مسكنا هناك - غرفة مساحتها ١٣٠ قدما مربعا تكاد لا تكفي لسريرين منفردين - على بعد مسيرة ٥ دقائق فقط من المصنع - أرسل في طلب جي جي لتقوم بتدبير أعمال المنزل. قد يبدو غريبا أن شابا في السادسة عشرة يتقاسم غرفة مع خادمة العائلة التي تكبره بعشر سنوات ولكن مثل هذا الوضع في تلك الأيام لم يكن غريبا.

في شهر يوليو من تلك السنة بدأ اليابانيون حربهم العدوانية الشاملة ضد الصين وقد امتدت إلى شنغهاي في الشهر التالي. تعرضت المدينة للقذائف والقنابل والغزو في حين قاوم الصينيون من شارع إلى آخر، لكن الامتيازات الأجنبية بقيت سليمة تحميها

الأسلاك الشائكة والمتاريس، وقد شاءت الأقدار أن يؤدي الاحتلال الياباني إلى زواج والدي ووالدتي.

نشر اللاجئون الهاربون إلى المناطق القريبة من ووهسي وكنجيانج أمام الجيش الياباني رواياتهم عما حدث من فظائع. كان جنود الأعداء يسمون الصبايا العذارى «فتيات الأزهار»، وكان تعبير مضاجعة «فتيات الأزهار» تلطيفا لواقع الاغتصاب الوحشي الذي ترأس جدول أعمالهم. واعترى كل أم كابوس اغتصاب اليابانيين لابنتها، فالابنة التي تتعرض للاغتصاب يستحيل أن تتزوج، فضلا عما تتعرض له من وحشية وآلام. تخفت الفتيات بارتداء الملابس الفضفاضة ولطخن وجوههن برماد القش لتبدو الواحدة منهن بشعة وفظة، أو قصرن شعورهن لتتظاهرن بأنهن ذكور ظن بعض الأمهات أن إيجاد أزواج لبناتهن سيقلل الخطر، هذه الفكرة قادت جدتي لأمي (واي بو) في صباح أحد أيام أكتوبر إلى بقالية جدي في كنجيانج.

كانت واي بو امرأة ريفية من الطبقة المتوسطة تمتعت بالعزم والإرادة، إذ رفضت تقييد أقدام بناتها، واشتهرت حتى ذلك الوقت في قرية عائلة لي بإبعاد الخطّابات بعد أن قررت رفض تزويج كبرى بناتها الثلاثة كسين فنج (العنقاء الجميلة) حتى تبلغ الثامنة عشرة من العمر، لكن انتشار القصص الفظيعة التي سبقت وصول اليابانيين جعل واي بو تقرر أن تتصرف بسرعة.

سألت واي بو جدي قائلة «يا سيدي! هل تريد زوجة لابنك؟ نعم أم لا؟» أجاب جدي «على رسلك يا أختاه! عمَّ تتحدثين؟ فابني في السابعة عشرة فقط، ولم أفكر بعد بزوجة له».

عندئذ انفجرت واي بو بالبكاء «إنني لست هنا من أجل بيع قطعة من الأثاث القديم بل لأجد زوجا لابنتي، فهسيو فنج في السابعة عشرة وتتمتع بصحة جيدة وعلى قدر من الجمال، ولن أسمح بتدميرها على يد الأشرار الشرقيين». وهنا انهار جدي في مواجهة هذه المرأة الباكية، وهو الذي ادعى مرارا بأنه سيبقى هادئا حتى لو كان الإمبراطور نفسه بالباب، وقال للمرأة المضطربة: «أمهليني أسبوعا للتفكير بذلك».

في الحقيقة، كان الأمر ينطوي على أكثر مما تراه العين. صحيح أن واي بو كانت تواقة لحماية ابنتها غير أنها كانت تعرف في الوقت نفسه أن في يدها بضعة أوراق. فوالدي صيد ثمين بالنسبة لفتاة قروية: إنه الابن الأكبر لرجل أعمال وفلاح غني، وأمامه فرص ممتازة لوراثة مخزن وأرض ومصنع رغم استمرار الحرب. كما أنه يعيش في شنغهاي، ولم يكن هناك كثيرون يشاطرون جدي تحيزه ضد المدينة. إلا أنه كان أعرج، وكانت واي بو تعلم ذلك، وتعلم أن والدي سترفضه بعض الأمهات لبناتهن بسبب الخرافات المحيطة بأي مرض أو عجز.

أرسل جدي برقية عاجلة إلى شنغهاي، وبعد خمسة أيام من زيارة واي بو، تزوج والدي ووالدتي - وكلاهما في سن السابعة عشرة - في كنجيانج، وانتقلت والدتي إلى منزل جدي. وبعد الزفاف بيومين عاد والدي إلى شنغهاي من دون عروسه لأنه كان مشغولا جدا في تعلم وإدارة أعماله بحيث لم يستطع تكريس الوقت لعروسه الجديدة، حسب ما قاله جدي. إضافة إلى أن شنغهاي أصبحت الآن تحت ظل الاحتلال الياباني الكامل وليست

مكانا آمنا. كان والدي يزور زوجته وعائلته مرة في السنة أثناء احتفالات رأس السنة.

في ربيع ١٩٤٤، بعد ست سنوات من زواجها من رجل لم تره قبل دخول بيت حماها، استقلت والدتي القطار إلى شنغهاي. ولم تكن هذه السنوات قد أسفرت عن ولادة أي طفل، الأمر الذي أقلق العائلة. كان اللوم في الماضي، وفي الحاضر أيضا يوجه إلى الزوجة لعدم إنجاب الأطفال. وعلى رغم أن الطبيب ذكر أن معركة والدي ضد التهاب السحايا في طفولته قد تكون السبب فإن أحدا في العائلة لم يرد أن يفكر بتلك الطريقة. ورغم أن شنغهاي ما زالت تحت السيطرة اليابانية، فإن جدي قد أعلن أن على الزوجين أن يكونا معا، فلربما يساعد ذلك على الإنجاب.

مضى زمن ولم يحدث أي شيء. أشاعت العمة الكبرى - التي لم يسرها حلول زوجة والدي محلها - في الزقاق أن والدتي عاقر، حتى أنها حاولت فيما بعد تزويج والدي بامرأة أخرى. اكتشفت والدتي خطة العمة الكبرى وخافت أن يتخلى والدي عنها. ولكن بدلا من ذلك، قال لها والدي إنه إذا كان هناك مشكلة لعدم انجابهما للاطفال فاللوم يقع عليه، وقد قبل تعليل عدم إنجابهما وريثا بما أصابه من مرض في طفولته، وأكد لها أنه لن تكون له أي علاقة بأي امرأة أخرى، أما إذا أرادت أن تتراجع فهو يقف في طريقها.

أسر إخلاص والدي قلب والدتي، ورغم شعورها بالمرارة لخيانة جي جي، فقد أدركت أن التخلي عن مثل هذا الرجل سيكون أكبر خطأ في العالم.

بعد عام واحد - أي في ١٩٤٦ - استسلم اليابانيون وانسحبوا، وبدأت الحياة في شنغهاي تعود إلى وضعها المعتاد. ازدهرت الأعمال التجارية وولد أخي الأكبر تشينج هسنج.

كانت سنواتي قبل المدرسة مملة جدا وموحشة، ولكنني أتذكر جيدا أحد أيام أواخر ١٩٥٦ عندما كنت في الرابعة من عمري. عاد والدي من المصنع إلى المنزل وقد علقت على جيب سترته الغربية الطراز زهرة كبيرة من الحرير الأحمر، وحتى في ذلك العمر كنت أعلم أن وضع زهرة حمراء - طبيعية أو غير ذلك - يعني الجوائز والتكريم، فقد كانت الملصقات التي تحمل صور الجنود والفلاحين المبتسمين الذين يضعون الورود الحمراء تملأ المكان.

كان والدي لا يفقه من أمور السياسة شيئا. قبل استيلاء الشيوعيين على السلطة، نصحه أبناء عمومته بالمحافظة على علاقات طيبة مع مسؤولي الحزب الوطني عندما يأتون لتفقد مصنعه، كأن يدعوهم إلى الغداء أو يقدم الهدايا لهم، وهذا هو التعبير الصيني الشائع للرشاوى. هؤلاء الأقارب هربوا إلى تايوان عند التحرير، لكن والدي لم يكن سعيدا على الإطلاق بجائزته. صعد إلى الطابق العلوي وهو يعرج، ومر بجانبي ثم رمى الوردة على مائدة الطعام، وأغلق الباب خلفه.

حدقت إلى الوردة الحمراء بكل رغبة، ومن الغرفة الأخرى سمعت والدي ووالدتي يتحدثان. عندها فقط أدركت أن والدي عاد إلى المنزل مبكرا. كان كل أخوتي الكبار لا يزالون في المدرسة وكانت الابنة الخامسة غافية. رأتني والدتي أحدق إلى الوردة فقالت إن بإمكاني أخذها إذا ما حافظت على الهدوء، وساعدتني في وضعها على

سترتي، فاندفعت إلى المنور فرحة أتباهى بجائزتي الملونة. لم أعلم أن والدي قد منح هذه الوردة لتنازله إلى الدولة عن مصنعه ... تلك المؤسسة التي أنشأها جده الأعظم والتي أدارها لحوالى ٢٠ عاما.

في عام ١٩٥١ - قبل ولادتي بسنة واحدة - شنت الحكومة حملة ضد الأعداء الثلاثة - الهدر والفساد وسوء الاستخدام البيروقراطي للسلطة في الحكومة. وبعد ذلك بوقت قصير - في ربيع عام ١٩٥٢ - بدأت حملة أخرى ضد الأعداء الخمسة وهي بالتعبير الشائع «المخلوقات السامة الخمسة». كانت هذه الحركة موجهة مباشرة نحو التجار ومالكي المصانع كوالدي. وتلخصت الشرور الخمسة في: الرشوة، التهرب من الضرائب، سرقة الممتلكات الحكومية، الغش في العقود الحكومية وسرقة «المعلومات الاقتصادية»، التي أدت إلى «تسمين المؤسسات الخاصة بامتصاص دماء الدولة وإفساد الأبطال الثوريين الذين لم تصرعهم رصاصات العدو الفولاذية بل الرصاصات المغلفة بالسكر».

وبحلول عام ١٩٥٦، ومع انتهاء الحرب الكورية وتعافي الاقتصاد، أصبح الوقت مناسبا. أعلن ماوتسي تونغ أن الحكومة مستعدة لتنظيف «داخل البيت». وحكومة ١٩٥٦ التي استولت على مصنع والدي مقابل مديح فارغ، ووردة حريرية حمراء، سميت «حكومة الإدارة العامة والخاصة المشتركة». وباسم «سياسة الإنقاذ» صادرت الدولة الممتلكات مقابل ثمن حددته لجنة ثلاثية شكلت من موظف حكومي، وعامل مصنع (عادة عضو حزبي) والمالك. كان التسعير منخفضا دائما بحيث يهيمن الآخران. وعند إقرار الثمن، يقبض المالك ٣٥٪ فقط من المبلغ يدفع على أقساط خلال

٧ سنوات. كانت الدفعات عادة خليطا من النقود والسندات الحكومية. وعلى رغم ذلك ففي عام ١٩٥٧، بعد سنة من تباطؤ الحركة، نشر ماوتسي تونغ مقالا بعنوان «عالجوا التناقضات بين الناس بطريقة صحيحة» انتقد فيه الطريقة كنوع من الاستغلال الذي يمارسه الرأسماليون.

أُبقي والدي في مصنعه «كممثل خاص»، وهو منصب اسمي، وإن لم يستطع الحفاظ عليه لفترة طويلة، فبعد شهور قليلة بدأت حركة سياسية أخرى تحمل شعار: «لتتفتح مائة زهرة - لتتصارع مائة مدرسة فكرية»، وهي حيلة جديدة من ماوتسي تونغ لتشجيع النقد كي يتسنى له أن يسجن الذين يجاهرون بالرأي. أُرسِل الناس الأبرياء إلى السجن أو إلى معسكرات العمل بعدما صنفوا على أنهم «يمينيون» و«عناصر فاسدة». كما أُعدم الكثيرون.

ألغي منصب والدي الإداري لأنه أصر على المطالبة «بماله الاستغلالي». لقد دعي «رأسماليا متصلبا» لا يمكن تغييره إلا بالعمل اليدوي. وهكذا عندما بلغت الخامسة، هبط والدي من مرتبة رجل أعمال محترم ناجح إلى مرتبة عامل مجهول المستقبل.

أصبحت أرى والدي أكثر من ذي قبل، وكان في معظم الأوقات يذهب ويعود مع العمة الكبرى التي بدأت العمل في المصنع قبل قدوم والدتي إلى شنغهاي. لم تعد ملابسه كالسابق، فقد اعتاد أن يرتدي الملابس الغربية، وكنت في كل صباح أراقبه وهو يربط ربطة عنقه وأندهش من كل الالتواءات واللفات اللازمة، لكنه خيب أملي الآن بارتداء سترة زرقاء أو سوداء مزررة حتى العنق. لقد بدا شاحبا وعجوزا ومضطربا.

ما لم أعرفه هو أنه لا يوجد عاقل يرتدي سترة وربطة عنق وهو يدفع عربة ثقيلة محملة بالأجزاء العليا من الأحذية المطاطية، وهذا من أحقر الأعمال التي يمكن القيام بها في مصنع يعمل فيه أكثر من مائتي عامل. لقد عوقب وأهين لأنه قبض الأموال المستحقة له. لقد كان «صقيعا على ثلج» أن تطلب من شخص، اعتاد أن يمشي حاملا عصا من الخيزران ، أن يدفع عربة زنتها أكير من ١٠٠ رطل بين مختلف ورشات المصنع. إنه الجرح العميق لكرامته الذي سيدفع والدي إلى اتخاذ قرار انقلب إلى مأساة.

ومن دون إدراك ما انطوت عليه أوضاع أسرتي المالية الجديدة، كان كل ما أردته هو الذهاب إلى الحضانة لأتعلم الغناء والرقص وأشياء أخرى. ونظرا إلى نشاطي وحبي للاستطلاع فقد أردت أن يكون لي أصدقاء ومعلمون. كان عمري كافيا لأذهب إلى الحضانة الأولى، ولكن أهلي لم يسجلوني. كنت أشتاق إلى أختي (الابنة الثالثة) عند غيابها عن البيت ولكن حسدي لها كان يتزايد، وعندما وصفت لي النشاطات المثيرة في حضانتها، غالبا ما كان الحزن يعلو وجهي وأنا أنظر إلى والدتي لأرى ما إذا لاحظت مدى ألمي. لم يلحظ أحد من الكبار ذلك فقد كانوا منهمكين في محاولة التكيف مع الحركات السياسية المتلاحقة.

كان الحدث الرئيسي بين هذه الأحداث «الوثبة الكبرى إلى الأمام» في عام ١٩٥٨، حيث تمثل لي سلوك الجماهير اللاعقلاني بالحرب ضد العصافير. عندما قالت لنا الحكومة أن العصافير تلتهم حبوبنا الثمينة التي قننت بدقة، حسب جنس وسن وطبيعة

عمل كل واحد منا، انضم الناس إلى الحملة دون تردد. وسرعان ما انتصب في كل مكان رجال من القش بالحجم الطبيعي - وبإحدى اليدين مروحة من ورق الموز وباليد الأخرى علم أبيض - في الحي، في الأشجار، وعلى سطوح الأبنية وإن ذكرت التعليمات أن العلم الأبيض وحده هو الذي يخيف العصافير. وفي الوقت نفسه يقوم الاشخاص الحقيقيون بقرع الطبول والأجراس القرصية وأواني الطبخ المصنوعة من الألمنيوم، وأي شيء آخر يمكن أن يحدث الكثير من الضوضاء. كنت أعتقد أن هذا الضجيج المستمر هو الذي يقتل الطيور، لكنني علمت أن الجلبة تبقي الطيور المسكينة في حالة الطيران حتى تموت من الإجهاد.

وفي سن السادسة من عمري أصبحت صائدة عصافير نشطة، أجري وأقفز وأتسلق الجدران وأصرخ وأقرع أغطية الأواني والملاعق معا، على رغم أنني كنت مشوشة قليلا لأن جدي «لي» قال إن العصافير مفيدة للمحاصيل لأنها تأكل الحشرات التي تهاجم الأرز.

ذكرت الملصقات الجديدة المثبتة على الجدران في كل مكان في الزقاق أن «الفولاذ مهم كما هو الطعام بالنسبة إلى الشعب». أعلن ماو أن الصين - إن تعاون جميع مواطنيها - ستتجاوز بريطانيا في إنتاج الفولاذ خلال ١٥ سنة.

أنشأت لجنة حينا فرنين في ملعب المدرسة الابتدائية التي يداوم فيها أخوتي الثلاثة. واستمرت صناعة الفولاذ على مدى أربع وعشرين ساعة في الأسبوع.

لم تبق والدتي في المنزل للعناية بي وبالابنة الخامسة: أمرتها لجنة الحي أولا أن تجمع الآجر لبناء الفرنين وبعدها ان تجد

الوقود، وأن تطوف الحي بعد ذلك بحثا عن المعادن لصنع الفولاذ. ذهبت مَن بيت إلى بيت تطلب طناجر «الدوك» والشمعدانات والمباخر وأدوات الطبخ. وإن لم تتمكن من توفير الحصة المطلوبة منها تقوم بتهشيم إحدى طناجرنا الجيدة بالآجر. لم تخبر أحدا بذلك خوفا من انتقادها لعجزها عن جمع الكمية المخصصة، وأيضا خوفا من اتهامها بالهدر، والأسوأ من ذلك، بالثراء الذي يسمح لها أن تهشم الأواني المنزلية الجيدة. لم يبق شيء لم يصهر، حتى مقارع بوابتنا الأمامية، التهمتها النار. في تلك الأيام لم يكن من السهل أن تعرف ما سيحدث في الغد. كان من الأسهل التنبؤ بالطقس.

كانت «الكافتيريا» المقامة في أحد المخازن فيها بدعة أخرى من بدع «الوثبة العظمى» حلت بحلول الدعاية القائلة إن ثلاث وجبات فيها هي الخطوة الأولى نحو الشيوعية. أعلن أحد الملصقات ما يلي: «لماذا يزعج الناس أنفسهم بالتبضع والغسيل والطبخ؟ دع الكافتيريا تلبي حاجاتكم!» لقد ارتبكت حياتنا العائلية بالكامل. خلال الأيام القليلة الأولى، وجدت الأمر مثيرا، واستمتعت بطعام «الكافتيريا» إلى حد بعيد. ونظرا إلى مسؤوليتي عن أختي الصغيرة (الابنة الخامسة)، لم يقتصر الأمر على عدم وجود أحد بقربي يحثني على الإسراع في تناول طعامي، بل أصبح بإمكاني أن أجول ببصري فيما حولي والتحدث إلى الآخرين والاستماع إلى محادثاتهم. ومع ذلك، وبعد مرور أسبوع، لم يعد الروتين يثير اهتمامي. لم يسمح لي بمغادرة الكافتيريا أثناء النهار ولم يسمح لي بالدخول إلى منطقة العمل فيها. كان هناك أطفال آخرون

ولكنهم أصغر مني. لقد أصبت بالإحباط وأصبحت أفكر باستمرار في المكان الذي أريد أن أكون فيه: المدرسة.

لم تدم طويلا الحرب ضد العصافير وصناعة الفولاذ وشيوعية الكافتيريا وبكلمات والدي «كلها بدأت كرأس نمر وانتهت كذيل أفعى»، فالليالي الساهرة والبحث عن الخردة من بيت إلى بيت والحوادث العديدة لم تنتج سوى سبائك من الحديد من النوعية الرديئة. ومن جديد، صدرت الأوامر للناس بطبخ وجباتهم في بيوتهم ولكن بعد أن فقدوا أواني الطبخ. وكانت الأجراس القرصية والطبول والفزاعات الكسيحة والأصوات المبحوحة ومخازن الأغذية المملوءة بالطيور المشوية، ورؤوسها الصغيرة لا تزال على أجسامها، كانت كلها تراث «حرب العصافير».

في مساء أحد أيام يوليو من عام ١٩٥٨ سمعت والدتي تقول لوالدي إنها تفكر في تسجيلي في الصف الأعلى من الحضانة لأنني أصبحت «متوحشة» خلال الحملات الأخيرة. قالت إنه بعد أسابيع من التسلق على الأسطحة وقرع الطبول والأجراس القرصية لم يعد بالإمكان أن أستقر ثانية، وألعب هناك بمفردي في المنور. علمت أن يوم التسجيل قادم لأنني سمعت والدتي تدرب أختي (الابنة الثالثة) على دخول المدرسة الابتدائية، ذلك أن نوعية الأجوبة عن الأسئلة المحددة تقرر أين سيقضي الطفل سنواته الست القادمة.

كانت شين هسنج (الابنة الثالثة) في الثامنة من العمر وقد عرفها جميع سكان زقاق أشعة الشمس الأرجوانية بجمالها وبعينيها اللامعتين الواسعتين، وحاجبيها الأسودين الطويلين،

وعلى رغم جاذبيتهما فإن عينيها كانتا ضعيفتين، فقبل سنة رضخت والدتي بتردد لإلحاح والدي لتحصل لها على نظارة، ومنذئذ عرفت أختي بأم الأربعة عيون. بدت أختي الكبرى رغم هدوئها وبطء حركتها وطيبتها، وكأنها لا يقلقها شيء. كانت العمة الكبرى تقول بفظاظة «يمكن لأختي أن تنام على سطح قبر إذا رغبت في ذلك».

أخذت والدتي إعداد أختي بكثير من الجدية، وطلبت مني الانتباه أثناء تدريبات الابنة الثالثة. كان هناك نقص كبير في المدارس ودور الحضانة، وهو وضع أدى إلى بروز نظامين، فصاحب الأداء الجيد يذهب إلى مدرسة ابتدائية أو حضانة «عامة»، وصاحب الأداء الرديء ينتهي به الأمر في مدرسة شعبية تديرها لجنة الحي ويعلم فيها معلمون غير مؤهلين. الوحيد الذي لم يكن مندهشا هو والدي، إذ كان يقول: إذا كانت الحكومة تطلب من أناس لم يروا الفرن في حياتهم أن يصنعوا الفولاذ على الأرض العادية بأيديهم فلماذا لا يترك الأشخاص أنفسهم يديرون المدارس؟

في ذلك الشهر تسجلت ليس في دار الحضانة العامة ولكن كطالبة في الصف الأول من مدرسة شعبية. قالت والدتي إنني أستطيع أن أتعلم في مدرسة ابتدائية أكثر من دار حضانة، وبهذه الطريقة سأكون على استعداد جيد لدخول المدرسة العامة في السنة التي أبلغ فيها سن الدراسة. كانت العمة الكبرى هي الحزينة الوحيدة لكل هذه الترتيبات، على رغم أنها كانت إجراء مؤقتا. وعلى رغم أنها لم تدخل المدرسة أبدا، ولا تستطيع فهم

نظام المدرستين فقد قالت إن فصلا يقع فوق مستودع الحبوب، وتعلمه زوجة صاحب المستودع ليس مدرسة، وكررت أنني فتاة سيئة الحظ ولدت في سنة التنين.

وهكذا أصبحت في سبتمبر تلميذة في السنة الأولى في مدرسة جيان بان يي ليان الابتدائية التي تديرها اللجنة المحلية. لم تنفذ والدتي خطتها. حلت الكارثة وهكذا بقيت في المدرسة الشعبية لست سنوات حتى تخرجت. أطلق زملاء والدي في المصنع عليه لقب البندقية القديمة لاستهلاكه الكبير للسجائر المسماة «البوابة الأمامية الكبرى». كان والدي رجلا يستمتع بأمسياته في المنزل، إذ يغادر مائدة العشاء ويغسل يديه ووجهه في حوض من الماء الدافئ الذي تعده له والدتي، ثم ينسحب إلى غرفة النوم ليقرأ في كرسيه الخيزراني القديم، وهو يرشف الشاي من فنجان تعيد والدتي ملئه عند الحاجة. كان يتجنب الروايات والأدب الخفيف، مفضلا كتب الأخلاق والفلسفة المكتوبة بالأسلوب القديم. كان خطاطا ماهرا يستمتع بكتابة الحكم والكتب المقدسة البوذية في دفتر من ورق الأرز بحروف لا يتجاوز حجم أي منها الذبابة المنزلية.

وككثير من الأهل في ذلك الزمن، كان والدي يعتقد أن التعليم شأن من شؤون الذكور بصفة رئيسية؛ وعلى رغم أنه كان يتأكد من أنني والإبنة الثالثة قد كتبنا واجباتنا فإنه كان يبذل جهودا مضنية مع أخوتي إذ يجعلهم يتدربون على الخط كل ليلة. في إحدى المرات غش أخي الأكبر (الابن الأول) باستشفاف الحروف من كتاب نماذج بدلا من كتابتها بنفسه. ويعد مدحه لعدة ليال

على التوالي لكتابته الممتازة، فضح غش الابن الأول عندما اكتشف الوالد إشارات تشي لأخي الأول في كتاب الخط. كان استنكار والدي صامتا وفعالا ما منع أخي من خداعه ثانية.

شعرت دائما بتجاهل والدي لي، وخشيت غضبه النادر بقدر ما تقت إلى اهتمامه. كان يحابي أخوتي ويتجاهلني. وكانت البنات الثلاث مسؤولية والدتي والعمة الكبرى، ذلك أن والدي قلما تحدث إلينا بصورة فردية، فعندما كان يوجهنا كان يخاطبنا بـ«يا بنات»، في حين يخاطب أخوتي بـ: «أنت يا دو وأنت يا ني». أما أنا فعندما يخاطبني على انفراد أعرف أنني قد اقترفت خطيئة ما، وعادة ما تكون الاقتتال مع أخي، وكان عندها يتحدث بصوت هادئ حازم لا يسمح بالمعارضة.

قالت إحدى الحكم الكونفوشية «إن المرأة الجاهلة فاضلة» وقد نشأت والدتي والعمة الكبرى وهما لا تعرفان من الكلمات إلا ما يكفي لتمييز فئة من الورق النقدي عن أخرى. كانت والدتي دائما تشعر بالإحباط لتراكم الإهانات الصغيرة كاضطرارها إلى سؤال والدي أو أحد إخوتي الكبار (لم تسألني مطلقا ولم تسأل الابنة الثالثة) ليساعدها بتفريق إحدى بطاقات التموين عن الأخرى. استغلت والدتي حركة الأمية التي بدأت في خريف ١٩٥٨ أثناء «القفزة الكبرى إلى الأمام».

علقت العمة الكبرى في إحدى الليالي عندما كنا في السرير بقولها: «كانت أمك مغرورة دائما بجمالها، والآن تريد أن تكون سيدة مدنية مثقفة».

من جهتي، أعجبت دائما بتصميم والدتي، مدفوعة دائما بمطالب المجتمع والمنزل - على رغم أنني لم أقدر توبيخها

العنيف ذي النبرة العالية عندما أكون في طريقها أو أجادل الثالثة. وفيما كنا نحن الأطفال نكد في كتابة واجباتنا التي لا تنتهي، كانت والدتي - بعد الانتهاء من أعمالها المنزلية - تنكب على كتابها تنشد الكلمات لتغرسها في ذاكرتها. كانت تلصق قطع ورق والدي على مسميات الكلمات التي كتبها حتى بدا منزلنا، وكأن عاصفة من الأوراق قد هبت عليه وخلفت قطعة من البياض على كل شيء تقريبا. وغالبا ما كان يضيق صدرها ببناتها الثلاث الصاخبات، لكنها كانت في تعلمها غاية في الجدية مما أثار الإعجاب.

وفي وقت متأخر من بعد ظهر أحد أيام إبريل ١٩٥٩، طرقت امرأة في أواسط العمر من كشك التلفون العمومي بقبضتها على بابنا الخلفي، وصاحت قائلة: «مكالمة هاتفية لعائلة يي! إنها من مستشفى تونج جي، إنهم يريدونكم هناك بأسرع ما يمكن!».

أمسكت والدتي ورقة الرسالة الهاتفية واندفعت إلى المطبخ وسألت العمة الكبرى ما يمكن أن يعني ذلك. نظرت العمة الكبرى إلى الأرض لثانية قبل أن تجيب قائلة: «عليك أن تسرعي يا ابنة العم. لا بد أن تكون الرسالة بشأن الأخ».

ردت أمي بغضب قائلة: «ما زلت تعتقدين أنه ليس لي حق في معرفة ما يجري في هذا المنزل! إنه زوجي!».

«اسمعي يا ابنة عمي، لا تغضبي مني، إنني أخمن فقط لأنني لم أر الأخ في المصنع اليوم».

أخذت والدتي حقيبة نقودها، وطارت من المنزل ودموعها على خديها، وتركتنا نحن الأطفال مرتبكين وخائفين.

تمتمت العمة الكبرى قائلة: «إن إبقاء والدكم الأمر سرا لنذير شؤم».

في صباح اليوم التالي عندما جهزتنا والدتي للمدرسة، وأعدت العمة الكبرى طعام الإفطار، كانت شقتنا في سكون عميق. جمع أخواي كتبهما بهدوء؛ أنهت الثالثة جزءا من واجبها؛ الابنة الخامسة التي كانت في مثل قلقي كانت تراقب بسكون وعينين واسعتين.

سألت الجميع قائلة: «أين والدي؟».

أجابت والدتي قائلة: «في المستشفى، لن يعود إلى المنزل قبل بضعة أسابيع».

تساءلت قائلة: «ماذا أصابه؟ لماذا لا يستطيع المجيء إلى المنزل؟».

جذبتني العمة الكبرى جانبا وأخبرتني أن والدي قد أجريت له عملية جراحية لمعالجة عرجه. جراحة؟ لماذا؟ كان والدي رجلا صحيح الجسم. صحيح أن ساقه اليمنى أنحف من اليسرى وأنه يعرج، ولكنه كان يذهب إلى العمل كل يوم كالآباء الآخرين. لقد أحببت دائما طريقته في المشي وعصاه الحمراء البراقة في يده، لكن ما لم أكن أعرفه أن العمل الذي يقصم الظهر، والذي كان مطلوبا منه أن يقوم به، والضغط لإنجاز المقادير المطلوبة قد زادا في ضرر ساقه. ودون أن يخبر أحدا - ولا حتى والدتي - ذهب والدي إلى المستشفى واكتشف أن عملية جراحية بسيطة يمكن أن تصحح عرجه. ولم تستطع والدتي ولا العمة الكبرى أن تخبرانا بالمزيد.

بعد ثلاثة أسابيع، عندما انعطفت إلى زقاقنا في الطريق إلى البيت من المدرسة، رأيت سيارة إسعاف متوقفة خارج مبنانا. لقد أحضروا والدي إلى البيت، اندفعت صاعدة الدرج إلى غرفة نومه

ودفعت الباب وتسللت إلى الداخل. ملأ الغرفة ضوء ناعم من النافذة المغلقة، وعلى السرير الماهاغوني استلقى والدي على صدره بمواجهة الجدار. عندما سمعني أدخل التفت وابتسم، وكان وجهه شاحبا متجعدا.

«هل تتألم يا والدي؟».

«كلا يا سي» ابتسم وأشار إلى ظهره لألقي نظرة عليه، وأشاح اللحاف ليكشف طبقات الأربطة.

لماذا الضمادات على ظهره؟

خلال الأسابيع التي قضاها في المستشفى مستلقيا على السرير لم يلمح أحد إلى ما كان يعرفه الأطباء جيدا: إن العملية قد فشلت وأن والدي قد أصيب بالشلل النصفي من الخصر وحتى أسفل القدمين وأنه لن يمشي ثانية. وكل ما عرفته والدتي هو ما رأته: ظهر والدي بكامله ملفوف بالأربطة وأثر جرح عريض من أسفل الرقبة وحتى الحوض.

ونظرا لأنني كنت في المدرسة لنصف النهار فقط، استطعت أن أساعد والدتي في العناية بوالدي، برعايته أثناء انهماكها بالطبخ أو الذهاب إلى السوق. كان والدي يراجع واجباتي المدرسية ويجعلني أعيد نسخها فيما إذا ارتكبت أي خطأ. وبالمقابل، كل ما كان علي أن أقوم به هو أن أناوله فنجان الشاي أو أعيد نفخ الوسائد تحت رأسه. هنا شيء واحد لم أستطع أن أقوم به بصورة صحيحة - وكنت أتمنى ألا أفعله على الإطلاق- ألا وهو مساعدته بقصرية الفراش. لأنه كان يحتاج إلى المساعدة من وقت إلى الآخر، وكنت دائما أفسد كل شيء. وكانت النتيجة «خرائط على

الشراشف» حسب تعبير والدي. ولكن مرحه لم يستطع إخفاء شعوره بالأسى.

في أحد الأيام سمعت والدتي تخاطب السيدة يان في المطبخ السفلي قالت: عندما تخلصت من آخر قمطات الطفل الخامس لم يخطر ببالي أني سأستخدم ثانية حامل التخفيف فوق موقد الفحم. ماذا فعل رونج تينج المسكين ليستحق ذلك.

كنت أتشوق إلى شهر يوليو عندما يبدأ التسجيل المدرسي لكي أتمكن من الذهاب إلى مدرسة «عادية»، لكن شهر يوليو وصل ولم يأخذني أحد لأقف في الطابور وأردد الأجوبة التي حفظتها عن ظهر قلب أمام مسؤولي المدرسة. ولم يذكر ذلك أحد. عندما بدأ العام الدراسي الجديد، رزم والدي كتبي المستقبلية بإتقان في ورقة سمراء وعدت إلى مدرسة شين بان فوق مستودع حبوب بوس تيان.

بين حين وآخر كنت أعود إلى المنزل بصفعة حمراء بفضل المعلمة تيان ومسطرتها الخشبية، لأنني لم أقدم الإجابات الصحيحة عن أسئلتها، أو لأنني تهامست مع زميلتي في المقعد أثناء الدرس، أو لأنني تحدثت مع زميلاتي بلهجة شنغهاي بدلا من اللغة المشتركة.

في الوقت نفسه كانت لدى والدتي مشاكلها الخاصة، في البداية كانت تقوم برحلاتها اللامعدودة إلى المستشفى على أمل حدوث معجزة - وبعدئذ عندما أخبروها مرات ومرات أن المعجزة لن تحدث - حاولت المطالبة بتعويض عن الأضرار التي لحقت بوالدي ذلك أنه لن يستطيع العمل ثانية. أخبرها أحد أصدقائها أن على المستشفى أن يوفر الخدمة الطبية والدعم المستمرين نظرا إلى الإعاقة التي سببوها، ولكنها قضت ساعات

طويلة في المستشفى ليستمعوا إليها بتعاطف دون جدوى، وأخيرا منعت من الدخول.

ومما زاد الأمور سوءا أن أجر والدي، الذي جرى تخفيضه من قبل، قد خفض مرة أخرى إلى النصف - كعقاب لرفضه التنازل عن الدفعات المترتبة إزاء مصادرة مصنعة. وهكذا انخفض وضعنا الاقتصادي بصورة مأساوية.

في الوقت نفسه، نفذت الحكومة نظام تقنين أشد صرامة. كان التفسير الرسمي هو حدوث سيول شديدة في المقاطعات الجنوبية وأسراب جراد وجفاف في الأجزاء الشمالية، والاتحاد السوفييتي - أخونا الأكبر وصديقنا العزيز - انقلب ضدنا وأجبرنا على تسديد ديوننا كلها دفعة واحدة، بكل طريقة ممكنة، من الأرز والحليب إلى الآلات الزراعية الجديدة ومعدات المصانع المستعملة. وأشيع أن الروس تفحصوا التفاح المرسل عبر الحدود واحدة بعد الأخرى للتأكد من اللون والشكل المطلوب. والفواكه المرفوضة لم تعد إلى الصين، حيث كان السكان يتضورون جوعا بل كانت ترمى وتترك أكداسا لتتعفن. والبيض الذي لم يف بشروط الحجم المطلوب جرى تكسيره وإهماله، في حين زاد ثمن البيضة في السوق السوداء في شنغهاي عن الأجر اليومي لعامل واحد. لم ندرك عندئذ أن نقص الأغذية كان نتيجة مباشرة لإهمال الفلاحين لمحاصيلهم بسبب الاندفاع الجنوني إلى صنع الفولاذ.

كانت الوجبات الغذائية في عائلتنا قليلة وغير مقبولة. وسرعان ما ظهرت على مائدتنا بقايا فول الصويا - وهو التفل المتبقي من صناعة حليب فول الصويا. قال والدي إننا الآن نزاحم

الحيوانات على طعامها، لأن هذه المادة الرهيبة كانت غذاء للخنازير. أخذت والدتي تخلطها مع القليل من الدقيق وتطبخها في القدر الصيني. لقد ساعدت هذه الوجبة على تخفيف جوعنا، لكنها سببت لنا إمساكا دائما.

ولا أزال حتى اليوم يتملكني شعور خاص بشأن اليوم الخامس والعشرين من كل شهر، حينما تصبح صلاحية بطاقات الحبوب للشهر القادم نافذة. في المنزل يكون وعاء الأرز ووعاء الدقيق فارغين وعندها تعدّ العمة الكبرى وعاء من الماء المغلي فوق المدفأة بانتظار عودة والدتي من مستودع الحبوب. إنها الليلة الوحيدة التي لم تقس فيها الدقيق وذهبنا إلى النوم والمعدة مملوءة بحساء الخضار.

ولما كانت الوالدة قد استنفدت فرص الترحاب بها في المستشفى، فقد أصبح الهم الوحيد لها وللوالد متابعة تعويض العطل والضرر عبر النظام القضائي، لكنهما سرعان ما أدركا استحالة الفوز في القضية بل واستحالة البدء بها لأن والدي سيعتبر رأسماليا عنيدا يحاول الإيقاع بالمستشفى الاشتراكي. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك عقبة أخرى، لقد كان صديق والدي الدكتور فنج - أحد أطباء الأمراض الباطنية في المستشفى - هو الشخص الذي نصح والدي بإجراء العملية واصطحب والدي لرؤية الطبيب الجراح. ونتيجة لذلك أعلم موظفو المستشفى والدتي أن الدكتور فنج قد تحمل مسؤولية العملية على رغم أنه لم يقم بإجرائها، ولذلك سيجبر والدي على مقاضاة صديقه.

كان الدكتور فنج منهارا ومثقلا بالذنب من تلك المأساة، بحيث أنه ترك المستشفى بعد ذلك بسنة واحدة وعاد لممارسة الطب في مدينته الأصلية هانجزو. كانت مغادرة شنغهاي تضحية عظيمة شعورا بالمهانة وبعد سنوات من دفن والدي، جاء لزيارة والدتي وعرض عليها تبني ولدين منا، لكن والدتي رفضت عرضه.

في سبتمبر ١٩٥٩ عندما نجحت إلى الصف الثاني، كانت البلاد بأكملها تستعد مسعورة للذكرى العاشرة لقيام الجمهورية الشعبية. تقرر أن يكون هناك احتفال هائل واستعراضات واجتماعات حاشدة. والأكثر أهمية لعائلتي هو زيادة بطاقات تقنين لحم الخنزير والبيض وخثارة الصويا.

وفي اليوم التالي للألعاب النارية في اليوم الوطني الرائع، فرضت علينا المعلمة تيان موضوع تعبير. في تلك الليلة عملت في البيت جاهدة لوصف عشائنا العائلي والألعاب النارية والجماهير الغفيرة في شارع نانينج. أخذت الموضوع بعد الانتهاء منه إلى والدي الذي احتفظ بدفتر سجل فيه الدرجات التي قدرها لأعمالنا: راسب، وسط، تحسن لم يكن هناك ذكر لكلمة «جيد». وللمرة الأولى شطب بعض ما كتبت واستبدله بجملة من عنده وبدلا من استخدامي كلمات كثيرة للتعبير عن حجم الحشود، كتب والدي «تدفقت الجماهير كموجة تتحرك في الماء».

لم أفهم استعارته تماما، ولكن عندما استرجعت دفتري بعد بضعة أيام، كانت هناك دائرة حمراء حول عبارة والدي. حصلت على خمس درجات تامة من أجل موضوع التعبير، ولم أنس أبدا ذلك التشبيه.

في إحدى ليالي نهاية نوفمبر، أخبرتني والدتي أن بوس تيان أصيبت بنوبة قلبية شديدة، وبالتالي فإن على صفنا أن ينتقل.

المعبد البوذي في مدخل زقاقنا وهو معبد ظل هناك لسنوات كثيرة دون أن يدخله أي إنسان تقريبا لأنه كان دائما مقفلا. قيل إن المعبد بناه ولدان في ذكرى والدتهما وهجر عندما هربت العائلة إلى تايوان في عام ١٩٤٩. وقد بقي على حاله خلال كل الحركات السياسية في الخمسينات، على الأرجح لأنه لم يبد مختلفا عن الأبنية المجاورة؛ وعلاوة على ذلك، كانت هناك مبولة عمومية قرب بابه الخلفي.

وفي اليوم التالي - في طريقي إلى المدرسة مع العمة الكبيرة - رأيت شاحنة كبيرة متوقفة خارج المعبد. جرتني العمة لتجاوز الباب المفتوح، متجاهلة توسلاتي لأنظر في الداخل. كانت العمة الكبيرة بوذية ولم توافق على استخدام المعبد على هذه الشاكلة، وتكديس الصغار الصاخبين فيه. وفي يوم مشمس بارد - بعد أسبوع - بدأت الدروس في مدرسة المعبد تحت إمرة معلمة جديدة اسمها لي، كانت ترتدي الملابس الحديثة وتجعد شعرها كوالدتي.

شعرت بالسعادة عندما وجدت أن زميلي الجديد في المقعد هو تورنب هيد (رأس اللفت) وهو مثلي من قدماء مدرسة مخزن الحبوب.

حصل رأس اللفت دائما على درجات جيدة في الرياضيات واللغة الصينية: كان يعتقد أن ذكاءه نبع من رأسه البصلي الشكل نوعا ما، وخصوصا جبهته العريضة التي دلت على كبر دماغه.

بعد ظهر أحد الأيام في الربيع التالي كنت ألعب مع صديقتي جيان - فنج في فناء قاذورات مدرسة المعبد بانتظار صديقة ثالثة (ينج - ينج) التي كانت تقوم بمهمة تنظيف غرفة الصف.

صرخت جيان فنج مشيرة إلى ما فوق الباب الأمامي حيث انفتح أحد أبواب خزانة عالية «انظروا، لم ألاحظ هذه الخزانة من قبل».

قلت لها «أتمنى لو أعرف ما في الداخل».

ركضت جيان - فنج إلى غرفة الصف وعادت بعصا المعلمة لي التي تستخدمها للإشارة والمصنوعة من مسطرة مكسورة. وقفت على أطراف أصابعها وتطاولت ولطمت الباب بالمسطرة، انفتح الباب محدثا صريرا مسموعا.

رأيت نصف وجه بشري في عتمة الخزانة.

صرخنا - أنا وجيان - فنج. كان الوجه أكبر من الطبيعي وحدق بنا بنظرة حانية.

جلبت صرخاتنا ينج - ينج مسرعة. وفي حين انكمشنا أنا وينج - ينج مرتعدتين من الوجه الرهيب وتراجعنا، استجمعت جيان - فنج شجاعتها وتلصصت عبر الباب الثاني المفتوح. وفوقنا استقر بوذا برأسه الضخم الحليق حتى الجلد، وأذنيه الكبيرتين لدرجة أن شحمتيهما استراحتا على كتفيه، ومعدته العارية بدينة ومستديرة. كان بوذا يبتسم بحيث تظهر غمازتاه وقد وجدته مفرحا الآن بعد أن تبدد خوفي.

ورغم أننا أقسمنا ألا نخبر أحدا، فقد أدركت أنني لن أستطيع الاحتفاظ بهذا الاكتشاف الرائع سرا. اندفعت بأخبار اكتشافي

فأخبرت والدتي حالما وصلت المنزل. ولا بد أن ينج - ينج قد فعلت الشيء نفسه لأن والدتها - السيدة بوس وانج أتت إلى شقتنا مباشرة.

أخبرتني ينج - ينج بأن هناك أكثر من تمثال، فهل هذا صحيح؟

أجبتها قائلة «ربما» بعد أن ساءتني سرقة صديقتي لرعدنا الصاخب. انتحت والدتي والسيدة بوس وانغ جانبا وهما تتهامسان بقلق. وبعد أن غادرت والدة ينج - ينج، طلبت مني والدتي ألا أقول أي شيء لأحد.

كنت على وشك أن أعترض قائلة «هذا ليس عدلا»، ولكن لم تخرج من فمي أي كلمة وأنا أرقب نظرة الهلع على وجه والدتي. وأخيرا أصبح لدي شيء خاص بي، بل وغريب أيضا يجعل إخوتي وأختي ينتبهون إلي، إذ لم يكن يسمح لي بالكشف عنه. كم كان ذلك محبطا «ولا حتى لوالدي؟».

«كلا، سأخبره أنا لاحقا».

خلال العشاء شعرت بأن عين والدتي ترمقني، ولكني أدركت أيضا أنني لن أتمكن أن أخلد إلى النوم إن لم أشرك أحدا بهذا السر.

في تلك الليلة، وبعد أن ذهبت إلى النوم مع العمة الكبرى (شاركتها سريرها في الغرفة الخلفية المخصصة لها)، همست لها بقصتي. أصغت إلي دون مقاطعة وبدأت تتمتم لنفسها. وبعد لحظة التفتت إلي قائلة «تمثال بوذا يجب ألا يكون أبدا في الظلام، بل في الضوء». وهذا هو سبب إضاءة المعابد بالشموع والمصابيح ليلا ونهارا، وعادة ما يحتفظ بالتمثال الرئيسي - بوذا الضاحك - معزولا في صندوق زجاجي كبير محاطا بشموعه الخاصة، إنها لخطيئة أن يحتفظ به في مكان بارد ... وسرعان ما استغرقت في النوم.

وفي صباح اليوم التالي كررت العمة الكبرى تحذير والدتي فقالت لي «التزمي الصمت، صدقيني لن يعتبرك أي شخص خرساء». تذرعت والدتي بحجة أن عليها أن تذهب إلى مخزن الحبوب فأخذتني إلى المدرسة بدلا من العمة الكبرى، انضممنا إلى جمهور الأطفال الذي ينتظر في الخارج، وضغطت والدتي على يدي كأنها تطلب مني الاحتفاظ بسري داخلي عندما وصلت المعلمة إلي.

وبعد أن دخلنا، بدأت جيان فنج بأخبار كل شخص حولها عن التمثال. غضبنا أنا وينج - ينج لامتياز صديقتنا عنا فانضممنا إليها، وعندما انتهينا ظن بقية الأطفال أن هناك جيشا كاملا من تماثيل بوذا بعيون زرقاء وأنوف قرمزية يقبع في الخزانة. كان بعض الأطفال فضوليين وهائجين وبعضهم خائفين ويريدون الذهاب إلى المنزل.

ولعجزها عن إيصال صوتها إلى الجميع، أخرجتنا المعلمة لي وأقفلت الباب وذهبت لتقديم تقرير الى لجنة الجوار.

ومع صباح اليوم التالي سرت الإشاعات في زقاقنا أن دراجتين ثلاثيتي العجلات ذات السطح المنبسط شوهدتا واقفتين خارج مدرسة المعبد في الليل، وعندما دخلنا إلى المدرسة كان أول ما فعلته المعلمة لي فتح الخزانة لنرى أنها فارغة لقد اختفى بوذا ذو الأذنين الكبيرتين والمعدة المستديرة والوجه المحبب.

تقلبت حالة والدي بين التحسن والتدهور في الأيام الجيدة، لكن بدا لي أن الأيام كانت مجرد مداعبات لأنها جلبت معها آمالا كاذبة. بدأت قدما والدي تتورمان كبالونين لامعين عديمي

الشكل. بالطبع لم يشعر بشيء، ولكن التورم كان يهدد حياته إن لم تتمَ السيطرة عليه. ذهبت والدتي إلى كل مكان تبحث عن علاج - دواء رسمي أو شعبي - وتجرب كل واحد منها. مرة تغطي قدمي والدي بالمساحيق وتلفهما بالأربطة، ومرة أخرى تغمرهما بماء الأعشاب الحار حتى يحمرا. كانت والدتي دائما تسخن الماء وتخلط الأعشاب وكانت تفوح من شقتنا رائحة مخازن الأدوية.

وفيما بعد، ومع زحف التورم فوق كاحلي والدي، جاء دور علاج الوخز بالإبر والكي.

برهنت المعالجة بالإبر عدم الفائدة أيضا. وبحلول ربيع ١٩٦١ وبعد أن استخدم الطبيب كل مخزونه من الأدوية، قال إنه لا فائدة من مجيئه بعد ذلك. وحتى نسمات الربيع الدافئة لم تُغر والدي بمغادرة فراشه. كان ضعيفا إلى درجة أن انتقاله من السرير وإليه - حتى بمساعدتنا - يرهقه. كانت والدتي يائسة ولكنها عاقدة العزم، فطلبت النصيحة من جارتنا الطيبة القلب - السيدة يان - فأعطتها اسم طبيب شعبي.

في اليوم التالي عندما عدت من المدرسة رأيت والدي جالسا على كرسيه شاحبا كالشبح. استراحت قدماه على كرسيين صغيرين يعلوان بضع بوصات عن الأرض. وبدت قدماه كعشي زنابير دامين لينين وملطخين بالدماء.

غطيت فمي بيدي من الرعب وقلت له «ماذا فعل بك ذلك الطبيب؟».

في تلك اللحظة اندفعت والدتي إلى الغرفة وبيدها سلطانية حارة من المعكرونة واخبرتني أن الطبيب عزا سبب التورم إلى الدم

الفاسد، فأخرجه بضرب قدمي والدي بمطرقة عاجية صغيرة مبطنة بمسامير صغيرة.

لم أفهم ذلك. هل يعني ذلك أن دمنا جميعنا فاسد، وأن علي يوما ما أن يستنزف دمي؟ كيف يستطيع الطبيب أن يعرف أي دم جيد وأي دم غير ذلك؟ وما لم أعرفه عندئذ هو أن عبارة «الدم الفاسد» ستسكن أخوتي وأخواتي وفي جسمي، عندما قال الحرس الأحمر لنا إن دمنا جميعا فاسد لأننا ولدنا في عائلة رأسمالية، ولن يستطيع أي منا فعل أي شيء بهذا الشأن.

بعد مرور ثلاث سنوات تقريبا دون أن يلمس والدي محبرته وفرشاياته، جلس صباح أحد أيام أواخر أكتوبر مستندا إلى مفروشاته ووسائده وفوق ساقيه طاولة صغيرة. التقطها والدي ثانية. وفي ضعفه تكلف جهدا هائلا ليرسم بالقلم والمسطرة أكثر من خمسمائة مربع على ورقة رسم قبل أن يستطيع الكتابة بالفرشاة. أراد أن يكتب الأقوال الثمانية والأربعين عن الإحسان والصلاح والطقوس والولاء والتسامح والفضيلة والتقوى والواجبات الأخوية للمعلم جو بولو - العالم الكونفوشي في عهد عائلة كنج. لم أفهم نوايا والدي لأنه أعطى كل واحد نسخة مكتوبة بخط اليد عندما بدأنا المدرسة.

مارس والدي الكتابة كل يوم استعدادا لإنتاج النسخة النهائية لأن خطأ واحدا يفسد جمال اللوحة.

في ١٢ ديسمبر ١٩٦١ أنهى والدي اللوحة. وعندما أراني إياها بدا مرتاحا أكثر مما بدا راضيا. لم تستطع والدتي شراء إطار لها

لذا غطاها بقطعة كبيرة من السيلوفان، وثبتها على الجدار. بعدها لم يلمس والدي فرشاته أبدا.

في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، بعد بداية السنة الجديدة، استيقظت وحدي في السرير. سمعت والدتي تبكي، وشعرت فجأة بالخوف. فمنذ عملية والدي غالبا ما رأيتها تبكي - في الشرفة، في المطبخ، في منطقة الغسل، ولكن ليس داخل الشقة. فطر حزنها قلبي ولمت والدي سرا لأحزانها.

جذبني بكاء والدتي إلى جانب سرير والدي. سمعتها تقول «ما هو الذنب الذي ارتكبته لأستحق هذا العقاب؟» كانت رائحة البول اللاذعة تفوح في غرفة النوم وكانت العمة الكبرى تحضن والدتي بين ذراعيها. وهي المرة الأولى التي رأيتهما متقاربتين إلى هذا الحد، كما أن عيني العمة الكبرى كانتا تدمعان. وقف أخوتي يحدقون بالأرض وراحت الابنة الثالثة تبكي بصمت.

حتى ذلك الوقت، حافظ والدي على السيطرة على أمعائه ومثانته. وكلما احتاج للمساعدة كان يدعو والدتي. في هذا الصباح حدث تغير كبير للأسوأ. وعندما انفجرت أنا أيضا باكية استيقظ والدي وقال وعيناه لا تزالان مغمضتين «أنا لم أمت بعد فتوقفوا عن البكاء»، لكن شعوره بالإهانة تضاعف ألف مرة بانفجار والدتي. مرت بخاطري فكرة كلمح البصر: لو مات والدي لانتهت كل هذه الأحزان. ستتحرر والدتي المحمرة العينين من البكاء، المجدورة اليدين من كثرة غسل الملاءات الملوثة في الماء البارد. ستغدو حياتنا طبيعية كالسابق. هذه الفكرة الفظيعة تلاها سيل عارم من الشعور بالذنب القوي تملكني بقية حياتي وحتى اليوم.

بعد ذلك الصباح، نادرا ما رأيت والدي يجلس في السرير وغالبا ما بدا وكأنه يغوص في نفسه، يأكل ويشرب النزر القليل. اختفى الحديث والضحك في شقتنا التعيسة، كما اختفى الجدل والخصام بيننا نحن الخمسة حول الفسحة المتاحة على الطاولة لإعداد واجباتنا.

في ذلك الشتاء رأيت والدتي تعمل كالعبيد، كان عليها أن تصحو مرات كثيرة أثناء الليل لتملأ كيس الماء الحار، فقد اضطر والدي إلى استخدامه لدرء البرد عنه، ذلك البرد الذي لم يشعر به سواه. وعندما كنا نستيقظ - نحن الأطفال - في الصباح تكون قد غسلت ملاءات فراش والدي الملوثة. وبما أن منطقة الغسل في البناء كانت صغيرة ومشتركة، كانت تحرص والدتي على أن تنتهي من مهمتها قبل أن يلحظ جيراننا ما يجري.

ومع حلول الربيع ازدادت والدتي عصبية وتوجسا. كان يوم الموتى يقترب، وهو اليوم الذي تظهر فيه الأشباح لتقود الأحياء إلى الحياة الآخرة. لقد كان إيمان والدتي بالخرافات وخوفها معديا، وبدأت أتمنى حلول ذلك اليوم ورحيله بسرعة. ولكن عندما اقترب يوم ٥ أبريل، بدا أن والدي أخذ يتحسن نوعا ما. عادت إليه شهيته وعاد يتحدث إلينا ثانية. مر يوم الأموات دون وقوع أي حادث، وأدخل شعورنا بالراحة بعض البهجة إلى منزلنا الكئيب.

في ظهر أحد أيام الأسبوع التالي كنا - نحن الأطفال - نعد واجباتنا حول الطاولة. طار قلما أخوي وهما يتسابقان في مسائل الحساب وكانت الابنة الثالثة تهذر وتثرثر وتعلق من دون أن يؤثر ذلك على درس اللغة الصينية.

كنت منكبة على عملي بينما رحت أجهد لكتابة موضوع آخر من قائمة مواضيع التعبير التي لا نهاية لها، بينما كانت الابنة الخامسة تنتقل بنظراتها. لم تكن العمة الكبرى قد عادت بعد من المعمل.

صرخت والدتي من غرفة النوم «آه دو، آه ني، تعالا بسرعة» رمى الابن الأول والثاني قلميهما وانطلقا من الغرفة ونحن الثلاثة في أعقابهما. وقفت والدتي بجانب السرير المصنوع من خشب الماهاغوني، وعيناها المتسعتان تتوسلان بينما أخذت تعصر بعصبية وبلا وعي أطراف خرقة من القماش. كان والدي مستلقيا على جانبه منكمشا وشاحبا وكان صدره يرتفع وينخفض وكأن كل نفس يطلقه ليس سوى عبء ثقيل. انطلقت مني صرخة خوف عندما رأيت عيني والدي ترفرفان فوقنا وكأنه يحاول أن يحفظ ملامحنا. ارتفع صدره وانخفض، لكنه لم يرتفع ثانية. أغمض عينيه ورحل عنا، وكان عمره عندئذ ٤١ سنة فقط.

عندما ارتديت ملابس الحداد الفضفاضة والمخاطة على عجل، ودعت طفولتي. فتاة نحيفة صغيرة القوام في سن التاسعة، ألقت اللوم في موت والدها على فكرة خاطئة راودتها بأن موت والدها سيضع نهاية لشقاء والدتها. لقد تسببت بموته، لمن أستطيع أن أقول ذلك؟ ممن أطلب الغفران؟ اقتنعت أنني فتاة شريرة. كنت أغادر المدرسة كل يوم بأسرع ما يمكن، وكنت أطلب إعفائي من النشاطات الأخرى والدروس المشتركة لأكون بجانب والدتي. وعندما سألتني والدتي - بعد الدفن ببضعة أيام - ما إذا كنت سأذهب إلى بيت الدفن لأرى إن كان

تابوت والدي قد تم شحنه في مركب القناة إلى كنج جيانج، حيث اشترى جدي قطعة من الأرض كمدفن للعائلة، ابتلعت مخاوفي وامتثلت. فاجأني طلب والدتي، بدا لي أن على أخوي أن يقوما بهذا العمل لأنهما أكبر مني سنا وأكثر شجاعة، علاوة على أن بيت الدفن يقع في طريقهما إلى المدرسة.

ومع ذلك احتويت مخاوفي وانطلقت من المنزل أجفف دموعي بأكمام ملابسي. ركضت كل الطريق إلى بيت الدفن، وشرحت للحاجب العجوز الطيب سبب وجودي هناك. أراني الطريق إلى الكوخ حيث كانت التوابيت تخزن.

قال لي «عليك أن تتحري الأمر بنفسك لأننا لا نحتفظ بسجلات للتوابيت الصادرة والواردة. أود أن أبقى معك ولكن بديلي لم يصل بعد ولا أستطيع أن أغادر موقعي».

كانت الساعة تناهز الرابعة، وكان آخر مكان وددت أن أجد نفسي فيه عندما يحل الظلام هو بيت الدفن الذي يسكنه الأموات. تسللت بهدوء إلى كوخ التخزين متذكرة كل قصص الأشباح التي كانت العمة الكبيرة تحب أن تقصها علي.

سرت عبر أكداس التوابيت على رؤوس أصابعي يملؤني الخوف والحزن، وأنا أحبس أنفاسي ولا اجرؤ على إحداث ضجة، أبحث عن اسم والدي. وجدته في الصف الأخير تعلوه جثة أخرى. وعندما غادرت المكان بكل سرعة أوتيتها كانت آهة كبيرة تنطلق من أعماقي. انطلقت من البوابة واتجهت إلى المنزل، عندما وصلت إلى زقاقنا أسرعت إلى العمة الكبيرة وأخبرتها - وأنا متقطعة الأنفاس - ما قد فعلته.

حذرتني وهي تمسح دموعي بمنديلها «لا تخبري أحدا أن تابوت والدك يقبع تحت تابوت ميت آخر غريب».

وعدت والدتي في تلك الليلة أن أذهب إلى بيت الدفن بعد المدرسة. ومع كل زيارة إلى الكوخ الساكن المظلم بددت الألفة بعضا من خوفي. بعد حوالى عشرة أيام وجدت أن التابوت الذي يعلو تابوت والدي قد رحل، وسرعان ما اعتراني الهلع.

ماذا لو أتيت غدا ووجدت تابوت والدي قد رحل أيضا؟ لقد جعلتني الزيارة اليومية أشعر وكأنني أزور والدي الذي تخيلته مريضا إلى درجة لا يستطيع معها التحدث إليّ. بقيت فترة أطول مما هو ضروري وبدأت التوابيت الأخرى تتوارى أمام أنظاري نوعا ما. على الأقل لا يزال والدي معي وقريبا من المنزل.

بعد يومين كان هناك مكان فارغ في الحيز الذي أسجي فيه تابوت والدي. وفي الطريق إلى المنزل وجدت أنني لم أعد أشعر بالحرج ولا بالمارين ممن راحوا يحدقون بملابس الحداد البيضاء التي كنت أرتديها ... لقد تركني والدي إلى الأبد.

لم يتوقف اعتماد والدتي علي عند الرحلات اليومية إلى بيت الدفن، فقد أخذتني معها مرات ومرات إلى مصنع والدي، حيث توسلت إلى المسؤولين أن يسددوا قيمة بعض السندات التي أصدروها لوالدي لدى مصادرة المصنع. وكانت تجادلهم بأنه ليس للعائلة أي دخل الآن، لكن لم يكن لتوسلاتها ولا لدموعي أي تأثير. فقد كانوا يذكرونها بأن السندات لا يمكن تسديدها قبل عدة سنوات «فنحن لا نضع القواعد هنا».

لم يكن لوالدتي أي عمل وبالتالي لم تنتم إلى أي وحدة عمل. ولم يكن أمامها سوى أن تكبح ما تبقى لديها من كبرياء سمحت الظروف لها بالاحتفاظ به، وتذهب إلى اللجنة المحلية لتطلب أي نوع من العمل يمكن أن يدر عليها بعض المال. وبفضل جهودها أثناء حركة «الخلاص من الأمية» حصلت على وظيفة جمع الإيجارات المتأخرة.

بدا العمل سهلا جدا، فهي تعمل في الأسبوعين الأخيرين من كل شهر، ولا تنشغل في الأوقات الأخرى. لكن سرعان ما بدأ العمل ينهكها عاطفيا وجسديا. لم تكن قاسية القلب بما فيه الكفاية، وسرعان ما أثقلتها هموم الآخرين. شعرت بالذنب كلما قرعت بابا وطلبت الإيجار المتأخر لتجد العائلة تبيت بدون عشاء وأحيانا، عندما لا تتلقى جوابا لقرعها، تفتح الباب لتجد ساكن البيت مريضا إلى درجة لا يستطيع معها التحدث إليها ... لقد صدمتها ظروف حياة بعض الناس وفقر معظمهم.

في آخر النهار، وبعد التجوال في الشوارع الخلفية وصعود الأدراج المظلمة وأحيانا تحمل شتائم السكان الغاضبين العالية، تجد والدتي أنها لم تجمع أي إيجارات. ولذلك لم تستغرب سهولة حصولها على هذا العمل لا شك أن أي شخص آخر لم يكن راغبا فيه، والأسوأ من ذلك أن مردوده المادي لم يكن كافيا. كان مستوى الفقر في ذلك الوقت يحدد بـ ٩ يوانات في الشهر لكل شخص. أما والدتي فقد تلقت ١٨ يوانا لإطعام ستة أفواه.

كانت العمة الكبرى تعمل بدوام كامل في المصنع، وكانت تساعد والدتي بكل طريقة ما عدا المالية. ومنذ وظفها والدي في المصنع

دافعت عن استقلاليتها بشدة لأنها لم تعد تعتبر نفسها خادمة لعائلة يي. كانت تدفع حصتها من الإيجار وفواتير الماء والكهرباء، وعندما كانت تذهب إلى السوق تأخذ معها حافظتي نقود - واحدة لمشترياتها وأخرى لمشتريات العائلة - وكانت ترسل المال بانتظام إلى أقاربها في قرية عائلة تشن.

ونظرا إلى حاجتها الماسة إلى الدخل، حاولت والدتي أن تجمع بعض الديون المستحقة لوالدي عندما كان حيا. احتفظ والدي بدفتر سجل فيه بعناية كل قروضه، وقد دهشت والدتي عندما اكتشفت العدد الكبير من الناس الذين ساعدهم: من أقارب، وأصدقاء، لذلك استقلت القطار يحدوها الأمل وتوجهت إلى «ووهسي» لمقابلة أحد الأقارب البعيدين الذي كان قد استدان مالا ليبدأ مصنعا لمعالجة الدقيق. طردتها العائلة إلى الشارع وأغلقت الباب في وجهها، وفي اليوم التالي توارت العائلة عن الأنظار.

بدأت والدتي بيع بعض الأشياء للحصول على المال: مجوهراتها القليلة الباقية، اللوحات الكلاسيكية، الملابس الثمينة ومعاطف الفرو، وحتى الأثاث، لكن هذا الإجراء كان حلا مؤقتا، أدركت بعده والدتي أن هناك شيئا يتوجب عليها عمله.

لذلك كان على والدتي أن تواجه الحقيقة المرة بأن على واحد من ابنيها أن يترك المدرسة ويجد عملا لنفسه.

كان أخي الأكبر جينج هنج في السابعة عشرة من عمره، وكان شابا جميل القسمات هادئا، غير متكلف وكان، عكسي، سلبيا في مواجهة الأزمات، ومتى شاء أن يركز انتباهه، ينصب رأسه ويسرح ببصره بعيدا. كان طالبا متفوقا استطاع أن يقفز صفين معا في

مدرسته الابتدائية، كما حصل على جائزة في مدرسة إعدادية متميزة، ولم يبق أمامه الآن سوى سُنة واحدة يجتازها يتأهل بعدها لامتحانات القبول في الجامعة. كان الابن الأكبر الذي تفخر به أي عائلة صينية تقليدية: لقد كان الشمس والقمر مجتمعين في عيني والدته.

كان الابن الثاني دجونج هنج في الخامسة عشرة من عمره، وكان هو أيضا طالبا متفوقا أصبح مصدر فخر واعتزاز وحبور معلمته التي أعلنت أن علاماته كانت مرتفعة جدا تعفيه من امتحانات نهاية العام التي تؤهله للالتحاق بالمدرسة الثانوية. في المنزل كان دجونج هنج عنيدا، صلب المراس، على عكس ما كان عليه خارجه حيث اتسم بالهدوء والسكينة. وكان لعينيه الكبيرتين الهاجعتين تحت حاجبين كثين يزينان وجها بيضاويا، سحر خاص أضفى جمالا يحسد عليه.

لم يكن هناك ما يباعد بين أخوي، فقد كانا يغادران إلى المدرسة معا ويعودان معا ويقومان بواجباتهما المدرسية وتجاريهما العلمية كفريق واحد. كانا مهذبين ومتواضعين، وكانا مثالا يشار اليه بالبنان في حينا للشباب الصالح. كان أهالي المنطقة يلتفتون إلى أبنائهم، قائلين «انظروا إلى الأخوين «يي»، لماذا لا تكونون مثلهم؟». كنت أنظر إليهما بإكبار لإنجازاتهما الأكاديمية، وإن كنت أجدهما لا نفع لهما ولا قوة، عندما يتعلق الأمر بحمايتي من مضايقات الجوار. فقد كانا يتجنبان المجابهة بأي ثمن. هكذا كانا: معا على الدوام إلى أن جاء ذلك اليوم الذي طلبت فيه والدتي، مدفوعة بيأسها، أن يقدم

أحدهما التضحية. وبما أنها لم تكن هي قادرة على الاختيار بنفسها فقد تركت لهما هذه المهمة.

بعد انقضاء عام على وفاة والدي، طلبت مني والدتي ثانية أن أرافقها إلى المصنع. هناك، طلبت من المدير أن يوظف أحد أبنائها للتدريب على العمل كي يدرأ بعضا من أعبائها المالية، وأخبرته أنها لم تكن لتقف أمامه متوسلة لو كان لديها سبيل آخر تطرقه. عندما غادرنا المكان لم يكن في جعبتنا أي وعد مؤكد نعتمد عليه.

وأخيرا جاء القرار: لقد قبلت إدارة المطاط الصناعية بتوظيف أخي الأكبر، ليس في مصنع والدي وإنما في المصنع المتخصص بصهر وتنقية المطاط الخام.

تنفست والدتي الصعداء وإن لم يغادرها قلقها. كانت تريد لابنها أن يعمل في مصنع والده لقربه منا، والأهم من ذلك لإدراكها أن عمال ذاك المصنع يعرفون عائلتنا تمام المعرفة، وقد يحدوهم ولاؤهم لوالدي أن يعنوا بابنها. غير أن تعقيدا جديدا برز إلى السطح وهو أنه على الرغم من اختيار المدير للأخ الأكبر للعمل في المصنع، فقد قرر الأخ الكبير والأخ الثاني شيئا مغايرا. لم يعلم أحد منا كيف وصل الأخوان إلى هذا القرار، كل ما عرفناه هو أنهما اختارا الثاني لترك المدرسة. عندما أخبر الابن الثاني معلمته بذلك أخفته في دارها لليلة كاملة، آملة أن تغير والدتي رأيها.

مضى أسبوع كامل قبل أن تقف والدتي، وبصحبتها أخي الابن الثاني، أمام بوابة مصنع يي شين للمطاط، ليمثلا أمام مدير المصنع، ملأ أخي الاستمارات المطلوبة بصمت واضعا تاريخ ولادة أخيه الأكبر

بدلا عن تاريخ ميلاده. وبما أنه لم يكن هناك من يعرف أخوي فقد أصبح الابن الثاني هو الأول. وإلى أن اكتشف المدير الخدعة كان قد بلغ السادسة عشرة وأصبح عاملا ماهرا و«نضج الأرز».

ولكن الابن الثاني أصابه الأسى والمرارة لأن أحلامه الجامعية قد تبخرت، لم نعد نراه تقريبا: عمل بنوبات متبدلة أسبوعا بعد أسبوع، وعندما لم يكن يعمل لم يكن يأكل مع العائلة. قضى أوقات فراغه في مكتبة عمال المحافظة يقرأ ويدرس. لقد دُق وتد بينه وبين أخيه الأكبر العزيز وشعر بالألم لسنوات كثيرة.

قبل أسبوعين من امتحانات دخول المدرسة المتوسطة أخذتني والدتي إلى فرقة غناء ورقص جيش التحرير الشعبي. اعتقادا منها أن الحكومة ستعتني بي لو تم قبولي، وإن كان علي أن أغادر المنزل عندئذ. أما العمة الكبيرة فقد أخذتني إلى غرفتها عندما سمعت خطة والدتي ورأت ثوبي الأزرق الفاتح الجميل المنقط بالورود.

صرخت العمة الكبيرة قائلة «لقد فعلت من أجلك كل ما يمكن أن تفعله الأم فيما عدا إرضاعك، وما زلت لا كلمة لي بينكم». قالت ذلك وهي تشير إلى جبيني، وتنفث غضبها علي بدلا من على والدتي. «إذا كانت تريد أن تتخلص منك فأنا مستعدة لأن أتبناك، وهي تعرف أنني عرضت ذلك من قبل». برهنت مخاوف العمة الكبيرة أنها سابقة لأوانها، ذلك أن خطة والدتي لم تنجح. في نادي الجيش، صرخ الجنود في وجهها قائلين «إنها صغيرة جدا ولم تبلغ الثانية عشرة بعد، إنك تضيعين وقتنا».

في هذه الأثناء كانت والدتي لا تزال ترهق نفسها في محاولة للتوفيق بين الدخل والنفقات. كانت صحتها تتدهور بسرعة واضحة، وهي تخرج في رحلة جمع الإيجارات المتأخرة كل ليلة لكي تجد الناس في بيوتهم، وعندما تعود نادرا ما تتناول عشاءها الذي نبقيه دافئا من أجلها. وغالبا ما تساءلت ما إذا كانت بعزوفها عن الأكل توفر الطعام لنا، سمعتها عدة مرات تقول للعمة الكبيرة إنها لم تعد تهتم فيما إذا لم تفتح عينيها في صباح اليوم التالي. كانت الأمور تتحسن بطريقة ما - فقد بدأ نقص الأغذية في البلاد يتلاشى، وكان الابن الثاني يعمل ويساهم في أمور البيت - ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى والدتي.

في صباح أحد أيام يوليو الحارة دخلت مع أخي الكبير لنجد كعكا ومعجنات حلوة على مائدة العشاء بدلا من عصيدة الأرز. قدمت والدتنا وجبة لذيذة خاصة في يوم امتحاننا، بعد أربع ساعات، عدت وأختي من مركز الامتحان. كنت أعلم أنني أجدت في الرياضيات ولكني كنت قلقة بشأن مقالتي: فبدلا من كتابة الكثير من اللغو والدعاية، طاش صوابي ووصفت الحياة كما هي. إن عدم تقديم الرأي الرسمي يحرز درجات سيئة.

وصلت نتائجنا في أواسط أغسطس. صاحت أختي «سأذهب إلى المدرسة الجديدة» وهي فرحة لأنها ستكون قرب البيت - حوالى خمس دقائق من البيت- ولكن «١٥ دقيقة بحسب مشيتها» كما قالت العمة الكبيرة.

بعد بضعة أيام تحقق حلم والدتي، حصل ابنها الكبير على درجات عالية جدا في الامتحانات وحصل على مكان في جامعة جياو تونج المرغوبة في شنغهاي إحدى الجامعات الرئيسة التي استقطبت أفضل الأدمغة من جميع أنحاء البلاد. خلال خمس سنوات سيصبح أخي مهندس مركبات.

للمرة الأولى منذ وفاة والدي سمعت ضحكة والدتي بعد أن غاصت في الحزن والنضال.

عندما أصبحت في الثانية عشرة من عمري كنا قد انتظمنا في برنامج الإغاثة لسنوات. وفي حين كنت أرتدي في الماضي معطفا حريريا تسدل عليه قطعة قماش قطنية جميلة أصبحت أرتدي ما يصل إلي من أخوتي. كلما مررت في زقاقنا كان الفضوليون، وخصوصا أعضاء اللجنة المحلية، يوقفونني ويرفعون معطفي ليعرفوا ما إذا كنت أرتدي ملابس جديدة مخبأة تحته. وعندما أصبحت قصيرة النظر في الصف السادس تجاهلت والدتي توسلاتي من اجل شراء النظارات، لأننا لم نستطع توفير النقود لابتياعها. وبدلا من ذلك أعطتني نظارات أخي الثاني القديمة التي لم تعد تصلح له. سببت لي هذه النظارات الصداع فوضعتها فقط عند الضرورة أو في الليل عندما كنت أواجه صعوبة في الرؤية.

تغيرت كثيرا، ولم أعد تلك المرأة الصينية المتواضعة، أصبحت ميالة إلى القتال والجدل مما أصاب والدتي بالغم والكدر وأفزع العمة الكبرى. لقد ترك ذل الفقر ندوبا عميقة.

بدأت أذهب إلى مدرسة جديدة، ووعدت نفسي بألا أشعر ثانية بالذل الذي شعرت به عندما سخر بعض الأطفال من ملابس الحداد. ولما لم أعد فتاة صغيرة صممت أن أبدأ بداية جديدة وأدرس بجد وأعد للمستقبل.

بعد أن سمعت زملاء صفي يشكون من منظر مدرستنا المتهالك وحجم الفصول - وحتى السبورات السوداء «لم تكن سوداء بما فيه الكفاية» - استمتعت بكل دقيقة من مغامرتي الجديدة. كل شيء رأيته أو لمسته أو شاركت فيه كان عشر مرات أفضل مما عرفت سابقا، وحتى الحمامات بكبائنها الخاصة التي لا تفوح منها الروائح امتازت عن القصرية التي تقبع في زاوية الغرفة في مدرسة المعبد. كانت النشوة الكبرى هي أنني سأتعلم الإنجليزية ثلاث مرات في الأسبوع، لم أسمع سابقا أي لغة غير اللغة الصينية، غادرت المنزل في ذلك اليوم وأنا مضطرمة بالحماس وممتلئة بالآمال، لكن فرحتي تلاشت في اليوم التالي، لقد عصيت قواعد المعلمة وكتبت كلمات صينية في كتاب اللغة الإنجليزية لتساعدني على لفظ الحرف (كيو)، وبينما كانت تسير في الممر بين المقاعد تتفحص كتبنا أثناء دراستنا اكتشفت المعلمة «زو» ذنبي.

لمعت عيناها بالانتصار وصاحت «هـ ... م! يبدو أن إحداكن لا تستطيع أن تفهم حتى لغتي الصينية، ناهيكم عن الإنجليزية». التقطت كتابي وسارت إلى مقدمة الصف.

رفعت كتابي بحيث يرى كل فرد جناية الكتابة بالحروف الصينية. انفجر الفصل كله بالضحك والاستهزاء. التهب وجهي

بالارتباك فلم أعرف بعد أحدا من زملاء فصلي، وبدا الآن أنهم سيتحاشونني. استطعت حبس دموعي، فالسخافة كانت أمرا سيئا بما فيه الكفاية، ولن أضيف إليها الجبن بالبكاء. بقي كتابي معروضا طيلة اليوم.

في أحد أيام الأسبوع الأول من العطلة شاهدت جمهورا من الطلبة مجتمعين حول لوحة إعلانات في الباحة، وبفعل فضولي بدأت أتدافع وزميلاتي لأقترب. وجدت أن الإعلان قد أدرج أسماء المتلقين شهريا لمنحة المساعدة الدراسية (نوع من المساعدة الاجتماعية) والمبالغ التي سيقبضونها. وصدمني تعليق الإعلان بهذا الشكل العلني وأرعبني ملاحظة اسمي في أعلى القائمة لأنني سأتلقى أكبر مبلغ.

لم أتصور على الإطلاق أن المدرسة ستكون عديمة الإحساس لتذيع هذا النوع من المعلومات بحيث يراه الجميع، استدرت وابتعدت وأنا أشعر بالإهانة، لتصوري بأن كل زملاء الدراسة يتحدثون عني هامسين بأن والدي متوفى وعائلتي فقيرة وأنني فتاة سيئة الحظ.

لم أتحدث إلى أحد بقية اليوم وتحاشيت أي اتصال بصري، كنت أتوقع أن يساعدني الجو الجديد على الحصول على بداية جديدة، ولكنني لم أعد متأكدة الآن. قلت لنفسي إن الخطة الثلاثية لضمان مستقبل جيد قد فشلت، ولكني سرعان ما وجدت المزيد مما يثير مخاوفي.

عاد بيتنا إلى وضعه العادي، كان الأخ الأكبر يعيش في المدينة الجامعية كما هو مطلوب منه ويرسل بعضا من تعويضه الشهري

للمساعدة. كانت والدتي على وجه الخصوص فرحة وهي ترى ابنها الثاني يقضي بعض الوقت على طاولة والدي. لقد قُبِل في مدرسة مسائية للعمال وبدأ يتابع دورات المدرسة الثانوية العليا لإكمال دراسته.

ولكن والدتي استمرت في فقدان الوزن طوال خريف ١٩٦٤ على الرغم من إصرارها أن كل شيء على ما يرام، ولكنني غالبا ما رأيتها تضع كيس ماء حار على معدتها. وعندما أخبرت الابن الثاني قال «إن والدتي تقول إنها تشعر ببعض الفراغ في معدتها وإن الحرارة تحسنها».

اشتد الألم في أحد الأيام مما دفعها للذهاب إلى المستشفى. كان تشخيص السرطان مدمرا، ولفّت كآبة كثيفة بيتنا عندما قال الأخ الأكبر إن والدتنا يجب ألا تعرف أبدا. شاركنا الطبيب هذا الرأي فقد كان يعتقد أن مريض السرطان الذي يعرف طبيعة مرضه يستسلم بسرعة.

أزيل ثلثا معدة والدتي، وأكد لنا الأطباء أن العملية قد نجحت وأن السرطان كله قد زال. كان علينا أن نزرع الأمل في أنفسنا وألا نخبرها أنها أصيبت بالسرطان. بعد ثلاثة أسابيع عادت والدتي إلى البيت مثقلة بقائمة من النواهي، وبصورة رئيسية بخصوص وجبات الطعام التي وصلت إلى ثماني وجبات، وطلب منها الامتناع عن الطعام الحار والبهارات. ولكن الطبيب لم يخبرها السبب ولذلك تجاهلت تعليماته.

أصبح الخوف يعتريني كلما رأيتها تأكل الأطعمة الممنوعة، إن كنت أخفي قلقي، وسرعان ما استنفدنا - أنا وإخوتي - كل

خدعاتنا عندما طلبت منا والدتي أن نشتري لها الأطعمة «المحظورة» غالبا ما كنا نعود من السوق بالشيء الخطأ. نقول إننا نسينا أو إن المستودع قد باع كل ما عنده مما طلبته. لم تكن هناك متعة غذائية في بيتنا خلال احتفال رأس السنة، وكلما رأيت والدتي تضع في فمها طعاما محظورا فقدت شهيتي وبصعوبة أمنع نفسي من اختطاف السلطانية منها. ولكني لم أمتلك الجرأة، فلن يكون ذلك دليل عدم الاحترام بل سيكون مخالفة لتعليمات الطبيب أيضا.

في بداية الفصل الدراسي الثاني تلقيت بطاقة تقرير منتصف الفصل الأول، وسررت عندما وجدت في المظروف نفسه طلبا لبطاقة مكتبة المنطقة، وهذا امتياز يجهد المرء نفسه ليحصل عليه.

لم تظهر والدتي سوى القليل من الحماس عندما نقلت إليها الأخبار منقطعة الأنفاس. إذ لم تكن أبدا شديدة الاهتمام بإنجازات بناتها الثلاث الأكاديمية.

عندما حانت العطلة الدراسية كانت والدتي قد تحسنت وعادت إلى عملها بدوام جزئي في جمع الإيجارات المتخلفة. وسرني أن أراها قد أحضرت بعض الأقمشة القطنية المطبوعة لسراويل الصيف القصيرة والقمصان. لقد انتهت أخيرا فترة حدادنا التي بلغت ثلاث سنوات وأستطيع الآن أن أخلع الملابس البيضاء والرمادية الكئيبة. فضلا عن ذلك مضت ستة أشهر على عملية والدتي، وفي رأي الطبيب أن مرض السرطان كان ليظهر بعد ثلاثة أو ستة أشهر لو قدر له أن يعود. فرحت مع أخوتي وأخواتي للأخبار السارة، ولكن والدتي في إحدى ليالي أواخر يوليو، هبّت

فجأة من على مائدة العشاء وخرجت مسرعة. سمعناها تتقيأ، وبعد عدة أيام، بينما كانت تستريح بعد رحلة مرهقة إلى المستشفى، أخبرنا الأخ الأكبر أن سرطان والدتي قد عاد. وفجأة - وعلى الرغم من حرارة الجو - سرت قشعريرة في جسدي. لم يكلف الطبيب نفسه بطلب أي فحوصات، لم يكن باستطاعته عمل شيء، أعطى تعليماته لأخي بأن يدع والدتي تأكل ما تريد لأن الامر لا يهم الآن، وأعطاه وصفة لتسكين الألم.

صرخت «لماذا؟ لماذا؟ لقد انقضت فترة الستة أشهر لماذا عاد السرطان؟» لم يكن بمقدور أحد أن يجيب.

إذا كان من الصعب في السابق إخفاء طبيعة المرض عن والدتي فقد أصبح التظاهر بالسعادة أكثر صعوبة الآن، راقبت شهيتها على أمل أن يكون الطبيب قد أخطأ. ولكنها زادت من بقاءها في السرير حتى في أثناء الوجبات.

عندما بدأ العام الدراسي الجديد اضطررت إلى ترك والدتي وحدها في البيت. لقد أصبحت ضعيفة إلى درجة لم تعد تستطيع العمل. كانت تلوم نفسها لعدم التقيد بتعليمات الطبيب ووعدتنا بألا تأكل الأطعمة «المحرمة» ثانية. يا لسخرية القدر! الآن، عندما أصبح بمقدورها أن تأكل ما تريد لكم تمنيت لو أخبرها الطبيب بالحقيقة منذ البداية!

وبينما كنا، نحن الأطفال، نذهب إلى مخزن الأدوية ونعود منه مجددين الوصفات وعائدين بقوارير أكبر حجما وأقل فعالية في كل مرة، سلكت العمة الكبرى السبيل نفسه الذي سلكته والدتي عندما كان والدي مريضا. استشارت السيدة يان التي وصلتها

ببعض العائلات التي استطاع أقاربها أن يقهروا السرطان بتناول الأدوية التقليدية غير المرخصة. استخرجت العمة الكبرى الأواني القديمة وبدأت حملتها.

في البدء طلب من أخوي أن يفتشا منطقة الغسيل في بنايتنا بالمصابيح الكهربائية اليدوية بحثا عن البزاقات السمينة التي تتجول في المنطقة منجذبة بالرطوبة عندما يكون جيراننا نائمين. هذه الحيوانات المقرفة جرى تنظيفها وغليها في الماء لتشربه والدتي. أحضرت العمة الكبيرة إلى البيت مواد غريبة ملفوفة بورق أسمر لتبدأ معركة «محاربة السم بالسم»: قشور البرتقال و Choptis chenensis وخيط الجذمور الذهبي الصيني وديدان الأرض الحية والميئيات الجافة وغيرها. بعد أن خمرت العمة هذه المشروبات الغريبة، أصرت على أن نلقي هذه الحثالات في مركز الطريق، اعتقادا منها بأنه كلما زاد السير على هذه الحثالات زادت فعاليتها الشفائية. شعرنا بالخجل لرمي الأوساخ في الجادة، لأن ذلك يعتبر من سوء الأخلاق، وذلك كنا نرمي هذه المواد تحت جنح الظلام. ورغم أنني كنت أشك في فعالية ذلك، فقد رحت أسير جيئة وذهابا فوق الحثالات البنية مرات كثيرة. كانت العمة الكبرى تعرفني حق المعرفة، لذلك حذرتني بأن «دوسات» الأجانب فقط هي التي تنفع.

لم تشهد أسابيع الطبخ والغلي والروائح الكريهة في شقتنا سوى عيني والدتي وهي تزداد سوادا وتغوص أكثر في وجهها، لكن العمة الكبرى لم تكن قط لتستسلم. في إحدى الليالي - بعد أن

نام الجميع - أيقظتني وهمست «آه - سي! استيقظي وساعديني في صنع كريات الدواء لوالدتك».

تساءلت عن كل هذه السرية من جانبها، وغادرت الفراش وفركت عيني. كان بابنا مغلقا وكانت هناك سلطانية للمزج على الطاولة. سكبت العمة الكبيرة مسحوقا أسود من كيس ورقي في السلطانية وأضافت قليلا من الزرنيخ. شعرت بالخوف ولكني امتثلت بصمت. صنعنا ٢٠٠ كرة دواء - جرعات أسبوع - ورتبناها في سلة منبسطة القاعدة لتجف.

في الأسبوع الثالث من المعالجة أصبحت شفتا والدتي زرقاوين وتورم لسانها بحيث لم تعد تتكلم إلا بصعوبة. لزم الأمر الإسراع بها إلى المستشفى، واستخلصت أن هذه هي نهاية الطب الشعبي.

ولكنني كنت على خطأ، ففي إحدى الأمسيات - وبعد العشاء - استقبلت العمة الكبيرة زائرة غريبة بالنسبة إلينا جميعا وكذلك إلى العمة. كانت المرأة في الثلاثينيات من عمرها. أدخلت الزائرة إلى غرفة العمة الكبرى وبعد عشر دقائق غادرت من الباب الخلفي. عندما عادت العمة الكبيرة صاعدة الدرج أخذتنا جميعا إلى غرفتها وأرتنا العمة قائمة جديدة من العناصر أعطتها إياها المرأة المجهولة التي شفت والدتها كما قالت العمة - من سرطان المعدة - بهذه الطريقة المجربة.

هدأت روعنا قائلة «لا تخافوا، هذا الدواء لا يماثل الأدوية الأخرى، لا يتوجب على والدتكم أن تبتلع شيئا».

ولكن يا له من خليط غريب هذا التركيب الجديد. عندما قرأ الأخ الثاني العناصر نظرنا أنا والأول إلى بعضنا بدهشة. علينا أن

نصنع عجينة من ثلاثة أنواع من الأعشاب المتوافرة في مخزن الأدوية المحلي بالإضافة إلى كيلو غرام واحد من سوق دوار الشمس الطازجة المفرومة. يجب أن تخلط هذه المواد معا وتوضع في أعلى غلاف سلحفاة لا يقل قطره عن ست بوصات وأن يربط الغلاف على بطن المريض بالأربطة. يجب إحضار السلحفاة حية إلى البيت وأن تذبح وتقطع مباشرة قبل الاستعمال. قالت النظرية إن الأعشاب والغلاف سينتجان حرارة تنفخ عبر الورم وتذنيبه تدريجيا.

قضت العمة الكبرى يوما كاملا في السفر إلى بودونج على الشاطئ الشرقي من نهر هوانج بو حيث أملت أن تجد سلحفاة حية في سوق المزارعين.

تبرع الابن الثاني بالذهاب إلى منطقة نانهوي في جنوب شرق المدينة حيث أحضر - بعد بحث يوم كامل - عدة سوق نبات دوار الشمس وتمنيات المزارعين الطيبة بالشفاء.

قالت العمة الكبرى إن العلاج يستغرق ٥ أيام، ولكن بعد انقضاء نصف تلك المدة أصبحت رائحة شقتنا الكريهة طاغية، وفي صباح أحد الأيام الباكر صاحت والدتي ووجهها يتلوى من الألم «يا أخت فينكس! شيء حار كالسكاكين يغرز في لحمي! انزعي هذه الأربطة! أبعدي هذا الشيء عني!».

أخذت العمة الكبيرة المقص بسرعة إلى الأربطة النتنة. ملأت الجو رائحة كريهة وظهر أمام أعيننا منظر رهيب، كانت بشرة والدتي حمراء مملوءة بفقاعات الدم. خرجت مسرعة من الغرفة وتقيأت بكثرة داخل المبصقة. عندما عدت، كانت الابنة الثالثة تساعد العمة الكبيرة في تنظيف والدتي. أخذت السطل الذي

يحتوي على الغلاف المتعفن والأعشاب المسحوقة والأربطة وحملته بصعوبة ومشقة إلى حفرة النفايات وأنا أتقيأ من الرائحة الكريهة.

تلاشى الخريف في برد الشتاء وأصبح الإحباط انفعالي الوحيد، فقد غدا من الممكن قراءة آلام والدتي في وجهها. وفي كل مرة سمعتها تنتقد أخوي لأنهما لا يحاولان بجدية كافية إدخالها إلى المستشفى كنت أخرج من الغرفة. كرهت رؤيتهما يتعرضان للوم، ولكنني شعرت بالأسى تجاه والدتي فقد كنت أعرف سبب رفض المستشفى لها: ليس لأن أخوي لا يتدبران المال ليدفعاه من أجل العناية بها، بل لأن سرطانها أصبح قاتلا. لو عرفت والدتي الحقيقة لما غفرت لنفسها لومها لولديها.

وصل غضب والدتي ذروته. في إحدى أمسيات أواخر شهر ديسمبر، استدعت الابن الكبير والبنات إلى غرفتها لأن الابن الثاني كان في العمل. عندما تجمعنا حول سريرها حدقت إلى أخي، خلعت خاتم زواجها الياقوتي ورمته إليه ويداها ترتجفان وصرخت قائلة «إذا كان المال هو ما يقلقكم، اذهب وبع الخاتم».

ذهل أخي لانفجار غضب والدتي غير المعهود. هزت رأسها بأسى قائلة «والأثاث في هذا المنزل ليس إرثا لكم بعد، كان بإمكانكم بيع بضع قطع منه لو كنتم حقا مهتمين بي، ما فائدة محاولة تربية الأبناء جيدا إذا كانوا يعاملونك بهذه الطريقة؟».

رأيت والدتي غاضبة منا من قبل ولكنها لم تعامل أخي سابقا بهذه الطريقة. اتسعت عينا أخي من الصدمة والألم، التقط الخاتم وغادر الغرفة. لحقت به إلى الخارج وجلست بجانبه على

المائدة، جلس هناك بصمت مطرق الرأس والخاتم في إحدى يديه، بعد لحظة أو لحظتين، نهض وأعادني. جلسنا على حافة سرير والدتي، استلقت والدتي على ظهرها ووجهها باتجاه الحائط.

قال أخي بهدوء «أماه!»

وعندما لم تجب أخذ يدها بيديه وتحدث ثانية. ومع ذلك لم تنظر إليه. بدأت والدتي بالنشيج.

قال أخي «أماه! النقود ليست الموضوع في معالجتك، فكل النقود في العالم لا يمكن أن تعمل أي شيء، لقد رفضك المستشفى مرة بعد أخرى لأنك تعانين من السرطان».

بدأت وأختي بالبكاء.

«إن سرطانك في مرحلة متقدمة، ولهذا لا يقبلونك».

أدارت والدتي رأسها، ونظرت إلينا مصابة بالصدمة. فتحت فمها ولكن الكلمات لم تخرج منه. ثم أخذت تضرب نفسها على صدرها والدموع تجري من عينيها. قالت بأنين «كم كنت مريعة، الطريقة التي عاملتكم بها جميعا، لماذا لم تخبروني منذ البداية؟».

أخذ أخي الكبير يدي والدتي برفق بين يديه ليمنعها من ضرب نفسها قائلا «اعتقد الطبيب أن من الأفضل ألا تعرفي».

وللمرة الأولى خلال أسابيع لم نسمع الوالدة تئن من الألم. وفي الصباح كانت هادئة وبدت متحررة من القلق تماما، فأولادها - وخصوصا ابناها - اللذان شككت في حبهما وولائهما لا يزالان لها، ولكن هدوءها خلق عندي شعورا مضطربا، لا بد أن الابن الأكبر قد شاركني اهتمامي لأنه أرسل برقية إلى أخت والدتنا

الصغرى يي - فنج التي كانت تسكن في قرية عائلة وانغ قرب تشنجَ يانج.

ولما لم تعد هناك أسرار الآن بيني وبين والدتي، فقد كانت هناك أشياء كثيرة أردت أن أشرحها لها: الكذبات التي أخبرتها إياها حول مرضها و«سوء ذاكرتي» عندما كانت ترسلني إلى المخزن لأشتري لها الطعام الذي لم يكن من المفروض أن تأكله. استمعت والدتي إلى اعترافي دون اهتمام ظاهر، بقيت عيناها مغمضتين معظم النهار.

في الرابعة صباحا طرقت خالتي يي - فنج على الباب الخلفي. كانت تبكي وهي تصعد الأدراج، وحتى دخلت إلى غرفة نوم أختها دون أن تضع متاعها. بدت معنويات والدتي في ارتفاع مع وصول أختها. أردت أن أبقى بجانب والدتي لبضعة أيام، وكان من السهل إقناع خالتي يي - فنج بأن غياب بضعة أيام عن المدرسة لن يضرنا كثيرا. وكانت هي نفسها تعتقد أن البنات لا شأن لهن باللعب بالأقلام والدفاتر. وفي اليوم الأخير من عام ١٩٦٥ طلب الأخ الأكبر مني ومن أختيَّ أن نعود إلى المدرسة، وأصر على ذلك قائلا «على الأقل خذن بعض الواجبات إلى المدرسة وجدن الأعمال التي غبتن عنها».

تخلفت متباطئة بعد أن غادرت أختاي، وفرحت عندما طلبت مني الخالة يي - فنج أن أبقى لفترة أطول حتى تستطيع الذهاب إلى السوق لشراء بعض المعكرونة الطازجة للغداء. عندما عادت الخالة يي - فنج، ذهبت لأودع والدتي. قلت بهدوء «أماه! هل تحتاجين أي شيء؟» سأغادر خلال بضع دقائق. فتحت والدتي

عينيها وإن بدت وكأنها لا تراني. رفعت حقيبتي المدرسية إلى كتفي واقتربت منها: «أماه! هل أحضر لك أي شيء؟». لم تجب، أغمضت عينيها ببطء، فشعرت بالخوف. رميت حقيبتي على الأرض وبدأت أهزها. انفجرت باكية وهززتها بقوة أكثر «أماه! ما الخطب؟ ما الخطب؟». في تلك اللحظة فتحت عينيها وقالت بهدوء «آه - سي! اصمتي، أريد أن أنام». أغمضت عينيها ثانية وخرج سائل بني من زاوية فمها ولفظت أنفاسها.

ناحت خالتي يي - فنج وقالت «هذا من طبع والدتك لقد رتبت موتها في فترة عطلة بحيث لا يتخلف المشيعون عن العمل أو المدرسة».

عندما ذهبت إلى بيت الدفن في اليوم التالي لم أرتد ملابس الحداد التقليدية، أصرت الخالة يي - فنج على أن الزمن قد تغير وأن الأحزمة المصنوعة من الأقمشة البيضاء وشارات الذراع السوداء والأحذية البيضاء تكفي. دخلت البهو مندهشة، ولكن فرحة لوجود السيدة نائب مدير اللجنة المحلية مع عدة أعضاء آخرين. كانت لجنة الإسكان التي عملت لديها والدتي عضوا في اللجنة، ولكنني سرعان ما اكتشفت أنها لم تكن هناك لوداع والدتي.

في ذلك الوقت كانت العائلة لا تزال تستطيع الاختيار بين حرق جثة الميت أو دفنها، غير أننا استثنينا من هذا الخيار، قالت نائب المدير إن الأمر واضح فنحن نتلقى المعونة الاجتماعية، والدفن هو إهدار للمال على الأموات الذي يحتاج إليه اليتامى الخمسة. لم تذكر ما يعرفه الجميع: هناك حصص ومخصصات

في كل شيء يتعلق بسياسة الحكومة، وعلى كل منظمة أن تشجع أكبر عدد ممكن من العائلات على اختيار حرق الجثة. شعرت بأن كل شيء يطبق علي، كنا جميعا نعرف أن والدتي أرادت أن تدفن بجانب والدي وجعلت خالتي يي - فنج تعد بألا تحرق، إذ كانت تخاف جدا من النار.

اعترض الابن الأول لدى السيدة نائب المدير، لكنها صدته معلنة بأن وفودا من وحدته ووحدة الابن الثاني الأساسيتين ستصل قريبا «لحل المشكلة». أخبرت مدير الدفن أن جثة والدتي يجب ألا توضع في صندوق زجاجي لإلقاء نظرة وداعية عليها حتى يتم توقيع ورقة تضمن الحرق.

كان منظرا رهيبا، بكيت وأخواتي حزنا ويأسا. انغمس أخواي في نقاش حاد مع الوفود التي أرسلتها الجامعة والمصنع والتي ضغطت عليهما للموافقة على الحرق. بقيت العمة الكبيرة خارج الموضوع، شغل خالاي بترتيب الكراسي وصف فناجين الشاي.

عندما رأيت الابن الأول يتبعه في كل مكان ممثل من اتحاد الطلبة، لم أعد أستطيع السيطرة على نفسي. دخلت أمام الشاب - والدموع تبلل عيني - وسألته بصوت مرتجف «هل توافق على أن تحرق والدتك ضد رغبتها؟».

تعثر الشاب مأخوذا بالمفاجأة ولكن الكلمات لم تخرج من فمه. ولدهشتي، اعتذر الأخ الأكبر عني، أردت أن أضربه، صرخت في وجهه قائلة «ما فائدة أخ مثلك؟ ما فائدة كونك الأخ الأكبر الذي فضلته والدتنا؟».

انصـرفت لأجـد خـالتي يي - فنج قـد وصلت. تخلفت لاتخـاذ الترتيبات للزيارة بعد الحفلة الجنائزية. شرحت لها ما يحدث وأنا أبكي بغضب وإحباط. اكفهر وجهها بالغضب. سارت وأنا أتبعها مباشـرة إلى مكتب مـدير الدفن. وقبل أن يفـتح الرجل المندهش - الذي ظن أن كل شيء قد ترتب - فمه انفجرت في وجهه «يا رفيق! إن وحدتي الأساسي هي كوميون تونجكي الشعبي - لواء زونجتشون - وحـدة إنتـاج قـرية عـائلة وانج، اذهب واتصل بممـثلنا إذا شئت، سيقول لك إنني أحظى بتأييده لأدفن أختي حسب رغبتها».

كـانت الخـالة يـي - فنج تعلم أن سكان المدن يزدرون الفـلاحين، كما فعلوا دائما، ولكنها كانت تدرك أيضا أن الفلاحين الصينيين قـد أصبـحوا أكثر الطبقات استقامـة سياسيـة منذ الانقـلاب الشـيـوعي. وتابعت قـائلة «ألا تخـجل من نفـسك لوضع هؤلاء الأطفال في هذا الموقف مستأسدا على خمسة أيتام».

شعر المدير بالارتباك بعد أن صرعه هجومها الكلامي، ولكنه لم يفهم كل كلمة قالتها لأنها كانت تصرخ في وجهه بلهجة مدينة ووهسي.

التفتت خالتي نحوي وقالت «دعينا نذهب ونرَ أين يحتفظون بوالدتك، سنأخذها إلى البيت ونضعها في صندوق خشب الأرز».

قلت لها وأنا أدفع المدير جانبا «خالتي! أنا أعرف المكان، سأريك أين يخبئون والدتي».

ركضت إلى أسفل القاعة مباشرة إلى ذراعي أحد العمال، الذي طلب منا بصوت عطوف أن نهدئ من روعنا، ووعدنا أن كل شيء سيكون على ما يرام. أعادنا إلى قاعة الاستقبال حيث كان يجب أن تكون جثة والدتي معروضة لإلقاء نظرة الوداع الآن.

حاولت السيدة نائب المدير ثانية ممارسة قوة إقناعها على خالتيَ يي - فنج ولكن الحديث أصبح حادا. هذه المرة عملت الابنة الثالثة كمترجمة لخالتي وسرعان ما أخذت تصيح في وجه نائبة المدير، كانت خالتي خصما مخيفا، وفي النهاية أُبرِمتت الصفقة: تدفن والدتي في تابوت على أن يكون من أرخص الأنواع.

وأخيرا عندما وضعوا والدتي في الصندوق الزجاجي كنت منهكة إلى درجة لم أستطع فيها البكاء، فإذا كان بالإمكان التدخل في مشاعري نحو والدتي بهذه الطريقة، فماذا تبقى لي في المستقبل؟ بدا العالم مكانا أكثر قسوة وأكثر برودة منذ ذلك اليوم، وعندما نظرت إلى جثة والدتي قلت الكلمات نفسها التي قلتها لوالدي في المكان نفسه قبل فترة ليست بالبعيدة: ماذا سنفعل بدونك؟ عندما اكتشفت إحدى المندوبات أن والدتي لا تزال تلبس خاتم زواجها الياقوتي، طلبت من خالتي يي - فنغ إزالته قائلة إنه يجب أن يباع لإعانة الأطفال ولتخفيف العبء عن الحكومة. ولدهشتي، امتثلت خالتي للطلب، ولكن قبل إغلاق غطاء التابوت للمرة الأخيرة بقليل، رأيتها تعيد الخاتم إلى إصبع والدتي.

في تلك الليلة، بعد مغادرة أقربائنا وأصدقائنا لشقتنا، أخذتنا خالتي يي - فنج - نحن البنات - إلى الحمام العمومي، كما فعلت والدتي قبل ثلاث سنوات بعد دفن والدي، إنها عادة قديمة لغسل الحظ السيئ الذي يرافق موت أحدهم. غير أنني وقد غدوت يافعة في الثالثة عشرة من عمرها أصبحت متبرمة بهذه الممارسات، ولذلك، عندما بدأ الأخ الكبير بتحطيم سلطانية أرز والدتي وفنجان الشاي

حسب التقاليد، رفضت مساعدته في ذلك. وكانت حجتي أننا بعد فقد والدنا ووالدتنا، لا يمكن تصور كيف يكون حظنا أسوأ.

رفضت الذهاب إلى المدرسة في الأيام القليلة التالية، ولم أكن أبالي في الحقيقة إن لم أرها ثانية. أصابني منظر غرفة والدينا الساكنة وسريرهما الخالي بالهلع: خفت أن أبقى في المنزل، كما خفت أن أغادره.

تركت مجموعة الرياضيات وشعرت كالبطة الغريبة بين زملاء صفي. حزنا جميعا وارتبكنا، ولكن الابنة الخامسة كانت الأسوأ حالا. وكفتاة في الحادية عشرة من عمرها، انعزلت تماما. بدت هشة بعينيها الجميلتين وملامحها الرقيقة، وكانت دائما تعود من المدرسة في منتصف النهار لأنها لم تستطع التوقف عن البكاء في الفصل، وكانت تمضي بقية اليوم مع السيدة يان حتى تعود الأخت الكبرى أو أعود أنا إلى البيت.

انقضى الربيع ببطء حيث حاول كل منا مواجهة حقيقة حياتنا بدون والدين. تقاعدت العمة الكبرى من المصنع في شهر مارس وبقيت في المنزل طوال اليوم. إن عنايتها بنا وتفانيها في رعايتنا جعلني أفتقد والدتي أكثر مما مضى. في صباح أحد الأيام وقبل شهرين من عيد ميلادي الرابع عشر، كنت منشغلة بالعمل في مقعدي خلال الاستراحة بين درسين. عندما وقفت، شعرت بشيء دافئ ولزج يتدفق بين الفخذين. أشارت البنت الجالسة خلفي إلى الأرض وصاحت قائلة: «انظري! دماء!».

جريت كل المسافة وقد استحوذ الخوف على عقلي، أولا والدي ثم والدتي، والآن دوري في الموت. سأنزف حتى الموت. اندفعت إلى

شقتنا فوجدت عمتي الكبرى ترفو جوارب الأخ الثاني القطنية. رفعت بصرها وجفلت عندما تسللت خلفها وتواريت خلف الستارة ورميت نفسي فوق القصرية. صرخت قائلة «أيتها العمة الكبرى! إنني أنزف حتى الموت، تماما كما فعلت ابنة عمك».

وضعت الجوارب والإبرة جانبا، ونهضت ببطء وهي تتمتم.

صرخت غاضبة من هدوئها الظاهري: «ماذا تقولين؟».

قالت وهي تفتح درجة المزينة «لا أعرف في الحقيقة ماذا أقول لك، يجب أن تكون وظيفة الأم شرح ذلك».

«لماذا لا تتركين والدتي وشأنها؟ على الأقل أنت لا تزالين على قيد الحياة». جذبت الستارة وأغلقتها وأنا يائسة أتوقع نقدها لثورة غضبي. بدلا من ذلك أحضرت لي علبة ورقية صغيرة، ورزمة كُتِب على جوانبها الأربعة «أوراق صحية». هدأت رباطة جأشها من روعي إلى حد ما فتفحصت العلبة. كنت قد رأيت علبا مثلها معروضة في واجهات المخازن، وكثيرا ما تساءلت: لماذا يوجد هناك نوعان من ورق المرحاض: أحدهما يسمى ورق التبن (وهو وصف دقيق لأن قطع التبن المسحوقة تظهر هنا وهناك) والنوع الآخر هوالورق الصحي الذي يباع في علب مغلقة بالصمغ بدلا من الرزم. والآن، وقد فكرت في الموضوع، تذكرت أنني رأيته مرارا في سلة أوراق المرحاض في المنزل من حين إلى آخر.

«ما هذا؟» سألت العمة الكبرى التي التفتت إلى عملها «لماذا تعطينني ذلك بدلا من أقراص الدواء؟».

- «هل أنت فعلا غبية كما تبدين؟ ألا تستطيعين القراءة؟».

- «بالطبع أستطيع القراءة، ولكن ليس هناك شيء يشرح لي استخدامها».

- أصرت قائلة «لا تحاولي خداعي، قد لا أعرف كيف أقرأ، ولكنني أرى هناك كلمات على كل العلبة».

وضعت ذلك الشيء الذي قدمته لي العمة الكبرى وانتظرت عودة الابنة الثالثة إلى المنزل للغداء. ربما أستطيع الحصول على بعض الأجوبة، وبعض التعاطف من أختي الكبرى.

- «يا أختي الكبرى! ظننت أنني سأموت هذا الصباح».

قاطعتني العمة الكبرى قائلة «اخفضي صوتك يا آه - سي».

«ماذا حدث؟»

سحبت الأخت الكبيرة إلى غرفة الضيوف «إنني مصابة بنزيف معدي كابنة عم العمة الكبرى، لا تستطيعين أن تتصوري الفوضى التي أحدثتها في الفصل» وقبل أن أستطيع المتابعة، دفعتني أختي بعيدا عنها «ألم تقرئي كتابك المدرسي؟» ثم خرجت من الغرفة وهي تتمتم «كما لو أنه ليس هناك ما يكفي من الموت في هذه العائلة».

بعد ظهر ذلك اليوم، رحت أبحث عن ذلك الكتاب. وعندما انتهيت من قراءته، وجدتني أبكي لأن القسم المتصل بالموضوع أكد على أن على الطلاب قراءته «تحت إشراف الأهل».

عندما أغلقت الكتاب، شعرت بيد العمة الكبرى على كتفي «لا تحزني يا آه - سي، على كل فتاة أن تمر بذلك، وصدقيني إن بعض الأهل يفرحون عندما يحدث ذلك لبناتهم».

قلت دون أن أنظر إليها «أنت على حق أيتها العمة الكبرى، فالكتاب يقول: إن واجب الأم أن تقول هذه الأشياء لبناتها،

لكن والدتي توفيت، ولاأعلم من سينجدني ببقية الأشياء التي لا أعلمها».

«سأحاول يا آه - سي إذا سمحت لي بذلك، وسأبذل أفضل الجهود لتربيتك، على رغم أنني لست متأكدة كيف أفعل ذلك.

وعلى رغم ذلك فإن الوئام الذي توصلنا إليه كان قصير العمر. فقبل حلول وقت العشاء طلبت منها علبة أخرى من «الورق الصحي».

قالت وهي تبدي الدهشة أكثر من إبدائها الغضب «هل تريدين القول أنك قد استخدمت العلبة كلها في أقل من نصف يوم؟».

- «حسنا! أنا لم آكلها! إنها ورق لا حلوى كما تعلمين».

- «إن كل علبة تكلف ثلاثين سنتا»، قالت ذلك وهي تؤنبني وتريني كيف يمكن إطالة حياة الورق بقلبها لاستعمالها مرة ثانية. «كان ذلك نصف أجر أخيك اليومي عندما كان متدربا».

بعد ظهر أحد الأيام المغبرة والعاصفة قرب نهاية شهر مايو ركبت و٥٠ من زميلات فصلي الحافلة لمدة ساعة ونصف الساعة عبر منطقة سيونج يانج حتى لواء المدينة الشرقية حيث استقبلنا مندوبون من فريق إنتاج رقم ٢ كنا قد أرسلنا إلى هناك لنساعد في «أعمال الصيف الثلاثة» وهي منهاج يتعلق بالسياسة أكثر مما يتعلق بالمنطق. في فترة أسبوعين اثنين كان علينا أن نتعلم الزراعة والحصاد وإدارة الحقول وأن نصبح مؤهلين جسديا وعقليا بفعل العمل الشاق. كنا نسكن بناء كبيرا ذا أرضية مكنوسة. وبجانب الجدران وضعت ألواح خشبية فوق قش الأرز كأسرة لنا. ألقيت فراشي اللفيف فوق الألواح الخشبية وبدأت في إفراغ حوائجي.

لم يكن هناك الكثير من «العمل الفعلي» كما أوحوا لنا في البداية، كنا نجمع سنابل القمح المتناثرة في الحقول وبجانب الطرق وهو عمل سهل ولكنه ممل جدا. وبعد بضعة أيام حملنا حزم سيقان اللفت التي جرى حصدها وربطها بالقش. ولما كانت قرون البذور قصمة يسهل تساقطها فقد تطلب الأمر الكثير من الحذر عند نقلها إلى مكان الدرس. أعطانا الفلاحون التعليمات لحمل حزمة واحدة في كل مرة ولكننا انفجرنا جميعا في الضحك بعد رفع الحزم، بدت الحزم الكبيرة الغريبة لا وزن لها، تجاهلنا نصيحة الخبراء، وغادرنا وفي كل يد حزمة من السيقان نجهد للسير قدما فوق حواف الحقول المحروثة. امتلأت الحزم بالريح الشديدة حتى غدت كطيارات ورقية، جاذبة إياي إلى هذه الوجهة أوتلك، حتى فقدت توازني وسقطت فوق الأوساخ. تساقطت سيقان اللفت والتفت حولي. وفي نهاية اليوم كان ما لا يقل عن خمس منا قد التوت مفاصل كواحلهن. وفي اليوم التالي عدنا إلى التقاط سنابل القمح، وهو عمل سمح لنا بغفوة بعد الظهر.

لم يخف بعض القرويين مشاعرهم حول العمل بكامله، داعين مهمتنا النبيلة «إشعال شمعة لشخص أعمى». لكن البعض الآخر استمتعوا بزيارتنا في نهاية المطاف، وفي أحد الأيام سأل قائد الفريق المدرّسة جانج - مدرّسة اللغة الإنجليزية في السنة الثانية - ما إذا كان بالإمكان أن يجلس بعض الفلاحين خلفنا في دروس اللغة الإنجليزية المسائية. امتلأت الغرفة بالقهقهة والتقليد والمحاكاة. فالفلاحون الذين كانوا يتكلمون لهجة محلية وجدوا

حتى اللغة القومية تحديا كاملا. وأطلقوا على الكلمات الإنجليزية المكتوبة على السبورة «فراخ الضفادع».

عندما ترجلنا من الحافلة إلى باحة مدرستنا بعد أسبوعين شعرت أننا لم نكتسب شيئا سوى حزم ملابسنا المتسخة. استقبلنا مديرنا بخطاب طويل ممل رجع خلاله إلى دفتره باستمرار بينما كنا نحترق واقفين في الشمس اللاهبة.

بدأ بقوله «إن الإنجاز الجسماني لعملكم الشاق ليس مهما بقدر إنجازكم الفكري، من خلال عيشكم مع الفلاحين - أفضل المعلمين في الحياة». عندما تحدث المدير «لين» بنبرته الرتيبة. كرر النظر بعصبية إلى سكرتير المدرسة الحزبي فانج الذي وقف في الظل.

أعلن السكرتير بصوته المتكلف للحكمة أن كل فصولنا النظامية ستتوقف حتى إشعار آخر. علينا أن نكتسب الكثير من ثقافتنا السياسية. سندرس الوثائق الصادرة عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي - توجيه ٧ مايو، التعميم السادس عشر والمقالات الافتتاحية لجريدة بيبوولز ديلي جريدة الشعب اليومية، الناطقة الرسمية باسم الحزب. ونظرا للوهن الذي أصابني من الحرارة، أعرت القليل من الانتباه عندما أعلن أن حركة جديدة على وشك أن تبدأ.

عندما وصلت البيت في نهاية المطاف، أخبرتني أختي الكبرى أن دراستها قد علقت أيضا. الصغرى وجدت نفسها أيضا تحضر اجتماعات ومناقشات لا نهاية لها. شعرت بسرور كبير، فبعد أن لاحظت أخواتها يجهدن أنفسهن بالدراسة في مناسبات سابقة، لم تكن تميل إلى ذلك.

صاحت الصغرى بفرح «أشعر بالسعادة! لا مزيد من السهر ليلا، ولا مزيد من الكوابيس، لقد تحررت!».

ولكن الابنة الثالثة لم تشعر بالخلاص، لقد أرسلت إلى المنزل لتكتب إقرارا عقائديا - مرددة خط الحزب - لإعلان موقفها من الحركة الجديدة. نظرت من خلف كتفيها أرقبها وهي تحذف وتعدل في إقرارها.

أعتقد أنني لم أبد متعاطفة معها عندما قلت «أود أن أساعدك يا آه - سي ولكن ليست لدي أية فكرة عما يمكن أن أقترحه».

فردت قائلة «انتظري حتى يأتي دورك».

كانت العمة الكبرى أيضا تردد عبارات سياسية جديدة مثل «ثورة تلامس الكيان الداخلي لكل فرد وتطهر أفكار الشعب».

سخرت منها لأن من الواضح أنها لم تكن تفهم هذه المخدرات.

لم نعرف ذلك بعد، ولكن الثورة الثقافية البروليتارية العظمى كانت قد بدأت.

الجزء الثاني

رياح الفوضى

١٩٦٦ - ١٩٦٨

«علقوا الدروس للقيام بالثورة». هذا هو الملصق بالأحرف الكبيرة الذي رأيته حالما عبرت البوابة الأمامية لمدرستي في صباح اليوم التالي. تركت حقيبتي المدرسية وغذائي في المنزل لأنه لن تكون هناك دراسة، ولأن غرفة البخار حيث يطبخ الأرز لن تعمل. قال الملصق الثاني «تعيش الثورة البروليتارية العظمى». كان كل حرف ينتصب على الورق الأحمر كالدم انتصاب قامتي.

ويوما بعد يوم ممل آخر، قرأ علينا المدرسون بصوت مرتفع وثائق الحكومة والمقالات الافتتاحية التي كانت الصحف المحلية والقومية تثيرها بانتظام رتيب. تلك كانت طريقة الحزب في نشر المعلومات بشأن السياسات الجديدة، وشجب أو مدح الشخصيات السياسية الذين لم أسمع بهم من قبل. كان المدرس يطلب منا أن نقف ويقرأ كل منا فقرة، وكانت هذه طريقة جيدة لنبقى مستيقظين. وسرعان ما أصبحنا جميعا كالعمة الكبرى نردد الشعارات والعبارات التي لم نفهمها.

كنت أكرر الحركات، كغيري من الفتيات، لم تكن هذه «الحركة» هي الأولى التي أجبرت على المشاركة فيها: في السنة الرابعة عشرة من عمري (تنقصها بضعة أيام) أصبحت من المحاربين القدماء. افترضنا جميعا أن هذه الحملة موجهة بصورة رئيسة ضد العاملين في الحقول الثقافية، الذين - حسب تعبير العمة الكبرى، «يشربون الحبر ويلعبون بالأقلام»، لأنها ابتدأت برد فعل ماوتسي تونغ الغاضب ضد إزالة هاوي روي من منصبه. وهي مسرحية كتبها هوهان، الذي كان حينئذ وكيل عمدة بكين، والذي سرد قصة موظف شريف وشجاع أيام عائلة مينج تم نفيه بعد مواجهته للإمبراطور

باسم الناس العاديين. اعتبر ماو المسرحية تعبيرا رمزيا لإبعاد المارشال بنج دي - هواي -، وزير الدفاع السابق الذي هاجم في عام ١٩٥٩ السياسات المدمرة التي سببت المجاعة، ملقيا باللوم على ماو. ظننا أن الهجوم على الشخصيات الثقافية مثل هوهان سينتهي خلال بضعة أشهر، ولكنه استمر لعشر سنوات.

في صباح أحد الأيام سمعت مكبرات المدرسة تلعلع قبل دخولي من البوابة: «أيها الرفاق! استخدموا أقلامكم كسيوف ورماح ووجهوا كلماتكم كرصاصات ضد الرجعيين، اذهبوا لاستلام سلاحكم من المكتب الرئيسي». كانت حماسة الحركة في ارتفاع.

غادرت ومعي زجاجة حبر وفرشاتان وكدسة من الأوراق الحمراء تحت إبطي. في أسفل الدرج المؤدي إلى غرفة فصلي، لفت نظري ملصقان معلقان حديثا لأن الحبر لا يزال يسيل منهما. صرخ الأول «الثورة مبررة» وملأني الثاني بالارتباك والخوف «إذا لم يستسلم لين جوانج - مين، فسندمره!»، كما شطبت الأحرف الثلاثة الأولى من اسم مديرنا بإشارات الضرب. قبل سنوات رأيت رسوما كاريكاتيرية كثيرة لجون ف. كندي، الذي كتب اسمه باللغة الصينية كن ني - دي (يعض الأرض القذرة)، وكان كل حرف من اسم كندي الظاهر على تلك الملصقات قد شطب بإشارة ضرب لتظهر أنه عدو.

وقفت مشلولة. كان المدير «لين» في العقد الخامس من عمره، يحترمه جميع المدرسين والطلبة، كان رجلا «يتفحص الأرض قبل أن يخطو عليها خوفا من أن يدوس نملة»، كما كانت تقول مدرسة الجغرافيا. ماذا فعل ليستحق كل هذا الازدراء؟

في اليوم التالي وجدت عملي في اليوم السابق مغطى بملصقات جديدة أكثر هجومية. لقد ازدادت الحماسة قسوة. ولم أر الطلاب مطلقا بمثل هذه المعنويات العالية: لا دروس، لا مدارس، لا واجبات، وفوق كل ذلك الحرية لانتقاد المدرسين، وهي ظاهرة لا سابقة لها منذ أيام كونفوشيوس، الذي أكد أن المدرسين يجب أن يعاملوا باحترام وشرف.

انتقدت الملصقات الحمراء المدرسين لإعطائهم علامات متدنية أو لكتابة الملاحظات النقدية على بطاقات التقارير وفضحت حياتهم الخاصة عبر الإشاعات والقيل والقال.

قال أحدها إن مدرسة الرياضيات الشابة الجميلة - ياو - تقاسمت بيضة مع المدرس الأعزب - سينج. أكلت ياو الصفار فقط وأكل زميلها الباقي، ولذلك أسماها الطلاب في العلن «المدرسة صفار» و«المدرس بياض».

وأعلن ملصق آخر أن الابن الوحيد للمدرّسة جو - مدرّسة اللغة الإنجليزية في السنة الأولى - هو ابن بالتبني. إن قسوة ووضاعة هذا العمل كانت هائلة. فالتبني ضمن العائلات الكبيرة لم يكن غريبا في الصين، ولكن التبني من الخارج كان يعتبر في الغالب «كجلب الماء بسلة من القصب المحبوك»، بسبب المواقف التقليدية من قرابة الدم. ولذلك لا يكشف الأهل المتبنون هذه الحقيقة للابن، وعادة ما كانوا ينتقلون إلى مكان آخر - ويبدلون أعمالهم إن إمكن - لكي لا يفشوا السر.

ولم يكتف كاتب الملصق بذلك بل اتهم المدرسة جو بأنها رفضت إنجاب ابن طبيعي نظرا لغرورها «لأنها اعتقدت أن إنجاب طفل

سيفسد قوامها». وهي طريقة تفكير بورجوازية عفنة. رأيت مدرستي السابقة تقف أمام الملصق وتحاول عبثا أن تشرح للفتيات المحيطات بها أن التهمة غير صحيحة. قالت إنها لا تستطيع إنجاب الأطفال وإنها ستريهن التقرير الطبي.

ولما كنت غير قادرة على مشاهدة إذلالها شعرت بأنه لو كانت هناك أفواه في جميع أنحاء جسمها فلن يصغي إليها أحد، تسللت بعيدا. وفي الطريق إلى المنزل تمنيت لو استطعت أن استرجع الأفكار الظالمة التي شكلتها عنها عندما علقت دفتر اللغة الإنجليزية على اللوح. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ من سيكون دوره بعدها؟

وصلت متأخرة في اليوم التالي فشاهدت دائرة من البنات الصارخات قرب قاعة الاجتماعات تتوسطها المدرسة جو. بدت شاحبة ومنهكة. صاحت إحداهن «ماذا كنت تعنين عندما علّمتنا أن عبارة يعيش الرئيس ماو، تعني الرئيس ماو سيعيش طويلا؟» كانت تلك إحدى زميلاتي في الفصل تانج الملقبة «سوبر فلات» (المسطحة جدا) بسبب تسطيح رأسها ووجهها. الغريب أنني في خلال سنتين لم أسمعها تنبث ببنت شفة في الفصل. والآن ها هي تهاجم مدرستنا حول مسألة نحوية. لم يستطع أحد منا أن يعرب عبارة «يعيش الرئيس ماو!» لأننا لم ندرس بعد صيغة التمني، ولذلك اقترحت المدرسة جو أن نعتبرها في الوقت الحاضر «يعيش الرئيس ماو طويلا».

صاحت زميلة الفصل «إننا جميعا نتمنى أن يعيش الرئيس ماو إلى الأبد، ولكنك قلت إنه سيعيش مدة طويلة فقط. ما هو طول الفترة في ذهنك؟ ماذا كان هدفك الحقيقي؟ اعترفي!».

وفجأة انطلقت الفتيات في أغنية «نتمنى أن يعيش الرئيس والقائد العظيم ماو إلى الأبد». ولوّحن بكتاب صغير وهن يطاردن المدرسة المهانة عبر باحة المدرسة.

كان الكتاب مغلفا بالبلاستيك الأحمر بحجم ٥×٤ بوصات. أدركت أن كل شخص حولي يمتلك نسخة ما عداي، ونظرا لخوفي من مهاجمتهن للمدرسة جو، اعتقدت أن من الأفضل أن أحصل على كتاب بسرعة. اتجهت نحو المكتب الرئيسي حيث جلست طالبتان خلف طاولة مكدسة بالكتب الحمراء الصغيرة التي كان عنوانها «مقتطفات من أقوال الرئيس ماو» مطبوعا على الغلاف، أعطيتهما رقم فصلي وصفي.

سألت الفتاة الأكثر بدانة «ما خلفيتك الطبقية؟».

كل الاضطراب السياسي الذي انتشر في المدرسة وكل الهجمات الشخصية على المدرسات كان يجب أن يجعلني أكثر حذرا، ولكنني ما زلت ساذجة فأجبت «الطبقة الرأسمالية».

جاءني الجواب الغاضب «إذن لا تستحقين نسخ؛ فكتاب الكنوز الحمراء مخصص للطلاب المنحدرين من الفئات الحمراء الخمس وليس لطبقتك العفنة التي تفوح منها رائحة القاذورات والتي تستغل العمال».

ولم أستطع أن أصدق أذني، بحثت عن مدرسة للمساعدة أو لتقول لي على الأقل ماذا يجري، ولكني لم أر أحدا. ما هي الفئات الحمراء الخمس؟ ماذا تعني بتسميتي مستغلة للعمال وعضوا من الطبقة التي تفوح منها رائحة القاذورات؟ فعائلتي فقيرة وأنا أعيش على مساعدة الحكومة. شعرت بالدموع تلسع عيني ولكني رفضت ذرفها.

قلت لها «ليس لك أن تشتميني، إذا كنت لا تريدين أن تعطيني الكتاب، فسأبقى على قيد الحياة من دونه». جريت من المكتب والمدرسة ، عندما وصلت إلى المنزل أصبت بالانهيار، اعتقدت أنني لن أبكي مثل ذلك أبدا - بعد أن مات أهلي.

استمعت العمة الكبرى من دون مقاطعة، ثم ذهبت إلى منضدة زينتها وعادت وفي يدها كتاب أحمر.

عرضته قائلة «يا آه سي! خذي كتابي، عندما أعطتني إياه لجنة الحي لم أعرف ما هو، وكل ما أستطيع التعرف عليه هو صورة الرئيس ماو».

أجبتها «إنك لا تفهمين، أنا لا أبكي لأنني لا أمتلك هذا الكتاب، إنها الشتيمة. أنا لا أستحق الإهانة بهذه الصورة. تدعوانني قاذورات». رميت الكتاب واندفعت من الغرفة.

وكأنني لم أكن منزعجة بما فيه الكفاية، فقد وصلت الأخت الثالثة إلى المنزل ومعها نسخة من الكتاب الأحمر، وعندما أعدت سرد قصتي المحزنة، انفجرت ضاحكة وهي تقول إنني «بلا عقل» وأفتقر إلى «التفكير المرن».

قالت بسخرية «لماذا قلت لهما الحقيقة؟ هل تصورت أنهما ستزعجان أنفسهما بالتدقيق؟ هذه الكتب ترد بأحمال السيارات. قلت لهم إنني ابنة كاتب في مكتب، وهذا ليس كذبا صرفا. اشتغل والدي في مكتب وقام بأعمال مكتبية ومحاسبية، أليس كذلك؟ إن الأمر يتوقف على وجهة نظرك. اكبري يا آه - سي! لا تكوني ساذجة بهذا الشكل».

لابد أنني بدوت مندهشة. أهذا ما عنته أختي عندما قالت إنني لست «مرنة»؟

في تلك الليلة شرح لي الأخ الثاني ما هي الطبقات الحمراء الخمس: إنهم عمال المصانع، وفلاحو الطبقة المتوسطة الدنيا الفقيرة، وجنود وضباط جيش التحرير الشعبي ومسؤولو الحزب والشهداء الثوريون. ولذلك فإن عائلات هذه الفئات الخمس هم حمر أيضا. وعلى النقيض من ذلك تضم الطبقات السوداء المضادين للثورة واليمينيين والرأسماليين السابقين. وحتى الآن يعامل الرأسماليون بصورة مختلفة عن الفئات الأربع الأخرى، حسب صعود وهبوط ميزان الحرارة السياسي. لقد تم تحريضهم على تحويل أنفسهم إلى طبقة عاملة عبر العمل في أوائل الخمسينيات ثم اتهموا بجر الشيوعين الضعيفي الإرادة إلى الوحل في الستينيات.

تملكتني الحيرة والغضب لأن عائلتي كانت ضمن الفئات السوداء الخمس، كيف نكون رأسماليين؟ لقد ولدنا وترعرعنا في ظل الراية الشيوعية كما أننا فقراء. فأهلنا المدعوون بالرأسماليين في عداد الأموات ونحن لا نملك شيئا.

قررت قبل أن أخلد إلى النوم أنني لن أعود إلى المدرسة في اليوم التالي مهما قالت العمة الكبرى. ولدهشتي، لم تعترض، وقضيت يوما هادئا في المنزل، أقرأ فترة وأغفو أخرى. وبعد ذلك تغيبت كثيرا. في كل يوم كانت الأخت الثالثة تخبرني بما يجري في مدرستها: لقد جرى المزيد من التبليغ عن المدرسين علنا كل يوم، وحبسهم في «حظائر الأبقار» التي سميت بهذا الاسم نسبة إلى «عفاريت الأبقار» في الأدب الكلاسيكي. وكان الطلبة المنتمون إلى الفئات الخمس الحمراء يطالبون بتثوير الوضع على مدار

الساعة، وحولوا الفصول إلى مهاجع رافضين الذهاب إلى بيوتهم. عسكر في مدرستنا فريق عمل مؤلف من عمال المصانع وموظفي الحكومة، وأخذ يشجع الطلاب على «نسف الغطاء والكشف عن الصراع الطبقي». تساءلت الابنة الثالثة قائلة «لا أعرف كم سيطول بقاؤك في المنزل بهذا الشكل يا آه - سي، لقد اخترعوا اسما لأمثالك من الطلاب - الكسالى - ولن تستطيعي النجاة من فعلتك هذه لفترة طويلة».

بعد حوالى أسبوعين - في بداية شهر أغسطس - اندفعت الأخت الثالثة عبر الباب باكية. «لقد أطلقت عليّ زميلاتي أسماء شنيعة وقالوا لي إن والدي كان مستغلا! لا أستطيع يا آه - سي أن أتذكر ملامح والدي، كنت صغيرة جدا عندما مات، لا أستطيع أن أتذكر حتى ما كان يفعل لكسب العيش، كيف يعرف الآخرون كل ذلك؟».

بكت أختي طوال الطريق وحتى البيت لأن «الحراس الحمر الصغار» قد نبذوها، بسبب خلفيتها العائلية، ولم أستطع تهدئتها.

وكنت أنا نفسي خائفة من الاستدعاءات الموقعة من الحرس الاحمر التي تدعوني للمثول أمامهم في مدرستي. وكثيرا ما قالت العمة الكبيرة إنني إذ لم أرتكب اي خطأ فيجب ألا أخاف من القرع على بابنا في منتصف الليل. كررت هذا القول لنفسي وأنا في الطريق. ولو هوجمت لكوني كسولة فقد قررت الاعتراف بأنني «تنقصني الروح الثورية» للهروب من النقد.

كان الشارع خارج المدرسة ملتهبا بالملصقات ذات الأحرف الكبيرة «هشموا رأس الكلب الفلاني»، «اجلدوا اللئيم الذي سقط في الماء» (لا ترحموا الأشرار إن سقطوا). أعلن أحد الملصقات

تشكيل الحرس الأحمر في المدرسة وانتهى بالقول «إن الثورة ضد الرجعيين لأمر صائب».

لم يكن العم جان في غرفة البوابة. لقد تم استبدال سريره بالكراسي والمقاعد الطويلة. عرفت جميع من في الداخل باستثناء فتاتين شابتين ترتديان الملابس العسكرية الباهتة وأربطة الذراع الحمراء المكتوب عليها - الحرس الأحمر - باللون الأصفر وتحتها حروف صغيرة.

تحدثتني مجموعة من الفتيات عند البوابة. صاحت إحداهن «اذكري خلفيتك الطبقية!» لم يكن هناك وقت لاستعمال الخدعة التي اقترحتها الابنة الثالثة لأن إحدى الفتيات تعرفت عليَّ وأشارت بإصبعها «إنها الفتاة التي قالت لي إنها تستطيع العيش من دون كتاب المأثورات!».

تبخترت إحدى الفتاتين الغريبتين ووقفت أمامي، كانت أطول مني وكانت قوية البنية.

همست كفحيح الأفعى قائلة «إنك ابنة كلب رأسمالي!» عرفت من لهجتها أنها من أهل الشمال. أطرقت برأسي وكلي أمل ألا تكون الكثيرات من زميلاتي في الفصل قد سمعن ذلك. لكمتني على كتفي لأعتدل في وقفتي وقالت «اذهبي إلى البوابة الجانبية، سنتعامل معك لاحقا».

أصبت بالفزع ففعلت ما أمرت به. وحالما دخلت البوابة الجانبية واجهتني ثلاث من الحرس الأحمر. تم تسجيل اسمي وخلفيتي الطبقية وطلب مني التوجه إلى إحدى فتيات الحرس الثوري التي أشار شريط ساعدها إلى أنها من منطقة دونج شين في بكين.

وقفت وهي تتصبب عرقا في زيها العسكري الذي لا يناسب مقاييس جسمها، وقبعتها مشدودة نحو الأسفل، وإبطاها يحددهما العرق، وإبهاماها في نطاقاها في الوضع الذي يمتدحه ماو، الذي كتب قائلا إن المرأة الصينية تفضل لباس المعركة على الحرير.

أمرتني أن أنضم إلى ست فتيات أخريات في مواجهة جدار من الآجر. عرفتهن جميعا، كن دائما أنيقات الملبس وبعضهن عضوات في اتحاد الطلبة، وهذا منصب محترم في نظر معظم الناس وأنا منهم. ولم تقل أي منهن أي كلمة.

انتابني شعور بأنها ليس المرة الأولى التي يواجهن فيها الجدار، ولذلك حذوت حذوهن ووقفت بصمت أنظر إلى حذائي القطني الأبيض.

وعلى رغم أن الوقت لم يبلغ التاسعة صباحا، فإن الحرارة كانت خانقة ولاسعة وتنفث من الجدار. وعند الظهيرة كنت قادرة على معرفة الوقت من تقدم الظلال البطيء. كان هناك حوالى ١٠ منا يذوين في الصف. وأخيرا قادتنا عضو الحرس الأحمر من بكين نحو باحة المدرسة. لم تكن هناك الكثيرات من الطالبات، إذ أجبرت الحرارة الشديدة معظمهن على اللجوء إلى الداخل. كانت باحة الفضلات كمصبغة مليئة بالخرق الباهتة التي تتدلى من جبال الملابس الممتدة من جانب إلى اخر.

صاحت بنا قائلة «آمركن أن تقرأن ملصقات الأحرف الكبيرة وتعدن إلي قبل أن تذهبن إلى البيت، ربما نستطيع اقتلاع بعض الأفكار الرأسمالية من رؤوسكن العفنة».

تجولت بين صفوف الملصقات المعلقة فلم أجد فقط نسخا كثيرة من الملصق نفسه ومقالات صحافية مكررة، بل وجدت أيضا أن بعض الكتاب قد حذفوا - عن غير قصد - أنصاف جمل أو فقرات كاملة، مما جعل الملصق مجرد نكتة. وكانت كل الملصقات موقعة بما يلي «الشرق أحمر» أو «الدفاع عن الشرق» أو «الجماهير الثورية» أو «الثوار الحمر».

قلت في نفسي «ما أسخف ذلك!» ولكنني شعرت برعشة عندما رأيت المدرّسة جانج - مدرسة اللغة الإنجليزية في السنة الثانية - قد جرى شجبها، لقد أدرج أحدهم اسمها وأسماء إخوتها وأخواتها ورسم دائرة حول الحرف الأوسط من كل أسم؛ فأصبحت الأحرف «تعيش جمهورية الصين!».

أدركت أن المدرسة جانج في ورطة كبيرة. كان حزب تشان كاي تشك الوطني - الكومنتانج - يشير إلى الصين على أنها جمهورية الصين وليست جمهورية الصين الشعبية قبل أن يستولي الشيوعيون عليها. وإظهار الولاء إلى الكومنتانج - مهما كان قليلا - يعتبر خيانة. ولكن لماذا يلومون المدرسة جانج ولا يلومون والدها؟

كان الأخ الأكبر كثير الوجود في المنزل لأن الجامعة كانت في حالة اضطراب، وكل الدراسات معلقة لمصلحة التنوير السياسي الذي لا نهاية له. في تلك الليلة سألته حول قضية المدرسة جانج، فقال إن من الواضح أن أفراد عائلتها ولدوا عندما كان الوطنيون في السلطة، وأن والدها وجد طريقة ذكية لإظهار الولاء للنظام، وشرح أنه من الصعب تغيير الأسماء بطريقة قانونية. فهنالك إجراءات بعدد شعرات جلد الثور.

وعندما أخبرته عن الحرس الأحمر من بكين انتابه القلق.

«اسمعي يا آه سي! اعملي ما تؤمرين به ولا تجادلي ولا ترد بفظاظة أبدا، أنا أعرفهم جيدا، فلسانك الطويل سيوقعك في المشاكل، فحرس بكين الأحمر هم أبناء كبار موظفي الحزب، وقد حصلوا على تأييد الرئيس ماو، ويمكن أن يكونوا خطيرين جدا إذا أغضبتهم».

قالت الأخت الثالثة «ليس هناك حرس أحمر مستورد في مدرستي. من المرجح أنهم سيعاقبونك لغيابك عن المدرسة يا آه سي».

لم تتدخل العمة الكبيرة في الحديث. ولكن عندما أوينا إلى الفراش بدأت بالكلام محدقة في السقف «ها أنت يا آه - سي تتعرضين ثانية لطغيان الحرس الأحمر، لماذا يلاحقك سوء الحظ؟ إن لم يكن ذلك قدرا فماذا يكون؟» وتنهدت بعمق قائلة «لوتركتني والدتك أتبناك عندما عرضت ذلك، لكنت ابنة امرأة من الطبقة العاملة ولكنت عندها في أمان».

تابعت التحدث مع نفسي قائلة إنني لن أخضع للتهديد، ولكنني عندما اقتربت من المدرسة في اليوم التالي بدأت أشعر بالارتخاء في ساقي وللمرة الأولى شعرت بالامتنان لأن أي من زميلاتي لا تعيش في زقاقي، ولأن المدرسة بعيدة جدا، فلن تشهد أي من فتيات الجوار إذلالي.

أعادت هذه الفكرة إلى ذاكرتي أحد أقوال ماو الذي كانت تبدأ فصولنا الدراسية اليومية حتى وقت قريب به: «الأشياء الجيدة يمكن أن تنقلب إلى أشياء سيئة والعكس صحيح». كنت أتساءل

دائما لماذا كانت هذه المقولة الفارغة موضع احترام، وعما إذا كانت تتضمن بعض الحقيقة. وقبل الوصول إلى المدرسة قررت ماذا سأضمن تقريري الفكري الذي سأقدمه إلى الحرس الأحمر، سأخبرهم أنني فهمت الآن مقولة ماو، وأنني تعلمت مدى صحتها من تجربتي، ولكنني لم تسنح لي الفرصة. يبدو أن مجموعتي عوملت برقة فهي تتجول وتقرأ الملصقات. قرأت إحدى عضوات حرس بكين الأحمر بصوت عال من الكتاب الأحمر «ليست الثورة حفلة عشاء، وليست كتابة مقالات ورسم صور أو تطريزا؛ الثورة صراع طبقي بين الحياة والموت».

قسمتنا إلى مجموعات عمل وجعلتنا نبدأ صراع الحياة والموت - تنظيف المراحيض وتنظيف الفصول.

أدركت أن هذه المهمة لم تكن محاولة لمساعدة الحارس - العم جانج العجوز - الذي كان يقضي إقامة جبرية في حظيرة الأبقار بجانب المدير؛ لأن الحرس الأحمر ادعى أنه كان جاسوسا لرب عمله السابق - مدرسة الإرسالية المسيحية.

وحسب تقديري، لم يكن العم جانج قادرا على أي شيء سوى مطابقة وجوهنا مع الصور على بطاقة الطالب. لم أستطع أن أتصور العم جانج العجوز الأمي جاسوسا لأي كان.

وهكذا تتابعت أيام أغسطس الحارة. لم أتصور أنني سأنظف الأرضيات الوسخة ثانية بعد أن تركت مدرسة المعبد، ولكني سرعان ما اعتبرت الزمن الذي قضيته في تنظيف الجادة الخلفية ومسح الأرضيات والأدراج الخشبية وتنظيف غرف الغسيل أفضل أيامي. الأيام السيئة هي تلك الأيام التي تعرضت فيها للصراخ

وأجبرت على كتابة النقد الذاتي تماشيا مع طلبات الحرس الأحمر المرتفعة من دون تردد. وكثيرا ما تساءلت ماذا كانت ستفكر والدتي وهي ترى ابنتها ذات الأربعة عشر ربيعا تعامل كمجرم محترف.

حتى الآن نشر الحرس الأحمر الخراب إلى حد كبير داخل المدارس والجامعات فقط، ولكن حادثة في بكين قلبت الوضع بصورة مأساوية. في ١٨ أغسطس ظهر الرئيس ماو مرتديا بزة عسكرية عند بوابة السلام السماوي. وهناك قدمت له -رسميا- عضو شابة تدعى سونج بنبن شريط ذراع الحرس الأحمر. وبنبن (تعني لطيفة)، اسم فتاة شائع جدا. سألها ماو «هل ترغبين العنف؟».

أفادت التقارير الصحافية عندئذ أن الفتاة الشابة قبلت في تلك اللحظة اقتراح ماو وغيرت اسمها إلى سونج - ياو - وو (سونج تعني العنف). اعترفت سونج بعد سنوات أن الفتاة التي كانت ترتجف إذا رأت صرصورا ميتا، انقلبت إلى ثورية «لا يمكن أن يرف لها جفن وهي تضرب رجلا حتى الموت».

اندفع مئات الآلاف من الشباب في طول البلاد وعرضها ليغيروا أسماءهم تجاوبا مع صرخة ماو. ومنذ ذلك اليوم انتشرت حركة الحرس الأحمر - بمباركة الرئيس ماو نفسه - في الشوارع ولم تعد أهدافها مقصورة على المدرسين والطلاب ذوي الخلفية المدرسية السيئة. أطلق ماو - تسي - تونج عاصفة عاتية ابتلعتني وإخوتي وأخواتي لأننا ولدنا لأب رأسمالي وأم رأسمالية لم يكونا موجودين بأنفسهما ليتعرضا للهجوم.

«يعيش الرئيس ماو! تعيش الشمس الحمراء في قلوبنا». تلك كانت صرخة الحرس الأحمر الباكي في مدرستي عندما أعلن عن مباركة ماو، وعندما أعطوا الضوء الأخضر ليمارسوا ماشاء لهم من عنف وفوضى، بدأوا بالانطلاق من المدرسة «لتدمير الفئات القديمة الأربع». ضم هذا الصنف الغامض من الأعداء الثقافة القديمة والعادات والتقاليد القديمة وطرق التفكير القديمة.

بعد بضع ليال سمعت وأختاي جلبة طبول وأصوات هادرة هرعنا إثرها للشوارع نستكشف مصدرها. كان شارع وودنج يموج بالحشود المتدفقة من الناس وبالألعاب النارية والشعارات الصادحة. لم تشهد عيناي شيئا من هذا القبيل أبدا، حتى ولا تلك الحملة الهستيرية التي شنت يوما ما للدعوة لصنع الفولاذ. مشيت وأختي الثالثة بانزعاج، ومشت أختي الخامسة فيما بيننا.

رحنا نرقب الحرس وهم يغيرون اسم شارعنا من «وودنج» إلى «ياوو»، ليردد أصداء دعوة ماو. وبدأنا نشعر حرارة النيران الاحتفالية التي أضرمت بكتب ولوحات ومطرزات تزيينية وغيرها من «السلع البورجوازية» التي استولى عليها الحرس الأحمر لدى مداهمتهم البيوت المحلية. تعرضت النساء اللواتي صففن شعرهن بطريقة «بورجوازية» إلى قص شعورهن الطويلة في الشارع، أما الرجال الذين قصوا شعرهم على طريقة كنيدي فقد كانوا عرضة لإهانات مماثلة. وحتى أولئك الذين ارتدوا سراويل ضيقة من الأسفل تم إيقافهم، بينما أعمل الحرس مقصاتهم في سراويلهم الضيقة يشبعونها تمزيقا.

أما من لبس حذاء جلديا مدبب الرأس فقد نزع عن قدميه وألقي به في النار. «لن نقبل بمثل هذه «البدع الغريبة العفنة»، بل سنخلص الصين منها إلى الأبد»، هذا ما رددته شعارات الحرس الأحمر بصوتها الهادر.

بعد مضي بضعة أيام استوقفتني فتاتان وأنا في طريقي من المدرسة إلى البيت. لم تكن الفتاتان من «الحمر الخمس» ولا من السود الخمس، بل من اللون الرمادي الذي يشير إلى أبناء العاملين في المتاجر، والكتبة ومعلمي المدارس الابتدائية والمتوسطة.

انتمت هذه الفئة إلى وحدة ثانوية من الحرس الأحمر، لأن أبناءها لم يكونوا «خالصين» بما فيه الكفاية ليستحقوا شرف العضوية الحقة.

أعلمتني الفتاتان على عجل أنني محظوظة إذ سمح لي أن أنضم إلى المسيرة الليلية التي ستنظم للتعبير عن دعم شنغهاي للثورة الثقافية البروليتاريه الكبرى. أما كلمة «سماح» فقد عنت أنه يحسن بي أن أشارك في المسيرة وأن أنتهز الفرصة لأثقف وأصلح نفسي. استنكرت غطرستهما وإن سررت في أعماقي لهذه الفرصة فقد ضاقني أن أبقى موضع التأنيب والإساءة في المدرسة.

فلربما إذا اشتركت في المسيرة فلن يدعوني رأسمالية تفوح منها رائحة القاذورات بعد ذلك.

ولكنني خفت ألا أستطيع تحمل عرض ليلة كاملة، لقد بدأت دورتي الشهرية في اليوم السابق، ماذا أفعل إن لم يسمح لي الحرس الأحمر بالذهاب للمرحاض؟

وعند حلول الليل ساعدتني العمة الكبيرة في الاستعداد. ملأت حقيبتي المدرسية بالورق الصحي وأضافت زوجين آخرين من السراويل الداخلية في حالة الحاجة إليهما. وعندما شققت طريقي وسط الرياح والأمطار الغزيرة إلى المدرسة، انقلبت مظلتي وبللني المطر، أرسلت إلى نهاية عرض مدرستنا مع أخواتي (مراقبات الآجر)، وهو الاسم الذي أطلقناه على أنفسنا بعد قضاء ساعات طويلة تحت أشعة الشمس الحارقة ونحن نحدق في الجدار.

بدأنا المسيرة في الشوارع المظلمة تحت الأمطار الشديدة. استغرق الاستعراض نصف ساعة للوصول على الشارع الرئيسي حيث أجبرتنا حشود الآلاف من أفراد المسيرات المتلاقية على التوقف. توقف هطول المطر ولكن الرياح مزقت أعلامنا الورقية الرقيقة وبقينا نرفع عصي الخيزران العارية. تماوجت الأعلام الحمراء الكبيرة وطقطقت: وذابت حروف الحبر الأسود على اللافتات القطنية البيضاء مشكلة بقعا لا معنى لها.

وعلى رغم أن ملابسنا كانت مشبعة بماء المطر فقد وقفنا تسفعنا الرياح لأكثر من ساعة.

أصبحت يائسة من الوصول إلى مرحاض أبدل فيه الورق الصحي. وأخيرا أفلحت في جذب انتباه الحرس الأحمر وتلقيت الإذن لمغادرة الاستعراض للذهاب إلى البيت بصحبة فتاة تعيش في الجوار.

أخذتني يو - ماي (زهرة الدراق) إلى شقة عائلتها الفاخرة ذات الباب الفولاذي الضخم المحفور عند مدخل الزقاق. كان والداها

الكهلان يجلسان في غرفة الجلوس يقرآن غافلين عن العواصف السياسية والجوية في الخارج.

أرشدتني يو - ماي إلى حمام فاخر فيه مرحاض غزير الماء وحوض استحمام ومغسلة. ارتبك الوالدان للزيارة ولكني شكرتهما في أثناء خروجي وأشحت بوجهي بسرعة لكي لا يتعرفان علي إذا قابلتهما ثانية.

عندما انضممنا إلى الاستعراض الصاخب والمتوقف الذي لم يتحرك بوصة واحدة، بدأ إنهمار المطر ثانية، تمنيت لو كان لي معطف مطري كمعظم الآخرين فقد كان من الصعب عليَّ الاحتفاظ بمظلتي المتسخة بالوحل فوق رأسي في هذه الرياح. مضى الوقت متباطئا للغاية، ومع ذلك بقينا مسمرين في وسط الشارع المظلم. بدأت أعتقد أن احتجازي اليومي المصحوب بالعرق في المدرسة أفضل من مسيرة البرد والجوع هذه.

بعد منتصف الليل بدأت التشنجات تعتري بطني ثانية، وأصبحت بحاجة إلى تبديل، ولكن كل الأوراق الصحية التي رتبتها العمة الكبرى بجهد كبير تبللت بمياه المطر. كانت يو - ماي قد اختفت ولم أستطع أن أجد فتاة أخرى لتأخذني إلى بيتها. من حسن الحظ كان الظلام حالكا ولم يكن بالإمكان رؤية البقع على بنطالي المبلل.

وشيئا فشيئا أخذت حماسة الجماهير تفتر. لُفَّت الأعلام وتم التخلي عن اللافتات. كما اختفى ترديد الشعارات والتلويح بالقبضات وهراوات الخيزران.

وأخيرا سرى الهمس عبر العرض المتوقف أن وجهتنا هي ساحة الشعب في قلب المدينة حيث سيحيينا العمدة وموظفو البلدية الآخرون. أثارت الأخبار حماسا كبيرا لأن استقبال كبار الموظفين لنا يماثل مباركة الإمبراطور في الأيام الخالية. أما بالنسبة لي فلا شيء يعادل العثور على مرحاض. بدأت أتفهم معنى كلمة الحج التي قرأتها في الرواية الكلاسيكية (رحلة إلى الغرب). واصل الليل زحفه، وكان نزيف الدم قويا بحيث أشعر بالوهن، وبدأت أسناني تصطك والقشعريرة تسري في جسدي.

وأخيرا بدأت المسيرة في التحرك، تابعنا ببطء سيرنا حتى بدأت الأنوار الباهتة تظهر في السماء.

وعند الفجر دخلنا الساحة. من بعيد، بدأ ثلاثة أو أربعة أشخاص بالتلويح لنا ولكنهم كانوا صغارا بحيث لم أكد أراهم. إنهم يقفون فوق منصة استعراض مرتفعة ومسقوفة فهم بالطبع غير مضطرين للوقف في الأمطار والعواصف، وبعد بضع لحظات بدأ ثلاثة أو أربعة أشخاص التلويح لنا، وبعد بضع لحظات بدأ الحرس الأحمر يتراكضون إلى أول وأخر الصفوف قائلين لنا إن العرض قد انتهى وبإمكاننا الذهاب إلى بيوتنا.

سرعان ما تفرق الجمهور الممتن في كل الاتجاهات إلى مواقف الحافلات، أنهكتني أميال السير والوقوف خلال تلك الليلة الماطرة العاصفة، فبدأت مسيرة الميلين إلى البيت بعد أن استنفدني التعب وفقدان الدم. لا أذكر وصولي إلى البيت. عندما استيقظت كان الوقت قد تجاوز الظهيرة، وكنت بين اليقظة والنوم أسبح في الدماء في سرير العمة الكبرى، وثيابي لا تزال مبللة بالمطر

والدماء من الليلة السابقة. سحبت نفسي من السرير بهلع، لا فائدة: تسرب الدم عبر فراش القش وصبغ أغطية السرير. نحّت العمة الكبرى اعتذاري بيدها قائلة «لا يهم يا آه - سي، استمتعي بحمام ساخن وسأهتم أنا بهذا».

كان الحمام الساخن بعد النوم رائعا، وبعد أن انتهيت، أعدت العمة الكبرى فنجانا من حساء الزنجبيل المغلي مع السكر الأحمر. لم أخبرها عن الورق الصحي المهدور.

عندما عدت إلى المدرسة في الأسبوع الأول من شهر سبتمبر، كان الحرس الأحمر من بكين قد اختفوا. ومع ذلك بدت باحة المدرسة مقززة، لأن الإعصار أزال كل الملصقات وطرحها أرضا مما سد المجاري تاركا هنا وهناك بركا مصبوغة باللون الأسود. هذه المؤسسة التي كان يجب أن تغص بفتيات المدارس السعيدات في بداية السنة الدراسية الجديدة، أصبحت في الشهور القليلة الماضية مكانا للثارات البغيضة. لقد غدت الآن تشبه مدينة أشباح.

استدرت وعدت إلى البيت، الآن أصبحنا جميعا عاطلين عن العمل باستثناء الأخ الثاني، وأصبح زقاقنا مكتظا بأطفال المدارس المتسكعين بلا واجبات يؤدونها. كنت سعيدة لبقائي في البيت، ولكن الأشياء الحلوة لا تدوم طويلا. في الساعات المتأخرة من بعد ظهر أحد الأيام - عندما كانت معظم العائلات تعد طعام العشاء - أخرجنا من مطابخنا ثانية قرع الأقراص النحاسية والطبول.

قاد حرس بكين الأحمر مجموعة من الفتيان المحليين إلى جادتنا وهم يسيرون ببطء ويتفقدون أرقام الأبنية. تسلل الكثير

من المتفرجين - وبينهم زوجة بو - لو من البناية المجاورة لبنايتنا ووالدة صديقي - ينج - بعيدا آملين من دون شك ألا تكون الغارة موجهة ضدهم. وعندما تجاوزني الحرس الأحمر وهم يقرعون طبولهم وأقراصهم النحاسية ويرددون الشعارات ضد الرأسماليين وعناصر الثورة المضادة، سرت خلفهم. ولسعادتي، تجاوزت المسيرة الصاخبة بابنا وتوقفت أمام البناية رقم ٤٥، صاح قائد المسيرة «اخرجوا يا عائلة ياو».

بدأ بعض أفراد الحرس يلصقون بعض الملصقات على جدران زقاقنا، واندفع الآخرون إلى شقة ياو.

بدأ شن الغارات على زقاقنا، وفي الأيام التالية ازدحمت المنطقة بالحرس الأحمر. والعجوز يانج - العامل المقيم في بيته نظرا لإصابته - عمل كمصدر معلومات لنا وهو يجدد إحصاءاته باستمرار «حتى الآن تم تفتيش ١٨ عائلة في البناية رقم ٧٥، أزال الحرس الأحمر مصارف السطوح ليروا ما إذا كانت سبائك الذهب قد خبئت هناك، والآن يفتشون بالبنادق تحت بلاط السطوح».

أصيب السكان بالرعب، وأصبح قرع طبول الألعاب يشل الحديث. انتشرت الغارات إلى المنازل القريبة منا ثم إلى المنزل المجاور. كنت أراقب الغارات عبر نافذة غرفة نوم العمة الكبرى أثناء جلوسها لإصلاح الجوارب.

صب الحرس قوارير الحبر في أدراج طاولات الزينة وفوق الكنبات؛ إذ غضبوا لأنهم لم يجدوا الذهب الذي ظنوا أنه هناك. أضرموا النار في المنور وأحرقوا الكتب والصور القديمة والحديثة برميها من النوافذ العليا إلى لهيب النار. أفزعني الدمار العبثي،

وتساءلت ما إذا كانت العمة الكبرى لا تزال تؤمن بأن الشخص الذي لم يرتكب أي أخطاء لا يخاف شيئا؟!.

صرخ الأخ الأكبر خلفي مندفعا إلى الغرفة ومغلقا النوافذ أمام عيني «يا آه - سي! يا آه - سي! تعالي معي الآن!».

وقفت أختاي في الغرفة الأمامية صامتتين. كان فخر والديَّ ومتعتهما خمس صور من عهد أسرة فنج القديمة. لم يخطر ببال أحد أن يبيعها للحصول على النقد المطلوب. لقد علقت على الجدران طيلة حياتي محمولة فوق حرير ناعم مع لفائف من خشب الورد في الأسفل. أربع منها لفائف مناظر طبيعية للربيع والصيف والخريف والشتاء، يزيد طولها على ياردتين وعرضها عن نصف ياردة، مصنوعة بطراز صيني تقليدي. أما الخامسة - القطعة الرئيسية - فهي تصور ثلاثة نمور متوحشة بدت حقيقية كأنها تهبط من الجدار وتتجول في الغرفة.

انتشرت الصور الآن على الأرض، نظرت إلى أخي نظرة تساؤل، إنه الآن في العشرين من عمره وهو رب العائلة.

قال «هذه هي الأشياء الوحيدة التي يمكن أن يعاقبنا عليها الحرس الأحمر» قال ذلك بوجه عابس وصوت منخفض وواضح التصميم.

نظر كل منا إلى الآخرين. قلت بسخرية «ولماذا يأتي الحرس الأحمر إلى هنا؟».

أجاب أخي «إذا كانوا يفتشون عن الذهب والجواهر في بيت عائلة تعيش على الضمان الاجتماعي، فإن ذلك يفضح حماقتهم، ولكن هذه الصورة قديمة وتعود إلى الفئات القديمة الأربع، علينا

أن نريهم بيتنا نظيفا لأنهم إذا غضبوا علينا فلا أحد يعرف ماذا سيحدث، لقد ضربوا بعض الناس حتى الموت لأقل من ذلك».

وفجأة عرفت ما علينا فعله، لا أحد يريد أن يقول الكلمة الأولى أو يتخذ الخطوة الأولى.

قطعت العمة الكبرى الصمت المتوتر بقولها «سأرمي القطع في برميل الزبالة بعد حلول الظلام». لكنها لم تقل ما كنا جميعا نعرفه: إنها نسبيا في أمان من الهجوم لأنها كانت امرأة عاملة طوال حياتها ومستقلة في الواقع ومنفصلة عنا نحن أبناء الرأسماليين. وأضافت قائلة «احذروا! فالحرس الأحمر لن يترككم بسهولة، افعلوا ما يتعين عليكم وأخبروني عندما تنتهون من ذلك». عادت إلى غرفتها وانتظرت هناك.

قال أخي الأكبر «حسنا! صورة لكل فرد، سيعود الأخ الثاني إلى البيت قريبا للمساعدة».

لم أكن أعرف تماما ما تعنيه كلمة تحفة أثرية» كل ما عرفته هو أنني أحببت هذه الصور بجمالها وقوتها وخطوطها الشاعرية. والآن ها نحن مستعدون لتمزيقها إلى قطع بالمقص كما لو كنا نقوم بعمل فني. اخترت «الشتاء» ظنا مني بأن كرهي للفصل الرطب البارد سيسهل عملي، ولكني كنت مخطئة، فسرعان ما تساقطت الدموع على الصورة أثناء عملي. نظرت إلى أختي الصغرى فرأيتها تناضل بمقص كبير الحجم، تقص ثقوبا هنا وهناك في صورة «الصيف» فتسارعت دموعي في التساقط.

صرخت بها وقد أدركت سخف كلماتي في الحال «توقفي إنك تفسدينها». ضممتها بين ذراعي وهي تبكي، كانت المرة الأخيرة

التي بكينا فيها جميعا بهذا الشكل عندما ماتت والدتي قبل ثمانية أشهر.

حثنا الأخ الأكبر بقوله «تابعوا وأسرعوا» فعدنا ثانية إلى عملنا الكريه.

رأيت العمة الكبرى تغادر المكان وحقيبة الخياطة مملوءة بقطع اللوحات في حين كنس أخواي الجدار بمكانس قذرة لإخفاء الآثار التي خلفتها الصور مما زاد من مخاوفي. فأي آثار أو علامات دهان جديد ستؤدي إلى اتهامنا بمحاولة إخفاء الأدلة.

كانت بنايتنا إحدى البنايات القليلة في الزقاق التي لم تفتش بعد. وكانت الجدة نينجبو مذعورة تماما وهي تقفز من عتبة بيت إلى أخرى. قص الحرس شعر الجدة ياو في البناية رقم ٤٥ مما جعلها تبدو كامرأة مجنونة، وأصبحت تحت رقابة أحفادها الثلاثة الدقيقة لأنها حاولت أن تنتحر. كانت السيدة كياو في حالة أسوأ بعد أن تلاسنت مع الحرس الأحمر عندما حاول أحدهم شتم أبنائها: حلقوا نصف شعرها واصفين القَصَّة الجديدة بما سموه - بسخرية - طراز ينج - يانج.

جلسنا في شقة عائلة يي في انتظار المصير المحتوم.

وأخيرا في ليلة حارة قريبة سمعنا وقع أقدام على أدراجنا متبوعا بقرع على بابنا. لم تكن هناك أقراص نحاسية أو طبول أو ترديد شعارات أو شتائم.

فتح أخي الأكبر الباب بتردد، إنه العم يو - أحد عمال مصنع والدي - الذي وظفه والدي كطاهٍ قبل سنوات طويلة ؛لأنه من مدينة ووهسي ويستطيع طهو أنواع الأطعمة التي يحبها والدي. ضغط العم يو بسبابته على شفتيه وأغلق الباب بسرعة. كان رجلا

قصيرا ومنتصب القامة ذا وجه مستدير وممتلئ على رغم أنه كان قد تجاوز الخمسين.

همس إلى الأخ الأكبر«يا دو! أتيت لأخطركم أيها الأطفال، سمعت الحرس الأحمر يتحدثون في المصنع، إنهم يخططون للإغارة على منزلكم غدا».

وتابع حديثه قائلا إن العمال انقسموا إلى فريقين: الموالين الذين لا يزالون يدعمون حكومة المدينة، وعمال شنغهاي الثوريين الذين يريدون إسقاطها.

أنضم الأخ الثاني إلى الموالين لأنه لم يكن من الممكن أن يبقى على الحياد، وتابع العم يو قائلا بنغمات خفيفة اعتذارية إن هناك عددا من الملصقات في المصنع تسمي والدي بأسماء مهينة وتقول إن روحه ترفض أن تغادر المصنع.

قلت «يدعي الشيوعيون أنه لا توجد أشباح فماذا يقصدون بوضع الملصقات التي لا معنى لها». قاطعت الأخت الكبرى قائلة «لماذا يأتون إلى هنا يا عم يو؟».

شعر الرجل العجوز بالقلق كما شعرنا. قال «ليست لدي أي فكرة، ولكن لا تعطوا أي شخص مبررا لإيذائكم». ثم فتح الباب ونظر إلى الصالة ثم خرج.

تأثرنا جميعا بشجاعة العم يو، فمن منطلق الولاء لوالدي، عرَّض نفسه لخطر كبير في سبيل إخطارنا، هذه هي المرة الأخيرة التي رأينا فيها هذا العجوز العطوف. بعد أن أعلن الحرس الأحمر الحقود أن ابنته متبناة، غادرت شنغهاي حاملة معها أحفاد العم يو الذي انتحر بعد بضعة أشهر.

لم أستطع النوم في تلك الليلة، وكذلك لم تستطع العمة الكبرى التي تقلبت وتنهدت بجانبي في الحر. لم تقل شيئا بعد أن غادر العم يو، وعندما فكرت في ذلك أدركت أنها كانت صامتة كعادتها منذ أن بدأت الغارات.

كسبت العمة الكبرى عيشها بيديها طوال حياتها، وكانت تحسد والدتي ومثيلاتها اللواتي كن فتيات ريفيات ولكنهن عشن حياة أفضل من حياتها وفرها لهن الزواج، بينما حلت عليها لعنة الحظ السيئ. راقبت العمة الكبرى والدتي تبدأ حياة جديدة محاطة بالأطفال، ومن مفارقات القدر أن حظها السيئ قد أمنها الآن من الغارات.

انتظرنا طيلة اليوم التالي. احتشدنا نحن الستة في شقتنا المؤلفة من ثلاث غرف، وعندما حل الغسق أصيبت بنايتنا إصابة مزدوجة: تمت الغارة على شقة الجدة نينجبو أولا، ثم بعد نصف ساعة من الصياح والتهشيم جاء دورنا.

ترافق الطرق المتواصل على بابنا بالأوامر العالية لفتح الباب. اندفع ستة أشخاص إلى الغرفة - ستة من الحرس الأحمر: فتاتان وأربعة شباب - كلهم في أواخر سن المراهقة أو أوائل العشرينيات، وكلهم يعبثون بإشارات الذراع الحمراء.

ورافق هؤلاء الستة عامل شاب من مصنع والدي، أمرنا القائد - الذي كان من بكين - أن ندخل غرفة نوم والدي.

صاح بنا القائد «شكلوا صفا في وسط الغرفة» وقفنا ورؤوسنا منحنية بينما كان يقرأ علينا عدة بنود من كتاب ماو النفيس «من يعيش في هذا المجتمع فإنه موسوم بالطبقة التي ولد فيها!».

صاحت فتاة من الحرس عندما انتهى القائد من القراءة.

جلس البكيني والعامل وراء طاولة والدي وتفحصا دفتر التسجيل مقارنين ذلك بقائمة في يده وأمرانا أن نقف صامتين ووجوهنا إلى الأمام وأن نجيب عندما ينادى بأسمائنا. وبدأوا بتفتيش غرفتينا بصورة منهجية. أما غرفة العمة الكبرى فقد تركت وحدها عندما أشار العامل إلى أنها عاملة متقاعدة، بقيت العمة في الداخل وبقي باب الغرفة مغلقا.

لوحت إحدى الفتاتين التي تفتش في أدراج المزينة بجوارب قطنية ذات نعال متعددة الإصلاح وصاحت ساخرة «هل هذه جوارب أم أحذية؟ يبدو أن هذه العائلة ذات نعال حديدية!».

انفجر الحراس الذين في غرفة النوم ضاحكين، ولكن المستجوب ركز انتباهه على قائمته. وقفت صامتة أفكر في إحدى استشهادات ماو «كلما كان الناس أكثر فقرا، كانوا ثوريين!». وتذكرت أحد أقواله الشهيرة «إن الفقر أشبه بقطعة ورق أبيض تستطيع أن تكتب عليها أفضل الرقع وترسم عليها أجمل الصور». ومع ذلك - وفي الوقت نفسه - كنا نتعرض للإهانة أولا لأننا أبناء رأسمالي وثانيا لأننا كنا فقراء إلى درجة أننا نرتدي جوارب ممزقة.

قطعت حركة مفاجئة سلسلة أفكاري عندما ضرب البكيني بقبضته على الطاولة، صاح قائلا «لقد عرفت! لقد عرفت! الرجعيون لا يمكن أن يكونوا مستقيمين في طرقهم الشريرة، انظروا جميعا!» قال ذلك بعد أن توقف مؤقتا عن تفتيش حاجياتنا البسيطة «انظروا ماذا وجدت!».

وقف وتبختر حول الطاولة وهو يدفع إصبعه في وجه الأخ الثاني «قل لي اسمك ثانية».

أجاب أخي بصوت مرتجف «يي - جونج - هسينج».

«كم عمرك؟».

«ثماني عشرة سنة».

«وأنت؟» - مشيرا إلى الأخ الأول.

«يي - جنج - هسينج» «٢٠ سنة».

«هل ترون!» نظر حوله إلى رفاقه ثم نخس فجأة كتف أخي الثاني وهمس قائلا «الآن تستطيع أن تخبرني كيف كان والدك مؤيدا لرجعيي الكومنتانج!».

صعقت وحبست الأخت الثالثة أنفاسها.

«جميعنا يعرف أن الاسم الآخر لشانج - كاي - تشيك الذي أطلقته عليه أمه هو تشاينج - جونج - جنج وهو الاسم الذي يفضله ولكنه لا يستحقه!».

كانت شقتنا تموج بالأصوات المدوية عندما بدأ الحرس الأحمر يشوهون سمعة والدي وهم يصرخون بصورة جماعية «يسقط يي رونج - تنج، يسقط كلب الكومنتانج الهارب يي رونج تنج».

ورغم كل شيء لم أستطع إلا أن أبتسم في السر من هؤلاء الحمقى الذين يصرخون حولي. والترجمة الحرفية لعبارة «يسقط» في اللغة الصينية هي «دا - داو» وتعني إسقاط شخص على الأرض جسديا. بدا أنهم نسوا أن والدي ميت.

استرقت النظر إلى أخوي وأختي، اتسعت أعينهم من الخوف، لقد كانت أحوالنا سيئة بما فيه الكفاية كأبناء الطبقة الرأسمالية المكروهة، والآن يفترض أن يجري في عروقنا دم الخونة، ومع ذلك، وعلى رغم كل الصراخ والصياح الثأري، شعرت بهدوء غريب، لقد

انتهى القلق والخوف خلال الأسابيع الماضية والانتظار اللانهائي للغارة المرعبة. ومع ذلك، كانت الأخت الصغرى ترتجف من الخوف فوضعت ذراعي حول كتفها. استرقت النظر إلى باب غرفة العمة الكبرى. بقي الباب مغلقا ولم يصدر أي صوت من الداخل. وأما جيراننا - الذين كانوا دائما في الماضي يدسون أنوفهم في شقتنا عند أقل إثارة فقد كانوا صامتين، كما لو أنهم فقدوا فجأة حاسة السمع.

عندما هدأ الصياح، بدأ الأخ الأكبر الكلام، حاول أن يحاجج الحرس الأحمر بهدوء شارحا لهم كيف أن أبناء عمومة والدي غادروا إلى تايوان قبل التحرير، ولكن والدي بقي في الصين، فلماذا يبقى في شنغهاي إذا كان من كلاب تشان كاي شك الهاربة؟

صرخ أحد أفراد الحرس الأحمر «آه! قرابة وراء البحار!».

وردد آخر «علاقات غير مشروعة مع البلدان الأجنبية!».

قلت لنفسي «حماقة أخرى!»، فحتى عندما كنت في الرابعة عشرة أعرف بوضوح سياسة الصين الثابتة بأن تايوان قطعة من الصين. كان من الممنوع الإشارة إليها على أنها بلد أجنبي، وتراوحت عقوبة هذا الذنب من «الإصلاح عبر العمل» إلى السجن.

قلت «ولكن ليست لنا علاقات مع ...».

صرخ الحرس الأحمر البكيني «اخرسي يا خائنة!».

اقترحت امرأة نحيلة ذات وجه طويل وأسنان بارزة «دعهم يغيروا أسماءهم!»، وصاح بقية الحرس الأحمر بالموافقة.

وخلال استمرار التفتيش مُنح أخواي دقائق للتفكير في أسماء جديدة. اقترب أحد أفراد الحرس من الحارس الأحمر البكيني وقدم له رزمة سميكة من الأوراق.

عرضها الأخ الأكبر عليه من دون إبطاء قائلا «تستطيع أخذها إذا أردت فنحن لا نريدها».

قال الحرس الأحمر البكيني بتهكم وهو يعيدها إلى أخي الكبير«إنها شهادات أسهم وسندات حكومية - تفاهات رأسمالية - أتلفها».

ومن دون تردد مزّق أخي الأوراق المالية في حين أومأ ثلاثة من أفراد الحرس الأحمر بالموافقة. أما أنا فقد كانت الشهادات والأوراق المالية المزخرفة الطباعة - ما دفع إزاء مصادرة مصنع والدي - عديمة الفائدة في رأيي، بل مجرد أكداس من الورق تجمع الغبار في الدرج لسنوات كثيرة.

امتدح الحارس الأحمر، الذي ظن أن الوثائق قيمة، أعمال أخي الأكبر. (في أواخر السبعينيات أصبحت هذه الأوراق المالية قابلة للتحصيل من جديد).

قال «أرجوك! أريد أن أغير اسمي إلى ولاء». كانت كلمة ولاء تزداد ترديدا في الملصقات على الجدران وواجهات المحلات، وافق الحراس عليه مباشرة.

كان اختيار أخي الثاني رائعا لأن اسمه الجديد كان لفظا مشتركا مع «ثابت» وهو اسمه الأصلي.

بدأ الحرس الأحمر يفقد الاهتمام، لم تقدم غرفتانا أي شيء ذي قيمة باستثناء بعض قطع الأثاث. ولكن الحرس صادر صورنا العائلية مدعيا أنها بقايا «الفئات الأربع القديمة» لأن جدي في إحداها كان يرتدي قبعة «نصف بطيخة» من الطراز القديم، وفي بعضها الآخر كان والدي يرتدي جاكيتا وربطة عنق من الطراز الغربي، ووالدتي كانت مصففة الشعر وتستخدم الماكياج. وبقيادة

الحارس البكيني غادر أفراد الحرس الأحمر وهم يرددون الشعارات في أثناء هبوطهم الدرج إلى المنور السماوي. ومن جديد ابتسمت في السر، لقد نسوا أن الأخ الأكبر لم يغير اسمه.

لم يقل أي منا كلمة واحدة، كانت أختي الصغرى تبكي بهدوء وكتفاها منحنيتان ويداها ترتجفان، وأختي الكبرى تنحت جانبا ويداها متصالبتان عبر صدرها وقد اتسعت عيناها. نظر أخواي كل منهما إلى الاخر وهزّا رأسيهما، لقد نجونا.

بعد لحظات خرجت العمة الكبرى من غرفتها وهي تبدو مرتبكة ومذنبة، ولكن لم يلمها أحد منا لعدم خروجها ودفاعها عنا، كنا نعلم جميعا أن ذلك سيسيء إليها وإلينا، وسرعان ما بدأت في إعداد الشاي لنا وإعداد عشاء متأخر تناولناه بصمت.

خلال الأسابيع القليلة التالية، دخلت الشاحنات إلى زقاقنا وخرجت منها محملة بالبضائع والكنبات واللوحات والمعلقات الحريرية والملابس والجراموفونات والأسطوانات وحتى بعض أواني المطبخ - وكلها تحمل بطاقات «بورجوازية» صادرها الحرس الأحمر. وما لم يظهر هو المجوهرات والنقود التي صادروها. وما لم يستطيعوا أن يأخذوه معهم، دمروه مخلفين وراءهم قرميد السطوح والجدران التي تخترقها الفتحات وأرضيات الغرف المتكسرة والكراسي والكنبات الممزقة.

عندها أدركت كم كان أخي الأكبر حكيما عندما مزق الأوراق المالية طوعا، وكنت أبتسم كلما تذكرت اختيار أخي الثاني الرائع لاسمه الجديد، على رغم أن العمة الكبرى كانت تدعوه «البطيء» و«العنيد».

حملت أواسط سبتمبر تقارير من بكين. فقد راجع الرئيس ماو ولين بياو - وزير الدفاع الوطني - الحملة الهائلة التي قام بها الحرس الأحمر وامتدحا ما عاثه الحرس في جميع أرجاء البلاد من ضرب ونهب وسلب وحرق. قال لهم لين بياو «لقد كان توجه أعمالكم صحيحا دائما» وصفقت لمعارككم الثورية ضد السلطات الأكاديمية الرجعية «مصاصي الدماء البوروجوازيين» و «المتسلقين الرأسماليين الذين ينشطون في بيئة اشتراكية، ولكنهم يسلكون الطريق الرأسمالية في تفكيرهم وسياستهم». وخلال أسبوع انحرفت هجمات الحرس الأحمر نحو الاتجاه الجديد. وهدفها المتسلقون الرأسماليون. أما العائلات في زقاقنا التي صودرت بضائعها لتشحن بعيدا فقد انتظرت لعدة أسابيع دون أن تصل إليها الشاحنات. لقد فقد الحرس الاهتمام بها، كما يبدو، مما حفز بعض الجيران الشجعان على تفريغ ممتلكاتهم «المصادرة».

في الوقت نفسه ازدحمت محطة القطار وسط شنغهاي بالقطارات من المقاطعات الأخرى، وازدحمت كل عربة بالمتحمسين الذين أتوا لتبادل الخبرات الثورية في مدينة، لم تكن الفرصة ستتاح لهم لزيارتها في ظروف مختلفة.

طالب هؤلاء المتطفلون بالطعام والمأوى والاستخدام غير المحدود للحافلات العامة، وقدمت اللجان المحلية الآلاف من الفطائر المبخرة للمسافرين الشبان. وفي الوقت نفسه استقل الحرس الأحمر من شنغهاي كل القطارات والسفن المتوافرة متجهين إلى بكين، تاركين الركاب دافعي الأجرة في المحطات وعلى أرصفة الموانئ.

لبت سلطات المدينة كل طلب تقدم به الحرس الأحمر كي لا يوصموا بأنهم رأسماليون متسلقون.

بدأت الثورة الثقافية - التي أضرمها ماو ولين بياو - تتأجج كالنار التي خرجت عن السيطرة، أما السلطات في الدوائر والمصانع، التي وفرت المعلومات للحرس الأحمر عن الخلفيات الطبقية لموظفيها، فقد وجدت نفسها تكنس الأرضيات وتنظف المراحيض مع أولئك الذين سعوا لشجبهم. هجر الفلاحون قطعانهم وأهملوا منتجاتهم وتدفقوا إلى المدينة يطالبون بالمكافآت والمنافع.

تضاءلت إمدادات المنتجات الزراعية في الأسواق المحلية، وبدأت أخاف من أن «السنوات الثلاث العجاف» التي نجونا منها بصعوبة ستعود من جديد.

وفي حين تسكعنا في البيت، ناضل الأخ الثاني في المعارك الفئوية مع المتمردين الذين عاهدوا أنفسهم على الاستيلاء على السلطة من حكومة المدينة، وهبط الإنتاج بسرعة في كل مصانع المدينة.

وفي أواسط أكتوبر ذهبت إلى المدرسة لقبض الإعانة البالغة ٩ يوانات، خوفا من أن يؤدي سقوط النظام المدرسي إلى شل إعانتي. باستثناء بضع فتيات يتزلجن في الباحة، لم يكن هناك أي نشاط يذكر.

دخلت الإدارة بعصبية وسألت المحاسبة عن إعانتي، إنها امرأة لطيفة ذات شعر أشيب في الخمسينيات من عمرها.

«لا تخافي يا هسياو يي. لا تزال المدرسات يقبضن رواتبهن رغم عدم دوام الفصول، ولذلك فلماذا لا تستلمين إعانتك؟».

وفي أثناء عدها للنقود أضافت بصوت منخفض «هل سمعت بذلك؟ لا يزال رماد العم جانج العجوز المسكين في صندوق في زريبة الأبقار حيث شنق نفسه، لم يطالب برماده أحد».

لم يكن العم جانج العجوز هو الوحيد في تلك الأيام الذي مات منتحرا.

ففي أحد الأيام روى جارنا «السمين الضخم» أنه أصبح تقريبا «وسادة لشخص طائر نحو الأسفل» رمى نفسه من بناء شاهق في شارع نانجنج. كان الناس ينتشلون الجثث المنتفخة من نهر هوانجبو. انتحر بعض الناس بالغاز، وبعضهم رموا أنفسهم من النوافذ العالية تاركين دماءهم وأحشاءهم تتدلى من إطارات أو أطناف النوافذ التي برزت من المباني.

أدانت السلطات كل حوادث الانتحار ووصفتها بأنها «اغتراب عن الحزب وعن الناس». وكذلك أعلنت الصحف أن الضحايا يستحقون الموت بطريقة قذرة. في سن الرابعة عشرة لم أكد أتصور ما يدفع المرء إلى التخلص من حياته، ولكنني سرعان ما اكتشفت ذلك.

وعلى رغم أن الرياح السياسية الجديدة وضعت المتسلقين الرأسماليين في رأس قائمة المكروهين، ووضعت العائلات البورجوازية - كعائلتنا - في المكان الثاني، فقد صعقت عندما أعلن أخي الأكبر ذات مساء أنه شكل وسبعة آخرون من الطلاب في الجامعة فرقة موسيقية (مجموعة نشر أفكار ماوتسي تونج) وخططوا للذهاب إلى بكين. وأضاف «إننا أعددنا لأنفسنا أشرطة ذراع حمراء».

قال إن اختيارهم للاسم سيحفظهم من أي أذى، كانوا جميعا من عائلات رأسمالية، وبالتالي لا يستطيعون أن يسموا أنفسهم الحرس الأحمر. ولكن اسم فرقتهم كان مثاليا، لقد ردد أصداء الملصقات المعلقة في كل مكان: «تعريف كل فرد وكل بيت بأفكار ماوتسي تونج واجب مقدس على كل مواطن صيني».

لقد استطاع أخي بطريقة ما أن ينقذ مزماره من النيران في الجامعة - حطم الحرس الأحمر الآلات الموسيقية الغربية - وفي تلك الليلة سمعته يتمرن في الشرفة، توقف المزمار وبدأ أخي يغني:

«العالم الفسيح والأرض التي لا حدود لها
ليست بعظمة عطف الحزب الشيوعي
حب أبيك وأمك
ليس بعمق حب الرئيس ماو لك»

صرخت عبر النافذة المفتوحة «كيف تستطيع أن تتفوه بهذه الكلمات بعد كل ما عانيناه؟ ماذا فعل حب ماو لنا؟».

اندفعت الأخت الثالثة وجرتني بعيدا قائلة «هل فقدت عقلك يا آه - سي؟ قد يسمعك أحدهم! لماذا أنت غاضبة منه؟ إنها مجرد أغان - كلمات فارغة، إنها لا تعني أكثر من أي شيء آخر في هذه الأيام، تعالي، ستوقعيننا جميعا في المتاعب».

لم يكن هذا التصرف غريبا عن أختي الكبرى، فلا شيء يهم بالنسبة إليها مادامت السماء لم تسقط..

غادر الابن الأول إلى بكين في اليوم التالي ومزماره مخبأ في حقيبته.

في البيت كانت الحياة مملة، والأيام طويلة، لم تكن هناك مدرسة للذهاب إليها، ولا واجبات لكتابتها. أغلقت المكتبات العامة ودور السينما (التي لم نكن نستطيع ماليا الذهاب إليها على أي حال). وحتى الراديو لم يقدم أي سلوى، فقط إعلانات دعائية مستمرة تردد صدى الأخبار التي جلجلت من مكبرات الصوت المثبتة على الأعمدة في الزقاق.

في وقت متأخر من إحدى ليالي نوفمبر بعد حوالى ٣ أسابيع من مغادرة أخي الأكبر، سمعت أحدا في الحارة يناديني «آه - سي! آه - سي» ثم صوتا آخر ينادي «يي - تنج - هسينج!».

انتصبت العمة الكبرى خائفة وهمست «الحرس الأحمر! ماذا يريدون؟».

جهدت العمة لتقف على قدميها وترنحت قاصدة النافذة لتفتحها، التصقت أحدق في الظلام، واستطعت بصعوبة أن أتبين فتاتين من مدرستي (هسيو فانج وجو جنج) تقفان في مدخل الباب الخلفي.

قلت لها بارتياح «أنا أعرفهما، إنهما جيدتان».

كانت كلتاهما عضوتين في الحرس الأحمر الاحتياطي في مدرستي؛ لأن والديهما كانا صاحبي متجرين صغيرين، مما جعلهما رأسماليين من نوع ما. لم نكن متقاربات قبل الثورة الثقافية، ولكن الظروف منحتنا أشياء مشتركة، وهما من بين القليلات اللواتي لم تكن عدوانيات تجاهي.

خرجت من الشقة وهبطت الأدراج قبل أن تتسنى الفرصة للعمة الكبرى للاعتراض، وحالما فتحت الباب الخلفي قالت هسيو فانج بانفعال «فكرنا بأنك قد تودين الانضمام إلينا». كانت لدى

كل منهما حزمة صغيرة متدلية فوق كتفها. قالت جو جنج «إننا في طريقنا إلى محطة القطار لنستقل قطارا إلى بكين». سحبتهما إلى الداخل وأغلقت الباب.

سألتهما «كيف أستطيع الذهاب إلى بكين وأنا لا يسمح لي حتى باستخدام البوابة الأمامية في المدرسة؟ كنت أدرك أن على المرء أن يكون نظيفا ... صافيا ليحج إلى العاصمة».

قالت جو - جنج وهي تسحب شرائط من القماش الأحمر من جيبها «ليس هناك الكثير من الحرس الأحمر في المحطة في هذا الوقت من الليل، نستطيع أن نضع هذه الشرائط حتى نستقل القطار، وحالما نخرج من شنغهاي فسنكون كالآخرين، ومن سيعرف ماذا كان آباؤنا؟!».

صرخت والانفعال يتصاعد في داخلي «رائع!». تفحصت رزمة جو جنج «ماذا تحملين هنا؟».

«لا أحمل الكثير، ملابسي الشتوية وغيارا من الملابس، قالت والدتي إن الطقس أكثر برودة في بكين».

إن ذكر والدتها ذكرني أنني تركت العمة الكبرى واقفة على سريرها، كيف سأتمكن من إقناعها؟

«تعالا إلى الطابق الأعلى، ولكن انتظراني في الصالة».

كانت العمة الكبرى جالسة في سريرها وحالما دخلت الغرفة رمقتني بنظرة مألوفة تماما، انحنت زوايا عينيها نحو الأسفل بدرجة فمها نفسها. تجاهلت عبوسها وتبنيت مدخلا مباشرا للحديث.

«أيتها العمة الكبرى! إنني ذاهبة إلى بكين، سأذهب مهما قلت».

صرخت «ألهذا أتتا إلى هنا؟ هل تنقصهما ذراع أو ساق ولهذا تحتاجان إلى أن تساعديهما في السفر؟ أم أنهما متلهفتان لرؤيتك تفقدين أحد أطرافك؟». جعلت صرختها أختي تندفعان، صاحت الأخت الثالثة «ما الأمر؟ هل عاد الحرس الأحمر؟».

«أختكما الحمقاء تريد الانضمام إليهما؟ إنها تريد الذهاب إلى بكين! مع هاتين الفتاتين المجنونتين!».

أمسكتني الأخت الثالثة من كتفي وهزتني بعنف، أي واحدة من عظامك تحككك يا آه - سي؟ تحدثت الأخت الصغرى بصوت مرتفع «أنا أعرف أين يجب أن تذهبي! إلى المستشفى لفحص رأسك، هل نسيت ما قاله لنا أخونا الكبير ليس من المأمون أن نخرج».

أجبتها بالقول «وأين أخونا الكبير؟».

كل الاستنكارات التي قلت أعادت إلى الذهن ذلك المشهد عندما ودعنا نحن الخمسة العمة يي - فنج في موقف الحافلات بعد مراسم دفن والدتي. لم نستطع عندها توفير حتى بطاقة قطار واحدة إلى ووهسي، لذا لم يكن بجانب والدتي أحد من أبنائها وبناتها عند مواراتها الثرى. والآن ها أنذا أتمكن من السفر إلى بكين دون دفع سنت واحد.

بدأت العمة الكبرى بترديد الإشاعات التي تلتقطها حيث تجتمع النسوة لغسل الملابس من اضطراب وضرب وانتحار، كل هذه في محاولة لطرد قراري من رأسي. رفضت توفير ملابس شتوية لي وأنذرتني بأني سأتجمد حتى الموت في المدينة الشمالية التي لم تزرها أبدا.

قلت لها بعناد «سيكون ذلك جيدا بالنسبة إليّ، إن سكان بكين لن يسمحوا لي بأن أتجمد حتى الموت، ألم يقل لك قراء جريدتك أن الطلبة الذين يحجون إلى بكين يعاملون بحفاوة بالغة كضيوف للرئيس ماو؟».

ولدعم وجهة نظري استدعيت جو - جنج وهسيو - فانج اللتين كانتا في الانتظار في القاعة. تجاهلت النظرات المرتبكة على وجهيهما وأشرت إليهما قائلة: «اسألوهما عما إذا كنت في حاجة إلى أخذ أي شيء معي». فتحت جو - جنج فمها وأغلقته دون أي صوت. جادلتهن قائلة: «لا تعتقدن أن أهلهما يدعونهما تذهبان لو لم يكن ذلك مأمونا». أدركت أنني كسبت نقطة ثانية.

لاذت أختاي بالصمت في حين نهضت العمة الكبرى من سريرها وعرجت بصمت إلى مزينتها، أدركت أن الصمت أفضل علاج مزاجي. عندما رأيتها تخرج من أحد الأدراج وشاحها الصوفي وقفازا صوفيا، تمنيت على الفور أن أتمكن من سحب كل شيء قلته أو حتى نصفه، أو حتى تنتقد العمة وقاحتي. لم أتصرف بهذه الطريقة في حياتي - لقد كنت مفعمة بالإنكار ولا أسمح بأي نقاش.

تابعت عيناي كل حركة من حركاتها، آملة أن تطلب مني مساعدتها. تجاوزتني بصمت نحو العليّة حيث نحتفظ بثيابنا الشتوية، ساعدتها الأخت الثالثة في صعود السلم، تركتني أغلي في حماقتي وأخذت تحزم الأمتعة، وتلعب بذلك لعبتها المفضلة معي، وأخيرا نطقت «اخلعي يا آه - سي قميصك الداخلي لكي أخيط جيبا عليه».

وضعت ورقة مالية من فئة ٥ يوانات في الجيب مع بعض بطاقات الطعام الخاصة التي يمكن استخدامها في أي مكان من البلاد وثبتتها بدبوسي أمان (البطاقات العادية يمكن استخدامها في المنطقة التي تصدر فيها كإجراء لمنع الناس من التحرك خارج مناطقهم المحددة لهم).

حذرت العمة قائلة «لا تخلعي هذا القميص أبدا، واستخدمي النقود والبطاقات عند الضرورة فقط»، ثم أخرجت محفظة نقودها وأعطتني بعض القطع الصغيرة وبطاقات الطعام المحلية. «اشتري بعض الخبز من متجر محطة القطار عندما لا تستطيعين الحصول على الطعام أثناء السفر».

لو قال في تلك اللحظة أي شخص، ولو حتى كلمة واحدة لإقناعي بالبقاء، لألغيت كل شيء. لقد ربحت المناقشة ولكني لم اكن أريد المكافأة. كنت غاية في الخجل، كنت على استعداد لمبادلة عناق من العمة الكبرى بأي شيء. لم أستطع أن أتذكر أي مناسبة أظهرت لي فيها العمة الكبرى أي عواطف جسمانية، على رغم أنني كنت أعرف أن مشاعرها عميقة تجاهي. كان إظهار العواطف حتى بين أفراد العائلة الواحدة ينتقد كمشاعر لا بروليتارية.

عندما ودعت العمة الكبرى وأختيَّ عاهدت نفسي أنني سأقفز إلى قطار العودة حالما أصل إلى بكين. لقد شعرت بالشوق إليهم حينئذ. ولكن حبست دموعي مصممة على ألا يرينني أبكي. في الزقاق مشيت إلى الوراء حتى اختفت نوافذ شقتنا.

كانت ساحة المحطة الشمالية تقريبا خالية وكالحة وباردة يغمرها ضوء المصابيح الفلورية الباهت. سرنا بجرأة إلى غرفة

الانتظار غير المحروسة، وتجاوزنا الصفوف الطويلة من المقاعد التي يشغلها مئات الرجال والنساء والأطفال النائمين واتجهنا نحو الرصيف. هناك كان المنظر مختلفا تماما، فالناس في هرج ومرج، ومكبرات الصوت تعلن أرقام القطارات ومواعيدها والنصائح للمسافرين. والمسافرون بدورهم تدلوا من نوافذ قطارنا وهم يتحدثون إلى الواقفين على الرصيف.

لا عجب أن الشوارع والساحة بدت خاوية كما خطر لي: فالجميع هنا.

توقفت جو - جنج، فتشت في جيبها وأخرجت ثلاث رابطات أذرعة حمراء قائلة «لنضع هذه الآن قبل أن نستقل القطار».

كتب على رابطتي: «الحرس الأحمر يدافع عن الشرق»، وهو شعار ملائم في غموضه، فالشرق يجسد الرئيس ماو كما جاء في أغنية «الشرق أحمر». وضعت رابطة الحداد السوداء في جيبي - فكلما وشيت بمعلومات شخصية أقل، كان ذلك أفضل.

شققنا طريقنا على طول الرصيف نبحث عن قطار بكين، ولكننا لم نتمكن من العثور عليه، فكل القطارات كانت مزدحمة إلى درجة لا يمكن معها فتح الأبواب.

وجدنا قطارا وتوسلنا للركاب ليسمحوا لنا بالدخول عبر النوافذ، بعضهم رفضنا قائلين إنه لا يوجد مكان، فحتى الممرات كانت مزدحمة. بينما طلب منا أن نجلب الماء كثمن للدخول، ولكنهم رفضونا بعد أن امتثلنا لذلك. لم نكن من القوة بحيث ندخل القطار قسرا، ونظرا إلى صغر جسمي بالنسبة إلى عمري اضطررت إلى الوقوف على رؤوس أصابع قدمي للوصول إلى عتبة

نافذة القطار. تخللت الصرخات الهواء عندما حاول الناس الصعود عبر النوافذ الضيقة التي لم يزد ارتفاعها على قدم واحدة وعرضها على قدمين.

أثارت أعصابي شكوى هسيو - فانج المستمرة. وفي هذه المرحلة لم أكن أرغب في شيء أكثر من النوم. عندما جلسنا جميعا حول أحد الأعمدة ووضعت رأسي على ركبتي واستغرقت في سبات عميق.

«استيقظي يا آه - سي». استيقظت مروعة وأنا أشعر بالبرد والضياع. شعرت بصفير عال بالقرب منا، قفزت واقفة، كانت الساعة الرابعة صباحا.

قفزت جو - جنج أيضا قائلة «سيغادر أحد القطارات المحطة!». وفجأة أصبحت المنطقة ساحة حرب حيث اتجه المحيطون بنا نحو حوائجهم مندفعين نحو القطار المغادر.

صاحت جو - جنج مجلجلة في خضم هذه الضوضاء «أسرعي هذه فرصتنا»، وأشارت إلى قطار مرابط في الجانب الآخر من الرصيف. تدفق الركاب من العربات واتجهوا نحو القطار المغادر.

جثمت هسيو - فانج وتسلقت على كتفيها، وعندما وقفت على قدميها رفعتني نحو الأعلى وتلقفتني الأيدي الممتدة من النافذة حتى اتخذت الوضع الأفقي ومررت كلوح خشبي صغير إلى القطار، ثم سحبت زميلتيّ بعدي.

وجدنا أنفسنا في عربة مزدحمة بالأجسام حتى الجدران. كانت كل المقاعد مشغولة والممرات مسدودة بالركاب الجالسين، بينما شغلت الكتل المضطجعة الفراغات حتى تحت المقاعد. أما المكان الوحيد الذي توفر لي فقد كان رف الأمتعة. صعدت إليه

واستلقيت على ظهري ووجهي يبعد بوصات قليلة من السقف المنحني. كان القطار حارا والهواء مزيجا من الروائح والأجسام التي لم تستحم ودخان السجائر والبول.

دعكت أنفي وفكرت في أن العمة الكبرى كانت لتصاب بنوبة عصبية في هذا الهواء الفاسد. اتخذت رزمة حوائجي كوسادة وخلدت إلى النوم.

عندما استيقظت كان الضوء منتشرا والقطار في حالة الحركة. شعرت بالارتباك لأني لم أدرك أين كنت. وصدمت رأسي بالسقف، انتشرت النجوم أمام عيني، صرخت بصوت عال «إننا نتحرك! أين نحن؟».

أجابني صوت غليظ تحتي «ولماذا لا نتحرك؟ إننا في قطار، سنكون في ووهسي قريبا». تبع ذلك ضحك عال.

ووهسي! استلقيت وحدقت في السقف وبدأت أفكر، لقد شعرت بالحنين إلى مدينتي، كنت على اتم الاستعداد للقفز من القطار والعودة إلى البيت. عندئذ خطرت لي فكرة، لماذا لا اترجل من القطار في ووهسي وأذهب إلى بيت جدي في تشنج يانج؟ أستطيع أن أزور قبر والدي ووالدتي، لم أر جدي وجدتي لأكثر من ٧ سنوات سيئة في معظمها.

أمسكت بقضبان رف الحوائج ومططت رأسي نحو الأسفل. لفت انتباهي فتاة غليظة المظهر تجلس قرب النافذة.

«هل من الممكن أن أترجل في محطة ووهسي؟».

قالت لي متهجمة «لماذا» ألا تريدين الذهاب إلى بكين ورؤية الرئيس ماو؟ ذكرتني نبرة صوتها وشريط ذراعها الأحمر بهدف مهمتي، أنذرتني غريزتي بأن أكون حذرة.

قلت لها «طبعا ولكنني فهمت أن هذا القطار سيصل إلى نانكينج فقط و...».

«لا يهم. فذلك لا يعني أننا لا نستطيع الوصول إلى بكين». وقفت ونظرت إليَّ بتمعن وقد أصبح صوتها الطف «كم عمرك؟ هل تسافرين وحدك؟».

أجبتها «أربع عشرة، إنني في السنة الثالثة من الدراسة المتوسطة».

«أنا في السابعة عشرة من محافظة ينج - بو، من أي محافظة أنت؟».

«جنج - آن، إنني من مدرسة آي - جو للبنات».

شعرت بأحد ينقر قدمي، إنها جو - جنج التي كانت تحدق بي بنظرة ذات معنى.

وتذكرت، كانت العمة الكبرى تقول إن كل المتاعب تأتي من الفم.

«نعم، سمعت بمحافظتكم». وتمنيت لو أنني صدمت رأسي بقوة أكبر بحيث لم تتح لي البدء بهذه المحادثة.

قاطعتنا جو - جنج قائلة «أريد أن أتبادل المكان معك». هبطت من مكاني ودست على خلفيات المقاعد حيث وجهت إلى الرف عبر الممر. من الواضح أن نقلي كان طريقة جو - جنج لإسكاتي. لن أخبرها بخطتي لمغادرة القطار قبل الوصول إلى وجهتنا.

لولا اللوحة لما استطعت أن أتعرف على محطة ووهسي، على رغم أنني رأيتها مرات كثيرة خلال سنوات طفولتي المبكرة. حالما توقفنا، أخذ الناس يندفعون إلى الرصيف ويدقون على الأبواب والنوافذ وهم يطلبون فتح النوافذ. وعلى رغم توقف القطار وافتقاره إلى التهوية، أصبحت العربة خانقة بحيث أصبح من

الصعب التنفس. كان فتح نافذة أشبه بخرق سد. غيرت خطتي بعد أن أرعبتني فكرة محاولة الهبوط إلى هذا الجمهور المتهور وقررت الترجل في ووهسي في طريق عودتي من بكين.

قررت وجو - جنج وهسيو فانج أن نبقى في جوار المحطة بدلا من اللحاق بالحجاج الآخرين إلى المدينة لمشاهدة المناظر، وأن نستريح في أماكن الإقامة المجانية ونتناول وجبات الطعام المجانية. انضمت إلينا الفتاة التي تحدثت إليها سابقا. اتخذت لنفسها اسم يانج - يانج (الشمس الساطعة) وهي تسمية سائدة في تلك الفترة.

قبل أن أقوم بأي شيء آخر، كان علي أن أذهب إلى المرحاض، تدافعنا نحن الأربعة عبر جدار من المسافرين الصاخبين، وعندما نجحنا في النهاية، أدركت النتائج المزعجة المترتبة على وجود مئات الآلاف من الآدميين في حيز محصور واحد. وكان كل مرحاض مسدودا بكتلة من القاذورات البشرية التي ارتفعت فوق مستوى الأرضية المبللة بالبول. عندما خطوت بحذر على المقصورة تقيأت من هذا المنظر القذر والرائحة العفنة. ولكن الأوقات العصيبة تتطلب إجراءات يائسة.

وعندما خرجت مشيا بجانب القضبان الحديدية قرب العربات نلتمس الدخول إلى القطار المتجه نحو الشمال، نرشو شاغليه بالطعام القليل المتوافر لدينا ويجلب الماء لهم. وأخيرا قابلنا أحد أفراد الحرس المتعاطف الذي ساعد على سحبي من خلال النافذة بعد أن رفعتني يانج - يانج. ولكن هسيو - فانج كانت ثقيلة وخرقاء، وبعد عدة محاولات من السحب والدفع سقطت فوق الخط الحديدي تصرخ من الألم وعلقت قدمها اليسرى.

قدم أحد الركاب التوجيهات إلى جو - جنج للوصول إلى عيادة المحطة الطبية، بينما حاولت أنا أن أترجل من القطار للانضمام إليهما.

صاحت جو - جنج «لا، لا، ابقي حيث أنت، احتفظي بمحل لنا لحين عودتنا». وعادت بعد نصف ساعة ولكن بدون هسيو - فانج، سحبتها مع يانج - يانج عبر النافذة، أخبرتنا بعدها عما حدث.

«قال الطبيب إنه يجب تصوير كاحل هسيو - فانج بالأشعة لأنه على الأرجح مكسور، وأكد لي أن العيادة ستعاملها كإحدى ضيفات الرئيس ماو».

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير عندما انقسم قطارنا إلى عدة أقسام وحُوِّل إلى المعدية لعبور نهر يانج تسي. في ذلك الوقت كنت قد تمددت على رف الحوائج. وعندما انبلج الصبح، استيقظت لأجد اننا ما زلنا في مقاطعة يانج سو. كانت قدماي تورمتا إلى درجة أن أربطة حذائي تقطعت، وكانت العربة مزدحمة للغاية، فلم استطع ان اهبط لأتخلص من الضغط.

أصبحت يانج - يانج أختنا الكبرى. وقد أدت ساقاها الطويلتان وذراعاها القويتان لنا خدمات قيمة؛ فكلما توقف القطار في إحدى المحطات تقفز إلى الرصيف وتجلب لنا الماء وتجمع بعض الفطائر الحارة التي يضعها السكان المحليون لإظهار تأييدهم للحرس الأحمر. وكلما امتدحتني أمام الركاب الآخرين بتسميتي «حبة بازلياء صغيرة ممتلئة بالروح الثورية العالية كالجبال والتصميم الفولاذي لرؤية الرئيس ماو»، شعرت بالذنب لأنني كذبت عليها وقلت لها إن والديَّ كانا عاملين في مصنع النسيج

الثالث عشر قرب بيتنا. استلقيت على ظهري فوق الرفوف الخشبية القاسية وتساءلت ما إذا كنت سأعيش بقية حياتي أحترف الكذب؟!

بدأت أفقد الإحساس بالزمن في تلك الرحلة البطيئة اللامتناهية، التي اعترضتها التوقفات المتكررة. كان كل جزء من جسمي يؤلمني؛ امتصت ضفائري رائحة البول في العربة، وخشيت ألا أستطيع تنظيف شعري أبدا، وبعد لأي توقف القطار وصرخ أحدهم: «لقد وصلتم، إنكم في بكين».

تلا ذلك هتاف يصم الآذان وبدأ الناس يجمعون حوائجهم في هرج ومرج. للمرة الأولى شعرت بالسعادة لأنني فوق الرفوف، فوق الجمهور المحتشد. فتحت النوافذ ورميت رزم الحوائج إلى الخارج وتلتها أجساد تزحف وتقفز وتسقط من القطار.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بقليل، واقترحت يانغ - يانغ بأسلوبها العملي أن نبقى في القطار حتى الصباح، ولكن عمال القطار أمرونا بالنزول قائلين إن جنود جيش التحرير الشعبي ينتظرون ليأخذونا إلى وجهتنا. لم نكن في المحطة الرئيسية كما تصورت، بل في محطة يونغ دينغ مين في الضاحية الجنوبية. ولكنني كنت في بكين! وفكرت للحظات فقط في مفارقة القدر القائلة إن الثورة الثقافية البغيضة هي التي منحتني الفرصة للسفر المجاني إلى العاصمة القديمة - المكان الذي لم أكن لأراه لولاها.

لأول مرة خلال رحلتنا، استخدمت باب القطار. كنت أرتجف من البرد فمشيت عبر المحطة منهملة، جائعة، وكل طرف من

جسمي يؤلمني، وحذائي القطني يطرق على الأرض دون أربطة. في الخارج اصطفت أرتال طويلة من رجال الجيش صامتين داخل معاطفهم الطويلة المبطنة بالقطن وقبعاتهم بأغطية الآذان الطويلة.

سرنا إلى حديقة قريبة حيث وقفنا لفترة طويلة في الظلام، راح البعض يثب ليدفئ جسمه إلى أن وصلت شاحنات الجيش لتحملنا وتنزلنا أمام مجمع من الأبنية الكبيرة المظلمة في معظمها. هناك حشرنا في غرفة واسعة خافتة الأضواء وأمرنا أن ننام على الأرض. فعلت ذلك بكل سرور.

حلمت بأنني في مدرستي أقف أمام جدار من القرميد تحت أشعة شمس الظهيرة الحارقة. ولكنني استيقظت لأجد نفسي ملتحفة ببطانية وأرتدي سروالي الداخلي المبطن بالقطن ومعطفي، وحول رأسي وعنقي وشاح العمة الكبرى المنسوج من الصوف. وجدت نفسي محشورة بين كتلتين لا شكل لهما ولا حركة تحت البطانيات الخضر.

هززت الجسم المستلقي بجانبي وهمست قائلة «يانج - يانج! جو - جنج!». انقلب الجسم نحوي، قفزت واقفة من الخوف، كنت أنام مع رجل! تلفت حولي بهلع.

لم أكن أعرف كيف يأتي الأطفال إلى هذا الوجود باستثناء أنني - حتى وأنا طفلة - كنت أدرك أهمية «نوم الرجال والنساء معا». سمعت أحاديث البالغين وأصغيت عندما كان الأطفال في المدرسة يروون القصص التي يشار فيها إلى الاغتصاب بأنه «مضاجعة فتيات الأزهار». وأن الأطفال هم النتيجة. لم أسأل أبدا العمة الكبرى عن التفاصيل لأنني كنت أعرف أنها لن

تقدمها، ولم أجرؤ على سؤال الآخرين خوفا من اتهامي بأن لدي أفكارا قذرة، وهو أسوأ انتقاد لأي فتاة. ولذلك تصورت العملية كنوع من التفاعل الكيميائي كتلك التي درستها في الفيزياء حين يسيل لعاب الكلب عندما يرى الطعام، هل سأنجب طفلا؟!

صرخت فزعة على يانج - يانج وجو - جنج. ومن جميع أنحاء الغرفة برزت الرؤوس وحدقت العيون وأسكتتني الأصوات الجارحة.

«أنا آسفة!». لم أقل هذا لأي شخص معين عندما خطوت فوق الأجساد النائمة بيني وبين صديقتيَّ. وبعد عدة لحظات من تبادل الهمس معهما، تبددت مخاوفي.

بعد فترة قصيرة دخل ضابط إلى المستودع، كان هذا الضابط في الثلاثينيات من العمر، طويلا وممتلئ الجسم، وعندما رآني، انطلق لسانه بسيل من الكلمات يرددها «لسانه المنحني بشدة، كما يصف الجنوبيون كلام الشماليين.

سألته بلهجة شنغهاي «ماذا قلت؟».

ابتسم وتحدث ببطء. قال إننا في الإدارة السياسية العامة لجيش التحرير الشعبي، والمطلوب منا حضور اجتماع في المطعم في الجانب الآخر من ملعب كرة السلة. سيكون طعام الإفطار جاهزا عندما نصل إليه.

ذكرني اسم الوحدة العسكرية بشيء ما، إنها الوحدة نفسها التي حاولت والدتي إلحاقي بها كمغنية وراقصة قبل ثلاث سنوات. أيقظت ذكرى والدتي في داخلي غصة من الشوق إلى الوطن.

سرت مع رفيقتي عبر الساحة باتجاه المطعم الذي تظلله أكبر المباني التي رأيتها في حياتي. في تلك الأيام كان البناء المؤلف من

خمسة طوابق يعتبر شاهقا في الصين. أعطينا سلطانيتين مطليتين بالمينا: واحدة لعصيدة الأرز الحارة والأخرى للفطائر المبخرة - ولدهشتي لم يكن عليّ أن أظهر أي هوية للحصول على الطعام.

لم يطلب منا أي نقود أو أي بطاقات، فلا عجب أن من حولي ملأوا بطونهم إلى درجة أصبحوا يتحركون فيها بصعوبة. ذكرني ذلك بما تعلمته في المدرسة عن الشيوعية الحقيقية: كل حسب قدرته وكل حسب حاجته.

أبهجنا الطعام الحار واستمعنا للضابط يرحب بنا بشكل رسمي ومن ثم، بالطبع، يعلن عن القواعد التي يجب اتباعها: ما أن يشارك الشخص في اجتماع جماهيري عليه أن يخلي العاصمة خلال ٤٨ ساعة بسبب العدد الهائل من الفتيان الذين يصلون إلى بكين كل يوم، ذكرنا الضابط بأننا هنا لتبادل الخبرة الثورية وليس لرؤية المناظر السياحية أو لملء بطوننا بالطعام. حصل كل منا على بطاقة حافلة صالحة لجميع أنحاء المدينة.

هالني الشعور بأنني - في سن الرابعة عشرة - أتحكم في حياتي للمرة الأولى. الطعام والإقامة مجانية، أستطيع الذهاب حيثما شئت في عاصمتنا القومية، وهي المكان الذي تحدث عنه والداي كثيرا ولكنهما لم يرياه أبدا. قررت أن أستمتع بهذه الحرية طوال دوامها. أرهبني الشعور بالاستقلال والاكتشاف. خرجت من البوابة مع صديقتي، كان اليوم مشمسا، ولكنني شعرت بالبرد بدون معطف حتى تحت أشعة الشمس. بدت الشوارع التي اصطفت فيها الأشجار العارية من الأوراق خالية مقارنة مع شنغهاي المزدحمة.

ودعتنا يانج - يانج، أنا وجو جنج - عند زاوية شارع هونجوانج الذي ظهر على الخارطة كشارع بيجوانج. لقد استبدل «بالأبيض الأحمر» المفضل في كل أنحاء الصين. بدّل الحرس الأحمر أسماء الشوارع، بل سمعت قصصا عن محاولات لتغيير إشارات المرور بحيث يكون الأحمر للمرور والأخضر للوقوف.

أردت وجو جنج زيارة ساحة آن - مين لنرى بوابة السلام السماوي التي وصفها أحد أناشيد رياض الأطفال بأنها «جدران من القرميد الاحمر والبلاط الأصفر اللماع، طويلة وهائلة، جميلة ورائعة».

تقوست أكتافنا من البرد ونحن نلهث في منعطفات الأزقة والحارات إلى أن وجدنا تشانجان آفنيو. شعرت كسمكة تسبح في بحر من اللونين الأحمر والأصفر. لقد استجاب مواطنو بكين لطلب جعل العاصمة «بحرا من اللون الأحمر» بكتابة مقولات ماو بالدهان الأحمر فوق خلفية صفراء وتغطية الجدران والمباني بالشعارات والعظات. تساءلت في نفسي وأنا أجول بالقرب من الجدران شبه المدهونة والشعارات المكتوبة بسرعة، تساءلت ما إذا كان الناس ليستنفدوا أبدا الدهانين الأحمر والأصفر.

كان أعرض وأجمل شوارع بكين مكتظا بالأشجار العارية والمراحيض المؤقتة المبنية من قضبان الخيزران، التي ثبتت عليها حصر الخيزران بارتفاع قامتي. وداخل أسوار الخيزران، اقتلعت بلاطات الرصيف الاسمنتية وحفرت مكانها الحفرات. إنها المراحيض الثورية، وعندما تمتلئ الحفر تغطى بالتراب وتعاد بلاطات الرصيف الإسمنتية إلى حيث كانت.

أمـا المدينة المحـرمـة فـقـد غطيت جـدرانهـا بورق الملصـقـات الصغيـرة. وكان مـتـحف القـصر، للأسف الشـديد، مـغلقـا؛ ذلك أن رؤية المناظر السياحية اعتبرت أمرا غير ثوري. جلست وجو - جنج على الدرجـات العـريضة لقـاعـة الشعب الكبرى واسـتـرحنا تحت أشعة الشمس. وبعدها عدنا متعبتين إلى الثكنات.

كـانت الغـرفـة الجـديدة المخـصـصـة لنا مـكتـبـا لأحـدهم في الماضي. صـفت فيـهـا سـتـة أسـرّة قـرب أحـد الجدران، وبعـد وجـبـة حـارة سـاخنة أخرى، طلب منا الضـابط المسؤول بيـان خلفـيتنا الطبـقـيـة وتقـريرا عن نشـاطاتنا ذلك اليـوم في «مـدينة قلب البلاد». أعـددت نفسي للكذب ثانية عندمـا جاء دوري، صعـقت عندما قـالت إحدى الفتيات للمجموعة إنها من عـائلة صاحب مـتـجر. ظنـنـت أنهـا في منتـهى الحمـاقـة ومن المؤكد أن المتـاعب ستنهال عليها.

من الغـريب أن أحـدا لم يظهـر أي اسـتـيـاء، عندهـا أدركت أن المتـسلقين الرأسـمـاليـين أصبحوا هنا أيضا العدو الطبقي الأول. بدأت أشعر بالارتياح قليلا، ولكنني كذبت على أي حال عندما جاء دوري قـائلة إنني قـضـيت اليـوم بكامله أدرس عن قـرب الملصـقـات الصغيرة على جدران المدينة المحرمة.

أمـا يانج - يانج المتـحمسة كعـادتها فـقد قـرأت الاتهـامـات التي كانت قد نسـخـتـهـا في جـامـعـة تشـنـج - هوا. وأشـد هذه الاتهـامـات وقـعـا مـا هـاجم منهـا الرئيس ليـو - شاو - تشي، الرجـل الثـاني بعـد الرئيس مـاو. والذي وصفه بالمتـسلق الرأسـمـالـي رقم ١ خروتشـوف الصين (وهـذه سـبـة لاذعـة)، والمنحـرف الذي يهـدف إلى تغـيـيـر

طبيعة الشيوعية، وأسوأ من كل هذا الشجب السياسي فهو ما أذيع من معلومات عن حياته الخاصة.

أفادت يانج - يانج، بأن ليو ساو - تشي تزوج ٥ مرات، وقد سجلت تفاصيل إخفاقات كل زواج، كما عرضت صورا كاريكاتيرية لليو وآخر زوجاته على الملصقات. أصغيت - فاغرة الفم - للمعلومات التي قدمتها، والتي كانت حتى تلك اللحظة تعامل كأسرار عسكرية. فأي ثرثرة حول الحياة الخاصة لأي شخصية من قيادتنا كانت الطريق الأكيد نحو النقد الحاد والعقوبة.

لقد أعلن أخيرا أن لماوتسي تونج نفسه زوجة شابة اسمها جيان تشينج، وعلى رغم أن الناس كانوا فضوليين بشأنها فلم يجرؤ أحد على التفكير في حياة ماو الخاصة. فالمواطنون العاديون أمثالي كانوا يعيشون في بيئة يتعين عليهم فيها أن يذكروا كل تفاصيل حياتهم الخاصة وتاريخهم العائلي لعدة أجيال سابقة؛ ومع ذلك ففي هذا المجتمع حيث لا وجود لكلمة «خاص» ساد انطباع أن قيادة الدولة تعيش حياة الراهبات والرهبان. أما وقد أصبح بالإمكان قلب حياة الرئيس نفسه رأسا على عقب كجورب قذر فقد تساءلت عمن يكون في أمان؟!

بعد ظهر اليوم التالي لتقرير يانغ - يانغ الجارح، فتحت حمامات النساء. لقد مضى أسبوع تقريبا منذ أن اغتسلت آخر مرة بماء دافئ، لذلك سارعت بالاصطفاف في الدور. بعد ساعتين، وبعد حمام طويل من الماء الحار الرائع قررت وجو جنج الخروج وتدليل أنفسنا بتناول توت الزعرور الملبس بالسكر الذي تشتهر به بكين، وبما أن شعري كان لا يزال مبللا فسرعان ما

تشكلت أصابع من الجليد أخذت تقرقع عند أذني. دفعت ثمنا غاليا لهذه الحماقة، ففي تلك الليلة أصبت بحمى شديدة وتوالت الكوابيس الواحد تلو الآخر. أيقظني صراخي وفي الصباح أحضرت جو - جنج الطبيب. كانت درجة حرارتي حوالى الأربعين ونقلت إلى المستوصف فوق نقالة.

إذا كان الطعام الوفير في المطعم مترفا فقد كان المستوصف فردوسا. كان الجناح أكثر ضوءا ونظافة من تلك التي رأيتها لدى زيارة والدتي، وكانت هناك خمسة أسرة في الغرفة بالإضافة إلى سريري كلها مشغولة، كان سريري كسحابة، استلقيت على فراش نابض وثبت عليه نحو الأعلى والأسفل. كانت المرضات لطيفات ومختلفات عن الناس في العالم الخارجي، حيث بدا لي أن الصراخ والصياح ملآ حياتنا اليومية ربما لأن الجيش ابتعد عن الحركات السياسية.

بعد بضعة أيام - عندما شفيت وبدأت الأكل ثانية - قدمت لي خيارات من الطعام. يا لها من حياة مريحة! كانت العمة الكبرى ستقول «ارفعي ذراعيك وسترتدين ملابسك، افتحي فمك وستطعمين». وفي أثناء الليل رفهت عنا - نحن المرضى - فرقة رقص وغناء.

في أحد الأيام بعد أن غادرت المستوصف علمت في الاجتماع المسائي أنه سيكون هناك اجتماع جماهيري كبير في المطار في اليوم التالي. تحمس الضابط وقال إننا سنرى الرئيس ماو بأعيننا بالطبع. أصبح من الضروري اتخاذ الاستعدادات وصياغة القواعد الجديدة.

أولا: تم تقسيمنا إلى أزواج عشوائيا، كان كل شريك تحت مسؤولية ورقابة الشريك الاخر، وهو أسلوب شائع في المراقبة. لم يسمح لأحد بمغادرة المجمع حتى الصباح، وعلمنا أنه لن يسمح بحيازة سكاكين الجيب أو الأدوات المعدنية الحادة عندما نغادر معا إلى الاجتماع. كذلك يجب ألا يحاول أحد أثناء المسيرة التقاط ما سقط منه، وإلا فلن ينهض ثانية. أعطي كل منا زوجا من شرائط الأحذية الطويلة جدا، وجرى إرشادنا لكيفية ربطها بإحكام حول وجه القدم لأن الآلاف من الأقدام السائرة حولنا قد تسحق أعقابنا وتخلع أحذيتنا، ولا يحمينا أسلوب ربط الأشرطة هنا فقط من الأذى وحتى الموت، بل إنه يساعد عمال النظافة الذين يواجهون جبالا من الأحذية الضائعة بعد انتهاء الاجتماع الجماهيري. وعند الخروج من المطعم سيعطى كل منا كيسا ورقيا يحتوي على بيضتين مسلوقتين وفطيرتين حارتين محشوتين بالخضار المخللة.

ولدهشتي، لم أكد أستطيع السيطرة على انفعالي، سأرى الرئيس ماو شخصيا. رأيت صورته طيلة حياتي يحدق فيّ من الجدران والحافلات وواجهات المتاجر. في الحياة الواقعية رأيت الناس يتقدمون في العمر أو حتى يموتون، ومعظمهم أصغر بكثير من الرئيس ماو، ولكنه كان في نظري كالخالدين الذين قرأت عنهم في القصص الخرافية، لا يكبر يوما واحدا، تعلو وجهه الابتسامة والشامة نفسها تحت فمه.

دعته الأغاني والشعارات الشمس والنجم المخلص لعالمنا. تساءلت إن كان مصيري سيتغير بعد أن أراه شخصيا. استنتجت

- قبل أن أخلد إلى النوم - وكل هذا الغناء والأحاديث الانفعالية حولي - أن هذا الاجتماع الجماهيري سيغير حياتي.

قبل أن يسمح لنا بالصعود إلى الشاحنات العسكرية في الصباح الباكر من اليوم التالي، فتشنا بعضنا - أنا وشريكتي (فتاة من مقاطعة آنهوي) - أمام زوج آخر، ثم عكسنا الأدوار معهم. بعد ساعة من التخبط في الشوارع الباردة، ترجلنا على بعد حوالى ٣ أميال من المطار وأمرنا بتشكيل الصفوف. سرنا ثمانية في كل صف في جو غائم يتفحصنا جنود وضباط جيش التحرير الشعبي ونحن ننشد الأناشيد الثورية. وحتى الريح الشمالية الغربية العاصفة لم تكن سيئة جدا، وبالمقارنة مع مسيرتي الليلية في شنغهاي قبل أشهر، كانت هذه المسيرة نزهة.

قسمت الخطوط الطباشيرية البيضاء الإسفلت في المطار إلى مربعات. لم تكن هناك أي طائرة على مدى البصر، وكان لكل مربع أن يتسع إلى ما لا يقل عن ٣٠ صفا من ١٢ متفرجا. كانت الشمس تختلس النظر من وراء الغيوم عندما جلسنا — حسب التعليمات - على الإسمنت المتجمد وسيقاننا متصالبة كالجنود أمامنا. ونظرا لقصر قامتي وجدت نفسي في الصف الثاني بحيث أستطيع أن أرى جيدا، طلب منا أن نبقى جالسين طيلة الاستعراض بحيث يستطيع كل واحد منا أن يرى، ولم يسمح لأي منا تحت أي ظرف من الظروف أن يندفع نحو موكب السيارات.

عند الظهر تناولت طعامي وقشرت البيض البارد تحت النظرات الحاسدة لهؤلاء الذين تناولوا طعامهم قبلي، وعلى رغم أن الفطائر الحارة أصبحت صلبة كالصخر، لم أجرؤ على شرب

الكثير من الماء لتطريتها. كانت هناك مراحيض، ولكنها بعيدة عنا، ولم يعرف أحد بالضبط متى سيظهر الرئيس ماو.

شعرت بالبرد الشديد وأصبحت مؤخرتي ككتلة من الجليد وتخدر ساقاي. سمح لي جندي أمامي بالقرفصة لإراحة طرفي السفليين المتشنجين. تلت ذلك ساعات من الغناء والقراءة من الكتاب الأحمر. تثاءبت وغيرت وضعي وثبط الملل حماسي.

وفجأة اقترب من بعيد هدير المحركات ثم شق الغناء الهستيري عنان السماء «يعيش الرئيس ماو». وبعد دقيقة وجدتني أضرب ساقي المتخدرتين لتدفئتهما، وفي الدقيقة التالية وجدتني واقفة على قدمي أصرخ بأعلى ما تسمح به رئتاي كالآخرين.

صرخت «يعيش الرئيس ماو» ولكن صوتي ضاع وسط موجات الصوت.

سالت الدموع من عيني. كان الموكب يتجه نحونا، حدقت من بين الجنود الواقفين أمامي، ولمحت للحظة سيارة جيب. هناك رأيت زوجة ماو - جيان تشينج وبجانبها يقف لين بياو! كانا يلوحان بالكتاب الأحمر ولكن وجهيهما كانا كالحين ومتجهمين. بحثت باهتياج شديد عن الرئيس ماو، وفي سيارة جيب أخرى رأيت ليو شاو تشي ببزته العسكرية منهكا ومنزعجا. تذكرت ما قالته لنا عنه يانج - يانج. تابعت عيناي هيئته المتجهمة حتى اختفت وتساءلت كيف يمكن مهاجمة هذا الرجل القوي كالأساتذة في مدرستي والجيران في جادتنا. عندها أدركت أنني قد فاتتني رؤية الرئيس ماو، أغمضت عيني وأخفيت وجهي بيدي وأنا أشعر بأنني مخدوعة وتائهة.

في طريق العودة عبر الشوارع المكتظة بالمراهقين والشاحنات المحملة، وعلى رغم أنني كنت منهكة جرّاء عشر ساعات من المشي والانتظار في الجو البارد، أخفيت خيبة أملي. كان كل فرد منفعلا يخبر الآخرين كيف رأى الرئيس ماو بوضوح، وكم بدا صحيح الجسم وكم ظهر عطوفا وكم كانوا محظوظين.

شاركتهم بكل حماسة مستخدمة خيالي، غير راغبة بالاعتراف بأنني لم أر الرئيس ماو على الإطلاق، على رغم أنني كنت في الصف الثاني. فإذا رآه الآخرون فقد رأيته إذن. هذا ما كنت أنوي قوله لكل فرد بمن فيهم أخواي وأختاي والعمة الكبرى. في تلك الليلة أخبرت جو - جنج أنني رأيت ليو شاو - تشي أيضا، غطت فمي بيدها خوفا من أن أسبب المتاعب ثانية.

أشارت يانج - يانج إلى أنه كان في سيارة الجيب الأخيرة، وكلنا أدركنا ماذا يعني ذلك.

في الصباح الباكر، في اليوم التالي، بعد وجبتنا المجانية الأخيرة، نقلتنا الشاحنات إلى محطة القطار، لقد كنت قد غيّرت خطتي بالتوقف في ووهسي، لم أعتقد أنني سأفتقد العمة الكبرى إلى هذا الحد.

رافقت الذكرى السنوية الأولى لموت والدتي (يناير ١٩٦٧) سنة أخرى من الاضطرابات، فقد جرى شجب وإلقاء القبض على المزيد من زعماء الدولة الآخرين، وحث الرئيس ماو الأمة بكاملها على أن تستولي على السلطة من المتسلقين الرأسماليين الذين «لا يزالون في المراكز الرأسمالية في جميع أنحاء البلاد». احتل سكان شنغهاي مركز القيادة، على رغم أنهم ما زالوا مرتبكين من

دعوة ماو غير الواضحة إلى السلاح. في الرابع من يناير أسقط متمردو شنغهاي العماليون الثوريون الحكومة البلدية التي «تعفنت حتى الجذور» حسب قول الإذاعة.

ترأس الانقلاب ضابط أمن مصنع نسيج يدعى وانج - هونج - وين، الذي بدوره وجّهته جانج - تشون - تشياو التي كانت زميلة لجيان تشينج منذ بداية عملها في المسرح والتي أصبحت في نهاية المطاف رئيسة هيئة الثورة الثقافية في جميع أنحاء البلاد. انضم الكاتب اليساري المشهور ياو - وين - يوان إلى جيان تشينج ووانج وجانج ليشكلوا فيما بعد «عصابة الأربعة» الشهيرة.

جلبت «عاصفة يناير» مشاكل عظيمة إلى عتبة دارنا. جرف التطهير اللاحق أخي الثاني نظرا لكونه عضوا في جناح المخلصين المهزوم. تلقت لجنة شنغهاي الثورية - التي تربعت على كرسي السلطة حديثا - مباركة الرئيس نفسه، وبدأت بتنظيف داخل البيت بصورة انتقامية. وسرعان ما جرى تصنيف غالبية المخلصين - بعد النقد والنقد الذاتي - على أنهم «أناس طيبون مضللون» نظرا لمشاعرهم البسيطة والطبقية الصافية تجاه الحزب.

لم تكن تلك حالة أخي الثاني، فلقد اتُخذَ كمثال للذين «ساندوا سرا الحكومة البلدية المحلية، بينما أظهروا استياءهم من الثورة الثقافية التي قادها الرئيس ماو العظيم». وبكلمة أخرى صُنِّف أخي كعدو لماو، وهي تهمة قاتلة. أجبر أخي على كنس الأرضية وتنظيف المراحيض بجانب هيئات المصانع سابقا خلال النهار، والتعرض للإدانة القاسية خلال الحملات المسائية. كانت أعمال التنظيف التي يقوم بها خلال النهار أسهل، في الواقع، من

عمله في صباغة المطاط. وكان يتلقى الراتب نفسه. ما أساءه فعلا هو التجريح والإذلال العلني، الذي تعرض له خلال اجتماعات الكفاح، التي كانت تعقد.

في إحدى الليالي، وعندما سمح لأخي أن يذهب إلى البيت ليحضر ثيابا نظيفة، شعرت بأنه كان خائفا.

قال لي إن «البعض تعرض للضرب حتى الموت من قبل زملائهم العمال في اجتماعات الكفاح، وبخاصة في المعامل المعنية بالمشاريع العسكرية. تملكني الخوف فسألته «هل يعني هذا أن الشيء نفسه قد يحصل لك؟».

هز كتفيه النحيلتين قائلا «لا أعرف».

حلّ علينا الهول الأحمر، في الربيع، انتشرت الخصومات والاقتتال بين الفئات المتصارعة في كل مكان حيث زعمت كل فئة أنها أكثر ثورية من الأخرى. وغدت المصانع والمكاتب الحكومية ومعاهد الأبحاث والكمونات مرتعا للحقد والكراهية. علت أصوات الطلقات النارية في الشوارع على أطراف مدينة شنغهاي. لم يعد التاريخ الذي تعلمته في المدرسة موضوعا نظريا بعد الآن: لقد تصاعدت محاولات الشيوعيين الحثيثة للقضاء على جميع الطبقات، فيما عدا الطبقة البروليتارية. وأخذت خطب الرئيس ماو تلح علينا المرة تلو المرة، مذكرة بأن هذا الصراع الأخير هو مسألة بقاء - أنت تموت لأحيا أنا. استبدلت القبضات العارية وحلقات الأحزمة البرونزية التي يستخدمها الحرس الأحمر بهراوات حديدية وقضبان من الفولاذ ورصاص حقيقي. زمجرت الأمة بكاملها، وساد العنف والقسوة.

أخيرا قام الرئيس ماو بما ظن البعض أنه لن يقوم به قط. كان الرئيس ماو قد أبقى جيش التحرير الشعبي PLA حتى الآن على الحياد خارج الثورة الثقافية. غير أنه عندما علم بأن الثوار لم يحالفهم النجاح في بعض المناطق من البلاد، بينما فشلت محاولات إخماد الاقتتال في مناطق أخرى، أطلق يد الجيش الذي لم يزد الطين إلا بلة، والذي دفع برئيس الأركان لين بياو إلى القمة ليصبح الشخص الأهم بعد الرئيس ماو.

تساءلت في نفسي إن كان هذا ما ستؤول إليه حياتي (أهجع في البيت خوفا على سلامتي وسلامة عائلتي، أراقب مستقبلي وهو يتلاشى أمام ناظري). كانت الأيام تتوالى متثاقلة، غير أن لياليَّ كانت مليئة بالكوابيس خاصة عندما أُقحم الأخ الثاني في اقتتال في الشوارع مرة أخرى.

مر حوالى أسبوع على الحادث، وصلتنا بعدها رسالة من العمة يي فينج. وما إن تبيّنا جملها غير المنقطة وحروفها الناقصة حتى تأكدت لنا مخاوفنا. لقد أضرم الاقتتال كفاحا آخر في كل أرجاء البلاد، وانخرط الفلاحون في حرب كان جدي لأبي في خضمها. لقد هوجم جدي لمجرد كونه رجل أعمال في الماضي ولامتلاكه قطعة من الأرض. صودر منزله في كينجيانج أولا، ولم تترك له وجدتي سوى غرفة واحدة يعيشان فيها، بينما سمح لعائلات أخرى أن تقطن المنزل. بعد ذلك، ذبح الثوار ما كان من دجاج وأرانب وماعز وذلك لقطع ذنبه الرأسمالي، وبكلمات أخرى، لحرمانه من أي مصدر عيش جانبي آخر. وعندما حاول منع الثوار المسعورين من هدم الأضرحة «البورجوازية» التي ضمت رفات والدته وزوجته الأولى، ووالدي، ضرب ضربا مبرحا نقل على إثره على

باب خشبي إلى منزله، حيث لزم سريره ولم يغادره منذ ذلك الحين. ولم يطل الأمر عليه بعد ذلك، فأسلم الروح متأثرا بجراحه.

أحرقت جثة جدي على الرغم من معارضة جدتي ووصيته هو بألا يحرق. فكك الثوار التابوت الذي كان قد صنعه وهو في الخمسين من عمره من خشب الورد، وباعوه قطعا لصنع الأثاث. كان إعداد المرء لجنازته قبل وقت طويل من موته أمرا مألوفا، واعتقد الكثيرون أن الإعداد الجيد الثري للجنازة يؤخر حدوثها. كثيرا ما رأيت العمة الكبرى وهي تعد حذاءها الوردي الحريري الصغير لجنازتها، حتى قبل أن تتقاعد، وقد أخاطت سلما صغيرا على كل فردة منه يساعدها على الصعود إلى الجنة. أما الحرس الأحمر فقد وصفوا هذا التقليد بالإقطاعية والبورجوازية معا، ولم يقلقهم التناقض الكامن في المسميين، بل أمروا بمعاقبة مرتكبيه. لهذا أجبرت الجدة نينجبو على السير في حارتنا مرتدية كامل الثياب المعدة لجنازتها، تتبعها ثلة من الأطفال يتضاحكون ويتغامزون، وأمرت بحرق الثياب جميعها. هزتها الحادثة ولم تقدر على تحمل المذلة فأسلمت روحها بعد فترة وجيزة. تساءلت دائما وأنا أفكر في جدي، كم ساهم الإذلال في موته وهو أحد أعيان كينجيانغ، وأكثرهم احتراما قبل مهاجمة الثوار له.

بحلول عام ١٩٦٨ انخفضت إنتاجية البلاد بشكل مقلق؛ ففي الريف وحده، كما أخبرتنا العمة يي فينغ في رسائلها، أهملت المحاصيل أو لم تزرع أصلا. وانبرت الملصقات تنادي بأن «من الأفضل أن تحصل على أعشاب ضارة بروليتارية من أن تحصل على بذور رأسمالية. وتسلل الجوع مرة ثانية إلى قلب البلاد.

عندها، انبرى ماو، وقد أقلقته - دون شك - الفوضى السائدة في البلاد، إلى الدعوة «للتمسك بالثورة بيد، والدفع بالإنتاجية قدما باليد الأخرى»، كما دعا الشباب إلى «متابعة دروسهم بينما يستمرون في صنع الثورة». في شهر مايو، وبعد عامين كاملين من الكسل والدعة، تلقيت رسالة موقعة من فريق دعاية فكر ماوتسي تونج تدعوني للعودة إلى المدرسة.

قمت تماما بما أمرت به وقد تملكني الخوف خشية مضايقة الحرس الأحمر لي ثانية. كانت المدرسة آنئذ في قبضة «فريق الدعاية» الذي تألف من مجموعة من العمال، لم يكن لأي منهم ما يؤهله لإدارة مدرسة. وطلبت رئيستهم من المعلمين والطلبة أن يدعوها بالمدير «ما». لم يكن هناك أي مؤشر إلى استئناف الدراسة كما وعدت هذه الأخيرة، فالمعلمون الذين نجوا من الهجوم الغاشم الذي شنه طلابهم وزملاؤهم عليهم، لم يرغبوا بالعمل، أما الطلبة أنفسهم فقد وجدوا من الصعوبة أن يجلسوا على مقاعدهم مرة أخرى بعد كل ما فعلوه خلال العامين المنصرمين من تحدٍّ للسلطة وإهانة لمعلميهم، وقد صنفت معظم كتبنا المدرسية بأنها «أعشاب سامة»، ولم تكن هناك كتب جديدة لتحل محلها.

وهكذا، بعد أن يئست من الحصول على أي تعليم ودخول امتحانات الجامعة، عدت إلى عادتي القديمة وهي قراءة الصحف ودراسة مقتبسات ماو.

وبعد وقت قصير من الاستدعاء للمدرسة، عرفت السبب الحقيقي له. تقرر أننا جميعا - كل طلاب المدرسة - سنتخرج في

يوليو! لن تكون هناك أي امتحانات. لقد جرى إلغاؤها لأنها «أدوات بورجوازية» تستخدم لاستبعاد أطفال الطبقة العاملة بمنعهم من التعليم العالي. تقرر أن نغادر المدرسة لإعدادها للطالبات الأصغر سنا، كأختي الصغرى التي لم تدخل مدرسة متوسطة، ولكنها ستصبح طالبة في السنة الثانية حالما تدخل من الباب وستتخرج بعد ذلك بعام.

قالت بسخرية «لن يتسنى لي الوقت لتدفئة مقعدي في مدرستي الجديدة!».

بعد حوالى سنتين من التعليم في المدرسة المتوسطة الفعلية تخرجت قبل سنتين من الوقت المحدد - في السادسة عشرة من العمر. وهكذا تبخر حلمي في الذهاب إلى الجامعة لأنني لن أتمكن من تقديم طلب الانتساب. وحتى تصبح الأمور أكثر هزلية طلب منا أن نحضر إلى المدرسة كل يوم في أثناء فترة «انتظارنا للعمل»، دون وجود فصول دراسية، فكنا نجلس ونتحدث ونلعب الورق.

جابهني الآن واقع قاس وغير متوقع، أفزعني، وهو أن أصبح عاملة. ولما كانت كل الوظائف تملأ حسب تخطيط الحكومة، فلم يكن هناك شيء اسمه تقديم طلب توظيف؛ فخريج المدرسة الإعدادية الذي لم يدرس في الجامعة عليه الانتظار حتى تخصص له الحكومة عملا، أما أصحاب العلاقات فقد استخدموا الباب الخلفي للحصول على تعيينات مفضلة، وأكثرها تفضيلا هي في الجيش، لما تحمله من مكانة اجتماعية وأمان. ملأت الاستمارة الرسمية وأنا كسيرة القلب، وعلى رأسها بند «التأهيل

السياسي»، أي بمعنى آخر «الخلفية الطبقية». كان علي أيضا أن أدرج جميع إخوتي وأخواتي مع أعمارهم ومهنهم وعناوينهم.

ما أفزعني أكثر من غيره هو ما اختطته الحكومة من سياسة جديدة يفترض أن تكون محاولة لتخفيف الكثافة السكانية في المدن: يتعين على طفل واحد من كل عائلة أن ينتقل إلى الريف ويبقى هناك طيلة حياته.

كان الأطفال الوحيدون لعائلاتهم آمنين وضمنوا لأنفسهم عملا في المدينة، كذلك علت ابتسامات النصر وجوه من لهم إخوة وأخوات يعملون خارج شنغهاي.

لم يكن بإمكان الحكومة اختيار طريقة أفضل لإشعال الفتنة داخل الأسر، فلن يتخلى أحد ولد في المناطق المدينية طواعية عن السكن في المدينة ليعيش في الريف، فقد كانت الحياة في الريف الصيني حياة ضنك وحرمان. والآن، أصبحت أنا وأختي الكبرى خريجتي مدرسة متوسطة قبل الموعد المحدد بكثير. ولما كان أخي الأكبر لا يزال طالبا في الجامعة، وكان الأخ الثاني قد حصل على عمل مسبقا في شنغهاي، وأختي الصغيرة أصبحت لتوها طالبة مدرسة متوسطة، ترتب عليَّ أو على أختي الكبرى مغادرة المدينة والعيش في الريف حتى الموت.

كم تمنيت أن يتوقف الزمن! أحصيت كل ساعة حتى شهر أكتوبر عندما ستقع الفأس على خريجات سنة تخرجي. ذكرت نفسي بقول العمة الكبرى إن القارب الذي يبحر في اتجاه النهر سيعتدل مسيره ذاتيا قبل أن يصل إلى الجسر. ولكنني لم أكن متأكدة من ذلك. اشتدت الخلافات في العائلات وتقاتل الإخوة كالأعداء. فإحدى

زميلاتي في الصف التي كانت قد تركت أهلها بالتبني واتهمتهم بأنهم مصاصو دماء رأسماليون، وعادت إلى عائلتها الفعلية، حيث إخوتها، أدركت أنها بعودتها قد تخلت عن وضع «الولد الوحيد» مقابل مستقبل غير مضمون. عندها خشيت أن يقع عليها الاختيار للذهاب للريف فطلبت الصفح من أهلها بالتبني، ولكنهم بعد أن حطمت قلوبهم، رفضوا إعادتها.

ازداد التوتر في بيتنا إلى حد لا يحتمل، ولم يكن هناك من يريد أن يناقش ورطتنا. تمنيت أكثر من مرة أن يحتدم الخلاف بيننا كي يصفو الجو بعده، فقد يكون الصراع العائلي مفيدا في بعض الأحيان. ولكن بعد سنوات كثيرة من التقارب بسبب وفاة والدينا وآلامنا المشتركة فيما عانيناه من العواصف السياسية، لم نستطع مواجهة الصدام.

في أواسط أكتوبر استدعيت ثانية إلى الإدارة فواجهني المدير وانج، وهو عامل من مصنع معدات التبريد المجاور وعضو فريق الدعاية، وأخطرني رسميا أن الوقت قد حان بالنسبة إليّ لأعطي جوابا، هل أغادر أنا أم أختي الكبرى؟ رجوته أن يصدر استثناء لنا قائلة إن هناك حاجة لي ولها في البيت للعناية بأختنا الطفلة بعد أن فقدنا والدينا.

قال بحزم «إن أردتم رأيي فأنا أعتقد أنه يجب أن تذهبوا أنتم الثلاثة، فالأطفال أمثالكم الذين أفسدهم الأهل البورجوازيون حتى العفن يجب أن يذهبوا ليروا العالم الحقيقي، نعم، هذا ما سأوصي به»، حام قلمه حول الطلب الرسمي، وقفت أمامه باكية وقد لسعتني كل كلمة وارعبني تهديده وتخدر عقلي من الذعر.

قلت متلعثمة «سأذهب، سأكون المغادرة، ولكن أرجوك اترك أختي في شنغهاي!».

«ستذهبين في أول فرصة؟».

«نعم!».

بتلك الكلمة وضعت خاتمة لمصيري.

انطلقت من المدرسة وجريت إلى مدرسة أختي الثالثة التي تبعد أكثر من ميل، مصممة على الوصول قبل أن تكون قد أجبرت هي الأخرى على الذهاب إلى الريف.

هناك وقعت ورقة أمام معلمتها التي كانت هي أيضا عضوا في فريق دعاية مدرستها قائلة إنني راغبة في الذهاب إلى الريف. لم تكن أختي تعلم شيئا عن ذلك.

شعرت بالراحة وأنا في طريقي إلى البيت، كأن حملا ثقيلا قد أزيح عن كتفي، وأخيرا سيزول التوتر الذي انتابنا جميعا.

كان الكثيرون يفكرون أن على الأخت الثالثة أن تذهب لأنها تكبرني بسنتين. على الأقل هذا ما كانت بالتأكيد تأمله العمة الكبرى، رغم أنها لم تنبس ببنت شفة.

شعرت دائما بعقدة الذنب تجاه تفضيل العمة الكبرى، وجرحت شعورها أحيانا نتيجة لذلك. تمنيت أن تعاملنا جميعا بالتساوي أو أن تظهر الاهتمام تجاه أختي الصغرى التي كانت تحتاج إلى مساعدة أكبر. إن مغادرتي لشنغهاي سيؤلم العمة الكبرى إلى الأعماق ومن المحتم أنها ستكره الأخت الثالثة، ولكنني أدركت أيضا أنني إذا بقيت وتركت أختي الثالثة تذهب إلى الريف فإن ضميري لن يدعني أرتاح. استمر الاعتقاد المكتوم بأنني شخص

سيئ ينتابني، ولعب دورا غير قليل في قراري. لقد تمنيت يوما موت والدي، لذلك فأنا الأقل استحقاقا للجدارة من كل أبنائه، وعليه يجب أن أكون الأولى التي تغادر المنزل.

في الطريق إلى البيت حاولت أن «أجد المبررات لإقناع العمة الكبرى بضرورة ذهابي إلى الريف، آملة أن أخفف امتعاضها من أختي. في تلك الليلة في أثناء العشاء قوبلت بالصمت عندما أعلنت قراري، لم أخبرهم بتهديدات المدير وانج لأنني شعرت بأنني سأبدو حمقاء. فيما بعد تحدثت مع العمة الكبرى في غرفتها.

تنهدت قائلة «كان يجب أن أعرفك أنك ستكونين المغادرة!». استخدمت كمها لمسح دمعة سالت، وأضافت «يا آه - سي! يا ابنة سنة التنين! لو سمحت لي والدتك بتبنيك، لكنت طفلا وحيدا ولأمكنك البقاء معي!».

حاولت أن أقنعها بالقول إن أختي الثالثة لن تكون آمنة بعيدا عن البيت لأنها عرضة للحوادث. ألم تؤذ نفسها ثلاث مرات خلال سنة واحدة في درس التربية البدينة؟

وكالمعتاد لم يفلح المنطق مع العمة الكبرى، قالت «قد يعتنى بشخص أخرق، بل قد يعفى من العمل الجسدي، ولكن من سيعتني بك يا آه - سي؟».

لم يضع المدير وانج الكثير من الوقت لإخراجي من شنغهاي. فبعد أسبوعين وأمام زميلاتي «الخريجات» طرح علي خيارين: أن أذهب إلى مزرعة مطاط في جزيرة هاينان في بحر الصين الجنوبي، وهو مكان سمعت به ولكني لم أعرف شيئا عنه، أو إلى

مزرعة سجن في منطقة يانج سو بعيدا عن شنغهاي. صدمني الخبر بقدر ما صدمني إذاعته له على الملأ.

أضاف بفظاظة «ربما كان على والدك، صانع المطاط الرأسمالي، أن يراك تعملين في مزرعة مطاط». سببت ملاحظته ضحكات استهزاء من الفتيات الأخريات، وقبل أن يغادر قال: «أمامك ٤٨ ساعة لتقرري وإلا سأقرر نيابة عنك».

ورغم غضبي كان الهلع أقوى شعور انتابني. لماذا مزرعة سجن؟ لقد أرسل، حسب علمي، جميع الخريجين في المدينة إلى مزارع مدنية في جزيرة تشونج مينج، وعلى بعد ساعتين في رحلة القوارب. ولماذا أكون الطالبة الوحيدة في المدرسة التي تمنح ٤٨ ساعة للتوصل إلى قرار.

أخذتني مدرسة التربية البدنية جانبا - المدرسة تشن - وقالت لي بصوت منخفض إن السبب في كوني الهدف الأول هو وجود اسمي على رأس قائمة المدرسة في المعونة الاجتماعية. وأضافت أنني إذا رفضت الالتزام (كما فعل البعض بمساندة الأهل) فإن معونتي الشهرية ستتوقف في الحال. والأنكى من ذلك هو أن الأخت التالية لن يخصص لها أي عمل حتى أغادر المدينة.

للمرة الأولى خلال سنواتي الست عشرة، تمنيت لو لم أخلق في هذا العالم. هاتفت الجامعة وتركت رسالة عاجلة للأخ الأكبر بأن يأتي إلى البيت في الحال. كنت في حاجة ماسة لنصيحته. في تلك الليلة أخبرته أنني أفكر في الذهاب إلى جزيرة هانيان، والسبب في ذلك هو أنني سأوفر نفقات الملابس الشتوية، لأن الجزيرة استوائية، والأهم من كل ذلك هو أنني خائفة من فكرة

العيش مع المجرمين العتاة في المكان الآخر. وفي أثناء حديثي معه فقدت السيطرة على نفسي، في حين رفضت قبلها أن أذرف دمعة واحدة في المدرسة.

صرخت «لماذا يريدون أن يرسلوني إلى مزرعة سجن؟ ماذا فعلت لأستحق ذلك؟».

بقيت عائلتي صامتة لأنهم لم يعرفوا ما يجب عمله وذهبنا كلنا للنوم دون أن نتناول العشاء.

في صباح اليوم التالي طلب مني أخي الكبير أن أبقى في البيت بينما يحاول هو أن يحصل على المزيد من المعلومات. خرج أخي الآخر وأختاي أيضا وبقيت وحدي في البيت مع العمة الكبرى.

بحلول وقت الغداء عاد أخي الكبير بالأخبار. لقد زار مكتب إدارة المزارع في منطقة شرق الصين وتحدث مع أحد الكتبة هناك، الذي قال له إن مزرعة المطاط تقع في إحدى أكثر مناطق الصين فقرا، التي عانت طويلا من تفشي التهاب الكبد المريع. وكان هذا هو أحد أسباب تجنيد العمال الجدد للعمل هناك. أما مزرعة السجن فهي تدعى دافنج (الحصاد العظيم)، وتقع قرب شاطئ البحر الأصفر. أنشئت المزرعة في أوائل الخمسينيات لإيواء سجناء الكومنانج، وأصبحت فيما بعد معسكر عمل للمجرمين.

حاول أخي الأكبر أن يطمئنني «إنهم جميعا من صغار المجرمين يا آه - سي، وقد أرسل بعضهم إلى هناك بسبب طريقة حياتهم المنغمسة في الملذات. لن يؤذوك إذا ما ابتعدت عنهم».

لم يرحني ما سمعته إلا قليلا. بدا الأمر كأن أي الخيارين سيكون جحيما على الأرض. من المفترض أن يكون عمر الست عشرة سنة

كفتح الصفحة الأولى من مستقبل زاهر. كان الأمر بالنسبة إليَّ كأن أحدهم أغلق كتاب الحياة في وجهي. اخترت مزرعة السجن.

بعد أسبوع أتت المدرسة تشن إلى بيتنا وأحضرت معها الوثيقة الرسمية لمهمتي. أعلنت الوثيقة مغادرتي في ٢٠ نوفمبر أي بعد أقل من أسبوعين. وفقط بعد مغادرتي لشنغهاي سيسند العمل إلى أختي الثالثة.

انتحبت الأخت الثالثة قائلة «يا آه سي، لا أريدك أن تذهبي».

بدأ كل فرد بمن فيهم العمة الكبرى بالبكاء ما عداي. بقيت أذكر نفسي بأن الدموع ستؤذي مشاعر الجميع. وفضلا عن ذلك فإنني سأكون وحيدة ومنعزلة بعد أسبوعين وسيكون لدي الكثير من الوقت للبكاء.

عندما هدأنا قليلا، أشارت المدرسة تشن إلى أن الوثيقة تحتوي عددا من القواعد والأنظمة، أولها وأهمها أن علي أن أنهي الإعانة الاجتماعية وهي الغالية عليَّ غلاوة الحياة ذاتها. في ذلك الوقت كان قرابة ٢٠٪ من سكان الصين يتمتعون بالرعاية الاجتماعية المدنية. ففي إحدى المرات فقدت بطاقة الإعانة الاجتماعية ولم أستطع استرجاعها ثانية. لقد كان ذلك رمزا للنفي.

ثانيا، كان الشتاء قارسا هناك، كما جاء في الوثيقة، وليس هناك نظام تدفئة، أحضري معك ملابس دافئة وبطانيات إضافية.

في الصباح الباكر من اليوم التالي، غادرت المنزل سعيدة بالهروب من الهدوء الجنائزي. أعدت بطاقة الإعانة الاجتماعية وبطاقات التقنين في مخفر الشرطة المحلي، وأُعطيت بطاقات طعام صالحة في أي مكان في الريف ووثائق خاصة للقطن الخام

والأقمشة لأعد الملابس والشراشف وحذاء مطاطيا وبطانية من مزيج القطن وغطاء لدرء البعوض.

عندما عدت إلى المنزل، كان أخي الثاني في انتظاري، جلسنا حول مائدة الطعام وناولني ١٠٠ يوان تصلح لتفدي ملكا. كان المبلغ أكبر من أي شيء رآه أي منا في حياته، قال «اقترضتها من المصنع لكي تشتري أي شيء تحتاجينه أو تريدينه».

سالت دموعي تأثرا، أدركت أنه سيحتاج إلى عدة سنوات لسداد مبلغ كبير كهذا، ولم أعرف كيف أشكره. وبينما رحت أحدق بالمال بعينين مملوءتين بالدموع، شعرت بنهائية رهيبة أنني تاركة أهلي والبيت الذي ولدت ونشأت فيه حتى نهاية حياتي.

قال لي «لا تبكي يا آه - سي فكل شيء سيكون على ما يرام، تعالي فأخونا الأكبر ينتظر ليأخذك إلى المخازن».

خلال رحلة الشراء مع أخي الأكبر لم أعر أي شيء انتباهي، كان هو يقودني عبر المخازن المزدحمة ويشتري لي الملابس الدافئة والقطنية والقماش. وعندما توقفنا أمام واجهة أحد المخازن، جذب انتباهي بين كل المعروضات جوارب نايلون ملونة وناعمة ومطاطة، بدت كأنها ستناسبني تماما. فبعد سنوات من ارتداء الجوارب المرتوقة عدة مرات اضطرتني في أغلب الأحيان للبس حذاء أكبر حجما من قدمي، بدت هذه الجوارب لي قمة الرفاهية. طلبت من أخي الكبير أن يشتري لي زوجا منها، فاشترى لي زوجين.

غالبا ما كانت أمي تقول «الأقارب البعيدون ليسوا أعزاء كالجيران المقربين» وقد كانت على حق لأن جيراننا تجمهروا

لمساعدتي في الاستعداد للذهاب إلى المنفى. سهرت السيدة يان لخياطة معطفي المبطن وسراويلي.

سألت السيدة يان «المزرعة تسمى دافنج، أليس كذلك؟ لا بد أن الطقس بارد جدا هناك». اعتقدت أن دافنج تعني الرياح الشديدة، لأن فنج التي تعني الريح تلفظ تماما مثل كلمة فنج التي تعني الحصاد.

شغلت العمة الكبرى نفسها طوال الوقت إلى درجة جعلتها تقول إنها ليس لديها الوقت لتتحدث معي، كان هذا طبعها كلما كانت حزينة أو غاضبة، وكان السكوت دائما جوابها. جلست أمام المدفأة ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم تحمّص الدقيق في الإناء الصيني وتحركه بعناية لكيلا يحترق. كان الدقيق المحمص رخيصا ومتوافرا، وعند مزجه وغليه بالماء ينتفخ ويملأ المعدة. وإذا أضيف إليه القليل من السكر أصبح وليمة فاخرة. ولكن العملية تحتاج إلى وقت طويل وصبر أكثر، وقد دهشت لرؤية المقدار الكبير الذي أعدته العمة الكبرى لي؛ لقد استخدمت كل بطاقات الطعام بالإضافة إلى ما اقترضته من الجيران لشراء الدقيق، وكان ذلك غير مستغرب منها أيضا.

حل يوم الرحيل - أحد أيام نوفمبر المعتادة في شنغهاي - رطبا وباردا وسماء غائمة. حزم أخواي بصمت حقيبتي والفراش اللفيف بحبال غليظة من القش من أجل الرحلة الوعرة الطويلة. أعدت العمة الكبرى لغدائي وجبتي المفضلة: شرحات لحم الخنزير من طراز شنغهاي مع البصل الأخضر. تناولت بصعوبة لقمة واحدة وكذلك أخواي وأختاي. بعد غسل الصحون قالت لنا

العمة الكبرى إنها ذاهبة لاجتماع قراءة الصحف. ودون أن تودعنا أو تتمنى لي رحلة آمنة، بل دون أن تنظر إليَّ، غادرت المكان وأغلقت الباب خلفها.

بعد ساعة غادرت منزلي متسائلة ما إذا كنت سأدخل هذه الغرف الثلاث ثانية أو أنام في فراش العمة الكبرى أو أقف في المنور وأنظر إلى الأعلى إلى الغرفة التي عاش ومات فيها أبي وأمي. مشيت وأختاي وأخواي في زقاق أشعة الشمس الأرجوانية حيث كانت ألعب وأطارد العصافير، وحيث مشيت مجللة بالأبيض في جنازتين. تجاوزنا مدرسة المعبد والسوق الذي كنت أنتظم بجد في صفوفه لشراء الأرز وعظام الخنزير. وفي طريقنا إلى موقف الحافلة، كان علينا أن نجتاز البناء الذي كان يعقد فيه اجتماع العمة الكبرى. هناك رأيتها تقف في المدخل وتبكي. وقفت هناك وحاولت الكلام، أردت أن أخبرها كم أحبها ولكنها التفتت إلى الجانب الآخر.

عندما وصلنا إلى مركز المحافظة الرياضي حيث تعين على الفتيات «المتخرجات» المنفيات أن يجتمعن. وضع أخواي أمتعتي على الأرض ووقفا مع أختيَّ بضيق بعد أن ضاعت الكلمات من الجميع. كانت أختي الصغرى تبكي، ولكن الأخت الثالثة حدقت في الرصيف الرطب. اكتشفت أن الذين سيذهبون إلى المزرعة يحق لهم دخول المبنى.

حلت لحظتي الأخيرة مع عائلتي فانفجرت باكية.

استعطفتهم «لماذا لا يستطيعون البقاء معي حتى تحين لحظة المغادرة؟» لم تكن هناك أي فائدة.

في تلك اللحظة نادى أحدهم اسمي، وعبر دموعي رأيت المدرسة تشن تجري نحوي، لقد اتت لتودعني. اكدت لأخوي وأختي أنها ستبقى معي. ودعت كلا منهم بكلمات وداع مقتضبة. حملت حقائبي ومشيت إلى بوابة الملعب.

أقنعت المدرسة تشن الحراس بأن يدعوها ترافقني إلى الداخل قائلة لهم إنها تمثل المدرسة. اجتمعت هنالك اكثر من ٣٠٠ مراهقة يحملن حزما مرصوصة ومربوطة بإحكام. وكانت هناك اربع متخرجات أخريات من مدرستي ذاهبات ايضا - على ما اخبرتني المدرسة تشن - ولكن لم أكن أعرفهن.

جلسنا ننتظر. أعطتني مدرستي بعض الخبز الذي احضرته لي، ولكنني لم ألمسه. قالت لي وهي تحاول أن تشجعني «كوني فخورة بنفسك يا هسياويي لأنك لست جبانة».

لكنني لم أشعر بأنني شجاعة أبدا.

بدأ الظلام يحل عندما دعتنا مكبرات الصوت إلى حافلاتنا المنتظرة، وعندما كنت على وشك ركوب الحافلة، امسكت المدرسة تشن يدي بيديها أمام صدرها، وهمست قائلة «يا هسياو يي، تذكري المثل القديم القائل - عندما تكونين في البيت اعتمدي على والديك، وعندما تكونين بعيدة عن المنزل اعتمدي على صديقاتك».

أدركت أنها تتحمل خطرا كبيرا بتكرار ذلك القول القديم المعروف؛ لأن معظم الأمثال القديمة قد شُجِبَت كتوافه إقطاعية ويمكن أن يسمعها أحدهم.

قلت لنفسي إن كل شيء ضدي حتى هذا المثل، ليس لي أهل في البيت، والثورة الثقافية التي شجعت الأصدقاء على شجب

بعضهم لبعض حطمت الصداقة. وبدا أنه لم يبق شيء يمكن الاعتماد عليه ولا حتى ظل المرء.

عندما استقللت حافلتي - الخامسة في الترتيب - لم تبق هناك أي مقاعد شاغرة. وضعت أمتعتي على الرفوف المخصصة ووقفت في الممر أمسح عيني بأكمامي كما فعل الآخرون وحدقت من النافذة. مرت الحافلة عبر البوابة إلى شارع مزدحم بالعائلات والأقرباء الذين انتظروا لعدة ساعات. انطلقت أبواق المركبات العابرة ورنت أجراس الدراجات. انطلق الناس بجانب الحافلات ينادون الأسماء ويبكون، وعندما توقفت الحافلات، اندفعت عشرات الأيدي إلى النوافذ، تمسك بأيدي الأحباء. تمعنت في الجمهور بحثا عن أخويَّ وأختيَّ.

بدأت الحافلة بالتحرك ثانية، وانكفأت الأيدي عن النوافذ تدريجيا. عندها سمعت صوتا يائسا يصيح «يا آه - سي، يا آه - سي! أين أنت؟».

شققت طريقي نحو النافذة متجاهلة اعتراض الجالسين على المقاعد، وصرخت «هنا! هنا!».

عندها رأيت أخي الكبير يتفحص الحافلات التي أمامي ملوحا بيده ومناديا اسمي كلما مرت حافلة من أمامه.

صرخت بأعلى صوتي «أنا هنا يا أخي!».

أسرعت الحافلة وجرى أخي بجانبها مادا يده إلى نافذتي. تقت إلى تلك اللمسة الأخيرة أكثر من أي شيء آخر. تلمست النافذة قدر المستطاع فاتحة يدي ومغلقة إياها، ولكن الأخ الأكبر تراجع إلى الخلف وشعرت بالهواء البارد فقط لا غير.

الجزء الثالث

الرياح القارسة

١٩٦٨ - ١٩٧٤

بعد مسيرة ليلية على ظهر الباخرة «الشرق أحمر رقم ٨»، وهي سفينة ثقيلة بطيئة متهالكة مكتظة بالمراهقات البائسات، ركبت حافلة هرمة لأبدأ الرحلة الطويلة إلى المزرعة، وسرعان ما تراجعت الحقول حول مدينة نانج تونج في مقاطعة يانج سو خلف قافلتنا، لندخل منطقة منبسطة تكاد لا تصدق تذروها رياح قوية تمكنت من شق طريقها حول حواف النوافذ إلى داخل الحافلة. وميلا بعد ميل لم نشاهد أي شجرة أو بناء أو إنسان تحت السماء الكئيبة، ونظرا لنشأتي في إحدى أكبر مدن البلاد، فإنني لم أكن قد رأيت من قبل شارعا خاليا من الناس حتى ولا في منتصف الليل. لم أكن خبيرة بالحياة في الريف المحيط بمدينة كينج - يانج حيث كنا نسافر - قبل عملية والدي - كل سنة لزيارة جدي. لقد رأيت دائما الفلاحين يعملون في الحقول الخضراء يقطعونها جيئة وذهابا فوق سدود حقول الأرز الضيقة، أو يمشون في الطرقات القذرة.

وهناك - حتى في الشتاء - كانت الأرض الكثيفة السكان خضراء، والهواء مثقلا بالرطوبة وروائح النباتات النامية الذكية. هذا الفراغ لا يعني سوى شيء واحد أن التربة غير صالحة للزراعة.

صرخت إحداهن من مقدمة الحافلة «بيت! بيت!»، انعطفت الحافلة إلى طريق أعرض تغطيه طبقة من المسحوق الأبيض. غطت هذه المادة الغريبة الحقول أيضا وبدت كأنها سمة دائمة من سمات المكان.

بدأت الحافلات التي تتقدم حافلتنا تنحرف إلى طرقات قذرة ضيقة إلى اليمين واليسار، ودمدمت حافلتي فوق جسر خشبي

وتوقفت وسط مجموعة من الأبنية ذات الجدران المبنية من أغصان القصب والأسقف المصنوعة من قش الأرز. خلدت كل فتاة إلى السكوت والتحديق، كان البؤس يحيط بالأبنية: حقول منبسطة جافة خالية من كل شيء. قلت لنفسي إن ذلك لا بد أن يكون توقفا مؤقتا.

عندما انفتح الباب وسمح بدخول ريح نوفمبر القارسة، دخل رجل متوسط العمر إلى الحافلة، حيّانا بلهجة سوبيه قائلا: «مرحبا بكن أيتها الرفيقات الثوريات»، مستخدما عبارة لم تستعمل منذ بداية الثورة الثقافية لأنها تفتقر إلى الدقة. صحح نفسه قائلا «أهلا بكن في الفرقة الأولى من مزرعة هسي مين في معسكر عمل دافنج». و صحح نفسه بسرعة قائلا «مزرعة دافنج». «اسمي تشانج وين وأنا مسؤول هذه الفرقة».

نزلت من الحافلة بتردد مع الأخريات. تألف فريق الترحيب من مساعد تشانج (لاو - دنج)، وهو رجل عجوز قصير يتجه فمه وزوايا عينيه نحو الأعلى، حتى عندما يبتسم. وزوجتيهما والطبيب والمحاسب. صافح الأخير - وهو رجل طويل نحيل - كلا منا منحنيا انحناءة شديدة أثناء ذلك ومبتسما، مما أظهر لنا أسنانه المصبوغة بالسجائر. كانت المصافحة تجربة جديدة بالنسبة إليّ لأنها عنت أنني أصبحت امرأة بالغة.

جلت ببصري بحثا عن أي دليل على المجرمين ذوي الوجوه المملوءة بالندبات، عن الجدران العالية والأبنية الضخمة ذات النوافذ المغلقة بالمزاليج والحواجز، ولكنني لم أر شيئا غير مألوف - مجرد قرية صغيرة ذات أزقة ومعابر قذرة. الدكتور وانج - أصغر

أفراد فريق الترحيب الذي ذكرتني عيناه اللامعتان الحادتان بجدي - طلب من الطلاب الذكور أن يتبعوه إلى مهجعهم، أما لاوياي زوجة لاو تشانج، وهي امرأة بدينة في أواسط العمر وذات صوت خارق، فقد دعت الفتيات.

صاح أحدهم من مهجع الرجال «هل هذا هو المكان الذي سنقيم فيه؟».

كان مهجعنا - ككل الأبنية - مؤلفا من طابق واحد، ومصنوعا من نبات الوتل (قضبان مجدولة مع القش ومغطاة بالطين والصلصال)، ومسقوفا بالقش وله أرضية قذرة، وكان يقع في الجزء الجنوبي من القرية، يفصله عن مهجع الرجال ممر ضيق على الجانب الأيسر وعن الحقول الخاوية قناة على جانبه الأيمن.

قالت لاوياي «ادخلن، لا تعرنه أي اهتمام، ادخلن وألقين نظرة!».

دخلنا - الواحدة تلو الأخرى - عبر الباب الضيق، وعلى رغم أن الوقت كان عصرا فقد حاولت ثلاثة مصابيح عارية طرد الظلام الكئيب. هناك باب في كل نهاية وثلاث نوافذ صغيرة في كل جانب وأرضية قذرة رصتها الأقدام الكثيرة، كانت الجدران حديثة الطلاء بلون أبيض، وإن بدا الصلصال الرمادي من خلفها، وعلى طول كل جدار امتد رصيف من الألواح الخشبية غير المشذبة دعمتها أغصان أشجار مدببة مغروسة في الأرض ومغطاة بالقش الكريه الرائحة. وكان هذا هو سريرنا.

وكأنها قرأت ما في ذهني، قالت لاوياي بابتهاج «لن يبدو سيئا إلى هذا الحد، عندما تفرشن أغطيتكن، إنكن - يا بنات المدن - جيدات في الديكور، أليس كذلك؟ سرعان ما سيبدو هذا المكان كالمنزل».

بعد نقاش قصير، لكنه حازم، حاولت خلاله الكثيرات البقاء مع زميلاتهن في الدراسة أو قرب النوافذ، كما حاولت جميع الفتيات الابتعاد عن الأبواب، تحددت الأماكن بحقائب السفر. عندها قادتنا لاوباي إلى المقصف في الطرف الشمالي من القرية لتناول غداء متأخر. نظرت حولي بحثا عن صنبور لغسل يدي، فرأيت حوالى ٦ جرار ماء خارج بناء صغير، وكل واحدة منها بارتفاع صدري وعرض ذراعيَّ الممتدتين. كانت كل جرة مملوءة بالماء النقي، على رغم رائحتها الطينية. فكرت أن هذا الكوخ لا بد أن يكون بيت المضخة وتساءلت كيف أستطيع أن أغسل يدي دون تلويث الجرة بكاملها.

ظهر رجل أبيض الشعر من خلف كوخ حيث - على ما يبدو - كان يعمل، ذلك أن يديه كانتا سوداوين.

«هل أستطيع ان اساعدك يا آنسة؟».

شرحت له مأزقي.

قال بهدوء «تعالي معي»، وقادني عبر الباب إلى الكوخ. على الأرض وجدت حوضا وبجانبه الصابون والمنشفة. أشار إلي بأن أستعملها ثم تركني وحدي. وعندما خرجت ثانية ملأت راحتيَّ بالماء من حوض ملأته إحدى الجرار، معتقدة أن هذا هو مورد القرية من الماء العذب.

وعندما خرجت من المقصف سألتني الكثيرات من الطالبات كيف تدبرت أمر غسل اليدين، حيث لم يصل أي من متاعنا. أخبرتهن بالأمر وأضفت أن بإمكانهن استخدام الحوض والصابون والمنشفة أيضا لأن العم العجوز بدا لي عطوفا بما فيه الكفاية.

قاطعتني لاوباي قائلة بتجهم: «انتبهي أيتها السيدة الشابة لما تقولين، يجب ألا تنادي أحدا هنا بالعم أو العمة، ولا تذهبي إلى أماكنهم لتستخدمي حاجياتهم. عليك أن تخاطبي أولئك الذين استقبلوك فقط، يجب ألا تكوني على صلة مع أي إنسان آخر». خفضت صوتها بصورة مفاجئة وقالت «لو علمت ما فعل العم العجوز قبل التحرير لما أردت أن تكوني في أي مكان قربه».

مست كلماتها جسمي بصاعقة من الخوف، هل كنت أتحدث مع أحد المجرمين؟ هل هو قاتل؟

تابعت لاوباي حديثها قائلة: «أنت - أنتن جميعا - عليكن الابتعاد عنهم، إنكن جميعا فتيات شابات، لا تستطعن معرفة ما يمكن أن يفعله هؤلاء الجبناء. إذا اضطركم الأمر يمكن أن تدعونهم بكلمة (واي) ولا شيء آخر». «واي» تعني «أنت» في اللغة الصينية أو «مرحبا» أثناء الحديث على الهاتف.

أفسد تحذير لاوباي شهيتي، كررت سرقة النظرات إلى الرجال الواقفين خلف الحاجز، أولئك الذين قدموا لنا الطعام. لا عجب أنهم وقفوا هناك كالخشب المسندة من دون أي ملامح، ولاعجب أنهم لم يقولوا شيئا لنا وتجنبوا الاتصال البصري بنا، ولكن إذا كانوا خطرين ولا يمكن الوثوق بهم - كما قالت لاوباي - فلماذا نثق بالطعام الذي يعدونه؟

في تلك الليلة حذرنا لاوتشنج من استخدام المراحيض العامة في الليل، ولم يحدد ما إذا كان خائفا من أن نسقط في حفرة السماد الطبيعي قرب المرحاض غير المضاء أو من تحرش السجناء بنا، ولم يساعد تحذيره محاولاتي بالإخلاد للنوم. أما الفتيات

الأخريات حولي فقد كن يتحدثن أو يبكين أو يصرخن أثناء النوم، شعرت بالإحباط التام، وشعرت بأننا جميعا نعاج صغيرة في غابة ننتظر الذبح.

عندما استيقظت وجدت نفسي متعدية على ركن جارتي، فكرت أن الأمر سيستغرق فترة للاعتياد على النوم معا على المقاعد الطويلة. كان اسمها ليو - لان - لان (الأوركيدة).

وظهر أن جارتي إلى الجانب الأيمن هي إحدى زميلاتي في المدرسة على رغم عدم معرفتي الجيدة بها. كانت جيا - ينج فتاة جميلة في التاسعة عشرة من عمرها، وذات عينين سوداوين واسعتين ووجه شاحب بيضاوي وشعر مقصوص حسب الطراز الحديث. وعندما قدمتني إلى زميلاتي الثلاث الأخريات في المدرسة بصوتها الناعم، بدت كمنظم لقاء اجتماعي. في الحقيقة لم يكن التنظيم إحدى نقاط قوتها: كانت هناك سلطانيات غير مغسولة تحت سريرها، وثياب مختلطة بغير نظام فوق متاعها المفتوح. وبعد فترة قصيرة سألت على استحياء، إذا كنت مستعدة لإمساك ملاءة سرير لكي تجثم وراءها من أجل أن تغير ثيابها.

وقفت على سريرها والملاءة في يدي، وألقيت نظرة جيدة على المهجع الطويل الضيق الممتلئ بالنساء الشابات - وكلهن تقريبا أكبر مني بسنتين - يتجولن جيئة وذهابا بملابسهن الداخلية، في حين أن الأخريات يقرفصن على الأرض فوق المبصقات المستخدمة كقصرية حجرة النوم، وهو منظر أدركت أنه سيتكرر بلا نهاية في الأسابيع والأشهر والسنين القادمة.

ابتدأ النهار بمسيرة إلى المرحاض، والكثيرات من الفتيات حملن قصريات غرفة النوم وسط ضحكات الطلاب والسجناء وملاحظاتهم الساخرة. عندما رأيت مرحاض النساء كررت لنفسي الحكمة القائلة «كل شيء صعب في البداية»، حيث اعتقدت في هذه الحالة أن الصعوبة لن تصبح سهلة أبدا.

قبل الإفطار تسللت وتفقدت القرية، ولم يستغرق الأمر طويلا، فالمعسكر مؤلف من ٤ صفوف من المباني: الصفان الأولان مساكن ومهاجع، والصفان الآخران - على الجانب الشمالي من الطريق المركزي - أماكن للمستوصف والمكاتب الإدارية والمقاصف وبيوت المضخات والمستودع لتخزين الأدوات والمعدات الزراعية. والحدود على الجوانب الثلاثة هي قناة عريضة - مملوءة جزئيا بالماء الراكد والنفايات - تلتقي مع نهر على الجانب الرابع. إنه مكان خامل كئيب.

وصلت إلى المقصف في الوقت المناسب لسماع المحاضرة الأولى للاو تشانج - ويداه خلف ظهره - التي ألقاها على القادمين الجدد. كان قد حشر نفسه في بزة عسكرية باهتة وعلى رأسه قبعة، وحاول جهده أن يبدو رسميا وعلى قدر من الأهمية. كانت كل جملة تفصلها عن الأخرى «جيه - جي... نا - جي» وهو التنقيط البيروقراطي الذي يشير إلى الأهمية الذاتية. انجذبت عيناي إلى القطب المنشدة على كميّه والتي كادت تتمزق، والأزرار الخمسة التي بذلت أقصى جهودها لتُثَبِّت سترته مكانها.

كان لاوتشانج من فئة الثامنة والثلاثين - أي أحد الذين انضموا إلى الحزب الشيوعي في عام ١٩٣٨ واشتركوا في الحرب

ضد الغزاة اليابانيين، وكونه من فئة الثامنة والثلاثين فإن ذلك يعني المكانة الرفيعة والسمعة الحسنة. كان هناك مبجلون آخرون مثل فئة المسيرة الطويلة (أولئك الذين تحملوا مسيرة السبعة آلاف وسبعمائة وخمسين ميلا الشهيرة مع ماو تسي تونج في عام ١٩٣٤) ونشطاء المنطقة البيضاء تحت الأرض (وهو عمل شيوعي سري في المنطقة التي يسيطر عليها الكومنتانج) وعمال المنطقة السوفييتية (الذين عملوا في القواعد الشيوعية المقامة في أثناء الحرب الأهلية الثورية الثانية ضد الكومنتانج من عام ١٩٢٧ إلى عام ١٩٣٧). كانت هذه الألقاب في رأيي كالخمر المعتقة كلما زادت عمرا زادت جودة.

افتتح لاو تشانج خطابه بالأنباء السعيدة، سيكسب كل منا ١٨ يوانا كل شهر. لقد غمرتني النشوة.

ثانيا أخبرنا لاو تشانج عن السجناء، كان هناك حوالى ٨٧ منهم في الفرقة، كلهم ذكور من شنغهاي.

قاطعته إحدى النساء قائلة «أين السجينات؟».

وسأل أحد الرجال: «هل يعني ذلك أنهن يستطعن العودة إلي بيوتهن في شنغهاي عندما تنتهي مدة سجنهن؟ لماذا لانعود نحن إلى بيوتنا أيضا؟».

قال بحزم: «كل السجينات موجودات في مزرعة تشوان دونج، وما يهمني من الموضوع هو أن اختلاط الذكور والإناث يعني كلمة واحدة: المتاعب».

علمت بعد سنوات أن شعور لاوتشانج بالمرارة إزاء النساء يعود إلى تجربة شخصية. لقد عوقب لعلاقته بامرأة متزوجة في وحدة

عمله ونُفي إلى المزرعة «لأسلوب حياته العفن»، حيث رافقته زوجته وعائلته وكانت مهمته «غير محدودة». وتابع لاو تشانج حديثه قائلا «أما بالنسبة لك أيها الشاب فلن أجيب عن مقاطعتك السيئة لي». هنا أصبح حادا: «عندما كنت في مثل عمرك خاطرت بحياتي... من أجل الوطن لكي تستطيع أن تحيا الحياة الهانئة التي تعيشها الآن، لا تعتبر حظك أمرا مفروغا منه».

عندئذ تنحى ليفسح المجال للاو دنج ليخبرنا بدوره، بصوته المرتجف، أن تلك المزرعة استصلحت من البحر الأصفر، وأن هناك حملة عمل واسعة كل شتاء لإصلاح وتعزيز السدود على طول الشاطئ. وتابع حديثه قائلا ومنذ بداية البرنامج الوطني للتنمية الزراعية بذلت جهود عظيمة في السنوات الأخيرة لزراعة الأرز ولكن من دون كثير من النجاح، ومع ذلك - قال بتشاؤم - فإن هذه الجهود ستستمر.

دخلت معظم كلماته من إحدى الأذنين وخرجت من الأخرى. إنني فتاة مدنية ومن المؤكد أن أي محصول هو كغيره بالنسبة إلي. وسوف أتعلم خلال وقت قصير وبالطريقة الصعبة كم كنت مخطئة.

أخيرا تخلى لاو دنج عن الكلام واصطففنا لتناول إفطارنا. بعد ذلك كان علينا أن نمر بين السجناء الذين يقفون خارج المقصف ينتظرون دورهم. كان معظمهم يرتدي ثيابا بالية، ومعاطفهم مثبتة بأحزمة من قش الأرز المجدول، ويلبسون قبعات مبطنة وغطاء أذنين مثيرا للشفقة. طرقوا سلطانياتهم المطلية

بالمينا بشدة وصرخوا وسخروا منا، وأبدوا ملاحظات وقحة تجاه بعض الطالبات.

صاح أحدهم بصوت أعلى من الضوضاء السائدة قائلا «أولا تسرقن بيتنا والآن طعامنا».

في اليوم الأول بدأت ورفيقات المزرعة الجديدات عملنا الشاق، وسرعان ما بدا واضحا تماما أن خطأ السيدة يان حول اسم المزرعة - بتسميتها الريح الشديدة بدلا من المحصول الوفير - كان ملائما؛ لأن رياحا قارسة ثلجية كانت تهب من الشمال الغربي طوال النهار والليل، وقد وصفها شعر قديم يقول:

«في الأيام الفردية طوت الريح الأرض كالسجادة
وفي الأيام الزوجية بسطتها ثانية».

وعلى رغم أن الماء في النهر والجرار خارج بيت المضخات نادرا ما يتجمد، فإن قربنا من البحر ضمن أن الهواء المتجمد تقريبا كان ثقيلا ورطبا.

الشيء الأول الذي تعلمته هو قطاف القطن، ليس قطاف الكرات البيضاء المنتفخة، لأن السجناء قطفوها - منذ أكثر من شهر - في أكتوبر، وهو عمل متعب لأن لاو دنج صمم على أن الأرز يجب زرعه هناك في الفصل التالي.

في إحدى الليالي، وبعد عدة أسابيع من بدء العمل في الحقول، وجدت جيا - ينج تبكي بصمت في الفراش.

سألتها «ما الأمر؟».

أرتني أصابعها المتورمة وجلدها المسلوخ والمتشقق «كيف أستطيع أن أعزف البيانو ثانية بأصابع كهذه؟».

سحبت غطاء وسادتي - الذي لم يكن أكثر من منشفة صغيرة - ولففته حول يديها «ستشفين يا جيا - ينج! لا تقلقي، سرعان ما سينتهي عملنا في حقول القطن».

قالت بسخرية «سينتهي؟ لن ينتهي أبدا». رمت إلي بالمنشفة وانسلت تحت لحافها، وعلى رغم أنني كنت أؤمن بشفاء الجروح فقد شككت في أن تشفى جروحنا الخفية أبدا.

لم تتح لنا أيامنا الطويلة في الحقول الباردة المهجورة أي أوقات حرة: بين العشاء وإطفاء الأنوار كانت هناك الدراسة السياسية في المهجع. عادة ما ينضم إلينا مسؤول أو اثنان (باسم لاو) ليقودوا القراءات الإجبارية والمناقشات، بينما نجلس على أسرتنا المنصوبة المهتزة. وعندما لا يأتينا أحد «اللاوات»، يقود جلسة الدراسة قائد فريقنا. عندها كنا نصعد إلى الأسرة ونلتف بالألحفة المنقطة بالقطن وسرعان ما تخرج مناقشاتنا عن الموضوع.

في تلك الأوقات كنت أميل إلى سرد النكات والمزاح مدفوعة بالبرد والملل.

جعلتني الرسائل التي وردتني من البيت أدرك هدوء الحياة هنا، زاوية منسية في عالم مجنون خال من النزاعات التي لا تزال تطغى على شنغهاي، وهكذا حل عام ١٩٦٩ بهدوء ووحدة.

للاحتفال بالسنة الجديدة أمر لاو تشانج بذبح خنزير، مما جعل الابتسامات العريضة تعلو وجوهنا. فلعدة أسابيع لم يكن لدينا ما نأكله مع الأرز سوى الخضار المحفوظة والسمك المجفف المثقل بالملح، إلى درجة ذكرتني بالجيش الأحمر نصف الجائع في المسيرة الطويلة الذي اضطر للحس كتل الملح طلبا للقوة.

عندما بدأت وجبتنا، أكلت قطعة صغيرة من لحم الخنزير المطبوخ بصلصة فول الصويا والمحاطة بالدهن والجلد، أكلتها ببطء شديد مستمتعة بكل لقمة. لقد كانت وجبة رائعة.

بعد العشاء وبينما كنت أغسل الصحون مع جيا - ينج، زمجر السجناء قائلين: «يا فتيات أزقة المدينة! لقد انتزعتن الطعام من أفواهنا». انطلقنا بصحوننا القذرة تلاحقنا لعناتهم.

بعد يومين أخذ السجناء بالثأر، فعلى رغم تحذيرنا المتكرر بألا نتجول وحيدات حتى خلال النهار، صممت على الذهاب إلى المرحاض بمفردي، لأني كنت في الدورة الشهرية ولم أشأ تغيير فوطي أمام الأخريات. ذهبت البقية إلى أرض درس الأرز لجلب بعض القش من أجل الأسرة. أما أنا فقد سررت عندما وجدت المرحاض خاليا.

بعد بضع لحظات سمعت خشخشة، اعتقدت أن خفاشا رفرف في سقف القش - وهذا أمر مألوف. غطيت أذني لأنه قيل لي إن الخفافيش تحاول الدخول إلى رأس الإنسان. وفي الوقت نفسه أغمضت عيني وأحنيت رأسي بين ركبتي، آملة ألا يأتي أحد ويراني في هذا الوضع المضحك: كان سروالي حول كاحلي وأنا أقرفص فوق الخندق.

«كيف حالك يا عزيزتي؟».

أصابني الفزع ففتحت عيني لأرى يد رجل تلوح لي فوق قمة الجدار الفاصل.

لماذا لا تأتين إلى هنا أيتها الآنسة؟ إنني أرى أننا سنكون صديقين بمثل لمح البصر.

حاولت الصراخ ولكن لم يخرج الصوت من فمي، قفزت واقفة وجريت طوال الطريق إلى المهجع الذي كان مفتوحا، لحسن الحظ في ذلك اليوم، لوجود فتاتين فيه مصابتين بالأنفلونزا.

أخبرتهما بما حدث ودموع الفزع تجري فوق وجهي، وبعد وقت قصير تمنيت لو لم افتح فمي. بدأ التحقيق، فقابلني لاو تشانج مرتين وفي كل مرة كنت اضطر إلى أن أعيد قصتي المريكة. استجوبتني زوجتا اللاوين - اللاو الطبيب واللاو المحاسب. وعندما عادت زميلاتي في المهجع من عملهن ضايقنني للحصول على مزيد من التفاصيل. وسرعان ما عرف الجميع - حتى الرجال - بالحادثة، علاوة على أنني لوثت ملابسي لخروجي السريع.

اضطربت حياتي الوحيدة والهادئة، نسبيا، في أحد الأيام الباردة في أواسط شهر يناير عندما تلقيت رسالة من أخي الثاني يقول فيها إنه قد تم أخيراً إسناد عمل إلى الأخت الثالثة ولكن ليس في شنغهاي. لقد ارسلت إلى مصنع في مقاطعة سونج جيانج يصنّع قطع العدادات الإلكترونية الصغيرة، إنه بالقرب من المكان الذي قضيت فيه اسبوعين في احد الكمونات قبل الثورة الثقافية حيث عملت مع الفلاحين. وعلى رغم تضحيتي في الذهاب إلى الريف لكي تبقى اختي الكبرى في شنغهاي وتعتني بأختنا الصغرى، فإن الأخت الثالثة اضطرت إلى الانتقال إلى خارج المدينة ولم تستطع العودة إلى البيت إلا مرة كل أسبوعين.

كتب أخي يقول: «لم تعارض الأخت الثالثة لأنها كانت تعلم أن لا فائدة من ذلك». وتابع قائلا: «من الجيد أنها لم تفعل».

بعد أسبوع واحد من تعيين الأخت الثالثة في أواخر ديسمبر ١٩٦٨، أصدر ماو تسي تونج دعوة يأمر فيها كل خريجي المدارس المتوسطة في المدن بالذهاب إلى الريف، الذي وصفه بأنه «عالم فسيح يمكن تحقيق الكثير فيه، مجال لا محدود لكي يستخدم المراهقون مواهبهم فيه». فلو لم تقبل الأخت الثالثة العمل لأرسلت إلى الريف أيضا.

كتب الأخ الثاني يقول: «أصبحت المدينة برمتها كمدفن للأحياء، لقد رمى ماو بشبكة بدلا من اصطياد الأسماك واحدة بعد الأخرى كما في حالتك يا آه - سي».

ومن الواضح أن الرسائل التي تلقتها الأخريات نشرت الأخبار نفسها، لأنها أثارت ضحكات صفراء وشماتة. كان وصول البريد يسيل عادة دموع الحنين، لكن ليس في هذه المرة.

لقد نُفينا جميعا إلى هذه المزرعة البعيدة بدلا من المزارع الأكثر تحضرا في جزيرة تشونج - مينج نظرا إلى خلفيتنا الطبقية السيئة، ولكن الذين ضايقونا وأذلونا في المدرسة وفي الشوارع سيلقون الآن المصير نفسه! أخبرتني لان - لان أن اثنتين من زميلاتها في الصف اللتين حلقتا رأس والدتها خلال غارة على منزلهم أرسلتا إلى ولاية هايلونج - جيانج في أقصى الشمال قرب الحدود الروسية، وهو المكان الذي تقرع فيه الدببة السوداء بابك وتتحول أنفاسك إلى متدليات جليدية - حسب ما تقول الأسطورة.

قالت بمرارة: «إنهم يستحقون ذلك. آمل أن تنقلب أنوفهم وآذانهم إلى جليد وتسقط من أمكنتها!».

في صباح اليوم التالي استدعينا إلى المستودع ثانية لاجتماع جماهيري. أعلن لاو شانج بغرور أنه استجابة لدعوة الرئيس ماو لجعل الأرز المحصول الرئيسي في البلاد، وضمان زراعته طوال العام لتعزيز اكتفاء الصين الذاتي، يتعين علينا تحويل معظم حقول القطن إلى حقول أرز.

صفقت مع الآخرين لهذا القرار، معتقدة أن أي محصول لا بد أن يكون أسهل من القطن.

وعندما استتب الهدوء في القاعة مرة ثانية، نعق لاوتشانج كالغراب بانفعال: «سيأتي إلينا المزيد من فتيان المدينة، علينا أن نبني منازل جديدة لهم، سيصلون إلى هنا خلال أربعة أسابيع».

في مارس هبط ستة وخمسون فتى واسع العينين من الحافلات القديمة على قرع الطبول والأجراس. لم يظهر أنهم قد أُرهبوا كما أُرهبنا نحن، عندما داست أقدامنا لأول مرة تربة مزرعة السجن القلوية.

كان في انتظارهم مهجعان جديدان لا تزال تنبعث منهما رائحة القصب الجديدة وطبقة الكلس على الجدران الداخلية. كنا نأمل لو قدر لنا أن ننتقل نحن إلى المهاجع الجديدة: فقد غطت أمطار الربيع المبكرة والرطوبة المتأتية عن ذلك جدران مهاجعنا بالعفن الأخضر. استيقظت في أمسيات كثيرة على الملاءات الرطبة، وقطرات المطر تتساقط عبر السقف إلى سلطانيات الأرز وأحواض الغسيل التي توزعت في كل مكان. وغالبا ما كنت أستيقظ على الصرخات المفاجئة الصادرة مني أو من الأخريات بعد اكتشاف مخلوقات غريبة تزحف داخل أسرتنا.

ولكن لاوتشانج رفض انتقالنا قائلا «إننا محاربون قدماء الآن، ويجب أن نتخلى عن المهاجع الجديدة للأغرار».

لم يكن هؤلاء القادمون الجدد تلك المخلوقات الخائفة والطيعة التي كنّاها (ولا نزال كذلك). خلال أسبوع واجهت لاوتشانج الجمعية المشكلة حديثا من الطلبة، وأخبرته أنه لم يعد مسؤولا عن شؤون طلبة المدارس، وأصبحت علاقته بنا منذ ذلك التاريخ كمستشار إنتاج فقط. تألفت اللجنة المعينة ذاتيا من امرأتين وثلاثة رجال. في الاجتماع الأول وقف كل منهم وادعى أنه أحمر من الطبقة العاملة منذ ثلاثة أجيال، أي منذ الأجداد.

وهكذا اكتسبت قيادتهم للفرقة المشروعية، وبدأت التغييرات في الحال من إعادة تعيين موظفي المقصف إلى إعادة تنظيم ترتيبات حياتنا. استبدل نصف زميلاتي في المهجع بحمراوات جدد «لتحطيم الأرضية المتصلبة بخلطها بالرمل»، وبدا أن إصلاح من ينتمي إلى الخلفيات الطبقية السيئة سيستمر. جرى تعزيز هذه الخطة من السيد هسيو جانج، وهو رجل وسيم في أوائل العشرينيات من العمر ومتخرج من مدرسة متوسطة مهمة. وعلى رغم أنني لم أشعر بأي تعاطف معه، فقد أدركت أن إرساله إلى هذه المزرعة لم يكن حدثا سعيدا في حياته. كان يمكن أن يكون في الجامعة الآن، وهذا نصر له ولعائلته. في الماضي كان أمثاله من الطلاب من الطبقة العاملة قلائل في الجامعة. لم تستطع عائلاتهم تأمين رسوم التعليم، كما تفعل الطبقة الغنية، وغالبا ما ترتبت عليهم واجبات في المنزل، في حين أن الطلاب الأغنياء كانوا يستطيعون - وغالبا ما كان يتوقع منهم - أن يكرسوا كل وقتهم

للدراسة. الآن وقد بدأت العادات القديمة تتغير تدريجيا، وأصبح الأشخاص مثل هسيو جانج قادرين على الدخول إلى الجامعة تفجرت الثورة الثقافية، وأرسلهم الرئيس ماو إلى الريف بدلا عن ذلك.

كانت مرارة هسيو جانج واضحة في أقواله وأفعاله، وعندما أبهج المستمعين، أكد على كلماته بالتلويح بقبضة يده، بحيث أنه قبل انتهاء الاجتماع اكتسب لقب الخامسة بعد الثانية عشرة لموضع قبضته المرفوعة أثناء الخطاب.

كان كل مهجع أعيد ترتيبه سيدعى فصيلة، والفصيلة مؤلفة من ثلاث زمر، كانت آمرة زمرتي يوهوا شابة في الثامنة عشرة من العمر، وكانت بالطبع من القادمين الجدد. أعلمتنا بكل فخر أن إحدى أخواتها عملت لسنوات طويلة في القوات الجوية في ولاية جوانج جو، وهو أمر أصبح مدعاة للفخر منذ التحرير. واكتسب الآن مكانة مرموقة أكثر فأكثر. أما أولئك، أصحاب الوساطة لعلاقاتهم السياسية، والذين لم يشأوا أن يذهب أولادهم إلى الريف، وجدوا منفذا لهم بإلحاقهم بجيش التحرير الشعبي. كان قسم «الفخر والشرف» دعاية لتبرير التحايل على دعوة ماو. ومنذ اللحظة التي يرتدون فيها بزاتهم يتطلع هؤلاء الناس إلى اليوم الذي يسرحون فيه بعد ثلاث سنوات، ويعودون إلى المنزل مع وعد بوظيفة مدى الحياة وراتب عال.

كان تحويل حقول القطن إلى حقول الأرز مهمة كبيرة، وكانت العملية بطيئة وصعبة. في البداية جرى تقسيم الأرض إلى حقول أرز ببناء سدود منخفضة لاحتجاز الماء الذي يمكن ضخه

إليها، وعندها تم إغراقها مرتين أو ثلاث مرات لاستنزاف أكبر قدر ممكن من الملح القلوي.

أما الخطوة الثانية فهي إغناء الأرض بحرث النباتات الخضراء والسماد الطبيعي المختلط بها. يتألف الغطاء النباتي من الأعشاب وأي نباتات خضراء أخرى يمكن وجودها في الجوار مقطعة ومنقولة بعمود الكتف إلى حقول الأرز. كانت المشكلة الأولى هي أنه على رغم أن التقويم القمري أنبأ بوصول الربيع، فقد كان كل شيء هناك عدا الربيع ولم يكن هناك الكثير من الغطاء النباتي حولها، وعلى رغم أن المثل القديم يقول «لا تستطيع أذكى ربات البيوت إعداد وجبة طعام بدون أرز»، فإن الطلاب الحمر ادعوا أن الإنسان يستطيع وسيتغلب على الطبيعة.

لعدة أسابيع كانت ترقبنا الأيام ونحن نغادر القرية مع أعمدة الأكتاف وأكياس شبكات حبال القش نبحث عن أي شيء أخضر، باستثناء القصب، لأنه لا يتحلل بالسرعة الكافية، وترتب على كل فرد مقدار معين من العمل اليومي ازداد مع دفء الطقس، ومهما عملت بجد في انتزاع ومشق الأعشاب والحشائش، وحتى بعض الأوراق بيدي العاريتين، لم أستطع أن أزيل اسمي من قائمة «الفاشلين» الملصقة في المقصف كل يوم، مرفقا بإشارة ناقص حمراء.

في إحدى الليالي عندما كنت أغسل قدمي المليئتين بالبثور وأشكو همي وقلقي إلى جيا - ينج، قالت ضاحكة «ألم يحن الوقت لتكبري وتفهمي هذا العالم بطريقة أفضل، يا هسياو - يي؟ هل تظنين حقا أننا نعمل بجد أكثر مما تعملين؟ الجواب كلا، ولكننا

نعرف كيف نتلاعب بالقواعد، إننا لا نجلب المواد الخضراء فقط بل والتراب أيضا». ابتسمت بنعومة أظهرت غمازتيها «إذا كان التراب صالحا لتنمية الأعشاب فإنه صالح لتربية الأرز أيضا». ومنذ ذلك اليوم فصاعدا أخذت أحقق الحصة المطلوبة.

في أحد الأيام في نهاية شهر إبريل، استدعينا من الحقول وأمرنا أن نجتمع حول مكبر الصوت المثبت على عمود على الطريق المركزي، ونظرا لتعبي الشديد الجسدي والذهني، رحبت بالأمر واستلقيت على الأرض مع الآخرين للاستماع إلى الإذاعة. في مؤتمر الحزب السادس المنعقد في بكين «جرى أكبر حدث سياسي في حياة كل فرد» كما قال المذيع إذ انتخب المواطنون العاديون أكثر من ١٥٠٠ مندوب. لم يعقد مؤتمر كهذا منذ ١٩٥٦، لم أكترث لما قيل فقد كنت أجلس وظهري وأكتافي تؤلمني وعضلات ساقي النحيلة تلتهب من ثقل حملي.

ولكن الاستماع إلى الخطب خلال الأيام التالية أنقذني من البحث العبثي المتزايد عن النباتات الخضراء وعبء حملها. في المساء استمعت إلى أعضاء اللجان يقرؤون الوثائق ونشرات الأخبار وساهمت (بناء على الأوامر) في المناقشات وأدليت «ببيان حول مبادئي الشخصية».

نكأ التقرير المقدم حول خطاب لين بياو جراحي، فقد تحطم أي أمل لدي بأن تبدأ الثورة الثقافية بالتراجع من خلال شهادته القائلة بأن فضائلها هي الأعظم، في حين أن خسائرها هي الأقل. كذلك فقد أنبأت كلماته بالمزيد من الاضطرابات السياسية. إذ وافق المؤتمر على توصية ماو وعيّن لين بياو خلفا له.

عزت هذه الحقيقة وضع جيش التحرير الشعبي في الثورة الثقافية، ومهدت الطريق لاستيلاء الجيش على كل المؤسسات العامة تقريبا في جميع أنحاء البلاد - منظمات الأمن العام والمحاكم الشعبية ومحاكم الولايات ومؤسسات التعليم العالي وحتى السجون ومزارع السجون.

كانت قائمة أعضاء اللجنة المركزية المنتخبين حديثا مروعة بسبب الأسماء التي لم تذكر، بمن فيهم الرئيس ليو شاو - شي، وكانت من بين المنتخبين زوجة الرئيس ماو (جيان - تشينج). ولمفاجأة الجميع جرى إعدادنا للاحتفال في اليوم الأخير من المؤتمر.

تدفقت الشاحنات إلى المجمع قبل العشاء تحمل لافتات القماش الأحمر والأعلام الورقية وصناديق الألعاب النارية من كل الحجوم، ورغما عني وجدت التحول مثيرا. سرنا في صفوف رباعية إلى المزرعة الفرعية على مسافة خمسة أميال تقريبا تحت سماء شهر نيسان الخالية من النجوم، تقودنا مشاعل المازوت. كانت الليلة الأكثر إمتاعا التي قضيتها منذ وصولي إلى المزرعة.

عندما هدأ ترديد الشعارات وإنشاد الأغاني الدعائية، ملأنا الظلمة بالكلام والضحك والصراخ الممتع مع تفجير كل لعبة نارية. أخبرتني العمة الكبرى ذات مرة أن الألعاب النارية كانت تستعمل تقليديا لطرد الشياطين، ولقرون عديدة كانت جزءا من احتفالات السنة الجديدة. في تلك الليلة ومع انفجار كل لعبة نارية في السماء تمنيت بكل مشاعري حظا سعيدا.

في صباح اليوم التالي أصبحت عبادة ماو تسي تونج المجازية حرفية. أعطي كل مهجع تمثالين من الجبس بالإضافة إلى قلوب

من قطع القماش الأحمر والورق الأصفر محفور عليها أحرف كلمة «الولاء»، وهي الكلمة نفسها التي اختارها الأخ الثاني كاسم جديد له. أقمنا مزار الولاء في كل مدخل، وبعدئذ وقفنا في كل صباح أمام المزار وأمسكنا النسخ الصغيرة من الكتاب الأحمر أمام صدورنا طالبين التعليمات ومحيين الرئيس ماو بصرخات تدربنا عليها متمنين له «الحياة إلى أبد الآبدين» ولخلفه «لين بياو» نائب رئيسنا المحبوب الصحة التامة دائما وأبدا. لم نتمكن حتى من ارتداء كامل ملابسنا أو الاغتسال أولا لأنه قيل لنا أن تمرين العبادة هو القضية السياسية الأولى والأهم في حياتنا.

وعندما كنت أقف هناك على الأرضية الترابية أو على السرير غير المرتب محاطة بالأذرعة الملوحة في الهواء، كانت تعود بي الذاكرة إلى طفولتي عندما رافقت وإخوتي جدنا إلى قاعة الأسلاف في تشنج - يانج. لم أر أو أسمع في حياتي أن الناس بنوا مزارا لشخص لا يزال حيا، بل كنت أعرف أيضا أن عبادة الأحياء تجلب الحظ السيئ. وبعد أقل من نصف ساعة كررنا الكلمات نفسها في المقصف.

في أحد الأيام أمرت الطالبات بالذهاب على أرض درس الأرز، وعلّمهن «رقصة الولاء»، كما هي، محترفون أرسلتهم حكومة مدينة شنغهاي. وخلال محاولاتنا الحثيثة لتعلم الخطوات، غنينا «يا رئيسنا المحبوب ماو إنك الشمس التي لن تغيب ونحن زهرات عباد الشمس التي تدور دائما حولك...»، أكسبتنا رقصتنا اسم «زهرات روث البقر» بين السجناء الذين شهدوا رقصنا خلال استراحة عمل من نشر روث البقر ليجف قبل نقله إلى حقول الأرز.

أثارت جهودي الأصيلة لجمع حصتي المقررة من النباتات الخضراء مشاعر قائدة زمرتي يوهوا، التي عرضت أن تشترك معي لتساعدني في ذلك. في ذلك الوقت كان طولي حوالى أربع أقدام وثلاث بوصات، ووزني لا يزيد على ثمانين رطلا وكنت في حاجة إلى كل المساعدات التي يمكن أن أحصل عليها. كانت يوهوا فتاة صلبة قوية في الثامنة عشرة من عمرها ذات شعر قصير وأخلاق جيدة. هزني عطفها من الأعماق، وكانت هذه بداية أول صداقة حقيقية في حياتي.

عملنا معا بصورة رائعة، كنت سريعة بمنجلي وهي نقلت ما حصدته إلى محطة الوزن. أنجزنا الكمية اليومية المقررة بانتظام، ولكن حقول الأرز الجديدة كانت غيلانا لا تعرف الشبع وتأكل كل شيء حصدناه.

حصدت جميع النباتات الخضراء الموجودة قرب المزرعة منذ زمن بعيد، وكان علينا الآن أن نذهب إلى الحقول البعيدة.

في أحد الأيام لففنا - أنا ويوهوا - بعض الفطائر المبخرة والخضار المخللة، وغادرنا مباشرة بعد الإفطار للبحث عن الزرع الأخضر. اهتزت أعمدة أكتافنا مع كل خطوة عندما اتجهنا شمالا بجانب الطريق الرئيسي نجمع الأعشاب والحشائش أثناء سيرنا. بعد العمل لبضع ساعات اكتشفنا حفرة مستنقعية نمت فيها أماليد النبات حيث قطعت سيقان القصب وسرنا فوق الأرض الطرية طلبا للراحة. بعد لحظة نادتني يوهوا، فقد وجدت طريقا يؤدي عبر الضفة إلى صف من أشجار الدلب، تبعتها يدفعني الفضول لأرى إلى أين يقود الممر.

توقفت يوهوا قائلة «يا هسياو - يي!». لم أستطع أن أصدق عيني، لقد نما العشب الطويل بين الأشجار ذات الأوراق الغضة، من دون أن يقطع أو يعبث به أحد.

قلت لها «سنتمكن من إنجاز الكمية اليومية المقررة لأسابيع كثيرة إذا احتفظنا بهذا السر».

بدأنا العمل مباشرة وملأنا أكياسنا الشبكية الأربعة بحلول الظهيرة. وبعد غداء من الفطاير اليابسة والخضار المخللة المغسولة بالماء، دلفت يو - هوا تحت حمل عمود كتفها وتركتني مشغولة بمنجلي.

بعد أشهر من العيش ليلا ونهارا ضمن جمهور من الطلبة، وضمن سيرك عبادة ماو والرقص له، وجدت نفسي وحيدة، عملت بانتظام مستمتعة بالعزلة. هز النسيم الأعشاب وهمس في أغصان الأشجار المحيطة به. بعد فترة جلست لأستريح وأغلقت عيني متكئة على شجرة. من الغريب أن هذه العزلة بدأت تزعجني، لماذا غابت يو - هوا لفترة طويلة؟ قررت أن العودة إلى العمل أفضل من التفكير في الأشياء السيئة التي يمكن أن تحدث لفتاة تركت وحيدة. جمعت الأعشاب المقطوعة في أكداس وانحنيت لأرفع حزمة من الأعشاب فوجدت نفسي أحدق في فجوتي عينين فارغتين في جمجمة إنسان.

صرخت وألقيت حملي، وأخيرا وصلت إلى الطريق بعد التعثر عند الضفة وارتطامي بالقصب، ومن ثم الجري والسقوط على الأرض المشبعة بالماء، وقد تمزقت يداي وقدماي بأعقاب القصب

القصمة. سال الدم على ساقي وذراعي، واتجهت نحو القرية وقلبي يخفق بقوة وصدري يرتفع وينخفض.

عندما قابلت يو - هوا انفجرت باكية، وصفت لها هول الجمجمة وأنا منقطعة الأنفاس، ولم أدرك أنني قد تركت منجلي وعمود كتفي، ولن أتمكن من الكمية اليومية المقدرة.

قالت يو - هوا «ذلك لا يهم الآن. إنك في حاجة إلى طبيب».

ضمد الطبيب جراحي وهو يشكك ويستغرب بصوت مهموس كيف تستطيع فتاة نحيلة أن تؤذي نفسها بهذا الشكل. بعدئذ أتى لاودنج إلى العيادة مع يو - هوا. أعددت نفسي لتلقي النقد، لأنني أضعت معداتي، والتعليقات المعتادة القائلة إننا - نحن الفتيات البورجوازيات المدللات - كسولات ولا نصلح للعمل الجاد.

بدأ بقوله «والآن يا هسياو - يي، دعيني أستمع إلى تقريرك».

عندما أخبرته أين كنت ويو - هوا نقطع الأعشاب وما رأيته هناك، فاجأني رد فعله وأربكني، بدا مستمتعا وقال «أنتما الاثنتان من شرطة التحري، أليس كذلك؟ كيف اكتشفتما تلك المقبرة؟ يا لكما...».

قاطعته قائلة «مقبرة؟ هل هذا ما وجدته لماذا لم تحدد؟ وأين القبور؟ كانت الجمجمة ملقاة على الأرض».

«اسمعي يا فتاة، إنها المقبرة رقم ٥ غير المحددة وهي ساحة إعدام، من الأفضل لكما أن تحتفظا باكتشافكما وأسئلتكما لأنفسكما، هذا أمر، ولا تعودا إلى هناك ثانية».

وللمرة الأولى منذ أتيت إلى مزرعة سجن دافنج وجدت نفسي أتقبل أمرا بكل الرضا، وقبل أن يغادر لاودنج كتب مذكرة لمنحي منجلا وعمود كتف جديدين وصرفني.

ساهم حدثان اثنان في تصعيد الخلاف المحتد بين السجناء والطلبة وإيصاله إلى نقطة التصادم. أولهما التمايز فيما يكلف به الفريقان من أعمال، فبينما كنا نحن ننتشر بحثا عن النبات الأخضر، كان على السجناء أن يتحملوا المهمة الأكثر مشقة، ألا وهي حرث الأرز بمحراث يجره جاموس لخلط النبات الأخضر والتربة الليلية المتحللة بالطين. كذلك كان عليهم إعداد أحواض البذور، وهو عمل مضن يتطلب جهدا ومهارة، حيث يتعين تسوية الطين باليد قبل أن تبذر فيه البذور. تفاقم سخط السجناء أيضا لعدم توافر الغذاء وزيت الطبخ لديهم مما دفع بهم إلى الاقتتال الدائم مع العاملين في كافتيريا السجن.

مع قدوم موسم العمل في بداية شهر يونيو، عندما ترعرعت الغراس الزمردية وأصبحت جاهزة للنقل إلى حقول الأرز التي غمرت بالماء، تم الوصول إلى تسوية بين السجناء والطلبة بحيث نعمل نحن الطلبة العدد نفسه من الساعات ومقدار الحصاد المخصص نفسه يوميا لهم. وإن لم نفلح في ذلك، فما علينا سوى تحمل النتائج الوخيمة، كما حذرنا لاو تشانج.

كانت الصفارة تهدر كل صباح مع انبلاج الفجر لإيقاظنا كي نتوجه إلى الحقول بعد أن نؤدي طقوس العبادة لتمثال ماو. وكنا نقتلع شتلات الأرز من أحواض البذور بحرص وعناية، ومن ثم نهزها لنخلصها مما علق بجذورها من تربة، وبعد ذلك نحزمها ونربطها بالقش لنحملها إلى أماكن زراعة الأرز التي غطي كل واحد منها بشبكة ذات حبال مجدولة من القش ثبتت على الحواجز الصخرية. وكان علينا أن نخوض حتى ركبنا بين الحبال

المتوازية لننقل الغراس إلى أماكنها، مما جعلها مهمة دقيقة تتطلب زرع ست شتلات لتشكل صفا مستقيما يبعد قرابة الأربع بوصات عن الصف الآخر.

أمرنا لاوتشانج أن نتوخى الدقة في عملنا لأنها تسهل نجاح عملية اقتلاع الأعشاب الضارة، وكذلك الحصاد. لوح بمسطرة أمام أعيننا ليحذرنا من ان اي حياد عن هذه التدابير سيؤدي إلى العقاب.

كانت حصتنا اليومية تبلغ سبعة صفوف بطول خمس وعشرين ياردة لكل صف، وهو عمل شاق يقصم الظهر لما يضطره واحدنا من الانحناء الدائم، حتى ولو كان صغيرا في حجمي، أنا التي قيل فيَّ إنها لا تمتلك خصرا. أما الراحة النسبية التي تمتعنا بها فقد تمثلت في ذلك المشوار القصير ذهابا وإيابا بين أحواض البذور وحقل الأرز. لم يكن من السهل أن أبقي ظهري منتصبا مع انصرام النهار. وسرعان ما بلي مرفقاي من كثرة إسنادي لهما على ركبتي أثناء العمل. انتفخت يداي نتيجة شدي الشتلات وغمسها بالماء البارد. أما «البزاقات»، فقد كانت مصدر إزعاج كبير وهي تتسلق ساقيّ، وتضطرني لضربها بقوة لتحرر جلدي، وإن كانت العملية تنتهي دائما بخطوط من الدم تنساب من الجروح المفتوحة. والحقيقة أنني كنت أخشى هذه الكائنات المقرفة التي كانت ترعبني إلى حد أنني كنت غالبا ما أسقط على مقعدتي وسط الماء البارد المليء بالطين.

قال لاوتشانج أيضا إن عامل الزمن والتوقيت المناسب هو سر نجاح زراعة الأرز، لهذا لن يغفر لأي تباطؤ أو تأخير. لم تثر

الأيدي والأقدام المنتفخة شفقة أحد، بل طلب لاو تشانج من زوجته أن تتأكد من ادعاء بعض الفتيات بأن لديهن الدورة الشهرية التي كان يسمح لهن خلالها بالتمتع بيومين من العمل في الأرض الجافة. ولأول مرة في حياتي كان بدء الدورة الشهرية لدي مصدر سعادة، بل تمنيت لو أنها وافتني كل أسبوع بدلا من كل شهر.

لم أعد أذكر كم مرة كنت أنهار على فراشي من التعب، لأنام من دون أن أغير ملابسي أو أغتسل، تاركة كاحليّ الملطخين بالطين يبرزان خارج الغطاء، استمرت صداقتي مع يو-هوا، وبخاصة بعد أن علمت أنني يتيمة الأبوين «سأكون بمنزلة أختك الكبرى»، كررت يو-هوا. وعلى الرغم من أنني كنت أدرك يوما بعد يوم كم أنا مدينة لهذه الفتاة، كنت أتذكر نصيحة مدرستي تشين وقولها بحق إن الصديق كنز لا يقدر بثمن.

قدم الصيف، وقدمت معه موجة خانقة من الحر تلو الأخرى، حاملة سحبا من البعوض جعلت من المستحيل معها الجلوس في الهواء الطلق. كانت شروط العيش داخل المهجع ،الذي أصبح كالفرن، رهيبة. بقيت نوافذنا مشرعة غير أننا كنا، خوفا من المساجين، نقفل الأبواب في أثناء نومنا بما حال دون دوران أي تيار هوائي ينعشنا. وعلى الرغم من أننا نجحنا في إقناع اللجنة بالسماح لنا بتفريق الأسرّة الطويلة إلى أسرّة مزدوجة منفصلة كي ننصب أغطية مستقلة، فإن الحر ظل على أشده. أُصبنا جميعنا بطفح جلدي من شدة الحر، وبالالتهابات الجلدية المؤلمة التي أتت مع السماد الذي كنا ننثره باليد على حقول الأرز.

وإذ لم يكن هناك مكان للاستحمام أو أخذ الدوش، كنت أستحم في النهر القريب. ولم يكن الآخرون قادرين على الاستفادة من النهر لخوفهم منه وعدم معرفتهم السباحة. ذكرني الاستحمام بالماء الحار بذلك اليوم من شهر يوليو ١٩٦٦ عندما وصلت الأنباء إلى شنغهاي بأن الرئيس ماو الذي يبلغ الثالثة والسبعين من العمر سبح في نهر يانج تشو، عندها نظمت حكومة المدينة المواطنين في مناسبات عديدة لمجاراة ماو بالسباحة في نهر هوانج - بو الملوث. انضممت إلى أخي الثاني وفريق مصنعه ولكنني عانيت من إسهال حاد بعد ذلك لابتلاعي بعضا من ماء النهر، أما في المزرعة فقد كنت أكثر حرصا.

في أوائل شهر أغسطس من ذلك العام بنى السجناء السدود لتقسيم النهر، وبدأوا بنضح الماء من ذلك الجزء ببراميل خشبية. استمرت العملية لمدة يوم أو نحو ذلك حتى أصبح ماء النهر ضحلا إلى درجة تسمح بالخوض فيه وصيد السمك. في هذا العام بدلا من إعطاء السمك إلى المقصف مباشرة احتفظ السجناء سرا بالسمك في البراميل حتى بدأ يتعفن.

وفي يوم من الأيام، ولدهشتنا، أعطي المقصف حملا من السمك المنظف والمغطى بالملح. والملح يستعمل لإبقاء السمك طازجا، كما قال السجناء. ونظرا إلى عدم خبرتهم وجهلهم أزال مستخدمو المقصف الملح بالماء وأعلموا الجميع اننا سنتناول وجبة احتفالية في تلك الليلة. ابتهجنا جدا، فالسمك دائما وجبة لذيذة لنا - نحن الذين نعيش على أجر بخس لا يفي باحتياجاتنا - إنه هدية من الآلهة، انتظم صف انتظار طويل

قبل أن يفتح المقصف أبوابه، تمكن البعض من ابتياع مقدار إضافي ليحتفظ به لوجبات مستقبلية.

في منتصف الليل جرى الطبيب ومساعدوه حفاة من مهجع إلى آخر لينظفوا القيء ويعتنوا بالذين يتقلبون على الأرض ممسكين ببطونهم. كان كل فرد يتحرك إما من أو إلى المراحيض، وإما يساعد الأطباء والمرضى، وعندما طلع الصباح لم يكن أي طالب قادرا على مغادرة الفراش. تلقيت ضربة قاسية، فبعد ليلة من التشنجات العنيفة والتقيؤ والجري إلى المرحاض، أصبح جسمي كله ككرة من القطن لا حول له ولا قوة. اشتهيت الماء ولكنني خشيت أن أشرب، عند الظهروصل فريق المزرعة الثانوية الطبي حاملا كميات كبيرة من المضادات الحيوية، لكنهم وصلوا متأخرين، فسرعان ما لوّثت المراحيض موارد الماء، وقبل أن نتعافى من التسمم بالسمك وقعنا في متاعب أسوأ وهي الإسهالات الحادة. في اليوم الخامس أصبت وثلاث فتيات أخريات بالجفاف الشديد إلى درجة أنهم نقلونا إلى مستشفى المزرعة (الذي يبعد عشرة أميال عن المزرعة) في عربة مستوية يجرها جاموس مائي، ولأنني فقدت وعيي فأنا لا أتذكر شيئا من الرحلة، ساءت حالتي، وأنهك الألم جسمي وظل غائطي مشوبا بالدم لفترة طويلة.

شخّص فريق طبي متجول من مستشفى شنغهاي الشعبي رقم ١ حالتي على أنها حمى زحارية أميبية، فانطلقت بي سيارة جيب إلى السفينة ثم إلى رصيف ميناء شنغهاي ومن هناك مباشرة إلى المستشفى. قيل لي إن حياتي في خطر إن لم أتلقَ معالجة طبية ملائمة ومباشرة.

بعد قضاء يومين في المستشفى قال الطبيب «لقد نجوت من أيدي الموت ولكن بصعوبة، إذ من المحتمل أن يعاودك المرض. خلال الأسبوع التالي استمرت زياراتي المتكررة إلى المرحاض ولكنني لم أستطع تناول الطعام. وبدلا من ذلك تلقيت حقن الجلوكوز. وعندما خرجت من المستشفى كان وزني أقل من سبعين رطلا.

أتت العمة الكبيرة، وأخي الثاني ليأخذاني إلى البيت في سيارة تاكسي، وهي رفاهية لم يسمع بها، وهي التجربة الأولى في حياتي. وعلى الرغم من أنه كانت لدي كل الأسباب للابتهاج، باعتبار انني ما زلت على قيد الحياة، فقد وجدت نفسي غارقة في التفكير والحزن. أصبحت المدينة موقع إنشاءات كبيرا تغطيها سحب الغبار وتملأ طرقاتها أكوام الأوساخ. وأثناء عبور التاكسي للشوارع أخبرني أخي أنه بعد الاشتباكات مع الاتحاد السوفييتي حول جزيرة جينباو (الكنز) في نهر هايلونج جيانج الذي يفصل البلدين كانت الأمة كلها على أهبة الاستعداد للحرب. أصبحت كل وحدة عمل وكل لجنة محلية مسؤولة عن ملاجئها الخاصة ضد الغارات الجوية. دعا ماو إلى الحفر العميق لإنشاء الملاجئ وتخزين مقادير هائلة من الحبوب، وعدم المقايضة مع الدول الكبرى (لأن كلا من الولايات المتحدة وروسيا كانتا ضدنا). وبينما استمر إرسال الشباب إلى الريف فإن عشرات الآلاف من موظفي الحكومة جرى إجلاؤهم إلى المناطق الريفية والمقاطعات النائية لضمان استمرار لامركزية الصناعة حتى لا تدمر إذا تعرضت المدن للغارات الجوية.

غادر أخواي المدينة في يوليو ولم أتمكن من المجيء إلى البيت لوداعهما، أما أختي الصغرى فقد تركت المدرسة المتوسطة كخريجة بعد قضاء أقل من سنة فيها وأرسلت إلى مزرعة استصلاح عسكرية في منطقة جيانهسي شمال شرق شنغهاي. ولكون أخي الأكبر درس هندسة محركات المركبات فقد أرسل إلى مشغل إصلاح الأدوات في مدينة صغيرة في منطقة جويجو التي كانت ولا تزال من أفقر المناطق في البلاد وأكثرها تخلفا. وقد أكدت رسائله الإشاعات المتكررة «إن بعض الناس في جويجو معدمون إلى درجة أن العائلة بكاملها تتقاسم سروالا داخليا واحدا».

زاد التفكير بشأن أخي الكبير وأختي الصغرى من اكتئابي. لقد تشتتت عائلتنا وأهدر ما تمتلكه من ذكاء وقدرات. كان قلبي يصبح مثقلا بالهم والأسى كلما فكرت فيما مرت به والدتي من عذاب عندما اضطرت إلى اختيار واحد من ولديها ليحرم من الدراسة الجامعية، فقط لينفى فيما بعد إلى أرض يباب. وكأن ذلك لم يكن كافيا فإن أخي الثاني أخبرني - عندما تحدثنا على انفراد - أن أختي الثالثة لم تعد إلى البيت من سونج - جيانج لعدة أشهر.

بدأ أخي الثاني بالقول: «علي أن أشرح لك بعض الأشياء قبل أن تسألي عنها، لقد أصبحت العمة الكبرى خلال الشهور الماضية عدائية وسليطة اللسان لاستيائها من سماح أختي الثالثة لك بالذهاب إلى الريف. اتهمت أختنا بالجبن وأنها أسوأ أخت كبرى يا آه - سي، نحن جميعا ندرك أنك قدمت تضحية كبيرة للعائلة، لكن أختي عانت الكثير منذ مغادرتك. تكاد لا تجف عيناها عندما نذكرك، وهذا العبء الثقيل سيرافقها طيلة حياتها، ولن تحتاج

للوم العمة الكبرى ليؤججه». تنهد قائلا «يا له من زمن عصيب! لديك بيتٍ لا يسمح لك بزيارته والأخت الثالثة تخاف أن تزوره».

كيف تستطيع العمة الكبرى أن تتفوه بمثل هذا الكلام لإنسانة أنفقت كل راتب شهرها الأول لتشتري لي قميص بوليستر من الزي الحديث يثمنه الجميع في الصين في ذلك الوقت؟ لكن استيائي من العمة الكبيرة - التي اشتقت إليها جدا - كان كالعادة ممزوجا بالشعور بالذنب. لقد فهمت لماذا عاملت أختي بصورة سيئة، تمنيت لو استطاعت أن تعاملنا جميعا بالتساوي ولكن ذلك ليس من طبيعتها. استلقيت في الظلام في الليلة الأولى في البيت بعد حوالى سنة منذ مغادرتي له فتجاذبتني الولاءات المتناقضة وجرت دموعي على وسادتي. فبعد أن عشت بالمظاهر طيلة الأشهر العشرة الماضية أردد الشعارات السياسية كان علي الآن أن أخفي مشاعري في البيت أيضا.

عادت الأخت الثالثة إلى البيت بعد عدة أيام، انفجرت باكية عندما فتحت الباب ورأتني نحيلة ومنهكة من المرض وكل الأعمال الشاقة. صاحت قائلة «العمة الكبيرة كانت على حق، إنها غلطتي». وجهت لي ألف سؤال وبذلت جهدي للإجابة عنها دون ذكر التفاصيل المقيتة. قلبت موضوع تسمم الطعام إلى سلسلة أحداث فكاهية وذكرت الحمى الزحارية كتجربة حياتية تعزز بناء الشخصية. استنتجت أن قول الحقيقة لن يفيد أيا منا.

بعد أربعة أسابيع قضيت خلالها أوقاتي وحيدة في الشقة، أنهى الطبيب إجازتي المرضية وعادت العمة الكبيرة إلى تحميص الدقيق ثانية.

ودعني أخي الثاني، وأختي الكبرى عند رصيف الميناء وعدت أدراجي إلى مزرعة سجن دافنج في أوائل أكتوبر لأجد أن جيش التحرير الشعبي قد دخلها - وخصوصا القوات الجوية الموالية لخليفة ماو لين بياو وولده لي لي غو الذي أصبح نائب القائد في أواخر العشرينيات من عمره.

فرض ممثلو جيش التحرير الشعبي أنفسهم في المستويات القيادية من المزرعة والمزرعة الفرعية والفرقة.

شكّل ممثلا فرقتنا فريقا مثيرا للاهتمام. كان كل منهما ضابطا لكن التشابه بينهما يقف عند هذا الحد. كان تسوي في الثلاثينيات من عمره نحيفا متوسط الطول ويبدو منطقيا وحسن الحديث، بينما كان جاو في الأربعينيات من عمره قصيرا ومكتنزا وقويا. كل شيء فيه كان قصيرا من ذراعيه وساقيه حتى رقبته التي لا تكاد ترى. بعد بضعة أيام استنتجت أن الرأس الكبير الذي استقر فوق رقبته فارغ.

إذا كان تسوي قد أحرز نياشين رتبة الضابط الأربعة بسحره وتعليمه الابتدائي فإن جاو الأمي اكتسبها بالعرق وحتى سفك الدماء لمدة عشرين سنة. ذكّرني الاثنان بشخصيتي «الوجه الأحمر» و«الوجه الأبيض» في المسرحيات الكلاسيكية مثل أوبرا بكين التقليدية التي يمثل فيها الوجه المصبوغ بالأحمر شخصا طيبا، في حين يمثل الأبيض نقيضه على رغم أنهما غالبا يعملان معا. ومنذ البداية عمل تسوي وجاو بتلك الطريقة.

وصف جاو نفسه لنا بأنه عجوز وبدين وغير أنيق، وأشار إلى أنه بسيط ومستقيم - على العكس منا نحن - الذين «شربنا

بعض قواريرالحبر» حتى أننا «أوجدنا في أدمغتنا تعرجات أكثر مما في أحشائنا» مما جعل التعامل معنا صعبا. بعدها تقدم تسوي ذو الوجه الأحمر قائلا إن له عقلا لا يختلف عن عقولنا، وبالتالي نستطيع التعايش معه بصورة جيدة. كان جاو يحب الصراخ والزعيق لتأكيد ملاحظاته، بينما كان تسوي يتحدث بصوت هادئ ويمزح أحيانا أثناء نقل الرسالة نفسها.

شعر بعضنا بأنهما عرض فكاهي يقوم به شخصان، لكن روتينهما ملأني بالاستياء. لماذا تصرفا بتلك الطريقة بدلا من أن يكونا صريحين؟

في ذلك الوقت اعتبرت والآخرين جيش التحرير الشعبي في أرقى المراتب، إنهم «الأعمام» الأبطال الذين حققوا التحرير: الرجال والنساء الذين ضحوا بأنفسهم والذين أحبوا الصين والرئيس ماو. وحتى الثورة الثقافية لم تلطخ سمعتهم. كانت «قواعدهم الثلاث الرئيسية والنقاط الثماني» معروفة لكل تلاميذ المدارس: أطيعوا الأوامر في كل الأعمال، لا تأخذوا حتى ولا إبرة أوقطعة خيط من المواطنين، سلّموا كل ما لديكم. هذه هي القواعد الثلاث. تحدث بأدب، ادفع سعرا معقولا لكل ما تشتري، أعد كل شيء تستعيره، عوّض عن كل شيء تتلفه، لا تسب ولا تضرب أحدا، لا تتلف أي محاصيل، لا تتمادَ مع النساء، لا تسيء معاملة الأسرى، تلك هي النقاط الثماني. دعا ماو أخيرا الأمة بأجمعها لتتعلم من جيش التحرير الشعبي المحترم. في المستقبل سأجد صعوبة في ربط ما تعلمته في المدرسة مع ما رأيته بأم عيني.

كـان هناك بيت من الآجـر في طور الإنشـاء في الجـانب الجنوبي من قـريتنا لإيواء تسوي وجاو ومكتبهما. لم يكن هناك في بيتهما ضفائر من القضبان والأغصان والقصب والقش. انقسمنا نحن العاملات إلى فرق من أربعة أشخاص وأعطينا عربة وأرسلنا إلى المزرعة الفرعية لجلب الآجر. اهتزت العربة المسطحة ذات الذراعين البارزتين وحبل الجر المصنوع من القش بكل سهولة فوق الأخاديد العميقة التي تركتها الأعاصير. ولكن كانت تصبح بعد تحميلها بالآجر صعبة القياد كجاموس مائي غاضب.

وفي اليوم الذي انتقل فيه ممثلا جيش التحرير الشعبي إلى منزلهما الجديد الذي يخطف الأبصار، أعادنا لاوتشانج إلى حقول الأرز، حيث أصبحت سيقان نبات الأرز صفراء ذهبية، وعلى رغم أن حقولنا لم تكن لتقارن مع «الأمواج المتمايلة من السنابل الذهبية» التي تصفها الأغاني، فقد أدركنا أن كل نبتة فيها قد رعتها أيدينا من اقتلاع الشتلات برفق من أحواضها إلى زراعتها في صفوف مستقيمة ونزع الأعشاب الضارة من بينها وتسميدها، والآن أصبح الأرز جاهزا للحصاد باليد.

أخليت الحقول من الماء وأصبح بالإمكان بدء الحصاد. ذكّرنا لاوتشانج ثانية أن التوقيت هو كل شيء. عملنا لمدة أسبوعين من الفجر إلى المغيب. جُلب غداؤنا إلى الحقل لكي لا نضيع الوقت. لبسنا الأحذية العسكرية (لأن الحقول كانت لا تزال موحلة) والقمصان ذات الأكمام الطويلة لحماية سواعدنا من السيقان الخشنة. استخدمت منجلي ببراعة وانحنى خصري ساعة بعد

ساعة أحصد النباتات عند مستوى الأرض وأكدسها بعناية ليمكن ربطها ونقلها إلى مكان الدرس.

وبعد كل يوم من العمل الذي ينهك العظام، كان علينا أن نتحمل أيضا الدراسة السياسية في الليل. وعلى رغم أننا لم نر تسوي وجاو خلال النهار كانا يتنقلان بسرعة في سيارة الجيب بين الاجتماعات ترافقهما في الغالب طالبتان محظوظتان وعادة جميلتان تختاران لتدوين الملاحظات لهما). في نوفمبر بدأ درس الأرز، كانت تلك تجربة جديدة بالنسبة إليّ في هذه السنة لم تتلق النساء أي مساعدة لأن كل العاملين، بمن فيهم المساجين، أمروا بإعادة بناء الطريق الرئيسي. «وصل الأمر رقم ١ إلى المزرعة» كما أعلمنا بذلك جاو في الاجتماع. «يعلمنا قائدنا الرئيس ماو أن نستعد للحرب والكوارث الطبيعية، الطريق الرئيسي يجب أن يناسب المركبات العسكرية».

وفي حين أتت وعادت الشاحنات العسكرية المملوءة بالحصى والاسمنت، عملنا في أرض درس الأرز وهي منطقة مرصوصة وخالية من النباتات الخضراء. أديرت ستة براميل درس أفقية بسيور طويلة موصولة إلى محرك كهربائي. وبرزت من سطوح البراميل أسنان معدنية حادة طويلة. وعند دوران البرميل كان عليّ أن أمسك بحزمة من نباتات الأرز عند القمة بحيث تحرر الأسنان السنابل مدركة أن أي حركة خاطئة ستمزق يدي إربا إربا، وسيكون الأمر أسوأ لو سقطت على البرميل الدوار السريع.

وبعد الدرس تكدس سيقان حزم الأرز لتستخدم لاحقا في البناء وصنع الحبال وما إلى ذلك، وعلى الجانب الآخر من

البراميل حيث تسقط السنابل تجرف العاملات القشور التي يمكن استخدامها كوقود. كانت كل عاملة تلبس قناعا من القطن ضد سحب الغبار المعلقة في الهواء والمتكاثفة إلى درجة كادت بها تحجب الأنوار المضاءة للنوبة الليلية.

وجدت من المستحيل أن أمسك بحزمة سيقان الأرز أمام البرميل بالطريقة المحددة، لأن «ساعديَّ الملتهبين» لم يقويا على ذلك وغالبا ما انتزعت الحزمة من يدي، حاولت التعويض عن ذلك بلف ذراعي حول الحزمة وضغطها على صدري. غير أن هذه الطريقة تطلبت أن أقترب من الأسنان الدوارة اللامعة، والأسوأ من ذلك، طلب مني لاوتشانج أن أقف على كومة من القش نظرا إلى قصري، مما جعل من الصعب علي المحافظة على توازني.

وهكذا مرت الذكرى السنوية الأولى لمجيئي إلى المزرعة. كانت جيا - ينج هي التي ذكرتني بالتاريخ إن نفعت الذكرى.

لم أقبل أبدا نظرية العمة الكبيرة القائلة إنني ولدت سيئة الحظ، وإن كنت أتساءل أحيانا عن صحتها.

وفي أحد الأيام المشمسة وخلال فرصة الغداء سقطت إلى أرض الدرس وأنا أعاني من ألم حاد في بطني، ازداد تاركا إياي أسبح في العرق وأتلوى كالقريدس.

أرسلت يو - هوا إحداهن بسرعة إلى الدكتور وانج في موقع بناء الطريق. وصل لاوتشانج ولكنه لم يستطع عمل أي شيء عدا الوقوف هناك وإبداء التخمينات. بعد ذلك بفترة وجيزة وصل الدكتور وانج مع رجلين آخرين: هسياو جو وهسياو تشيان اللذين

حملا نقالة بينهما. استغرق الأمر من الطبيب بضع لحظات فقط لتشخيص التهاب زائدة دودية حاد.

قال بإلحاح: «إنك تحتاجين إلى عملية جراحية في الحال، ويجب أن نأخذك إلى المستشفى». لفني هسياو جو وهسياو تشيان بالبطانيات وحملاني فوق عربة من النوع الذي نستخدمه في نقل الآجر. لم تكن هناك تسهيلات طبية ملائمة في قريتنا ولا في المزرعة الفرعية، والأسوأ من ذلك، لم يكن بإمكان مستشفى المزرعة إرسال سيارة إسعاف لأن الطريق الرئيسي كان في طور الإنشاء.

غسل العرق وجهي وبلّل ثيابي. قاومت الغثيان ووخزات الألم وقد انطويت على نصفي شادة ركبتي إلى صدري وقد دفنت ذقني بينهما خوفا. ولم تفلح نداءات يو - هوا وأوامر الطبيب العاجلة سوى قليلا بالتهدئة من روعي. وأخيرا تردد صوت عبر النهر «انتظروا قليلا، سنرسل قاربا».

عندما وصلت غرفة العمليات كان الليل قد خيّم. كان الدكتور وانج بجانبي، وتمنيت من كل قلبي لو أن أحدا من عائلتي كان حاضرا. لم أعرف شيئا عن الزائدة الدودية ومضاعفاتها الممكنة. كل ما عرفته هو أن الدكتور وانج سيفتح بطني وأنني قد أموت.

خُدِّرت تخديرا موضعيا فقط، وبالتالي كنت أعي ما يحدث، لم أتمكن أن أرى شيئا ما عدا السقف. كان هناك طبيبان آخران يوجهان باستمرار أسئلة إلى الدكتور وانج ويحتجان معه على التأخير وبدا أن لا أحد يريد التحدث معي.

بعد فترة انقلب كل شيء سوادا دامسا. تصاعدت اللعنات في الظلام المطبق. سمعت حفيف الأقدام من حولي صرخت بصوت عال: «أيها الطبيب! لقد فقدت بصري».

قال الدكتور وانج «لا، لا، يا هسياو يي، الطاقة انقطعت، لا تخافي .. الممرضات في الخارج يبحثن عن مصابيح كهربائية، شكرا لله! لقد أزلت زائدتك الملتهبة».

لم يكن انقطاع الكهرباء جديدا علي أو على أي إنسان آخر في الصين، وحتى في شنغهاي كانت الكهرباء تنقطع بانتظام في المناطق السكنية لبعض الأيام توفيرا للطاقة. كما أن بعض المصانع كانت ترسل عمال المناوبة إلى بيوتهم، خصوصا أثناء الصيف وهو زمن الاستهلاك الأقصى. وإن كان العمال عادة يتلقون إنذارا مسبقا حول هذا الترتيب.

عادت الممرضات بسرعة تكاد لا تراهم خلف الدوائر المتراقصة لمصابيحهم الكهربائية، أغمضت عيني وأنا منهكة القوى لأفتحهما ثانية عندما انطلق ألم حاد عبر معدتي جعل ساقي اليمنى تنكمش. لقد زال أثر المخدر. دفع أحدهم ساقي نحو الأسفل فأدركت أن العملية لا تزال مستمرة، صرخت عندما انتابتني صعقة أخرى من الألم «ما الأمر؟ ماذا تفعلون بي؟».

«كل شيء على ما يرام»، قالت إحدى الممرضات بهدوء. الطبيب يخيط الجرح، لن يطول الأمر.

صرخت من أجل المزيد من المخدر.

قال الدكتور وانج «مستحيل، يجب إعطاء الجرعة في عمودك الفقري ولا نستطيع إدارتك إلي الجانب الآخر».

أمسكت إحدى الممرضات مصباحها الكهربائي لتنير الكتاب الأحمر الصغير وبدأت تقرأ لي اقتباسات من الرئيس ماو.

أخذت تشجعني: «لا تخَف المصاعب، لا تَخف الموت».

عندما كتب الرئيس ماو تلك النصيحة، أشك في أنه كان يتعرض للوخز المتكرر بإبرة الخياطة، صررت بأسناني من الألم.

نقلت على النقالة إلى جناح خافت الضوء، وقد خارت قواي وإن كنت قد نجوت من الخطر. كانت يو هوا والشابان اللذان أحضراني كل تلك المسافة ينتظران ليريا كيف مرت العملية. تأثرت كثيرا بعطفهم وأردت أن أشكرهم غير أن جل ما استطعت أن أبديه لهم لم يتعد ابتسامة واهنة ارتسمت على شفتي.

أخرجت من المستشفى بعد أسبوع وأسندت إلي واجبات خفيفة وهي التنظيف في المقصف. شعرت بأني محظوظة للعمل في الداخل لأن الرياح الشمالية الغربية أصبحت شديدة البرودة ثانية. كان الطلاب لا يزالون يعملون بجد لإنهاء الطريق وكانت النساء تقمن سدود حقول الأرز بالأمشاط الثقيلة ذات الأسنان المعدنية. أعلمنا أنه إذا لم يجرِ بناء السدود بصورة ملائمة فإن تسوي وجاو سيهدمانها ويأمران بإعادة البناء.

لم يعد عدم إنجاز المقدار اليومي المحدد مجرد إشارة حمراء توضع على قائمة الأسماء المعلنة، بل أصبح الآن يعتبر مرتبطا بدوافع سياسية ومما يعني المتاعب الجمة.

بعد وصول جيش التحرير الشعبي أصبح كل شيء يتم بالطريقة العسكرية. لم يعد يسمح لنا بالذهاب إفراديا إلى المقصف «كطبق من الرمال المتناثرة» حسب قول تسوي، بل كنا

نسير معا «كعسكريين حقيقيين وأوانينا في أيدينا اليسرى ونؤرجح يدنا اليمنى بصورة جماعية».

أما الطلاب ذوو الخلفية العائلية الجيدة فقد أصبحوا رجال ميليشيا يخضعون للتدريب اليومي بما في ذلك التمرين على البنادق بقيادة جاو. وكانت الميليشيا مستنفرة ٢٤ ساعة يوميا.

ولِمَ الاستنفار؟ على الرغم من أنني لم أكن أبدا من المتقصين للأخبار، فإنني منذ مجيئي إلى المزرعة كنت بعيدة عنها كل البعد. لم تتوافر الصحف ولم تتوافر راديوهات الترانزيستور النادرة والغالية في ذلك الوقت - كانت هناك الدعايات المتكررة فقط. وغني عن القول أن مكبرات الصوت في المعسكر وفرت الشيء نفسه ألا وهو الدعاية. وعلى رغم تسليم البريد مرتين في الأسبوعين، فالكل كان يعرف أن كتابة الأشياء بصريح العبارة في أوقات خطيرة كهذه لم تكن فكرة جيدة. اقتصرت معلوماتي عندئذ على ما يحدث في قريتنا الصغيرة فقط.

وكما رأيت خلال إجازتي الصحية في شنغهاي قبل بضعة أشهر، كانت البلاد كلها تبني الملاجئ ضد الغارات الجوية لتوسع النزاع مع روسيا، ولكن لماذا كانت مزرعتنا تحتاج إلى طريق «جاهز للحرب» عريض وقوي بما فيه الكفاية، كما قال جاو، لنقل دبابتين إلى جانب بعضهما؟ ولماذا نحتاج الميليشيا؟ ما أهمية قريتنا الاستراتيجية، وهي في وسط التيه محاطة بالأراضي المنبسطة التي تنتج المحاصيل الرديئة؟

عندما تغلغل الشتاء تطلعنا إلى بضعة أشهر سهلة نسبيا قبل أن يعود الربيع بالعمل السابق المضني في زرع الأرز. انخفضت الحرارة

إلى درجة أننا في صباح بعض الأيام وجدنا جرارالماء مختومة بالجليد. وللمحافظة على الدفء في الليل، عندما تصفر الريح عبر جدران القضبان والأغصان في مهجعنا غير المدفأ، كنت أضطر أنا ويو هوا إلى أن نجمع لحفنا معا كما فعلت الأخريات.

وكثيراما انتزعنا من نومنا رنين الأجراس الحاد يدعونا للتمارين العسكرية. وسواء كنا في الميليشيا أو لم نكن، كان علينا جميعا أن نقفز من أسرّتنا إلى الظلمة المتجمدة، نتلمس ملابسنا وننطلق إلى أراضي الدرس لكي يحاضر فينا تسوي وجاو اللذان ينعمان بالدفء ووسائل الراحة، ملتفين بمعطفيهما العسكريين من دون أن يراقبا ساعات التوقيت.

عندما حل شهر فبراير ارتفعت معنويات الطلاب لأن زمن زيارة البيت قد أزف - فقد كانت هذه سياسة الحكومة الوطنية بمنح إجازة أسبوعين مدفوعة الأجر كل عام للموظفين الذين يعملون بعيدا عن بيوتهم. وتدفع وحدة عمل الموظف أجرة سفره. كان لاوتشانج قد قال لنا منذ زمن طويل أن بإمكاننا الاستمتاع بزيارة البيت في أي وقت خلال العام، باستثناء مواسم العمل، ولكن تسوي غيّر ذلك قائلا إننا يجب أن نذهب جميعا إلى بيوتنا في الوقت نفسه.

قلقت على أختي الصغيرة لفترة طويلة، بدت في رسائلها محبطة لدرجة أنني خفت عليها من انهيار عصبي. كانت كل رسالة تمزق نياط قلبي، فخططت أن أنتظر وأطلب زيارة البيت في يوليو لتتوافق مع زيارتها بحيث أستطيع لقاءها في البيت، لكن سياسة تسوي أفسدت خططي.

عندما سألت يو هوا ماذا يجب علي أن أفعل، اقترحت أن أشرح الأمر لتسوي وجاو. قالت: «لديك أسباب معقولة للاستثناء، إنني قائدة فرقتك وسأذهب معك للتحدث إليهما».

في تلك الليلة ذهبنا إلى البناء الآجري، كان مكتب الممثلين مضاء بمصباحين عاريين يتدليان من السقف. جلس كل من تسوي وجاو لدى منضدته، يحتسي الشاي دون أن ترتسم على محياه أي تعابير.

كنت مرتبكة جدا إلى درجة أنني تعثرت في كلماتي وبالتالي تقدمت يو - هوا لتقول إن والدي متوفيان وإنني أملت أن أتمتع بإجازتي في وقت إجازة إخوتي وأخواتي نفسه. وأنهت كلامها بالقول «إننا مشتتون ونود أن يرى بعضنا بعضا عندما نستطيع».

قلت بصوت ضعيف: «إذا استطعت أن أستمتع بالأسبوعين فيما بعد فإنني أعد بأنني سأعمل بجد أكثر عندما أعود».

جلس تسوي وجاو صامتين، كما لو أنهما ليسا هناك، أو كما لو أن أيا منا لم يقل شيئا. تذكرت الذل الذي شعرت به لدى زيارتي مع والدتي إلى موظفي المصنع غيرالمهتمين والذين لم يقدموا أي مساعدة. وفجأة افتقدت والدي وبدأت بالبكاء.

نهض تسوي وأتى إلى مقدمة طاولته. ظهرت على وجهه ابتسامة باردة. قال بغلظة «لماذا تبكين؟ نحن لم نقل كلمة واحدة بعد، أليس كذلك؟» تكلف الابتسام ونظر إلى جاو الذي كان يقلب صفحات دفتر التسجيل الذي يحتوي أسماء وتواريخ كل العائلات.

«إن زيارة البيت مخصصة للرفاق المتزوجين الذين يعملون بعيداعن عائلاتهم أو لغير المتزوجين لزيارة أهلهم، أليس كذلك؟».

تمتمت قائلة «نعم».

سأل بأدب زائف «هل أنت متزوجة؟» تظاهر تسوي بالأدب.

ختم كلامه بالقول «إذن ليس لديك زوج لتزوريه، أليس كذلك؟ وأهلك متوفون». وهكذا يبدو أنك لست مؤهلة لزيارة البيت على الإطلاق.

شعرت بالقشعريرة تسري في بدني خوفا لأنني لن أرى إخوتي وأخواتي وعمتي الكبيرة ثانية. وقف جاو ووجهه لا يزال هادئا متماسكا. أضاف قائلا وهو يشير إلى خلفيتي الطبقية السيئة «هناك الملايين من الإخوة والأخوات الذين أرسلوا إلى أماكن متفرقة ليخدموا وطنهم، لماذا يتعين أن تحصلي على معاملة خاصة؟ أنت من دون الناس جميعا».

اهتزت شفتاي، نظرت إلى صديقتي، قرأت في وجه يو - هوا أنها مندهشة مثلي. وضحك بصوت عال قائلا «نسمح لكما بالانصراف».

كنت خائفة إلى درجة أنني لم أتمكن من النوم في تلك الليلة، وفي صباح اليوم التالي حاولت يو - هوا تعزيتي ولكنها فشلت. بعدها ابتهجت وقالت «لدي فكرة يا هسياو - يي. لنذهب إلى مكتب إدارة المزرعة الفرعية وننهِ هذاالأمر هناك، فتسوي وجاو هما ممثلا جيش التحرير الشعبي أولا وأخيرا، ويجب ألا يتدخلا في هذا الموضوع».

مرة ثانية كنت ممتنة لصفاء ذهن صديقتي. وبعد أن أسرعنا لإنهاء مقدارنا المحدد من سدود مزارع الأرز الجديدة طلبنا من جيا - ينج أن تجلب عشاءنا وتحفظه لنا في المهجع، وبعدها

اتجهنا نحو المزرعة الفرعية. وعندما وصلنا كان الوقت قد أظلم. سقط قلبي عندما رأيت المكتب مغلقا لذلك اليوم.

شجعتني يو - هوا قائلة «لا تستسلمي، ربما يتناولون العشاء».

وجدنا المقصف، وبعد سؤال عدد من الناس وجهنا نحو رجل طويل في أواسط العمر يأكل وحده على إحدى الطاولات. كان وجه الممثل هوانغ لطيفا وعيناه واسعتين وذكيتين. وبعد سماع سبب مجيئنا اقتادنا إلى مكتبه.

أشارت لهجته إلى أنه من مقاطعة جيجيانج، دعانا إلى الجلوس، وملأنا تأدبه بالثقة. قررت ألا أشير إلى رغبتي في تأخير زيارة البيت، واكتفيت بالتعبير عن قلقي من أن يمنعني الممثلون المقيمون من الذهاب إلى البيت على الإطلاق. أخذ الممثل هوانج نسخته من دفتر سجل أفراد المزرعة وقلب صفحاته، ووجهه نحوي وطلب مني أن أشير إلى اسمي، فعلت ذلك بإصبع مرتجفة، قرأ المعلومات عن عائلتي ثم أغلق الدفتر ونظر إلى الأعلى.

قال: «لن تكون هناك مشكلة»وتابع يقول إن سياسة الحكومة تنطبق على الجميع. وأثناء حديثه ظهرت مسحة من الغضب في صوته. إنها لمأساة أنك فقدت والديك كليهما، كيف يستطيع هذان... (توقف عن الحديث). غادرت المكتب والشعور بالراحة يملأ قلبي.

في طريق العودة إلى قريتنا، قابلنا هسياو جاو وهسياو تشيان وهسياو جيان وثلاثتهم أصدقاء ليو - هوا. وجو وتشيان هما اللذان ساعداني خلال هجمة الزائدة الدودية وقد زارني ثلاثتهم مع يو - هوا في المستشفى. لقد ثمنت عاليا صداقتهم

باستمرار. ومثل يو هوا كانوا جميعا أكبر مني سنا، لكن رغم خلفياتهم العائلية السياسية الصحيحة، لم يزدرني أي منهم. اقترح محاسبنا - هسياو جيان - أن نذهب جميعا إلى مكتبه الصغير قرب المقصف، حيث يستطيع أن يسخن عشاءنا. وأثناء تناول الطعام تحدثت وضحكت سعيدة بأن مشكلتي قد حلت واستمتعت بصحبتهم.

في مساء اليوم التالي استدعيت مع يو - هوا إلى مكتب تسوي وجاو، وعندما دخلنا بدأ جاو يصرخ. ووجهه محمر من الغضب «كيف تجرؤان أيتها الاثنتان أن تحتالا خلف ظهرينا، كيف تتجرآن على الذهاب إلى من فوقنا».

بدأ يشتم ويلعن وقبعته العسكرية تتلوى فوق رأسه، واتهمنا بأننا نضعف مكانة جيش التحرير الشعبي. وعندما حاولنا الكلام قاطعنا واستشاط غضبا وعلا صراخه.

جلس تسوي إلى طاولته يلعب بقلمه دون أن يقول كلمة خلال هذا التعنيف الطويل حتى صرفنا أخيرا بإشارة من يده.

صاح جاو أثناء خروجنا «اللعنة على والدتيكما! اللعنة على والدتيكما الاثنتين».

تسللنا إلى الخارج، لم تكن لدي فكرة عن ماهية الخطأ الذي ارتكبناه، ولكن عندما ركبت الباخرة إلى شنغهاي بعد أسبوع، امتلأ قلبي بالهواجس، لقد أدركت أنها لن تكون المرة الأخيرة التي أسمع فيها من تسوي وجاو.

كان الرصيف في الحوض ١٦ من ميناء شنغهاي مكتظا بالناس. انتشرت حولي صرخات الفرح عندما رمى أصدقائي في

المزرعة أنفسهم في أحضان أمهاتهم وآبائهم. لم يكن هناك أحد من عائلتي لاستقبالي. فالعمة التي بلغت الستين من عمرها تقريبا أصبحت مسنة لا تقوى على مصارعة الجماهير، ولن تتمكن قدماها الصغيرتان اللتان تشبهان زهرة ليلك ولا تتجاوزان ثلاث بوصات من الإبقاء على توازنها وحمايتها كيلا تداس. لم تترافق زيارة الأخ الأكبر والأخت الصغيرة للبيت مع زيارتي. أما الأخ الثاني فسيكون في البيت قريبا ولكنه في هذا اليوم يحفر ملاجئ غارات جوية في الضواحي مع زملائه العمال. وأختي الكبيرة لن تصل إلى المدينة حتى الأحد وهو يوم إجازتها.

وبما أنني كنت أعلم أنني سأجد الشقة فارغة وهادئة بعد أن كانت تعج بضجة وصخب ثمانية أشخاص، وكنت أعلم أيضا أنني حالما أدخل من الباب سأبدأ بالتظاهر بأنني لا أستطيع أن أثقل على أحد بتجاربي الحقيقية في المزرعة. وقفت تحت أمطار فبراير الباردة أنتظر الحافلة التالية. أنعش قلبي وصول أختي الكبرى إلى جادة أشعة الشمس الأرجوانية.

صرخت حالما دخلت من الباب «يا آه - سي! تبدين رائعة. في المرة الأخيرة التي رأيتك فيها كنت نحيلة كالعصا»

إنها فتاة شابة جميلة في التاسعة عشرة من عمرها الآن وتعيش في غرفة واحدة مع ثلاث عاملات أخريات غير متزوجات في مهجع المصنع.

تحدثنا بابتهاج ونحن نحتسي الشاي الذي أعدته العمة الكبيرة.

قالت الأخت الكبرى على سبيل النكتة «لم أجد صديقا بعد

ولكنني أبقي عيني مفتوحتين على الدوام». وأضافت بافتخار وهي تناولني صورة تظهر فيها بالبزة العسكرية والبندقية تتدلى من كتفها.

سألتها وأنا أناول الصورة إلى العمة الكبيرة «هل أنت في الميليشيا؟».

«إنني قائدة».

قالت العمة الكبيرة بتهكم «عندما تنجح الابنة الكبرى في تصويب بندقيتها يكون الروس قد استولوا على المصنع».

قالت لها «يدهشني أنهم قبلوا ابنة رأسمالي».

«إنهم لا يهتمون، لا أسبب لهم أي متاعب. وشعاري هو:كل ونم واعمل».

بعد بضعة أيام عندما أخبرت أخي الثاني أنني كدت أفقد زيارتي للبيت، شرح لي المناخ السياسي الجديد، وهكذا بدأت بعض الأمور التي بدت غريبة لي في المزرعة منطقية. عندما أمر الرئيس ماو جيش التحرير الشعبي بالتوجه إلى وحدات العمل لضمان استقرارها، ومنع حدوث المزيد من الاضطرابات والقلاقل المدنية كانت الخطة هي إقامة سلطة «ثلاثة في واحد» مؤلفة من ممثلين من الجماهير والكوادر الثورية وجيش التحريرالوطني معا. ومنذئذ تولى جيش التحرير الوطني المزيد من السلطات في المزارع والمصانع والبيروقراطيات. وعندها أطلق حملة تطهير لأولئك الذين عارضوا مشاركة القوات المسلحة. أما أقوى الأصوات التي ناهضت جيش التحرير الوطني فقد أتت من الجامعات والمعاهد الأكاديمية، وبالتالي اكتُشِفت مجموعة «مضادة للثورة» في جامعة فودان الشهيرة في شنغهاي، وتلا ذلك حملة مطاردة السحرة واسعة النطاق.

ازداد تعقيد هذا الوضع - كما علمت بعد سنوات كثيرة - لأن لين بياو قام باستعداداته بمنتهى الهدوء إعدادا لإزاحة ماو والاستيلاء على البلاد. وليضمن السيطرة المطلقة على القوات الجوية ومعظم القوات المسلحة كان لين بياو يعين الرجال الموالين له في المناصب الرئيسية. وعندما حان الوقت، خطط لاغتيال ماو تسي تونج والاستيلاء على السلطة. وباستعادة الأحداث الماضية، أصبح من الواضح سبب بناء الطريق الجديد في المزرعة. فالطريق أقيم هناك ليس للاستعداد للغزو الروسي على الإطلاق، بل لدعم تراجع محتمل لقوات لين بياو.

ومن الطبيعي أن أحدا لم يعلم بمؤامرة لين بياو، وكل ما اكتشفه الأخ الثاني هو أن جيش التحرير الوطني تولى سلطة جديدة في الصين وانقض على المعارضة. وحذرني كي أبقى بعيدة عن أي نزاعات، وخصوصا الخاصة بممثلي جيش التحرير الوطني.

لم يعرف لا هو ولا أنا الأهمية الكاملة لزيارتي مع يو - هوا إلى المزرعة الفرعية لرؤية الممثل هوانج ولا تدخل ذلك الرجل الطيب لصالحي. كان يجري تعيين ممثلي جيش التحرير الوطني لإدارة المزرعة الفرعية، مثلها مثل كل الوحدات، كانت هذه هي مهمة هوانج، ولكن ممثلي جيش التحرير الوطني في المزرعة الفرعية كانوا من حامية شنغهاي التي تتبع بدورها إلى منطقة نانجنج العسكرية وهي قوة موالية لماو تسي تونج وبالتالي معادية للين بياو. وبالتالي فإننا بتخطينا لتسوي وجاو قد ذهبنا لأعدائهما.

في مساء اليوم التالي لوصولي إلى المزرعة في بداية شهر مارس، عقد اجتماع طارئ في المستودع. وقد تم التوجيه بألا نحضر

أقلامنا، ولا دفاتر ملاحظاتنا ولا كراسينا - إعلان غير مسبوق جعلني متوترة. في تلك الأيام أصبح أي شيء غير عادي نذير شؤم، وكنت أنا ويو هوا في سجلات ممثلي جيش التحرير السيئة.

كان المستودع مزينا بالشعارات السياسية «لا تنسوا أبدا النضال الطبقي» «النسيان يعني الخيانة» «يعيش جيش التحرير الوطني» «سنحطم رؤوس من يجرؤ على مقاومة الجيش». كنت معتادة على لهجة الملصقات العالية، ولكن الأخير بدا تهديديا إلى درجة غير معتادة.

عندما دخلنا المستودع الرطب البارد صدرت التعليمات لنا بأن نجلس على الأرض الاسمنتية المتجمدة وألا نقرفص على أقدامنا. كان تسوي في قمة انتصاره، ردد أولا شعار الرئيس ماو «تمسكوا بالنضال الطبقي وستحل كل المشاكل» وأخذ يتعالى صوته مع كل تكرار. وعندها هدرت الغرفة وترددت أصداء الكلمات المستهلكة سار اثنان من موظفي المقصف اللذان يرتديان الملابس البيضاء ببطء إلى المقدمة يحملان إناء طبخ كبير بينهما. وضعا إناء الطبخ بطريقة احتفالية على الأرض عند قدمي تسوي.

طلب تسوي من الحضور الصمت والهدوء، ثم شد بقوة أذيال جاكيته وبدأ بالكلام «أشعر أنا ويشعر الممثل جاو أنه لا يوجد وعي كاف بالنضال الطبقي في وحدتنا. لقد علّمنا الرئيس ماو أن النضال الطبقي يجب أن يستمر! ولكي ننفذ الثورة الثقافية البروليتارية العظمى حتى النهاية، من الضروري لنا جميعا أن نتذكر الصعوبات التي مرت بها الطبقة البروليتارية قبل التحرير».

نظرت إلى إناء الطبخ بينما انبعثت منه رائحة كريهة انتشرت عبر المستودع البارد.

تابع تسوي قائلا «سنتناول وجبة خاصة»، وأشار إلى إناء الطبخ «لنسترجع معاناة الماضي لكي نقدر حياة الحاضر الرغيدة، إنني أحذركم بأنني والممثل جاو سنراقب بعناية لنتأكد من أنكم جميعا ستشاركون، وأي احتيال سيفسر أيديولوجيا.

سرنا الواحد تلو الآخر إلى الأمام لنحصل على نصيبنا من «الوجبة». عندما جاء دوري قدمت إليّ كرة بحجم قبضة اليد من المادة الخضراء الدافئة ذات الرائحة الكريهة.

وصلنا صوت جاو قائلا «هلموا! لا تكونوا جبناء. تذكروا أن بعض أجيالكم السابقة لم يجدوا ما يكفي لطعامهم، ومن الطبيعي أن الآخرين استمتعوا بحياة رغيدة بامتصاص دماء الفقراء».

حبست أنفاسي وأغمضت عيني وتناولت عضة. كان قوام الكرة رمليا ومطاطيا ومذاقها كطعم العشب المر الحار والقذارة الكريهة. بدت أنها معدة من الأعشاب المخلوطة بقشور الحنطة، وقوامها الليفي ورائحتها الكريهة جعلاني أتقيأ. جيا - ينج المسكينة التي جلست بجانبي تقيأت بشدة فلطخت جاكيتها والأرض الاسمنتية أمامها، ولم تسهل رائحة قيئها مهمتي.

مالت يو - هوا نحوي وقالت «قطعيها إلى قطع صغيرة بأظافرك وابتلعي القطع، تمضغيها».

كانت جيا - ينج تبكي من الإحباط وفي كل مرة تضع الكرة الخضراء العفنة في فمها تتقيأ ثانية. طلبت من جاو بعض الماء ولكنه ابتعد عنها من دون أن يجيب. نجحت طريقة يو - هوا

بالنسبة إليَّ وخلال بضع لحظات أدخلت القطع في فمي بالقوة. اقتربت من جيا ينج وقلت لها ما يجب أن تفعل. وأخيرا نجحت هي أيضا ومن خلال دموعها ابتسمت بارتياح.

عندما غادرنا المستودع مررنا بمفتشين اثنين جعلانا نفتح أفواهنا، ونرفع ألسنتنا، ونقلب جيوبنا. اقتنعت بأن عرض تسوي وجاو السادي له غرض واحد فقط هو أن يريانا بأنهما يستطيعان أن يفعلا بنا ما يريدان.

تقلبت في فراشي طوال الليل مع ألم في المعدة حتى بزغ الصبح الذي أعلنه صوت منطلق من مكبرات الصوت يدعو المعسكر بكامله إلى اجتماع آخر بعد الغداء. أثناء سيرنا إلى المقصف مررنا بمجموعة من السجناء الذين تجمعوا لتعذيبنا. سخروا منا وضحكوا وأفواههم تبرز منها قطع من العشب والقش. استلقى أحدهم على الأرض يرتعش كما لو كان في حالة صرع.

حذرنا تسوي «تجاهلوهم، عندما تنظرون إليهم تظاهروا بأنكم لا ترون شيئا».

من أكثر من وجهة نظر، شعرت أن السجناء يتمتعون بحرية أكثر منا، وأن حياتهم أسهل لأنه لا يطلب منهم المساهمة في الثورة الثقافية. وعندما ينهون فترتهم يعودون إلى عائلاتهم. إن فترة عقوبتي لا نهائية بل مدى الحياة. لقد هرب بعض الطلاب من المزرعة آملين أن يقبض عليهم ويرسلوا إلي السجن، لكنهم أعيدوا إلى الفرقة. وليس هذا في رأيي سوى ضرب من جنون الثورة الثقافية التي تقضي أن يكون الخارجون على القانون أفضل من الناس الذين لم يقترفوا خطأ في حياتهم.

في تلك الليلة اتخذ تسوي مسلكا مختلفا في الاجتماع. تزلف إلينا طالبا مساعدتنا بكل تواضع، قال بإخلاص زائف «إنني والممثل جاو حديثا العهد نسبيا هنا، وليست لدينا خبرة في نوعية العمل هنا، إننا غرباء عن شباب المدن الرفيعي الثقافة، نرجو أن تساعدونا بكتابة انتقاداتكم ومقترحاتكم: انفتحوا وكونوا صادقين. وبهذه الطريقة تظهرون مساعدتكم لجيش التحرير الوطني».

تذكرت تحذير الأخ الثاني وقررت ألا أفعل وألا أقول شيئا. ونصحت يو هوا أن تفعل الشيء نفسه، ولكنها انخدعت فكتبت نقدها لتسوي وجاو قائلة إنهما تصرفا بطريقة ظالمة لدى تعاملهما مع طلبي لإعادة برمجة زيارتي للبيت.

بعد ثلاثة أيام أثبت ممثلا جيش التحرير الوطني أنهما تعلما جيدا من حركة «المائة زهرة» في عام ١٩٥٧، عندما اعتقل ماو الذين كتبوا بسذاجة انتقاداتهم التي طلبها. واستخدم الممثلان حتى كلمات ماو في ملصقاتهم: «لقد أخرجت الأفعى رأسها من الجحر: ماذا سنفعل بهذا الشأن؟ إن الذين يحاولون إسقاط جيش التحرير الوطني لن تكون نهايتهم حسنة». في الوقت نفسه شجعت الملصقات الأخرى الطلبة على فضح أولئك الذين عارضوا تسوي وجاو وراء ظهر كل منهما.

بدأ «صيد السحرة» في فرقتنا، ومن بين الطلبة «الحمر» تشكل «فريق تصفية وتحقيق» وتحرر أعضاؤه من كل المهمات الأخرى. أصبحت مهمتهم مساعدة تسوي وجاو في تنفيذ عملية التطهير. وكانت النساء الثلاث المختارات لهذه المهمة

«الرغيف، السمينة، صاحبة السيقان» وقد لقبن كالكثيرات منا حسب مظهرهن، فـ «الرغيف» التي كانت نظارتها أسمك نظارات رأيتها في حياتي، كانت فخورة لأن والدها الخياط يعد الملابس للباليه الحديث «الفتيات ذوات الشعر الأبيض» وهي إحدى ثماني مسرحيات سمح جيانج تشينج بعرضها للعموم، أما «السمينة» فكثيرا ما عبرت عن نظرية الثورية الدموية القائلة بأن «ابن التنين تنين» ولا حاجة للقول بأن دمها كان نقيا. أما «صاحبة السيقان» الطويلة والنحيلة ذات الرأس المسطح والكبير فقد كانت عاملة مجدة منطوية على نفسها. لقد تبرأت من كل عائلتها بعد أن أُعلن أن أباها كان يمينيا في الخمسينيات واختيرت منذئذ كشابة مثالية. تخلت «صاحبة السيقان» حتى عن زيارة البيت، ورفضت زيارة والدتها «ذات العقلية المضطربة». لم أكن أعرف بقية أعضاء الفريق جيدا، لكنني سرعان ما اكتشفت أنهم على درجة عالية من الحقد والشر.

تولاني الرعب عندما علمت أن «رأس الأفعى» الذي ظهر في نظر تسوي وجاو- جزئيا من جحره هن الأربعة اللاتي ساعدني عندما كنت مريضة، وعندما عدت من مكتب المزرعة الفرعية لأستعلم عن إجازتي. إنهن يو هوا - صديقتي وحاميتي - وهسياو جو وهسياو تشيان وهسياو جيان. والأربعة كلهن من الخلفيات الطبقية «الصحيحة» وكن جميعا قادة. ولكن أربعتهن كن ساذجات، لقد كتبن انتقاداتهن ومقترحاتهن بناء على طلب تسوي وقدمنها إليه.

في اجتماع النضال الذي تلا، أجبرت صديقاتي الأربع على الوقوف أمامنا ومطالبتهن بالاعتراف بجرائمهن.

صرخ تسوي «لقد كن يعملن من خلف الستار، يجب كشفهن وكشف أي شخص يعتبر جزءا من مؤامرتهن المضادة للثورة».

لم أشارك في الضجة التي أحدثها الصياح الذي مزق طبلة أذني تقريبا.وقفت صديقاتي ورؤوسهن منحنية إلي الأسفل يظهر عليهن الذل والذنب. كان من المضحك أن يفكر المرء أن هؤلاء الفتيات الأربع تآمرن للإطاحة بالثورة وجيش التحرير الوطني.

بعد المزيد من الشعارات التي ترددت بصوت عال، والمزيد من التحريض لفضح الأفاعي وكل الذين تعاملوا معهن، أنهى تسوي الاجتماع بالإعلان بأن الأربعة الآن رهن الاعتقال المنزلي. هتف الجمهور استجابة للواجب وضربوا الأرض بأقدامهم. اقتيدت الشابات المكتئبات الأربع من المستودع يتبع كلا منهن «حارس» واجبه أن يبقى مع الشخص الموقوف طوال الوقت.

أسرعت عائدة إلى المهجع لأجد يو - هوا تحزم حاجياتها «إلى أين سيأخذونك يا يو - هوا؟».

صاحت حارستها «سمينة»: «احترسي وإلا فستتحملين عواقب محادثتك المضادة للثورة».

هزت يو - هوا رأسها - وعيناها تشعان خوفا - لتشير إلي لكي أبقى صامتة.

التفت وسألت الجميع في المهجع إلى أين سيأخذون صديقتي، لكنهن أكرهن على السكوت بالتهديد. راقبت يو - هوا وهي تقاد إلى بيت الآجر.

ظهرت جيا - ينج بجانبي. همست قائلة «لا تبكي يا هسياو يي. فالممثلون يقتلون الدجاجة ليخيفوا القرد، عندما تستيقظين تكون يو - هوا قد عادت». تمنيت لو شاركتها ذلك الرأي.

هزوني بعنف من نوم مضطرب.

«استيقظي يا يي -- تنج - هسينج! غادري الفراش في الحال» وقفت «صاحبة السيقان» و«سمينة» بجانب سريري أكاد لا أتعرف عليهما في الضوء الخافت.

«ما المشكلة؟ كم الساعة؟».

ظهرت الرؤوس من جانبي الصف، وبعض الفتيات اتكأن على أذرعتهن وهن يحدقن.

أجابتني جيا - ينج «إنها الواحدة» ورمت «سمينة» جاكيتي المبطن في وجهي.

أمرت «صاحبة السيقان» «أسرعي أنت مطلوبة من قبل الممثلين في الحال».

ناضلت لارتداء بنطلوني المبطن ورفعت جواربي واختطفت معطفي.

«لماذا يريدانني في منتصف الليل؟».

دفعتني كلتاهما إلى الظلمة الباردة. تعثرت وارتجفت مرارا لأنني في حالة الذعر والسرعة لم أحضر معي نظارة أخي الثاني. كان هناك بعض الناس يقفون عند المدخل عندما وصلنا إلى البيت الآجري. وكانت كل الأنوار مضاءة والراديو يدوي بالأغاني ومقتطفات من أقوال ماو. دفعتني «صاحبة السيقان» إلى الداخل.

كان تسوي وجاو في مكانيهما المعتادين خلف طاولتيهما. وقفت أمامهما أرتجف من الخوف.

بدأ جاو بالقول «هل تعلمين لماذا أنت هنا؟».

هززت رأسي بالنفي وأنا أحدق بعينين نصف مغمضتين.

تحدث جاو بهدوء قائلا «لقد اكتشفنا مجموعة مضادة للثورة في هذه الفرقة، كما علمت مسبقا في هذه الليلة، نريد أن نعرف عن الاجتماعات التي حضرتها معهن كل لقاء وكل كلمة بالزمان والمكان».

تمتمت قائلة «لا أفهم ماذا تقصد».

أجاب جاو محتفظا بهدوئه «لا تناوري معي، نحن نعرف المجريات وفي الحقيقة، نحن نسدي إليك معروفا بإعطائك هذه الفرصة لتبرئي نفسك».

في لمحة بصر ضرب جاو بيديه على الطاولة وهب واقفا وقد التوى وجهه فصرخ واللعاب يتطاير من فمه «لا تحاولي التأجيل والمواربة، إن هذه فرصتك الوحيدة، تعاوني معنا وإلا فستفوتك الفرصة!».

نهض تسوي واقفا أيضا وخطا حول طاولته وربت على كتف جاو الذي جلس على مقعده.

قال تسوي بصبر وقد علت وجهه ابتسامة زائفة «كما ترين، إن أصدقاءك رهن الاعتقال المنزلي، إننا نعاملك بصورة مختلفة لأننا واثقون من أنك ستساعديننا». ألح وهو يشير إلى خزائن الملفات خلفه «فكري في ذلك، أنت تعلمين أن ملفك هنا وتعرفين محتوياته، ثلاثة أجيال وأكثر من تاريخ عائلتك، عائلة إقطاعيين ورأسماليين».

أدركت ما يعنيه تسوي، لكل امرئ في الصين ملف. وتأثيره هو أول شيء تعلمته كفتاة. فإلى جانب استعماله لوصم المرء بالعار،

يحتوي الملف على كل معلومة ضارة قالها أي امرئ عنك. الحرس الأحمر ملأ مئات الآلاف من الملفات بالحقد والمعلومات الكاذبة.

اتضح لي الآن مخطط تسوي وجاو، لقد اعتبراني عضوا في المجموعة المضادة للثورة - مجموعة من خمسة لا أربعة. ولكن لأنني الأصغر والأقل خبرة والأكثر عرضة للسقوط، ظنا أنني سأنهار أولا وأغتنم الفرصة لإنقاذ نفسي بالوشاية بالآخرين. أطبقت قبضتي وضغطت على شفتي وأنا أرتجف، امر تسوي «سمينة» أن تأخذني إلى الغرفة المجاورة وتحرسني أثناء كتابتي لاعترافي.

صرخ عندما اقتادتني «سمينة» إلى الخارج «لا اعتراف، لا نوم».

في الغرفة المجاورة التي يضيئها مصباح واحد يتدلى من السقف كان هناك طاولتان وعدة كراسي، على إحدى الطاولتين قلم ورزمة من الورق. أقعدتني «سمينة» على كرسي.

«اكتبي كل شيء تتذكرينه عن اجتماعات مع الآخرين بالإضافة إلى أفكارك السيئة. تذكري تعاليم الرئيس ماو (التساهل مع الذين يعترفون بجرائمهم والشدة مع الذين يرفضون ذلك)».

غادرت الغرفة وأغلقت خلفها الباب بعنف. جلست هناك أرتجف وأحدق فقط في القلم والأوراق لما بدا ساعات من الزمن.

كل ما تذكرته فيما بعد هو صياح «سمينة» ووجهها على بعد بوصات من وجهي.

لا بد أنني نمت ... كان آخرون من فريق التصفية والتحقيق يصرخون في وجهي ويشجبون عدم تعاوني معهم. وأخيرا، بعد الإنذارات المتكررة، غادرالجميع الغرفة باستثناء «سمينة» و«صاحبة السيقان».

تعاقبت الاثنتان على إيقاظي إلى أن انبلج الصباح. كنت أحدق في الورق الأبيض حتى تغمض عيناي، عندها تضربني إحداهن على الكتف وتهزني بعنف لأصحو.

وأخيرا كتبت جملة واحدة «أنا يي – تنج – هسينج آسفة لعدم احترام الممثلين تسوي وجاو، وإنني على استعداد لقبول العقوبة».

اختطفت «سمينة» الورقة من يدي وقادتني إلى الإفطار. دفعت الطعام بشكل آلي إلى فمي، في حين نظرت إلى حارستي بصمت. وفي الحال تم تحويلي إلى «رغيف» لكي تستطيع «سمينة» أن تنام بعض الوقت، فرافقتني إلى الحقل وإن لم يسمح لي بالنوم.

أصبحت أشبه بالمسخ. لقد كان ضياع ليلة من النوم منهكا إلى درجة كبيرة، استنزف الخوف والتوتر كل طاقتي، ووجدت نفسي ثانية موضوعا للنقد والسخرية. تذكرت عبارة العمة الكبيرة «هربنا من بحر المرارة لنسقط في فم النمر». عملت بجانب يو – هوا في بناء سدود حقول الأرز برفش طويل ثقيل في أواخر مارس الباردة الماطرة، وفي حين جلس حراسنا يتحدثون تحت المظلات. لم يسمح لنا بالعمل مع الأخريات، كما لم نستطع التحدث مع بعضنا. كنت خائفة على يو – هوا التي بقيت منطوية على نفسها وعيناها منتفختان، وبدت وكأنها قد تقدمت في العمر خلال ليلة واحدة وتساءلت عما إذا كنت في مثل حالتها السيئة.

في تلك الليلة عقد اجتماع نضالي آخر في المستودع. عندما دخلت تتبعني «سمينة» – لم يتحدث أحد إليَّ. نظر الناس إلى الجهة الأخرى عندما مررت بهم. وحالما جلست في الصف الأول صرخ شخص من الخلف «أوقفوا المضادين للثورة!»، وعندها فقط

لاحظت بناء زنزانتين مصنوعتين من أعمدة الخيزران وحصير القصب في كل جانب من المستودع. ظهرت يو - هوا من خلف إحداهن. واقتيدت هسياو جيان وهسياو تشيان وهسياو جو لتجلسن خلفي.

عاد الصوت الذي سمعته منذ قليل يردد الشعارات ثانية في الخلف، فانضم إليه جمهور الطلبة منادين «ليسقط المضادون للثورة! ليسقط أي شخص يتجرأ على معارضة جيش التحرير الوطني، إن الذين يعارضون جيش التحرير الوطني معادون للحزب الشيوعي». ومع كل صرخة مدوية كان كتفاي يتحدبان قليلا كما لو أن الكلمات راحت تتراكم فوق رأسي.

ألقيت نظرة خاطفة على أصدقائي الذين بدوا تعساء وخائفين، أعاد المشهد بكامله ذكريات هجمات الحرس الأحمر وهم يصرخون في الشوارع.

كانت المرحلة الثانية من الاجتماع النضالي دعوة مفتوحة للوقوف وتذكر «الجرائم» التي ارتكبناها نحن الخمسة. اتهم أصدقائي الواحد بعد الآخر بخيانة طبقتهم وتشكيل مجموعة مضادة للثورة.

عندما حان دوري سمعت صوتا من خلفي يقول «إن يي - تنج - هسينج لا تحترم الوطن! إنها تسخر من كل شيء!» «يي - تنج - هسينج تزدري جيش التحرير الوطني».

هذا ما جأرت به امرأة ثانية مشيرة إلى تقليدي للهجة جاو السيشوانية في المهجع أثناء الليل. واتهمتني أخرى بأن «نكتتي حول الطريق الجديد أثبتت أن حقدي على جيش

التحريرالوطني المحبوب متأصل في دمي السيئ والذي تنامى منذ يوم ولادتي». صرخ رابع «كان والدها من الرأسماليين الذين امتصوا دماء الطبقة العاملة».

استمرت اللعنات والشتائم وتعمق إذلالي مع كل كذبة ظالمة أو اتهام كاذب. كيف يمكن أن يكرهني الجميع إلى هذا الحد؟ هؤلاء هن النساء اللواتي عملت معهن وقاسمتهن المقصف والمهجع، ولو كنت أستطيع لوضعت حدا لحياتي في ذلك المكان والزمان.

وأخيرا وقف جاو وأخبر الجمهور أن خمستنا عقدنا اجتماعات سرية في مكتب محاسبة هسياو وجيان الصغير. وقال ساخرا «تعرفون جميعا حجم تلك الغرفة، تصوروا كيف ينحشر الخمسة معا، هل تصدقون أنهم كانوا فقط يتناولون العشاء ويتحدثون؟».

تكلف الابتسام ثم أشار فجأة إليّ وإلى يو - هوا قائلا «أنتما الاثنتان! لقد رآكما الجميع باستمرار تتقاسمان السرير نفسه في الليل». ثم التفت إلى المستمعين وقال «أتساءل ما إذا كان الحفاظ على الدفء هو السبب الوحيد».

بعد يومين وضعت رهن الاعتقال المنزلي. لم يكتف جاو باعترافي المؤلف من جملة واحدة. حشرتني «رغيف» في الغرفة نفسها التي كتبت فيها الجملة ودفعتني خلف الطاولة نفسها وأمرتني ثانية بأن أعترف بكل جرائمي وأن أقدم تقريرا بالكلمات والأفكار والأعمال المضادة للثورة لصديقاتي الأربع.

في البداية لم أبد أي اهتمام، خلال اليومين الماضيين لم يكن يتبعني أحد لأني كنت - كما قال تسوي - «تحت رقابة الجماهير المستنفرة». سخر المساجين مني، وأطرق الطلبة ببصرهم أثناء

مروري وانتقدوني. شعرت كأنني مصابة بالجذام، كان هناك سريران في الغرفة، لاحظت أن واحدا لي والآخر «لرغيف». كانت الليلة الأولى تكرارا لاستجوابي السابق، صراخ وضرب وصفع. وتناوبت «سمينة» و«صاحبة السيقان» و«رغيف»: كلما تعبت إحداهن من الهجوم حلت محلها الأخرى.

كتبت بضع جمل أخرى. اعترفت بأنني تخطيت ممثلي جيش التحرير الوطني وانتقدت نفسي للقيام بذلك. في منتصف الليل سمح لي بالاستلقاء على السرير بملابسي الكاملة وبعد دقائق معدودة - على ما يبدو - هززنني لأستيقظ وجررنني إلى الطاولة.

أكدت «رغيف» قائلة «هذا لا يكفي، توقفي عن المماطلة، يقول الممثلان إن ذلك لا يكفي، يجب أن تقدمي اعترافا كاملا».

كررت قولي بأنني لم أقترف اي خطأ حتى أصبح تكراري نشيدا يرتل «لم يقترف أصدقائي أية أخطاء، إننا لسنا معادين للثورة!».

كنت أذهب كل صباح إلى حقول الأرز. وفي كل مساء كان يعقد اجتماع نضالي آخر يشوه سمعتي وسمعة الأربعة الآخرين «المعادين للثورة» قبل أن أجر إلى الغرفة. وأخيرا بعد أن نال مني التعب وتشويش الذهن والحرمان من النوم، كتبت اعترافا كاملا في النهاية سردت فيه كيف ذهبت إلى المزرعة الفرعية وما قلته للممثل هوانج حول زيارتي للبيت. ملأت عدة صفحات، أكتب قدر ما أستطيع لأرضيهم.

كنت مستعدة لكتابة أي شيء مقابل السماح لي بالنوم. مع هذا، لم يكن كل ذلك كافيا، ركلت لأستيقظ ثانية، والآن لم أعد أستطيع أن أقول كم سمح لي بالإغفاء، هل هي أربع ساعات أم

أربع دقائق؟ فقدت الوعي بعدد الأيام التي مضت منذ بداية الاستجواب. سحبتني «رغيف» إلى مقعدي، ثم أتى جاو ومعطفه العسكري غير مزرر وهو يجر خفه البلاستيكي. جلس بجانبي - قريبا مني - ومر بيده خلف رأسي، استطعت أن أشم الشاي الأخضر والسجائر من نفسه.

قال ملاحظا: «شعرك بحاجة إلى غسل». تحدث بنعومة وبأدب تقريبا على النقيض من شتائم الحارسات المهينة. قال إن اعترافي بداية حسنة، حسنة جدا في الحقيقة، ولكنه لم يكن شاملا.

«لقد قلت لنا ماذا فعلت، ولكن يجب أن تتفحصي أفكارك، ما الذي دفعك؟ ماذا كنت في الحقيقة تحاولين أن تفعلي؟ لا تتحدثي فقط عن زيارتك للبيت، بالتأكيد؟ ألم يكن هناك المزيد؟ فكري في ذلك».

غادر وأغلق الباب بهدوء، حدقت في الورقة محاولة أن أبقى عيني مفتوحتين. ولكن ضربة اليد على الخشب بجانب أذني أفزعتني.

«استيقظي أيتها الكلبة اليتيمة! من سمح لك بالنوم؟».

صرخت قائلة «اتركيني وشأني».

صفعتني «رغيف» على وجهي، اشتعل خدي من الألم وتساقطت دموع الشعور بالخزي فوق خدي.

«أهلك الرأسماليون لا يستطيعون أن يساعدوك الآن».

قلت لها «اتركي أهلي خارج الموضوع». غير أن ما قلته سبب لي ضربة لاذعة أخرى.

استغرقهم انهياري ١٤ يوما: أسبوعين من العمل الشاق مدة عشر ساعات في اليوم وأنا أعزق زوايا حقول الأرز التي لم تصل

إليها المحاريث، أسبوعين من الاجتماعات النضالية، أسبوعين من جلسات الاستجواب الليلية اختلطت فيهما صرخات «رغيف» الغاضبة مع إغراءات جاو الناعمة، أسبوعين من عدم الراحة.

لم يسمح لي بالاغتسال أو تغيير ملابسي، فاحت من جسمي الرائحة الكريهة وشعري غمره الوحل وبلي ساقا سروالي من الماء القلوي الذي تسرب إليهما في حقول الأرز.

شعرت بالضياع ولم أعرف في كثير من الأحيان في أي غرفة أنا أوما هو الوقت. عندما كبرت علمت أنني خضعت لما يسمى التعذيب بالحرمان من النوع الذي مارسه ستالين أثناء الإرهاب. لقد مارسه المستجوبون مرارا خلال الثورة الثقافية ولا يزال يستخدم في بعض البلدان.

وأخيرا في إحدى الليالي تحدث جاو ثانية «ألا تريدين أن تنامي يا هسياو يي؟ ألا تريدين أن ينتهي كل هذا؟».

قلت له «قل لي ماذا تريدني أن أكتب وسأكتب».

ولخزيي الأبدي ملأت صفحتين من الأكاذيب والمبالغات. كتبت أن الممثل هوانج انتقد تسوي وجاو - وهذا صحيح. قلت إنني وأصدقائي عقدنا اجتماعات وانتقدنا جيش التحرير الوطني وهذا غير صحيح. أُرْسلت صفحاتي جيئة وذهابا إلى تسوي وجاو في تلك الليلة. حذفوا بعض الأشياء وكتبوا بعض الملاحظات في الهامش وأنا أعدت كتابة الاعتراف حسب رغباتهما. وعندما بدا أنني أخيرا سأستلقي، أصر تسوي أن أكتب كل شيء قالته أخت يو - هوا التي كانت في سلاح الطيران لأختها عن الحياة في الجيش. كانت يو هوا قد قالت لي أن أختها كثيرا ما اشتكت من النوعية

السيئة من الرجال والنساء المنتسبين حديثا وقالت إن ابن لين بياو زير نساء. وفي الفجر أمرت أن أوقع الأوراق.

لم أغفر لنفسي وحتى اليوم الوشاية بأصدقائي الأربعة الوحيدين في القرية الذين أظهروا لي صداقتهم. لقد تم اختيارنا لكي يستطيع تسوي وجاو أن يثبتا أنهما كشفا واستأصلا مؤامرة معادية للثورة في أوساطهما. لماذا اختاراني من بين الآخرين؟

بعد توقيع اعترافي تم الإفراج عن أصدقائي ولكننا انعزلنا عن بعضنا. قال لي تسوي وجاو أنهما أرسلا بتوصيتهما بالعقوبة للسلطات العليا. من المؤكد أننا سنساق إلى السجن - على حد قولهما - ويبقى تحديد طول العقوبة بالسجن.

لم تعد «رغيف» ولا غيرها تتعقبني كظلي، ولكني أجبرت أن أحني رأسي كل صباح أمام تمثال كامل الحجم للرئيس ماو المقام في وسط قريتنا عند مفترق الطرق. وعلى الرغم من أنني قررت أن أهون الأمرعلى نفسي كنت أنهي التحية بالبكاء دوما. كنت أعتبر نفسي طوال الوقت وحتى اعتقالي المنزلي واستجوابي خبيرة في التعامل مع المصائب بعد سنوات من ارتداء ملابس أخي القديمة ونظارة أخي الثاني التي لا تناسبني، بعد رحلات التسول مع والدتي، بعد العيش على الإعانة الاجتماعية وتحمل شتائم الحرس الأحمر. مع ذلك، لم يكن هناك أسوأ من تلك المعاملة اللاإنسانية التي عاملني بها تسوي وجاو والآخرون الذين أفسدوهما كي يقوموا بالعمل نيابة عنهما. في إحدى ليالي شهر يوليو الحارة بعد عدة أيام من عيد ميلادي الثامن عشر، قضيت

الساعات من الأرق والاكتئاب. قررت أن هناك طريقة واحدة للخلاص. دفعت شبكة البعوض جانبا، نهضت من سريري بهدوء وتسللت من المهجع، زحفت خلال الظلام الرطب كما لو كنت مغشيا علي متجهة إلى نهر سانلونج حيث زحفت إلى الضفة وخضت في الماء.

كان النهر عميقا وسطحه كحجر الحبر - صقيلا وأسود. انحشر بالطين بين أصابع قدمي واصطدم التيار القوي بركبتي. وقفت مأخوذة بالسكون ورائحة الماء القوية والتربة المنبعثة من حقول الأرز. ظننت أن كل ما أحتاجه دفعة باتجاه التيار ليغطس رأسي ويتدفق الماء إلى اقاصي رئتي وينتهي الأمر بسرعة.

غمرني الماء حتى خصري وسمعت أصواتا روحانية تطفو نحوي. لا بد أن الليلة الحارة قد دفعت الآخرين من أسرتهم، وعندما تجهزت للغطس لاحت في خاطري ذكرى، قبل عدة سنوات رأيت جثة غريق سحبت من خليج سوجو قرب بيتنا. كانت الجثة منتفخة إلى درجة أنها مزقت القميص وتمزق ساقا البنطلون عند درزة الخياطة.

تصورت جثتي ملقاة كقطعة من الخشب المجروف إلى ضفة النهر وأطرافي منتفخة كالنقانق ووجهي كالعجين. سيتعامل الغرباء مع جثتي ويرمونني في عربة للتخلص منها.

استدرت وقاومت التيار إلى ضفة النهر، مقتنعة بأن الحياة سجن لا يشكل حتى الموت مهربا منها.

إذا كان السجناء في بداية استجوابي وضيعين معي وظالمين لي فإن بعضهم الآن حاول أن يصحح خطأه. نظروا إلي بتعاطف،

كلما كنت أغتسل أو أغسل ثيابي طأطأوا رؤوسهم، والعم العجوز الأشيب الذي كان يعمل في بيت المضخات أعطاني أنبوبا موصولا مباشرة بالمضخة لكي لا أضطر لجلب الماء من الجرار. شكرته في كل مرة ولكني لم أتعرف على اسمه.

وكلما تأخرت عن ملء «الترموس» بالماء الحار من كوخ التموين يأخذها أحد السجناء ويملؤها من كوخهم، كان دائما يرفض نقودي ويقول «لست بأحسن حالا منا الآن». ورغم أنني قدرت عطفه، فغالبا ما بكيت عندما فكرت أنني في مستوى المجرمين نفسه.

انتهى الفصل الحافل لزراعة الأرز ولكن لم يصل أي خبر حول مدة سجني.

وهكذا أصبحت منطوية على نفسي. عندما لا أكون مشغولة في حقول الأرز ألتزم السرير معزولة تحت شبكة البعوض. في أوائل شهر أغسطس عندما خف عملنا قليلا وأصبحت أستطيع التنفس بسهولة أكثر. أصبت بالملاريا وهو مرض شائع كالزكام في الشتاء. أضافت جيا - ينج بطانيتها إلى بطانيتي، لكن القشعريرة زحفت إلى عظامي واستلقيت منكمشة كالكرة حتى بلل العرق ثيابي. وفي الفترات بين النوبة والنوبة كنت أستلقي ضعيفة ومنهكة بانتظار هجمة أخرى. أصيبت الكثيرات منا بالمرض إلى درجة أن أرسل فريق طبي إلى المزرعة من شنغهاي قبل أن تخرج الملاريا عن السيطرة، وطلب منا جميعا أن نقتل كل بعوضة تحت شباكنا قبل أن ننام.

مضى الصيف ببطء. في الخريف دعا تسوي وجاو إلى اجتماع لإعلان الأحكام التي صدرت ضدنا نحن «المتآمرين المعادين

للثـورة». حكم علـى كل منـا بسنتـين. قـال تسـوي يجب أن نعـتـبـر أنفسنا محظوظين لأنه وجاو أوصيا بخمس سنوات. كان الحكم «نصف نهائي» بانتظار تصديق مكتب إصلاح عمل شنغهاي التابع حينها لقيادة القوات الجوية رقم ٤.

في تلك الليلة وفيما كنت أكتب إلى عائلتي لأخبرها أن آه - سي ستذهب إلى السجن، كانت كل البنات في المهجع يتحدثن عن مأساة أكبر. كان هسياو جيان، أحد الشبان الثلاثة الذين حكم عليهم أيضا، وهو ابن رجل اشترك في المسيرة الطويلة الأسطورية.

وعندما علم أن ابنه وصم بأنه معاد للثورة، أمر كل فرد في العائلة أن يقطع صلته به. ادعى أن «هسياو جيان» هو الذي «أعمى عينه اليسرى»، مشيرا إلى عاهة أصيب بها في المسيرة. وفي حزنها وعارها شنقت والدة هسياو جيان نفسها في خزانة.

وبعد فترة قصيرة علمت كيف أثرت «جرائمي» على عائلتي. قضى الأخ الثاني سنتين وهو يحاول الانضمام إلى الحزب الشيوعي، الذي كان ممتنا له لمساعدته خلال المعارك الفئوية بين العمال في شنغهاي عندما نجا من الحبل بصعوبة. وفي النهاية تم قبول طلبه، وأخيرا ظن أنه سينجو من ظلال خلفيتنا الطبقية السيئة. ولكن عندما اكتشف أن له أختا معادية للثورة، تلاشى آخر بصيص من أمل لديه. ثار غضبا ولم يخف ذاك الغضب فكتب لي رسالة قال فيها: «أنذرتك أن تبتعدي عن المشاكل، من الواضح أنك لم تستمعي وعلي أنا أن أدفع ثمن أخطائك». إذا كان أخي ومستشاري يلومني بتلك الطريقة بتصديقه من اتهمني، فماذا ستقول العمة الكبيرة «الثورية»؟ شعرت أن عائلتي تخلت عني.

تم إلغاء زيارتي للبيت في فبراير لأنني كنت لا أزال أنتظر الحكم النهائي. قال تسوي بسخرية عندما غادرت مكتبه «أخشى ألا يستطيع الممثل هوانج مساعدتك هذه المرة».

فزعت من فكرة ذهابي إلى السجن وأخفيت الخبر عن الأخ الأكبر والأخت الصغرى.

لم أكن قد رأيت مجرما حقيقيا حتى وصلت إلى المزرعة. في طفولتي تصورت المجرمين كغيلان خضراء الوجوه وطويلة الأسنان.

كيف أستطيع أن أقول لأخي الأكبر وأختي الصغرى - اللذين يعانيان من مشاكلهما الخاصة - أنني سأكون قريبا خلف القضبان؟

عندما حل ربيع ١٩٧١ شعرت بهدوء غريب. فقد أصبحت لا أعني شيئا لأشخاص مثل «رغيف» و«صاحبة السيقان» و«سمينة». أما بالنسبة إلى الآخرين فقد أصبحت غير مرئية. بينما أصبحت بالنسبة إلى الكثيرين غيرهم مثالا بل تذكرة بالقاعدة القائلة «أطع الأوامر وإلا تُدمَّر».

في ذلك الربيع سرت إشاعات في المزرعة أن سيارة جيب عسكرية قد أتت لتحمل بعيدا ثلاث طالبات من فرقتنا متأنقات في المظهر والملبس. وتحت ستار تجنيد شابات موهوبات لفرق الغناء والرقص جمعت القوات الجوية الشابات الجذابات كخليلات إمبراطوريات للين - لي - جوو - ابن لين بياو الوحيد. لقد أحب لين - لي - جوو أن يحيط نفسه بالعذراوات الجميلات، وكأنه امبراطور، بل، كما اكتشف بعد سنوات كثيرة فيما بعد. كانت العملية نوعا من مسابقات الجمال. انتخب ممثلو جيش التحرير الوطني المرشحات من كل فرقة بعد تحري

خلفياتهن السياسية. كان الصفاء السياسي المعيار الأول يتلوه الجمال. ولكن النساء الثلاث من فرقتنا عدن بعد ظهر اليوم التالي مكتئبات، لقد رسبن في الاختبار.

في ذلك المساء، وبعد انتهاء الدراسة السياسية مباشرة، تحلقت النساء في المهجع حول إحداهن - هسياو هونج - كسرب من العصافير. إلى أين أخذها الجنود؟ ماذا حدث؟ هل رأت لين - لي - جوو حقا؟

كانت هناك هيئة محكمين من سبعة أشخاص لاختبارها. قالت هسياو هونج «كانوا كلهم يرتدون البزات العسكرية، أخبرت أنني طويلة جدا وكبيرة جدا وأن قدمي طويلتان وعريضتان!» انتحبت قائلة «كيف يتوقعون أن تكون أقدامنا صغيرة وهم يعرفون أننا نعمل حافيات القدمين في حقول الأرز لأكثر من ستة أشهر في العام؟ لماذا يفضلون الأقدام الصغيرة؟ أليست هذه فكرة إقطاعية جرت إدانتها منذ زمن بعيد؟ انظرن إلى النساء في الملصقات في أي مكان، ألسن جميعا كبيرات وقويات؟».

سمعت هذه المحادثة وأنا مستلقية على سريري. في وقت ما، كنت أنا أيضا لأصاب بالدهشة لو علمت أن جيش التحرير الوطني ينخرط في الممارسات السيئة، ولكن تسوي وجاو علماني خلاف ذلك. أما أن يكون المسيئون هم القادة أنفسهم فقد كانت تلك ضربة للقليل من المثالية التي ما زلت أحتفظ بها. إذا كان القادة فاسدين إلى هذا الحد ومنافقين إلى هذا الحد، فكيف يكون أي فرد في مأمن؟

استأمنتني جيا - ينج من السرير المجاور لسريري قائلة «هل تعرفين شيئا ياهسياو - يي؟ لو كنت من خلفية عائلية حمراء لكنت المرشحة المثالية».

أجبتها قائلة - على رغم أنني شعرت بالغرور بعض الشيء - «لا تكوني حمقاء!».

تساءلت كم امرأة من مزرعة السجن يمكن أن تغتنم الفرصة لتهرب من المزرعة وتعود إلى الحضارة وترتدي ثيابا أنيقة وغالية وتأكل الطعام الغني والمعد بعناية وتستمتع بالأوساط الفخمة، والأهم من كل ذلك تعيش دون مضايقات سياسية الدوافع. تاريخيا، كان للرجل صاحب الثروة الكافية زوجة رقم ١، وهي الزوجة الرسمية والأقوى، ولكن له زوجات تأتين بالمرتبة الثانية أو خليلات ذوات وضع رفيع يحسدن عليه. هذه العادة انتهت مع التحرير والرجال أصحاب العلاقات بأكثر من امرأة واحدة اعتبروا رسميا فاسقين وكريهين، أو هكذا تعلمنا.

ألحت علي جيا - ينج قائلة «هل تذهبين لو سنحت لك الفرصة؟».

رغم أنني كنت في الثامنة عشرة، لم أكن أعرف أي شيء عن العلاقة بين الجنسين. فمثل كثيرات من عمري كنت أجهل كل شيء عن العلاقات الجنسية، أو كيف يتم الحمل بالأطفال أو ولادتهم. كنت أدرك أن كون الفتاة خليلة للين - لي - جوو هو فجور وفسوق، ولكنني لم أدرك ماذا يترتب على مثل هذا الدور.

«حسنا، هل تذهبين؟».

وكما أصبحت أعرف الآن، هناك ثلاث طرق فقط للهروب من النفي مدى الحياة في هذا المكان المهجور والمليء بالنزاعات:

الانتحار أو السجن أو الاختيار كخليلة. حاولت الأولى، والثانية تراءت لي الآن.

همست قائلة «نعم».

قالت جيا - ينج «وأنا كذلك».

منذ عودتها من زيارة البيت في فبراير الماضي تغيرت جيا - ينج. أصبحت أكثر جرأة الآن - الوحيدة التي تتحدث إلى مباشرة - ولم يبد أن شيئا يخيفها ولا حتى تسوي وجاو. افترضت أن هناك شيئا ما في الجو عندما نقلت إلى فريق زراعة الخضار، وهي مهمة اعتبرناها جميعا هبة السماء. في العادة لم تمنح هذه الميزة إلا لأثيرات ممثلي جيش التحرير الوطني.

بعد شهرين ظهرت والدة جيا - ينج في المزرعة فأدهشت الجميع، لأن زيارة الوالدين للمزرعة شيء غير معهود. وسرعان ما أعلمت الجميع أن أختها الصغرى - خالة جيا - ينج متزوجة من لي - جنج - داو (لي - تسونج - داو كما يعرفه الغرب) وهو عالم صيني - أمريكي منح في ١٩٥٧ جائزة نوبل في الفيزياء إلى جانب صيني - أمريكي آخر وهو يانج - تشن - فنج. خلال الطور الأول من الثورة الثقافية عملت هذه «العلاقة الأجنبية» ضد عائلة جيا - ينج مسببة لهم شقاء لا يوصف، ولكن الآن - مع تحسن العلاقات الصينية - الأمريكية مع زيارة الرئيس نيكسون المرتقبة، انقلبت حظوظ العائلة وعادت إلى مسكنها الأصلي الذي أبعدت عنه قبل عدة سنوات.

الحكومة نفسها التي شجعت الحرس الأحمر على سلب وضرب وقتل العائلات، كعائلة جيا - ينج، أصبحت الآن «تتطلع إلى الأمام

وتنسى الماضي» بسبب تغير العلاقات مع الولايات المتحدة. وعلى رغم أنها كانت صديقتي وكنت سعيدة لأجلها، فقد حسدتها على هذا الحظ السعيد غير المتوقع.

بعد أسبوع أو نحو ذلك، سرت الأخبار بأن امرأة من الوحدة الثانية قد اختارتها لجنة التحكيم لاختيار العذراوات الشابات للين - لي - غوو. وبعد اجتماع وداع عظيم استرخت في سيارة جيب تنقل من قرية إلى أخرى تلوح للجماهير كملكة، ثم أرسلت إلى مدينة جوانج - جو حيث يعيش لين الشاب.

قالت لي جيا - ينج ونحن نشاهد الموكب «قلت لك ذلك. في عائلة تانج فقط توجد نساء طويلات وكبيرات يعتبرن جميلات، لهذا السبب رفضوْا هسياو هونج».

تمنيت لو أحضرت نظارات أخي الثاني معي لكي أتمكن من رؤية سبب الهرج والمرج. كل ما استطعت اكتشافه هو أن فتاة شابة أنيقة بجاكيت أزرق حشرت بين ضابطين على المقعد الخلفي في سيارة جيب. في المجتمع الذي يعتبر فيه الجمال بورجوازيا، وحيث شجبت الأنوثة وحيث ارتدت النساء والفتيات بدلات زرقاء أو رمادية، وقصصن شعرهن قصيرا (ما لم يكنّ شابات) وحاولن جاهدات ليظهرن ثوريات، لم تحمل كثيرات من النساء المرايا. فأنا كنت أستخدم زجاج النافذة لأضفر شعري.

قالت لي العمة الكبيرة ذات مرة «يحتاج الإنسان إلى الملابس الفاخرة كما يحتاج تمثال بوذا إلى الطلاء الذهبي لزيادة تألقه». ولكنني كبرت وأنا أرتدي ملابس إخوتي الرثة. كيف أكون جميلة كما قالت لي جيا - ينج؟ لم يلمّح أي شخص آخر إلى أنني

جذابة، وإلى أن أبدت صديقتي تلك الملاحظة لم أفكر أبدا في حقيقة كيف أبدو للآخرين، وخصوصا الفتيان، في ذلك المساء استعرت مرآة جيا - ينج. وفي الخارج حيث النور الباهت ألقيت نظرة طويلة على ملامحي، حذرة أن يراني أحد، رأيت امرأة شابة ذات ضفائر سوداء فاحمة، ووجه بيضوي وأسنان منتظمة، وعينين واسعتين ذات جفنين منثنيين. كانت الأجفان المنثنية تعتبر أجمل من الأجفان غير المثنية في كل من الصين واليابان.

ظننت أن المرأة التي نظرت إلي من المرآة الصغيرة ليست جميلة، ربما لطيفة الملامح، وبالتأكيد ليست قبيحة ولكن ليست فاتنة.

تذكرت رحلتي الأولى في الحافلة إلى المزرعة. لأنني لم أكن أعرف أحدا، جلست وحيدة فوق مقعد لشخصين، عندها تنافس الفتيان للسقوط «عرضيا» على المقعد المجاور لي. ولأنني كنت مستغرقة في مشاعري حول مفارقتي لعائلتي، لم أعر الأمر أي اهتمام، في ذلك الوقت، ولكنني أتساءل الآن عما إذا كانوا هم أيضا قد وجدوني جذابة: هل هذا هو السبب الذي جعل البعض في فرقتي ينادينني «ميلا» باسم امرأة جميلة في السينما الألبانية. لم آخذ الأمر بجدية، ، ولكني على الأقل لم يكن ليَّ أرداف سميكة ولا نهدان كبيران مثل ميلا، فمعايير الجمال الصينية تفضل النهدين الصغيرين والمؤخرة المسطحة.

قلبت المرآة، ماذا على أي حال؟ فالمرأة ذات الدم السيئ مثلي يمكن أن تكون جميلة كالآلهة ولكن لن يخبرها أحد بذلك.

عندما دلفت إلى عامي التاسع عشر، في صيف ١٩٨١، كانت رذائل لين - لي - جوو قد انتشرت بين ممثلي جيش التحرير الوطني.

وكان لاوتشانج قد حذرنا عندما وصلنا إلى المزرعة للمرة الأولى أن ضرب المواعيد ممنوع، وتحت قيادة تسوي وجاو، كان أي نوع من العلاقات، وحتى الصداقة عرضة للاضطهاد، فلا يستطيع الرجال والنساء زيارة بعضهم البعض في مهاجعهم. وعندما دفعنا الجو الحار إلى الخارج في الليل، قاد الممثلون فرق البحث تحت الجسور وعبر الغابات بحثا عن الأزواج. وأي زوج يكتشف يُعرَّض لإذلال وانتقاد تسوي وجاو أمام الفرقة بكاملها.

في أحد اجتماعات النقد قرأ تسوي رسالة من جين باو إلى صديقها وانج - هوا - شان الذي كان أخوه متزوجا من أخت جين. كانت الرسالة قد سرقت من وانج وأعطيت إلى تسوي، الذي قرأ كلمات جين باو بصوت عال وغنائي ونظرات خلاعية وحركات تقليدية مستمدا السخرية والضحك من بعض الجمهور. قرأ يقول «شكرا للإله أن دورتي الشهرية قد ابتدأت أمس». خجلت النساء بالقرب مني من هذا التصريح المريك ولكننا جميعا، كما هو متوقع ومطلوب، سرعان ما صرخنا بصوت واحد «ليسقط المتشرد وانج - هوا - شان!»، وفي اليوم التالي نقل وانج إلى مزرعة فرعية أخرى.

بعد بضعة أسابيع دعينا جميعا للاجتماع. وفي طريقنا إلى المستودع، أجبرنا على السير في صف واحد أمام طاولة وضع عليها صحن وإشارة «يرجى عدم اللمس» جنبا إلى جنب. رأيت في الصحن شيئا أبيض لا شكل له كبالون أخلي من الهواء. وبجانب الطاولة وقف يانج - أطول رجل في القرية مطأطئ الرأس.

في الاجتماع دعا جاو يانج ابن زنى قذر لامتلاكه كيسا لمنع الحمل. عندئذ سُمِيت صديقة جانج وشُوهت سمعتها. وفي اليوم التالي أخفقت الصديقة في محاولة الانتحار.

كانت كل هذه الاستقامة التي أبداها تسوي وجاو ظاهرية، فكثيرا ما رأيناهما من خلال نوافذ وأبواب البيت الآجري المفتوحة وهما يتمددان على ظهريهما، في حين أخذت الفتيات اللواتي يستخدمن قطعتي البنسان النقدية المصنوعة من الألمنيوم تقتلعن الشعر من ذقنيهما. لم يلاحظ ممثلا الجيش ولم يغدقا الدلال إلا على الطالبات اللواتي أظهرن استعدادهن للمنازلة. وفي أكثر من مناسبة صرخت بعض النساء، وعرفنا فيما بعد أن هؤلاء النساء استرددن إذن الإقامة في المدينة كمكافأة لهن على الإجهاض والسكوت على ذلك.

في الوقت نفسه كنت لا أزال أعيش في قلق متسائلة ماذا ستكون عقوبتي؟ بالسجن! وفي أحد الأيام وصل الأمر. استدعي الخمسة المتآمرون والمعادون للثورة أمام الممثلين. كان يوما حارا ورطبا من أيام يوليو، وكانت المروحة على طاولة تسوي تقعقع عبثا. وقفت ويو وجو وتشيان وجيان ورؤوسنا مطأطئة عندما قرأ جاو باختصار من الورقة التي في يده.

«نظرا لتشكيل عصبة مضادة للثورة ومحاولة تدمير جيش التحرير الوطني فقد حكم عليكم لمدة سنتين، وعلى الجماهير التنفيذ والإشراف على هذا الحكم».

كدت لا أصدق أذني، أطبقت شفتي لمنع أي تعبير يبدو عنهما، جاهدت لأمنع نفسي من النظر إلى أصدقائي. شعرت بالهبوط

فجأة. لن أرسل إلى السجن، فالتهمة والحكم سيسجلان في ملفي، سأخسر زيارة البيت لمدة سنتين، وهذا ما آلمني إلى الأعماق. ولكن «الإشراف الجماهيري» يعني أنني سأستمر كما كنت منذ إطلاقي من الاستجواب، أعمل كالعادة تحت الرقابة الاسمية لأي كان. إن توصية الممثلين بالسجن نقضت في المستوى الأعلى.

أرسل أصدقائي الأربعة إلي وحدات مختلفة ولم يسمح لي بتوديعهم، ولولا جيان - ينج لشعرت بالوحدة التامة.

كان تسوي دائما يقول إنه «من الأفضل أن تحصد الأعشاب البروليتارية عن أن تَبْذر البذور الرأسمالية». في ذلك الخريف حصل تسوي على ما يريد. كان موسم الأرز سيئا لدرجة أن لاوتشانج قال إن الحكومة ستتكلف مالا أقل لو تركتنا نجلس دون عمل، ذلك أن المحصول كاد ألا يعوض استثمار البذور والمعدات والسماد، ناهيك عن أجورنا وشهور العمل.

بالنسبة إليَّ عوضت الأخبار السارة رداءة الموسم. كان يوم ٢٤ سبتمبر ١٩٧١ يوما خريفيا رقيقا أنعشنا بعد فصل طويل من الحرارة والرطوبة. عندما استيقظت في ذلك الصباح سمعت أحدهم يصرخ خارج المهجع.

اندفعت إلى الخارج أفرك النوم من عيني، وقف شاب أمام بيت الممثلين الآجري ويداه كالفنجان أمام فمه، وهو يصرخ «لقد ذهبوا! لقد ذهبوا!».

بدأ الناس الركض نحوه، تراجعت إلى الخلف خائفة من خدعة، ولكن عندما تجمع الكل حول المنزل التحقت بهم، كان البناء خاليا ومجردا من الأثاث والملصقات، وحتى من صور ماو ولين بياو. تساءل

الجميع «إلى أين ذهبوا؟» ولكن أحدا لم يعرف. كان هناك الكثير من التخمينات غير أني أبقيت فمي مغلقا تماما.

استمر التخمين والإشاعات لمدة أسبوع حتى إذا سرنا إلى الحقول في أحد الأيام وقف الممثل هوانج من حامية شنغهاي في سيارة جيب ومعه ضابط لم أره من قبل. طلب هوانغ منا جميعا - باستثناء السجناءِ - أن نذهب إلى المستودع في الحال لاجتماع مهم.

عندما اجتمعنا جميعا في المستودع لم يضع هوانج الوقت «لقد توفي المجرم لين بياو وزوجته وابنه، سقطت الطائرة التي جندوها لهروبهم إلى الاتحاد السوفييتي على مشارف منغوليا».

لم يتكلم أحد منا فقد كان الخبر كالصاعقة. للمرة الثانية يدعى الرجل الذي تعلمنا أن نحترمه «كومة عفنة من روث الحيوانات». كل ما علمناه، أنه قبل ثلاثة أسابيع هرب لين عندما اكتشفت مؤامرته لاغتيال ماو والاستيلاء على الحكومة بانقلاب عسكري.

تابع هوانج كلامه محذرا إيانا بألا نتكلم عن هذه الأحداث. فهناك تحقيق رسمي يقوده رئيس الوزراء شو إين لاي بنفسه، ولما كانت مزرعتنا تحت سلطة لين بياو وشكلت جزءا كبيرا من مخططاته كقاعدة،فإن حياة بعض الناس كانت في خطر. عندما قال هوانج هذه الكلمات اتجه الكثيرون بأنظارهم نحوي، حدقت بنظري نحو الأمام وأنا أشعر بالحذر يسري في جسدي خوفا.

وهكذا بدأت حركة أخرى، حملة تصحيح تنتقد لين بياو، وامتلأت ليالينا بالدراسة السياسية، نقرأ ونناقش الوثائق التي تدين لين بياو ونشاطاته المضادة للثورة. الآن ألحقت كل ا لحماقات

الشريرة للثورة الثقافية التي نفذت في مزرعتنا - من إهمال الحقول إلى وشاية الأصدقاء على بعضهم - بلين بياو وممثلي جيش التحرير الوطني الراحلين، وحتى «صاحبة السيقان» تبجحت بأنها كانت لديها بعض الشكوك بالممثلين عندما لعبت دورا في التحقيق معي ومع أصدقائي. أخذت أغلي من النفاق، لم يكن لين بياو بل الأناس حولي هم الذين اضطهدوني.

وفي النهاية أحضرت وأصدقائي الأربعة لاجتماع إعادة تأهيل في المزرعة الفرعية ألقي اللوم على الأموات لمعاملتنا السيئة، ولكن التبرئة كان لها طعم الرماد في فمي، لقد ضاعت براءتنا وصداقتنا وصدقنا. لم يتحدث أي منا حول ما حدث أوعما قلناه وما كتبناه تحت التعذيب، ولم يناقش أي منا اعتقالنا. أردت أكثر من أي شيء آخر أن أخبر يو - هوا وهسياو جيان وهسياو تشيان وهسياو جو بحقيقة ما قلت وما فعلت أملا في غسل الصدور. التمست مغفرتهم على رغم أنني كدت أنسى «ما اعترفت به».

خلال زيارتي للبيت في ذلك الشتاء اشترى لي أخي الثاني راديو ذاموجة قصيرة ومجموعة من كتب اللغة الإنجليزية المنشورة حديثا. كانت الهدايا طريقته لإظهار اهتمامه بما عانيته، والاعتذار عن الرسالة التي انتقدني فيها لإضاعة فرصة للانضمام إلى الحزب.

قال «بدأت محطة إذاعة شنغهاي ببث دروس باللغة الإنجليزية كلغة إيجابية تجاه الولايات المتحدة. كنت دائما تحبين اللغة الإنجليزية يا آه - سي، وهكذا يمكن أن تتابعي تعلمها».

أمسكت الكتب بين يدي ولكني لم أستطع أن أتكلم لأن حنجرتيَ تأججت بالعواطف. لقد تأثرت بكرمه، كنت أعلم أنه لا يزال يسدد المبالغ التي اقترضها ليساعد أختي الصغرى ويساعدني للإعداد للذهاب إلى الريف.

ولكنني امتلأت أيضا بالحزن لأنني لم أستطع أن أجبر نفسي على إخباره تفاصيل محنتي أو ما فعلته بأصدقائي. كما أن العمة الكبيرة لم تكن عونا على ذلك. فحتى هي كانت تردد كيف كانت دائما تكن شعورا سيئا حول «طبيعة لين بياو التآمرية» وادعت أنه يحمل «سمات الأشباح بعينيه الصغيرتين المثلثتين القابعتين تحت حواجب كثيفة. لقد كان ذلك الوجه الشاحب المبتسم يصيبني بالقشعريرة دائما». الإدراك المتأخر يمكن أن يعمي المرء.

بعد شهرين من عودتي إلى المزرعة وصلت الأخبار بأن هناك نقصا في الأيدي العاملة في شنغهاي - من الباعة إلى منظفي الشوارع ومن حراس السجون إلى المدرسين. لقد أدت فوضى الثورة الثقافية إلى موت الكثيرين منهم انتحارا أو ضربا أو في المعارك ناهيك عن مئات الآلاف ممن أرسلوا إلى الريف. عرفنا أنه سيتم اختيار بعضنا للعودة إلى المدينة لشغل بعض الوظائف عندها ضجت المزرعة بالانفعالات والتكهنات؛ وكل واحد منا يحاول أن يكبح جماح آماله، فقد علمتنا التجارب أن الأمل أصل الخيبة، واعتقد البعض من حولي أن لدي فرصة لأصبح مدرسة؛ لأن الخلفية الطبقية الصافية ليست ضرورية لهذا الدور (وهنا تكمن المفارقة المضحكة). ولأخفف عني خيبة حلم لن يتحقق كبحت بدوري جماح حماسي. اختيرت يو - هوا لتكون حارسة سجن.

وعندما أسندت لجيان وتشيان وجو وظائف تعليمية، بدأ الأمل ينتعش في قلبي. أخذوا يهذون من الفرح وبدأوا في حزم حاجياتهم وغادروا المزرعة نهائيا. ولكن أربعتهم كانوا طلبة «حمر» ولم أكن كذلك. قال ممثلنا الجديد، منج، إنني يجب أن أبقى في المزرعة، وشرح ذلك قائلا إنني بحاجة إلى المزيد من المصاعب لأتغلب على «ضعفي البورجوازي».

خلال عام ١٩٧٢ سيطرت على ا لمزرعة قيادة مدنية مشكلة حديثا، كبديل عن ممثلي جيش التحرير الوطني واللجان المشكلة من الطلبة أنفسهم. انتقلنا عبر النهر إلى البيوت ذات الجدران الآجرية والسقوف القشية - وهذه تشكل نقلة نوعية عن المباني القشية الرطبة التي أمضيت فيها السنوات الأربع الأخيرة.

قضيت أوقات الفراغ القليلة المسموح لنا بها في السرير أستمع إلى الراديو الجديد وأدرس اللغة الإنجليزية. وعلى رغم أنني تأملت وشعرت بالمرارة وكنت وحيدة فإنني توصلت إلى سلام ذاتي. زميلاتي بالغرفة شعرن بالشفقة عليَّ وتركنني وحدي أو سخرن مني لحمل الماء بالغربال - أبدد وقتي في دراسة لغة لا فائدة منها. لم يفهموا أنني أردت أن أترك وحدي وأبقى بعيدة عن المشاكل. ولم يعرفوا كم تعطشت إلى الحب والصداقة.

بعد شهر أو نحو ذلك من مغادرة أصدقائي الأربعة تلقيت رسالة من هسياو تشيان، الذي كان يتدرب ليصبح مدرس تربية بدنية، كانت رسالة غرام. قال إنه أحبني لسنوات، والآن وقد أصبح محظوظا لعودته إلى شنغهاي ولحصوله على إذن للبقاء في المدينة فقد شعر بأنه يستطيع أن يخبرني بما يعتلج في صدره.

شعرت بالاضطراب، خصوصا عندما تذكرت الأشياء الرهيبة التي كانت تحدث عندما تنكشف علاقة ما في المزرعة، ومن جهة أخرى، كانت حالتي الذهنية على حد كبير من القلق جعلني بصورة غريزية أعتبر تصريحه بالحب نوعا من الشوفينية. والآن فقط - وقد أصبح في وضع أفضل من وضعي اقتصاديا واجتماعيا - يستطيع أن يكشف عن حبه لي. لم أكن بحاجة إلى شفقته، لم أجب ولكني احتفظت بالرسالة.

وفي أثناء زيارتي للبيت في يناير ١٩٧٣ جاء إلى هسياو تشيان لزيارتي في البيت، وحثني ثانية على أن أصبح خطيبته. أخبرته أن بإمكاننا أن نبقى أصدقاء ليس إلا. أكد لي أنه مستعد للتخلي عن منصبه التعليمي وإقامته في المدينة والعودة للعيش في المزرعة إذا كان ذلك يرضيني. ومع ذلك قلت لا، ذلك أنني لم أكن مستعدة لأي علاقة.

قال متسائلا «ماذا تريدين أكثر من ذلك؟».

«لا أعرف ما أريد».

بعد ذهاب هسياو تشيان «انتقدتني العمة الكبيرة، إذ ظنت أنه شاب عظيم». لقد زارها مرتين منذ وصوله إلى شنغهاي محضرا لها أحلى التمور التي لم تتذوقها منذ سنوات.

سألتني قائلة «ما مشكلتك يا آه - سي؟ أين يمكنك أن تجدي هذا النوع من الرجال في هذه الأيام - وسيم ومهذب؟ فكري في التضحية التي يقدمها من أجلك؟».

ألحت عليَّ في الليل والنهار قائلة إنني مخلوق غريب لا يستطيع التمييز بين الخطأ والصواب وبين السيئ والجيد. وأخيرا أحسست

بأنني لن أطيق المزيد فصرخت قائلة «إذا كنت تحبينه إلى هذه الدرجة فلماذا لا تحتفظين به لنفسك؟».

«كنت أعلم ذلك، كنت أعلم ذلك، فمنذ أن خرجت من الباب قبل خمس سنوات عرفت أنني سأفتقدك إلي الأبد، لم تفعل تلك المزرعة شيئا سوى ملئك بالبؤس والحقد، والآن تعتقدين أنه قد جاء دورك لتعاملي الآخرين بالطريقة نفسها. هل تعتقدين أنني سأهتم إن انتهيت عجوزا عانسا مثل...».

توقفت. كانت العمة الكبيرة تُعْرف بـ «العجوز العانس» في جادتنا. وكانت تدرك تماما تلك الإهانة المؤلمة.

لربما كانت على حق، لقد تغيرت، لقد أصبحت مخلوقا باردا من دون إحساس، غير ملائم لهذا العالم. بعد كل الاضطهاد والشتائم والكذب والخيانات لم أعد أعرف كيف أتعامل مع قضايا القلوب كالحب والثقة.

عندما قابلت الأخت الصغرى في محطة القطار بعد بضعة أيام كانت كل منا في الحضيض. كنا أسرى المزارع التي عملنا فيها، نرقب بإحباط يائس حياتنا تمر أمام أعيننا وزميلاتنا في المزرعة يغادرن إلى وظائف في المدينة، يحصلن على إذن الإقامة فيها عن طريق الوساطات والعلاقات أو مكافأة لخلفياتهن السياسية الصالحة. ومع ذلك اتفقنا على أن نجعل من عطلتنا نصف الشهرية حادثا بهيجا، وخصوصا أن أخي الأكبر سيتزوج، سيكون اجتماعنا الأول كعائلة منذ أن أرسلت إلى المنفى في عام ١٩٦٨.

كان زواج أخي الأكبر ثمرة ترتيبات زواج وخدمة بريدية. كنت حزينة لأن أخي الأكبر يتخلى عن إيمانه بالحب. تذكرت حديثه

خلال سنته الأولى في الجامعة مع والدتي التي كانت تقوم بترتيبات زواجه في السر. كان أخي شديد الانزعاج، وقال لها إن الزمن قد تغير وأن الحكومة تشجع التخلي عن العادات الاقطاعية كترتيبات الزواج. أقسم أنه سيختار زوجته ويتزوجها عن حب.

ولكن في الوقت ذاته حرم نفسه (وهو الحاد الذكاء وصاحب المستقبل الواعد في يوم من الأيام) من إقامته في شنغهاي وأرسل إلى منطقة جبلية متخلفة نائية في مقاطعة كويجو ليعمل في ورشة إصلاح أدوات. وهناك واجهته الحقيقة؛ إذا تزوج فتاة محلية فعليه أن يقضي بقية حياته هناك وكذلك أولاده. لن يرانا ثانية؛ لأن سياسة زيارة البيت لن تطبق عليه.

ولذلك وافق أن يتبادل الرسائل والصور مع فتاة شابة اسمها يو - تشن تعيش في شنغهاي.

كانت الترتيبات بكاملها مقامرة. لم يعرف أحد متى سيستطيع الاثنان العيش معا في حال حدوث ذلك. ولكن الزواج من فتاة تعيش في شنغهاي كانت فرصته الوحيدة.

أقيم احتفال الزفاف في البيت حيث تناولت العائلتان طعام الغداء معا (في الصين تقع نفقات الزفاف على الزوج) لم أستطع أن أتذكر متى كان هناك هذا المقدار الكبير من الطعام على الطاولة لآخر مرة في بيتنا في جادة أشعة الشمس الأرجوانية.

كان هنالك دجاج مسلوق بالحساء، وبط مغلي بصلصة فول الصويا، وخضار اشترت أختي الكبرى معظمه من السوق السوداء في سونج - جيانج. يجب طبخ الدجاج والبط وتقديمه كاملا -

كما أصرت العمة الكبيرة - ليرمز إلى وحدة العائلة الجديدة. كانت لحظة سعيدة، ولكن قلبي كان مثقلا بالأسى والتناقض. تخلى أخي الأول عن حلمه وفضل زواج مصلحة. تساءلت عما تجنيه زوجته يو-تشن من هذا الزواج. لقد بدت لطيفة بما فيه الكفاية، ولكنها كانت أيضا كثيرة الضجيج ووقحة.

بدا التاريخ كأنه يعيد نفسه. فقد عاش والداي كل على حدة لفترة طويلة بعد زواجهما. نظرت إلى أخي الكبير المبتسم فغمرني الحزن. وجدت العمة الكبيرة في المطبخ وأخبرتها أنني ذاهبة لنزهة قصيرة أستنشق خلالها بعض الهواء المنعش. لا بد أن وجهي قد عكس مشاعري لأنها لم تجادلني. كان الجو مظلما وباردا في الخارج والشوارع شبه مهجورة، ربما لأن الجميع يحتفلون في هذا الوقت برأس السنة، وهو النشاط الرئيسي المتداول.

تجولت في الشوارع لعدة ساعات حيث لم يكن هناك مكان معين أذهب إليه أو أصدقاء أزورهم، وصعقت إذ وجدت نفسي أقف أمام منزل هسياو تشن، وهو آخر مكان أردت أن أكون فيه. جريت من جادته في ذعر شديد.

بعد شهرين كتب لي أخي الأكبر الأخبار السارة وغير السارة. كانت يو - تشن حاملا ، ولكن أدرج اسم زوجته في قائمة الذين سيرسلون إلى العمل في مدينة صغيرة في مقاطعة آنهوي شمال غرب شنغهاي، وهي منطقة متخلفة أخرى من البلاد. هذا النوع من المهمات - المسماة «مشروع الخط الثالث» - كان شائعا جدا (الخطان الأولان هما المصانع في المدن الرئيسية والمتوسطة).

وكما في حالة الكثير من الناس، في تلك الأيام ،لعب القدر خدعته في حالة امرأة أخي. كان والدا يوتشن عاملين. وعندما تخرجت في المدرسة المتوسطة اختارت أن تسجل في مدرسة تجارية ملحقة بالمصنع. هذا الاختيار كان الملاذ الأخير الذي يلجأ إليه الذين لا يستطيعون الانتساب إلى مدرسة ثانوية عادية، وكان ذلك مهينا للطالب وعائلته. ولكن هذا الإذلال تم تعويضه لاحقا عندما رأت يوتشن زملاءها الذين دخلوا المدارس الجيدة يرسلون إلى الريف، في حين أنها بقيت في شنغهاي لكونها عاملة، مما أثلج صدرها وملأها سعادة.

ولكن النعمة قصيرة الأمد؛ فالآن بعد أن تزوجت رجلا في جويجو وحملت منه نقلت إلى مصنع الخط الثالث. استطاعت أن تؤجل مغادرتها حتى يولد طفلها، وعندها غادرت إلى آنهوي حاملة معها طفلها يي - هسياو. وبعد عشرة أشهر أعادته بعد فطامه إلى شنغهاي وتركته برعاية العمة الكبيرة. لم ير أخي طفله بعد.

وهكذا بدأت العمة الكبيرة - وهي في الثالثة والستين من عمرها وتعاني ارتفاع ضغط الدم - ترعى الجيل الرابع من عائلة يي التي تقبلتها وقدمت لها مكانا للعيش فيه قبل أكثر من أربعين سنة. ولكن عائلة يي الآن مشتتة ورعت العمة الطفل وحدها.

في مارس ١٩٧٣ أعيد دنج - هسياو - بنج إلى السلطة كنائب لرئيس الوزراء بعد سنوات من فقدانه للثقة. بعد شهر أظهرت لجنة الحزب المركزية «مقترحات للانتساب للجامعة». أدرك دنج الحاجة إلى المثقفين بعد سنوات من الاضطراب في النظام

التعليمي. وحتى ذلك الوقت كان لمن يعمل في وحدة عمل لمدة لا تقل عن سنتين ويحصل على توصية من قواد وحدته وزملائه العمال أن يدخل الجامعة من دون اجتياز امتحانات قبول جامعية. هؤلاء هم الطلاب «العمال - الفلاحون الجنود».

أعلن بيان دنج أن على مرشحي «العمال - الفلاحين - الجنود» أن يدخلوا الامتحانات، رغم أن درجاتهم لن تكون المعيار الوحيد، فدخول الجامعة يأخذ الاستقامة السياسية بعين الاعتبار».

ظننت أن هذه الخطوات ستساعد على عودة الأمور إلى وضعها الطبيعي مما شجعني على دراستي للغة الإنجليزية، على رغم أنني لم أجرؤ على أن أوقظ الأمل بأن تتاح لي فرصة دخول الجامعة. قبل أسبوعين رفض طلبي للعمل سائقة تاكسي في شنغهاي. فقد أخبرني قائد المزرعة المدني الجديد - صن - أن علي كأصغر الخبيرات في الفرقة أن أسمح للرجال والنساء المسنين أن يعودوا إلى المدينة أولا، لترتيب أمور مستقبلهم. وبدلا من ذلك جرى تعييني كأخت كبرى «لمجموعة من البنات البالغات سبعة عشر عاما من العمر، والقادمات حديثا لإطلاعهن على أساليب الحياة لدينا في المزرعة».

لأيام وليال طويلة، كنت كرجل الإطفاء أخرج جريا من أحد الأبواب لأدخل من الآخر، إلا أنني ذرفت الدموع ولم أخمد اللهيب. تعاطف قلبي مع هؤلاء المراهقات البائسات. كانوا في مثل عمري عندما أتيت إلى المزرعة لأول مرة، وكن مكتئبات وخائفات ومشتاقات إلى بيوتهن. بذلت أفضل جهودي لأعلمهن كل شيء،

من العزق بين نباتات الأرز والحشائش، إلى أفضل طريقة لنشر الملابس لتجنب التلوث بالحشرات. لقد مكنتني خبرتي البالغة خمس سنوات من مساعدتهن مما ملأني بالرضا.

في مايو من العام التالي، علمت أن عشرة أماكن لدخول الجامعة، أحدها لاختصاص اللغة الإنجليزية، قد خصصت لطلبة مزرعتنا.

خفق قلبي في أضلعي، هل تكون هذه فرصتي؟ أو هل كان من الهراء تخيل أن الفرقة ستساندني لدخول الامتحان، على رغم أنني درست الإنجليزية بمفردي لمدة سنتين؟

في الصيف الماضي تقدمت بطلب للالتحاق بجامعة فودان لدراسة اللغة الإسبانية ولكن الفرقة خذلتني مشيرة إلى أحقية الأقدمية.

ولكن هذا الوقت بدا أكثر يمنا. لقد قضيت في المزرعة ست سنوات تقريبا، مما يعني أنني أستطيع أن آخذ راتبي معي إلى الجامعة إذانجحت، ولن أحتاج لطلب المساعدة من عائلتي. ملأت الاستمارة.

أصوات الشابات اللواتي عملت أختا كبرى لهن رجحت العدد لصالحي، إلا أن نجاحي غير المتوقع في تخطي هذا الحاجز الأول أورثني ليالي من الأرق. كانت العقبة التالية تصويتا وخيارا آخر: المزرعة مؤلفة من ٣٠ فرقة، وعلى كل فرقة أن تنتخب مرشحة. على الإدارة أن تختار الآن خمس عشرة مرشحة من الثلاثين لاجتياز الفحص الطبي، تدخل بعده الناجحات امتحان القبول.

شجعني أن الممثل هوانج - الذي أفشل محاولتي للعودة إلى شنغهاي كمدرسة (على الأرجح لأنه وجد أنني كتبت عنه في اعترافي) - لا علاقة له بعملية الاختيار الحالية.

وهكذا رحت أنتظر وأنتظر محاولةً ألا أفكر بالأمر وأنا منحنية في حقول الأرز. بعد ظهر أحد الأيام وأنا أغسل الوحل من ساقي وقدمي، سمعت أن الفريق الطبي قد وصل إلى المزرعة الثانوية. دخلت المهجع وجلست على سريري، أخاف أن أتحرك، وطلبت من إحداهن، أن تحضر لي عشائي من المقصف: لم أشأ أن أغادر المهجع فقد يرسلوا في طلبي. مرت الساعات ولم يأت أحد. أمست القرية أكثر هدوءا وظلمة، وارتفعت دقات قلبي كلما سمعت خطى عابرة. ولكن لم تكن هناك أي أخبار.

استيقظت في الصباح وأنا بكامل ملابسي وقد تملكني صداع أليم. لقد رسبت ثانية. حاولت جاهدة أن أبعد الموضوع عن ذهني ولكن الأمر كان صعبا. جررت نفسي جرا من السرير إلى حقول الأرز.

كنت أحمل رزم شتلات الأرز فوق عمود كتفي عندما حياني رجل منقطع الأنفاس من الجري.

قال من غير تفكير «يا هسياو يي: لقد اتصل أحد الأشخاص من المزرعة الفرعية». توقف ليستنشق بعض الهواء وقال «إنهم يسألون لماذا لم تأتي للفحص الطبي، الأطباء على وشك المغادرة و...».

ألقيت عمود الكتف أرضا مبعثرة شتلات الأرز فوق السياج وجريت نحو حقل الأرز حيث كان يعمل رئيس الفرقة - صن. وحالما رآني صاح قائلا «آه - يي. نسيت أن أقول لك...».

صرخت قائلة «كيف يمكنك أن تنسى شيئا كهذا؟ كيف يمكنك؟».

ركضت وصن إلى المكتب حيث التقطت الهاتف وأدار اليد باهتياج شديد. تحدث إلى عاملة المقسم وطلب منها أن تطلب من الأطباء الانتظار.

«إننا في الطريق» انبرى قائلا ثم أغلق الخط مسرعا «هلمي يا هسياو - يي سنركب دراجتي».

بعد أن انطلقنا بكل ما أوتينا من سرعة ننهب الطرق الترابية وأنا جالسة على طرف النصب القذر لدراجة صن، وجدت نفسي في المستوصف وقدماي وساقاي ويداي ما تزال ملطخة بوحل حقل الأرز، وأنا أتحدث مع مجموعة من الأطباء بأثوابهم البيضاء ممن بذلوا أقصى جهودهم لتهدئتي، ليقوموا بعدها بالفحص الطبي اللازم.

في اليوم التالي كان علي أن أجري فحص الدم في المستشفى، وكانت هذه مشكلة أخرى فقد كان التهاب الكبد منتشرا في البلاد ولم تستثنَ مزرعتنا منه، لهذا وعندما نهضت باكرا في صباح اليوم التالي من دون مأكل أو مشرب طوال الليل حسب أوامر الطبيب، انهالت عليّ النصائح.

قالت هسيا ويانج - إحدى الفتيات الجدد - «قالت والدتي إن السكر يجعل الكبد أكثر لينا، لهذا يحصل مرضى التهاب الكبد على كوبونات سكر أكثر».

شربت كوبا من ماء السكر قدم لي وشعرت حالا بالذنب للغش. وفيما بعد - عندما سحب الأطباء دمي اعترفت بفعلتي.

قال الطبيب «لا تخافي، لدي ابنتان وإحداهما بعمرك، إنها تعمل في مزرعة في مقاطعة هايلو نج جيانج وآمل أن تتاح لها

الفـرصـة مـثلك». ولكنه لم يخبـرني مـا إذا كـان مـاء السكر سيساعدني أم لا.

وهكذا أصبح أمـامـي المزيد من الانتظار، وكنت قلقـة بشـأن الامتحان القادم على الرغم من أنني كنت واثقة من النجاح بعد كل تلك الدراسـة للكتب الإنجليـزية ودروس اللغـة الإنجليـزية التي استمعت إليها من الراديو. ومع ذلك لم تكن الأمور بسيطة ولا واضحة. سمعت قصة جانج - تي - شنج، الشاب الذي قدم ورقـة بيضـاء في امتحـانه في الماضي علي سبـيل الاحتـجـاج. ومنذئذ كانت هناك مقالات وآراء رؤساء تحرير تمتدح عمله وتدين نظام الامتحـان المعاد تقريره مجددا «كهجوم مضاد بورجـوازي» ضد الثورة الثقافية التي تحول دون الفلاحين والبروليتاريين الحقيقيين والتعليم العالي. أصبح جانج فيما بعد، وبدعم من جيانج - تشينج، مسؤولا رفيعا عن بيروقراطية التعليم في منطقته. إلا أنه أزيل من منصبه عندما نُحِّي جيانج تشينج عن السلطة.

بعد ظهر أحد أيام شهر أغسطس استدعيت من حقول الأرز مـرة أخـرى وطلب مني أن أذهب إلى مكتب إدارة المزرعة الفرعـية. هذه المرة تذكرت أن أزيل الطين في إحدى القنوات. أخذني هسياو جاو - الذي يعمل في المقصف - على دراجته، وكان كل ما لدي قلم حبر ناشف.

كانت المزرعة الفرعية هادئة - كعادتها في فترة بعد الظهر من أيام الأسبوع. نزلت عن الدراجة شاكرة هسـياو جـاو، وذهبت إلى المكتب. وهناك وجـهـت إلى غـرفـة في آخـر القـاعـة. تذكـرت يوم

اختبارات دخول المدرسة المتوسطة، حيث كانت الأعلام ترفرف في الهواء خارج الأبنية ومئات الطلبة وعائلاتهم يتحركون في الممرات الجانبية، وقرب صفوف المقاعد التي تكدست في غرفة الصف الحارة الرطبة. كانت والدتي على قيد الحياة عندئذ وكانت القضية الأهم التي امتلكت عقلا شابا كعقلي هي إلى أي مدرسة متوسطة سأذهب. والآن - في الثانية والعشرين من عمري - واجهت أهم اختبار في حياتي. فالنجاح يعني مستقبلا أفضل، والفشل يعني المزيد من البؤس.

دخلت إلى الغرفة الصغيرة حيث جلست امرأتان في منتصف العمر، وشعرهما مقصوص ببساطة بطول شحمة الأذن - خلف طاولتين تروّحان أنفسهما. كانت الغرفة حارة وفاسدة الهواء، انتصب في إحدى الزوايا كرسي مهجور ذو ذراعين ووضعت طاولة وكرسي أمام المرأتين؟ أغلقت ستائر الخيزران لتمنع شمس الظهيرة.

نهضت الممتحنتان، قالت إحداهما التي بدت في الخمسين من عمرها وهي تبتسم «ليس هناك ممتحن سواك. امتحانك هو الوحيد أمامنا».

في توتري العصبي أخطأت كلية دلالة كلماتها. تابعت تقول «أنا المدرسة تشن من جامعة بكين والمدرسة هسو من جامعة تشنج - هوا». أومأت برأسي للمرأة الأصغر سنا والأكثر جدية.

قالت المدرسة تشن «إننا نستقطب طلابا من شرق الصين».

بدأ عقلي بالعمل، «هل تعنين أنكما جئتما إلى هنا لمرشحة واحدة؟».

قاطعتني المدرسة هسيو مشيرة إلي بالجلوس وقالت «هذا لا يعني بالضرورة أنك ستجتازين الامتحان. والآن لنبدأ!».

أعطتني قطعة من الورق كتبت عليها عدة نصوص باللغة الصينية الكلاسيكية وقالت «أرجوك أن تترجميها إلى اللغة المحلية».

سحبت قلمي وبدأت، لم تكن النصوص صعبة. كان فصلي الأول في المدرسة المتوسطة مكرسا لهذا النوع من العمل.

كان اختباري الثاني شفهيا. أعطتني المدرسة تشن نصا بالإنجليزية يدعى «لدينا أصدقاء في جميع أنحاء العالم» وطلبت مني أن أقرأه بصوت عال. لم تطلب ترجمته بل قراءته. إنها قطعة كنت قد قرأتها مرات كثيرة خلال الليل تحت شبكة البعوض لأنها كانت في أحد الكتب التي أعطانيها أخي الثاني فقرأت النص بصوت عال واضح وجهوري.

لم تستطع المدرسة تشن أن تخفي فرحتها بينما حافظت المدرسة هسو على سلوكها الجدي وذكرتني أن أدائي الجيد لا يعني بالضرورة اختياري.

حذرتني قائلة: «قلب أحمر واحد، استعدادان» - أي أن المرء الجيد يجب أن يكون مستعدا للفشل كما للنجاح، وهو قول شائع في أثناء الامتحانات في المدارس.

وقفت وأجبرت نفسي على أن أنظر في عينيها مباشرة. تمتمت قائلة «أرجوك. أرجوك دعيني أذهب إلى الجامعة، قضيت هنا ست سنوات أعمل في حقول الأرز، ألا تعتقدين أنني تلقيت ما يكفي من التعليم من الفلاحين، كما يريد الرئيس ماو؟ أعدك بألا أخذلك أبدا إذا قبلتني».

عندما استدرت وغادرت الغرفة لحقت بي المدرسة تشن، وعندما تصافحنا نظرت في عيني وضغطت على يدي.

في طريق العودة إلى القرية غرقت في بحر أفكاري، لقد بذلت أفضل جهودي وقلت ما أردت قوله للمدرستين. والآن علي أن أدع القدر يتكفل بالبقية. ومع ذلك، لماذا كان هناك شخص واحد لتقديم الاختبار؟

وماذا كانت المدرسة تشن تحاول أن تقول لي عندما ضغطت على يدي؟

في ذلك الوقت كنت قد بدأت التقي هسياو جاو - الشاب الذي يعمل في المقصف - لعدة أشهر بعد أن خفت الضغوطات القديمة علينا. كانت تلك العلاقة الأولى لكلينا على رغم أنه كان محط أنظار نساء قريتنا الجميلات، الأمر الذي أسبغ عليه لقب بوانج - دي (الملك) لوسامته. كان هسياو جاو يكبرني بثلاث سنوات وهو السابع من ثمانية أبناء في عائلته. ماتت والدته بنوبة قلبية عندما كان في السابعة وتزوج والده مرة ثانية.

كان والده - كوالدي - من أصحاب الأعمال في شنغهاي. وعلى رغم أنه نشأ في الخلفية نفسها ووصل إلى المزرعة في اليوم نفسه الذي وصلت فيه، إلا أننا اتبعنا دروبا مختلفة. ففي حين ناضلت الغالبية في مزارع الأرز، حيث تعصف بهم الرياح الشمالية الغربية، فقد عمل هو في المقصف منذ البداية وهذا هو أحد الأعمال الممتازة في القرية.

التقيت بهسياو جاو أول مرة بعد أن أفرج عني من الإقامة الجبرية.

استدعيت يومها إلى البيت الآجري وطلب مني تسوي الاستعداد لاجتماع نضالي آخر في تلك الليلة. وعندما أخلي سبيلي كان العشاء قد انتهى، أخذت علبة طعامي إلى المقصف ودخلت إلى غرفة الطعام المظلمة وطرقت على إحدى نوافذ الخدمة. فتح هسياو جاو النافذة وأخذ علبة طعامي وعاد بعد بضع دقائق بعد أن تكبد مشقة تسخين الطعام لي. كنت ممتنة لهذا العطف وشكرته على ذلك.

سألني وهو يناولني الطعام عبر نافذة الخدمة: «هل تظنين حقا أن ما تتحملينه يستحق هذا العناء؟ لماذا لا تتماشين معهم؟ خذي بنصيحتي ولا تجدفي عكس الريح».

لم ألتق به ثانية لمدة سنتين، وبعدها حدث شيء غريب. كنت في البيت وكانت إجازتي نصف الشهرية على وشك الانتهاء. وبينما كنت في مخزن قريب أشتري بعض الحاجيات في اللحظة الأخيرة لعودتي، لحقت بي أختي الكبرى وأخبرتني لاهثة: «هناك شخص عجوز في شقتنا ومعه طرد كبير، يقول إنه يريدك أن تأخذيه إلى المزرعة وتعطيه لابنه». لم أستطع أن أخمن هوية الزائر، ذلك أن أيا لم يطلب مني خدمة كهذه.

تابعت أختي قائلة «إنه أنيق الملبس ويتكلم بلهجة نينحبو الواضحة، وأراهن من الطريقة التي يتحدث بها أنه كان، ولا بد، رئيسا في يوم من الايام».

أسرعت بالعودة إلى المنزل لأجد الرجل كما وصفته أختي تماما. أراني قطعة من الورق كتب عليها عنواني وقال إن ابنه

هسياو جاو قد كتب له وطلب منه أن يأتي ويطلب هذه الخدمة، وقال إنه يعلم أن ابنه لم يقل لي شيئا.

في اليوم الذي عدت فيه إلى المزرعة أتى هسياو جاو إلى مهجعنا ليتسلم صندوقه، واعتذر لأنه لم يطلب مني مسبقا هذه الخدمة. ارتبكت وخجلت أن أسأله كيف حصل على عنواني.

في أحد أيام فصل الربيع التالي قابلني هسياو جاو عند بابي.

سألني قائلا «هل أجد لديك ماءً عذباً؟ المضخة لدينا لا تعمل». للمرة الأولى أصبح لدي من أتحدث إليه.

سألني هسياو جاو بتردد حول إقامتي الجبرية، لكنني لم أزوده بأي تفاصيل. كنت لا أزال خجلة من نفسي وقررت أن آخذ خجلي معي إلى القبر. لم يرد معظم الناس أن يعيشوا ثانية تلك الأيام. كانوا يقولون لي «انظري إلى المستقبل،فلا فائدة من إعادة قلي الأرز القديم ثانية». ومع ذلك كنت ممتنة لاهتمامه.

كان هسياو جاو مستمعا عطوفا ومتعاطفا، وكانت أحاديثنا بداية علاقتنا. شعرت بالإطراء لأنه اختارني من بين الكثيرات من النساء ممن انجذبن نحوه، وإن كنت في البداية ترددت في مواعدته، وقلت له ذلك.

«هل مرد ذلك أنك لم تردي على تشيان بعد؟».

«كيف عرفت بذلك؟».

ضحك وقال «لدي أصدقاء في مكتب البريد».

حجب علاقتنا عن عائلته، كان يخشى أن ترفض عائلته - وخصوصا والده - هذه العلاقة. كان جاو والدا صينيا تقليديا

امتدت سلطته إلى كل ناحية من حياة أولاده، وخصوصا اختيارهم لرفيقة العمر، وأصر على ألا ينخرط ولده هسياو جاو في أي علاقات حتى يغادر المزرعة. ولهذا قاوم هسياو جاو كل النساء اللواتي تمنين أن يكن صديقات له.

قال لي «كنت مهتما بك وحدك منذ أن رأيتك للمرة الأولى».

«لماذا انتظرت طويلا لتخبرني؟».

أجاب بقوله: «حسنا! كنت تبدين دائما غارقة في مشاكل من مختلف الأنواع». وعلى رغم أن الجواب لم يكن هو الذي أردت أن أسمعه فقد قبلته. على الأقل كان صريحا معي.

لم أخبر أحدا من عائلتي عنه أيضا. لم أعرف كم ستدوم علاقتنا، فمعظم العلاقات في المزرعة كانت قصيرة العمر. وفضلا عن ذلك، لم أشأ أن أسبب أي إزعاج آخر للعمة الكبيرة.

في اليوم الذي تقدمت فيه للامتحان، أتى هسياو جاو ليراني في المساء. جلسنا خارج المهجع كعادتنا، كنت في غاية التعب ولكن هادئة. كان هسياو جاو هادئا على غير العادة، وأخيرا تكلم: «قولي لي: هل سترمينني ككيس من البطاطا إذا دخلت الجامعة؟».

أجبته قائلة «بالطبع لا، لماذا تتحدث هكذا؟ يجب ألا تفعل، إنه لحظ سيئ أن يتحدث المرء عن أحداث مقدما». كان لخرافات العمة الكبرى تأثير علي وظننت للحظة أنه يحاول أن يصيبني بلعنة بالتنبؤ بنجاحي قبل معرفة النتائج، وأملت أن يجعله جوابي السريع يتخلى عن الموضوع.

ولكنه تجاهلني «ستكونين طالبة في بيه - دا، الصيغة المختصرة لجامعة بكين، وهي إحدى الجامعات الممتازة في الصين. أما أنا فمن المرجح أن أبقى هنا بقية حياتي، لأنني فلاح». أكد على الكلمة الأخيرة على رغم أنه، بالمعنى الحرفي، لم يكن فلاحا، لأنه لا يعمل في الحقول.

قلت له «دعنا من الموضوع، لا أريد المزيد من الحديث عنه، و يمكننا مناقشته عندما يحين الوقت».

أصر ثانية وقال «لا، سيكون الوقت قد فات، أريدك أن تعديني الآن هذه الليلة، هل ستهجرينني أم لا؟».

«لقد حصلت على الجواب». نهضت ودخلت إلى المهجع.

لم أنم في تلك الليلة. لقد أجبرني هسياو جاو - دون أن أكون مستعدة لذلك - لأتعهد بالتزام خطير، لأن الواجب الآن يمنعني من الانفصال عنه.

بعد عشرة أيام، وصل الخبر، كنت في مهجعي بعد العمل اليومي أجلب علبة طعامي عندما قرع صن الباب ودخل.

«يا هسياو يي! لقد تلقيت مكالمة هاتفية للتو».

سقطت علبتي من يدي وجف حلقي ونبض صدغاي. «ماذا قالوا؟».

ظهرت ابتسامة على وجه صن الضيق. «لقد قُبلتِ، اذهبي إلى المزرعة الفرعية غدا واملئي استمارات التسجيل».

بدأت يداي ترتجفان، وسرعان ما ارتجف جسمي كله وأردت أن أجلس. وضعت رأسي على الطاولة وغطيته بيدي، سأصبح طالبة جامعة، وفجأة، وبشكل لا يمكن تصديقه، أضاء شعاع مستقبلي، كم تمنيت لو عرف والداي الخبر وما إن بدأت أفكر

بهما حتى رحت أبكي بهدوء. الآن يمكن للعمة الكبيرة أن تفخر بي. الآن سيزول عبء الإحساس بالذنب عن كاهل أختي الكبيرة للحلول مكانها في المزرعة. الآن أستطيع مساعدة أختي الصغيرة.

قال صن وهو يغلق الباب عند مغادرته «أهنئك يا هسياو يي».

انتشر الخبر بسرعة وغمرني الثناء. كنت الأولى في فرقتنا التي تذهب إلى الجامعة منذ وصولنا إلى هنا قبل ست سنوات. في صباح اليوم التالي، وبعد ليلة من دون راحة ذهبت إلى مكتب المزرعة الفرعية، ارتجفت يدي وأنا أملأ ورقة التسجيل وأسجل اسمي عليها. علمت أن ورقة القبول قد بقيت في الدرج منذ إجراء امتحاني ولم يكلف أحد نفسه بإعلامي.

كان من الصعب إدراك الحقيقة القائلة أن أيامي كفلاحة عاملة في مزارع الأرز غير المثمرة قد انتهت. وباستثناء هسياو جاو وبضعة أصدقاء مساندين، لم يكن هناك أحد لأودعه. ومن المؤكد أنني لن أفتقد المنظر الطبيعي العدائي القاسي أو الرياح الشمالية الغربية. تذكرت جيا - ينج المسكينة. فبعد نقلها إلى فريق إنتاج الخضار بوقت قصير، أتى أخوها ليزورها وقضى الاثنان فترة بعد الظهر معا في المهجع وحيدين، مما جعل بعض النساء تشيع خلف ظهرها، وبعض الرجال يسخر منها، متهمين إياها بإقامة علاقة محرمة. أصابها العار والذل باضطراب في ذهنها فأعيدت إلى شنغهاي. تذكرت أصدقائي الأربعة «المعادين للثورة» والمحنة

التي شتتت وحدتنا، أيام الإبعاد والمهانة، والاجتماعات النضاليَة، آلاف الساعات من العمل الذي يقصم الظهر.

دخلت عامي الثاني والعشرين، حتى الآن بقي وجودي تحت سيطرة القدر والعاصفة السياسية والخسران. قد أستطيع الآن وضع يدي لأدير دفة قارب حياتي وأخرجه من الرياح القارسة.

عندما وصلت إلى شنغهاي خططت أن أنظم اجتماعا عائليا للاحتفال بأخباري السارة، وتطلعت إلى اجتماع عائلي ثانية في بيت والدي. ولكن عندما وصلت إلى جادتنا وصعدت الدرج لرؤية العمة الكبيرة وجدت شقة فارغة، حيث كان أخي في المستشفى ومعه العمة الكبيرة.

قبل بضعة أيام كان أخي الثاني يركب في مؤخرة شاحنة حُمِّلت بإهمال. انزاح الحمل عندما انعطف السائق في إحدى الزوايا فارتمى أخي وكسرت ساقه في عدة أماكن. وعندما وصلت إلى المستشفى كان قد أجريت له العملية الثالثة وكان في طورالمعاناة. لقد فقد الكثير من الدماء.

أردت أن أزف له أخباري السعيدة وأشكره، لأن إهداءه الراديو وكتب اللغة الإنجليزية لي قد أسهم في منحي الفرصة لتغيير حياتي. منحني الفرصة. ولكن عندما رأيت ساقه معلقة فوق السرير ووجهه الوسيم شاحبا من الألم، بقيت صامتة.

في كل صباح كانت العمة الكبيرة تستيقظ قبل الفجر لتصطف للحصول على عظام الخنازير التي تغليها لصنع

حساء حليبي اللون تأخذه إلى أخي الثاني. قالت إن ذلك سيساعد على شفاء عظامه.

في الوقت نفسه كانت لدي عشرة أيام فقط للتحضير لرحلتي إلى بكين. افترقت عن هسياو جاو بعهد مقدس بأن يحب أحدنا الآخر حبا شهدت عليه الجبال والبحر. أعطاني رسالة لأرسلها بالبريد عندما أصل إلى شنغهاي اعترف فيها لوالده بعلاقته معي أنا الطالبة الجامعية المستقبلية، فقد بدا أن من المقبول الآن الكشف عن الحقيقة، كما أنه حدد موعدا لي لزيارة والده وزوجة والده وأحمل معي دجاجتين حيتين كهدية منه لأهله.

اشترى هسياو جاو الدجاجتين من الفلاحين في كمونة سانلونج الشعبية، شعرت أن تسليم الدجاجتين إلى والدي هسياو جاو سيمنحني الخلاص أكثر من السرور. في اليوم المحدد وقفت في الممر خارج الشقة - كان الحرس الأحمر قد أجبرهم على التخلي عن المنزل الذي يملكونه، ونقل متاعهم إلى مسكن شبيه بمسكننا - كانت أعصابي متأججة: أعرف أن عائلة هسياو جاو كانت عائلة غنية، وكنت خائفة من أن يزدروني، وكنت على علم بأن المدير جاو قد أخطر ابنه أن يتجنب أي علاقة أثناء وجوده في المزرعة.

فتح الباب قبل أن تتاح لي الفرصة لقرعه وأدخلتني امرأة جذابة ترتدي ملابس من الزي الحديث، في أواخر الثلاثينيات من عمرها. ألقيت نظرة خاطفة على الشقة التي بدت مكتظة بالأثاث الغالي الثمن.

قالت «لا بد أنك هسياو يي، أنا أخت هسياو دي، والدتي في مهمة خارج البيت ولكن والدي هنا».

هسياو جاو كان يُدعى هسياو دي - الأخ الأصغر - من قبل عائلته. كان والده الأبيض الشعر لا يزال رجلا وسيما ذا طبيعة مسيطرة حازمة. رحب بي بطريقة رسمية وتحادثنا لبضع دقائق قبل أن يقول والده إنني ولا شك مرهقة من الرحلة عبر المدينة وهي إشارة إلى أن الزيارة انتهت. لم أكد ألمس الشاي.

بعد عدة أسابيع من وصولي إلى بكين قال لي هسياو جاو في رسالته إن والده كون فكرة مرضية عني. «ليست جميلة، ولكنها حسنة الملامح بما فيه الكفاية، مهذبة ولكنها ليست مثقفة كسيدة مجتمع، بدت ذكية وسريعة البديهة في إجاباتها، ويبدو أن لفظها الواضح يعد بنجاحها كطالبة لغات. ولكن احذر». تابع هسياو جاو الاستشهاد بأقوال والده ببلادة مذهلة «إن عائلتها - على عكس زوجات إخوتك - لا يمكن أن تقدم أي شيء يتعلق بالمساعدة المالية».

في الحقيقة كانت الدجاجتان خطة لكي تقابلني عائلة هسياو جاو وتصدر حكمها. شعرت في قراءة الرسالة بأنني أرسلت إلى مزاد علني دون موافقتي، وعندما تذكرت المحادثة المتكلفة مع والده، فكرت بمرارة أنه كان علي أن أفتح فمي وأسمح له بعدّ أسناني. كان علي أن أخبره كيف أن طبيب أسنان حافي القدمين في المزرعة قلع أحد أضراسي السليمة بدلا من الضرس الذي يؤلمني. لقد لسعتني أيضا ملاحظته

حول وضع عائلتي المالي. قررت أن أظهر لعائلة جاو أن هناك أشياء أفضل وأثمن من المال.

«آه - سي من عائلة يي ستذهب إلى بيه - دا لتتعلم لغة أجنبية». سرت الأخبار في جادة أشعة الشمس الأرجوانية. الجيران القدماء أتوا ليهنئوني والجيران، الجدد تعجبوا لوفرة حظي. ادعت امرأة عجوز في المبنى المجاور - والتي يسميها الجميع سيدة تنظيف القصرية العجوز، أنها عرفت دائما من شكل جبيني أنه سيكون لي مستقبل زاهر.

الوحيدة التي لم تثرها الأنباء هي العمة الكبيرة. اعتقدت دائما أن القراءة والكتابة هي من شؤون الرجال، فلذلك لم تنبهر بكوني طالبة جامعية. كانت تتقدم في السن ويزداد ضعفها وكل ما كانت تريده للبنت التي لم ترزق بها يوما هو أن تعود إليها في البيت بعد ست سنوات.

ذهبت إلى المستشفى لأرى أخي الثاني قبل مغادرتي، أطلق ابتسامة ضعيفة وناولني نسخة مستعملة من قاموس أكسفورد إنجليزي - صيني.

«لقد وجدته في سطل قمامة قبل سنوات عندما كان الحرس الأحمر في فورة إحراق الكتب».

يا له من تصرف مثالي لأخي الذي أحب العلم. إنه يعرض نفسه للخطر من أجل قاموس. ودعتني أختي الكبرى في المحطة. ضممتها إلى صدري لأول مرة في حياتنا.

قلت لها «لم أعد في المزرعة يا آه - سيه. وذلك يعني أنك حرة أيضا».

ضمتني مرة ثانية. وقدأطلقت لدموعها العنان.

عندمـا توقف القطار في ووكسي ليغـادره بعض الـركـاب ويستـقله آخـرون، تذكـرت والدي بحـزن شـديد. لم أتمكن من زيارة قـبـرهمـا في طريـقي إلى بكين. كـتـبت لـي العـمـة - فنج تقـول إنه منذ أن أطاح الحـرس الأحـمـر بشاهد الضـريح نقل الفـلاحـون القـطع واسـتـخـدمـوها في البنـاء ثم بذروا الأرض وحـجبـوا مكان القـبر. تسـاءلت عمـا إذا كان والداي سيـفخـران بي الآن، وأقسـمت أنني سأعـود يوما ما إلـى بلاد السمك والأرز لأجد قبـرهمـا وأرفع الشاهد مرة أخرى لذكراهما.

الجزء الرابع

رياح التغيير
(١٩٧٤ - ١٩٧٨)

في أواخر أغسطس ١٩٧٤ وطئت قدماي بكين للمرة الثانية في حياتي. وقضيت فقط عشرين ساعة في الدرجة الثالثة أجلس فوق مقعد خشبي في راحة نسبية. كان يوما دافئا، حملت حقيبة مدرسية وغطاء وبريا سميكا، استقللت حافلة نقلتني عبر المدينة إلى الضواحي الشمالية الغربية في رحلة استغرقت ساعتين من الزمن. لم أكن أقل انفعالا أو خوفا عندما اقتربت من البوابة الرئيسية لجامعة بكين مما كنت عندما سافرت إلى العاصمة في ١٩٦٦. كنت مازلت لا أستطيع التصديق إلا بصعوبة أن حلمي قد تحقق. هل سأستطيع مجاراة العمل الأكاديمي المقرر؟ هل جعلتني السنوات الست في المزرعة متخلفة بحيث تكون محاولة الدراسة في هذا المستوى من غير جدوى.

كان حرم الجامعة الشهيرة مختلفا عن الصور التي رأيتها وأنا طفلة. بدت المباني القرمزية البديعة بسطوحها الجميلة وأطنافها الفسيحة كجنود جرحى وعليها رقع من الملصقات. وحتى الأسود الفخمة التي تحرس المدخل الرئيسي فقدت هيئتها البطولية وبدت حزينة لا تستطيع الدفاع عن نفسها.

كانت قاعة التسجيل قرب البوابة الجنوبية، وجدت المبنى الذي يضم إدارة اللغة والأدب الغربي. كان مهجعي عبر الطريق مباشرة. وخارج الباب كان هناك ملصق كبير يحمل عبارات: «انتظم في الجامعة، قم بإدارة الجامعة، دع أفكار ماو الماركسية - اللينينية تغيّر وجه الجامعة».

لم يكن المهجع بأحسن حال من المباني الأخرى؛ فالأبواب الخارجية كسر زجاجها واستبدل بألواح الخشب الرقائقي. في

الداخل كانت هناك طبقة خفيفة من الكلس اللاذع تكاد لا تغطي العبارات السياسية التي امتلأت بها الجدران. في الدور الثالث حيث تعيش الطالبات، كانت هناك عشر غرف وحجرة غسل ومراحيض وصنابير ماء بارد وأحواض أسمنتية. كانت رقعتي طويلة وضيقة وفيها أربعة أسرّة من طابقين رصت مقابل الجدران. وفي الممر المتوسط صفّت ست طاولات صغيرة. استخدم اثنان من الأسرّة لتخزين الأمتعة والكتب والحاجيات الأخرى. وكانت هناك نافذة صغيرة أطلت على خلفية المبنى، على قطعة خالية من الأرض تغطيها بعض الأعشاب البرية.

دخلت وانحشرت بين الأسرّة والطاولات ونشرت غطاء الفراش فوق السرير العلوي المجاور للنافذة؛ لأن جميع الأسرّة السفلية قد شغلت. نظرت حولي فرحة بمنزلي الجديد. بدت الأرضية الأسمنتية غير المصبوغة والجدران المطلخة بالأوساخ، المصباح الصغير جنة بالمقارنة مع مسكني في المزرعة.

ألقيت نظرة حولي. لاحظت قرب مهجعنا مبنى متميزا كانت واجهته خالية تماما من الملصقات. دفعني الفضول ففتحت الباب ذا الزجاج السليم فواجهني مباشرة أحد الحراس. قال بجفاء «ممنوع الدخول»، هذا مسكن الطلاب الأجانب ولا يستطيع أي كائن أن يدخل من دون إذن. انفعلت لخبر وجود أجانب في الحرم الجامعي. لم أر أي أجنبي في حياتي. ناهيك عن سماع مواطن إنجليزي يتحدث الإنجليزية.

بدأت دراساتي بعد أيام قليلة يحدوني الأمل والحماس للتعلم. كان هناك حوالى ٦٠ طالبا جديدا في قسم اللغة الإنجليزية

وآدابها، مقسمين إلى أربعة فصول. وكالمعتاد في الصين، كان لكل فصل عريف يعمل كصلة وصل مع إدارة الدائرة، وسكرتير حزبي - قائد أعضاء الحزب في الفصل - يرفع تقاريره إلى مسؤولي الحزب في الحرم الجامعي. استخدم نظام «الإدارة المتوازية» القديم هذا في كل وحدة عمل وكل وحدة أكاديمية عبر البلاد. وكان سكرتير الحزب أعلى مرتبة من العريف.

كان حوالى نصف طلاب صفي عمالا وفلاحين وجنودا من المصانع المحلية والدوائر الحكومية والكمونات، وكان عليهم العودة إلى الوحدات نفسها لدى تخرجهم. أما بقية الطلبة فقد استقدموا من كل أنحاء الصين. كذلك تقررت وظائفنا المستقبلية، وإن لم يطلعنا أحد بذلك إلى أن نتخرج.

وعلى رغم أنني كنت متلهفة للدراسة بجد، والتعويض عن السنوات الضائعة في المزرعة، وتشريف عائلتي، والقيام بما يمكنني فعله، وإن كان متواضعا لوضع البلاد على الطريق السليم، فقد أصبت بالإحباط عندما ادركت أنني نقلت من معركة إلى أخرى فقط. كانت حملة «انتقاد لين بياو وكونفوشيوس» على أشدها في الحرم الجامعي، وكان هذا جزءا من الصراع على السلطة بين أمثال دين- هسياو- بنج وشو- إن- لاي، كانت التربية خط الجبهة الأمامي، وكانت الجامعات مهد الثورة الثقافية البروليتارية العظمى وفي مقدمتها جامعة بكين.

لم تكن لدي أي فكرة لماذا ارتبط تربوي وعالم مثل كونفوشيوس - الذي مضى أكثر من ألفي سنة على وفاته- مع المتآمر لين بياو. كان كونفوشيوس ينادي بإطاعة الحكام وقيام

المرء بواجباته المدنية؛ بينما أيد لين بياو نظرية ماو القائلة إن السلطة السياسية أتت من فوهة البندقية، وبعدها حاول الاستيلاء على السلطة بالطريقة نفسها.

في صباح أحد الأيام قدمت لين لو المدرسة الفرنسية المسؤولة عن الطلبة الأجانب فصلنا إلى ألينا، ابنة أخ سيهانوك أمير كمبوديا المنفي الذي عاش في الصين منذ الإطاحة به في عام ١٩٧٠. قال لاو لي إن ألينا ستدرس اللغة الإنجليزية معنا.

بدت ألينا كغريبة بين نساء فصلنا اللواتي كن يرتدين جاكيتات ماو التي يرتديها الجنسان والبنطالات الماوية الرمادية أو الزرقاء أو الخضراء التي تميز أفراد جيش التحرير الوطني.

تدلى شعرها الأسود الطويل بانسياب فوق كتفيها كانت ترتدي قميصا براقا وضيقا، له قبة كبيرة مدببة وبنطلونا غريبا متسعة ساقاه في نهايتهما وكان طويلا إلى درجة أن أطرافه كنست الأرض أثناء سيرها.

كان من الواجب أن تُختار إحدانا لتنتقل إلى غرفة ألينا للعيش معها، حسب ما يتطلبه النظام الصيني للمرافقة - وهو تعبير لطيف للمراقبة وتقديم التقارير. أملت ألا أكون مرشحة. كان تعطشي إلى معرفة العالم والشعوب التي تقطنه خارج بلادنا أحد الأسباب التي جذبتني لدراسة اللغة الإنجليزية.

ولكن كان من الأحرى أن أكون أكثر تبصرا بمجريات الأمور فقد أعلنت عريفتنا هسياو- شي أنه جرى اختيار هسياو- جوو وهي التي عاشت فلاحة طيلة حياتها. قالت إن «طراز الحياة البورجوازي غير الصحي لطالبة أجنبية مغر، وبالتالي فإن طالبة

ذات مـؤهلات سـيـاسـيـة لا يـرقى إليـهـا الشك هـي التي يمكنهـا مقاومة ذلك».

ولكنني على أي حـال نجحت في أن أكـون إحدى عـضـوات الفريق الذي ساعد هسياو جوو في الانتقال إلى مهجع ألينا في تلك الليلة.

في اليوم التـالي أرتنا هسيـاو جوو الرسالة التي كتبتها إليها ألينا في اليوم التـالي «أريد أن أحافظ على خصوصيتي». طلبت هسياو جوو مني أن أترجمها لها فجهدت في البحث عن التعبير الصيني المناسب ذلك أنه لا توجد كلمة للتعبير عن الخصوصية في لغتنا.

اقترحت «تريد أن تكون وحدها».

اعتبرت الرسالة وقحة وغير صدوقة من شابة مدللة أجنبية. بقيت ألينا متحفظة ومنعزلة، لا تتحدث لأحد تجلس في الصف لوحدها.

كـانت هناك زمـيلة أخـرى من الأجـانب في الصف هي ابنة السفير الألباني في الصين، انتقلت بهدوء من الحرم الجامعي لتنقلها سيارة يقودها سائق من الصفوف وإليها.

سـرعـان مـا تبين لي أن تخـوفي من عـدم القـدرة على مماشـاة زميلات صفي لا أساس له، ليس لأن لدي مواهب خاصة تميزني عنهن، بل لأن الكثيـرين في صـفي تلقوا تعليمـا أقل مما تلقيت بكثيـر، فمـعظمـهم قضـوا أقل من سنة في التعليم الثانوي، وبعضهم لم يكملوا الدراسة الابتدائية والقليل منهم كانوا تقريبا أميين. من الواضح أن نظام وينج لامتحانات القبول الذي نجحت فيه قد تدهور وخصوصا في الريف.

كان الشعار الجديد «لا تدعي أخا أو أختا في الفصل يتخلف عن الدراسة»، وهي عظة مضحكة ذلك أن دراستنا كثيرا ما توقفت بسبب الاجتماعات السياسية. تم توزيعنا في مجموعات ثنائية تبعا لقدراتنا بحيث يساعد الفرد من الثنائي الفرد الآخر. كانت شريكتي هي هسياو شي- عريفة الفصل. وكسكرتيرة للحزب شرحت لي هسياو ليو قائلة «هسياو لي عضوة قديمة في الحزب من عائلة فلاحية. ستساعدك على النمو السياسي ويمكن أن تساعديها بدراسة الإنجليزية».

كنت مستعدة للمساعدة ولكني استأت من عدم منحي فرص الاختيار. والأسوأ من ذلك هو أن المدرسة تشن التي امتحنتني في المزرعة أضافت إلى سجلي أنني درست الإنجليزية دراسة خاصة هناك. لقد وسمت بأنني مهتمة فقط بالتعليم الأكاديمي وليس بالسياسة - وهذا ذنب كبير لا يغتفر أثناء الثورة الثقافية. ومع تتالي الأسابيع تعرضت للنقد لقيامي بالقراءات الإضافية، كما سجلت رحلاتي «غير الضرورية» للمكتبة. وكثيرا ما قاطعتني هسياو - شي والأخريات وهن يسحبن سماعات الأذن ليتأكدن من أنني لا أستمع إلى «الإذاعات المعادية» - صوت أمريكا أو الـ «بي بي سي». وعلى رغم أن الاستماع إلى هذه الإذاعات لم يعد غير مشروع أو يعتبر معاديا للثورة، فإنه لم يلق التشجيع بعد. لقد قبلت هسياو شي من دون أدنى تفكير خط الحزب القائل بأن الإنجازات الأكاديمية تبقى دائما تحت الشبهات، وأن الفضيلة هي استمرار الجهل. هذا ما ردده الشعار المعروف «الأحمر أفضل من الخبير».

سرعان ما عكست إدارة الجامعة موقف هسياو شي. وبعد بضعة أسابيع أوضح رئيس القسم لدينا، الممثل جاو هذه النقطة. كان جاو ضابطا سابقا في جيش التحرير الوطني وأرسل إلى الجامعة لدعم «اليساريين» وأصبح «الساعد الأيمن» للإدارة عندما أعيد افتتاح الجامعات في عام ١٩٧١، بعد أن أسقطت عبارة «رئيس القسم» لإظهار المساواة الثورية.

في كلمته للترحيب بنا - نحن الطلبة الجدد - حذرنا جاو من «أن نرتدي الجديد من الأحذية بينما نطأ الدروب القديمة»، وحضنا على أن نتذكر انه يفضل ان نخرج من الحرم الجامعي بعد أربع سنوات كثوريين بدلا من «عبيد المعرفة». واضاف إلى هذه التفاهات «من دون وعي بروليتاري قومي، يمكن أن تضروا هذا البلد لأنكم إذا قررتم أن تخونوه فلن تحتاجوا إلى مترجم». كانت الرسالة المبطنة مخيفة وبعيدة المدى كان المدرسون عازفين عن التعليم والطلاب عازفين عن التعلم خوفا من الانتقاد.

أجبرت على أن اكون مراوغة، خلال الأسبوع حاولت أن أبقى مع زميلاتي الطالبات أشارك في المناقشات السياسية التي لا تنتهي وأقضي القليل من الوقت ادرس في المكتبة. ولكن في نهاية الأسبوع عندما تذهب طالبات بكين إلى منازلهن، كنت أقضي كل لحظة صحو في المكتبة لأعوض عن الوقت الضائع. ولمتابعة قراءاتي، غالبا ما كنت اغطي كتبي بأغلفة بلاستيكية حمراء من مختارات ماو - تسي - تونج. هذه الأساليب التمويهية - كما كنت أعتقدها - نجحت. أمام الصف كله، امتدحتني شريكتي هسياو - شي لتحسن وعيي السياسي.

في ذلك الخريف نقلت كلية الزراعة في مقاطعة لياو في شمال شرق الصين حرمها الجامعي إلى الريف لتكون قريبة من الفلاحين تتعلم منهم وتساعدهم. صفق جيان تشن والراديكاليون هللوا عبر البلاد لهذه الخطوة الرائدة وطالبوا بتعميم هذا الإجراء على بقية أرجاء البلاد.

بدأ جاو - اليد الأولى- بالتخطيط وسرعان ما أعلن أن «قسم لغة الإمبريالية وآدابها» سينتقل إلى الجبال خارج المدينة ليترك «أثرا تاريخيا على تاريخ التربية الصينية العصرية».

سمى جاو المكان ولكنه قدم تفاصيل قليلة. لم يكن بحاجة إلى ذلك.

كنت محطمة ويائسة. ولم أستطع أن أتلمس منطقية النقل. كيف نستطيع أن ندرس في معسكر عمل؟ لماذا عرضت الجامعة أن تدرس اللغات الأجنبية إذا كانت شريرة إلى هذه الدرجة؟ إنه عبث.

سرعان ما تبين أن المعسكر لا يستوعب القسم بكامله مما حفزني على أن أحلم ولو لأيام عدة بأنه سيُتخلى عن الخطة المضحكة بكاملها. ولكن جاو كان مصمما: في الوقت نفسه سيعفى الطلبة الأجانب في صفوف السنة الثانية من العمل الزراعي. سنذهب إلى هناك مشيا على الأقدام «لتجديد روح المسيرة الطويلة» وأعلن برنامج تدريبات السير.

عندما اقترب تاريخ الانتقال، أصبت بذات الرئة ونقلت إلى المستشفى. أتت صديقة جديدة اسمها تشانج - هونج (قوس القزح) لتزورني وتقول لي إنني أعفيت من المساهمة في المسيرة. قلت لها «أتمنى أن أعفى من المشروع الأخرق بكامله».

ومنذ اللقاء في ذلك الخريف أصبحت وقوس قزح صديقتين مقربتين، كانت تكبرني بسنة واحدة وكانت قد أرسلت إلى بيه - داي من قبل مكتب سياحة بكين حيث كانت تعمل. كان والداها شيوعيين قديمين وكان والدها موظفا رفيعا في مكتب الأمن العام-. كانت قوس قزح شخصا حريصا وكريما وخصوصا تجاه الغرباء عن بكين. ولم تكن تطلق الأحكام جزافا، ذكرتني بأصدقائي الأربعة في المزرعة.

بعد أمسيات عدة من خروجي من المستشفى، خطب جاو - اليد اليمنى - في المدرسين والطلاب المجتمعين وكل منهم يحمل على كتفه حقيبة مملوءة بما يكفي من الطعام والماء للرحلة إلى القرية.

صاح قائلا «أيها الرفاق، يعلمنا قائدنا العظيم، الرئيس ماو، أن الشعب هو الذي يصنع التاريخ، وفي هذه الليلة سنكتب صفحة جديدة». عندها انطلق الجميع إلى الشوارع المظلمة مضطرين إلى المغادرة في منتصف الليل، لأن ازدحام الشوارع خلال النهار وأول الليل يحول دون استيعاب مسيرة كهذه.

غادرت والآخرون المسنون أو الضعفاء الذين لا يستطيعون الاشتراك في المسيرة صباح اليوم التالي مع أدوات المزرعة ومعدات الفصول. حملتنا الحافلة إلى سفوح الهضاب الجرداء في شرق المدينة وأنزلتنا بعد ساعتين في قرية تاي - بنج الصغيرة. كانت الأمطار الغزيرة قد جرفت الطريق إلى معسكرنا - مدرسة عمل كوادر جامعة بكين.

تألف المعسكر من خمسة أبنية آجرية من طابق واحد وغرفة واحدة مبعثرة فوق حافة الهضبة الصخرية العارية من الأشجار التي يصل بينها طريق ترابي ضيق.

كانت المباني كلها بحاجة إلى إصلاح ذات قش أسود على السطوح. وخلف الهضبة ناطحت الجبال عنان السماء. وجدت المبنى الذي آوى طالبات ومدرسات اللغة الإنجليزية وفتحت الباب برفق. كانت النسوة نائمات بملابسهن الكاملة على أسرة نقالة خفيفة وحقائبهن وأغطية أسرتهن وصناديقهن مكدسة فوق الأرضية الترابية المرصوصة.

اكتأب قلبي لأن المنظر المقفر أعاد ذكريات المزرعة. أغلقت الباب وصعدت في الممر نحو الهضبة إلى بستان مهمل. جلست فوق صخرة محاطة بثمرات التفاح المتساقطة والمتعفنة فوق العشب الطويل. أثار التناقض المأساوي بين البستان المهمل والفواكه غير المقطوفة قرب قرية من فلاحين يعيشون في مستوى المجاعة في نفسي اكتئابا عميقا. عبث يرفده عبث. قبلت في جامعة شجعت فيها على عدم الدراسة وسجلت في قسم لغات اجنبية يتهم كل فرد فيه يستطيع أن يتكلم لغة أخرى بالمراوغة والحيلة، وارسلت إلى قرية يجبر الفلاحون فيها على الانخراط بالسياسة وتجاهل المحاصيل.

افتقدت أخواتي وإخوتي وتساءلت عما إذا كان ضغط دم العمة الكبيرة يسبب لها أي متاعب. تمنيت لو أن هسياو - جاو الذي كنت أتراسل معه بانتظام منذ غادرت المزرعة - كان هناك ليستمع إلى متاعبي وشكوكي ومخاوفي. ومن مفارقات القدر أن خطوبتي إلى «فلاح» - إحدى البذور التي تسجلت في إضبارتي - أكسبتني ميزة ثورية في عيون زميلاتي الراديكاليات. تساءلت ما إذا كان والد هسياو - جاو - الذي وافق على كوني طالبة لغات - سيغير

من موقفه عندما يجد أنني ثانية في المنفى. كنت قد تلقيت منه رسالة مباشرة قبل مغادرة المعسكر. كان قد نقل من المزرعة إلى شنغهاي والآن يعمل كناقل فحم في المرفأ. كتب يقول إنه أصعب عمل قام به - غبار وأتربة - ولكنه سعيد. إنه في البيت مع عائلته وقد استعاد وثيقة إقامته في المدينة. تقريبا كل زملائنا في المزرعة عادوا وبعضهم تزوج وبدأ تكوين عائلة.

فكرت أنه ربما كان علي أن أرفض فرصة الذهاب إلى جامعة بكين. لو رفضت فلربما عدت إلى البيت الآن وأخذت أعتني بالعمة الكبيرة.

أوجد جاو نظاما تعليميا وعملا جسمانيا نصف يومي. فتحت إشراف الفلاحين المحليين بدأنا نحن الطلاب تقليم وزراعة الدزينات الست أو نحو ذلك من أشجار التفاح. حملنا الماء والسماد إلى أعلى قمة الهضبة في سطول متدلية من أعمدة الأكتاف. كان طلاب اللغات الأخرى يعدون حقولا مدرجة لزراعة الخضار ويحضرون التراب من الأماكن البور في الهضاب وينقلونه إلى الحقول الجديدة ويخلطونه مع السماد الطبيعي. كان هدف جاو هو أن نصبح مكتفين ذاتيا بالخضار خلال سنتين. شككت في أننا سننجح لأن كل هطول مطر كان يجرف معظم الحقول المشكلة حديثا واصبح من الواجب إعادة العمل.

بالطبع لم تكن هناك غرف صف، وألقيت الدروس في المهجع بعد طي أغطية أسرّتنا بحيث نستطيع أن نجلس على أسرّتنا أو في الهواء الطلق حين يسمح الطقس بذلك.

أعطتنا مدرساتنا أوراقا احتوت على قوائم من المفردات التي تتعلق بعملنا اليومي ومحيطنا. وكما يقول المثل «بعد لدغة الأفعى يشكك المرء حتى بالحبل الملفوف». لم تتبع مدرساتنا خطة شاملة أو برنامجا معينا، فقد كن تعلمن أن مقررا مكتوبا من الدراسة يمكن أن ينقلب ضدهن. بل بدوا مترددات في ممارسة أي ضغط على الطالبات البطيئات بينما جرى تثبيط الطالبات اللواتي أردن تعلم المزيد والتقدم السريع. سمح جاو بآلة تسجيل واحدة - استخدمت للتدريب على الاستماع والحديث - لكل فصل من خمس عشرة طالبة. وكان الطلب على آلة تسجيلنا شديدا بحيث اضطررنا إلى الاحتفاظ بمنشفة مبللة فوقها لمنع ارتفاع حرارتها.

انقسم فصلي إلى ثلاث مجموعات صغيرة تضم كل واحدة منها خليطا من الخلفيات الطبقية وعضوات حزبيات وطالبات غير عضوات في الحزب. شكلت هذه المجموعات من أجل زيارة بيوت الفلاحين لمشاركتهم مصاعبهم وحياتهم الشاقة. أفرزت مجموعتي لعائلة هاي.

كانت قرية ياي بنج من أقدم القرى في هذا الجزء من الصين. ومنذ غابر الأزمان، استخدم سكانها كعمال سخرة في بناء السور العظيم. أصبحوا فيما بعد حجارين وبنائين للقبور التي أنشأها الأباطرة. وتمكنت عائلات تلك المنطقة التي بلغ عددها حوالى الثمانين أو نحو ذلك من النجاة من المعارك الدائرة بين الوطنيين والشيوعيين.

فشلت محاولة جعلنا نتعلم من الفلاحين الفقراء والطبقة المتوسطة الدنيا فشلا ذريعا. اعتبرت العائلات زياراتنا للتحدث

إليهم مضيعة لوقتهم، وأنا لا ألومهم. وهنا إذن - عبثية أخرى. لم نشأ أن نكون هناك ولم ترحب بنا هذه العائلات. ولكن اليد الأولى جاو - بتشجيع من جناح جيان تشنج - استمر في خطته.

سمح لطلاب بكين بالذهاب إلى بيوتهم في عطلة نهاية الأسبوع وكثيرا ما دعتني قوس قزح للذهاب معها. عاملني أهلها بعطف كبير، فلم يتجاهلوا فقط خلفيتي العائلية بل أبدوا تعاطفهم العميق مع مآسي عائلتي. ومع ذلك، عندما كنت في بيت قوس قزح لم أستطع تجنب الشعور بالغيرة. ولذلك كنت أزورها فقط من حين إلى آخر، فوجودها مع عائلتها - سعيدة ومبتهجة معا - كان يملأني بالمشاعر المؤلمة والاشتياق اللامعقول.

في شهر يونيو أزهرت شجرات التفاح واشتقت إلى إجازة من العمل والمزيد من الوقت للدراسة، لأن من المفترض ترك شجرات التفاح وشأنها أثناء هذه الفترة. ومع ذلك لم أنل أي إجازة. انقسمنا إلى مناوبتين، وبدأنا ببناء طريق جديد إلى المعسكر. استخدم نظام المناوبتين بسبب النقص في المعدات والأدوات. بدأت المناوبة الأولى بالعمل في ساعات الصباح المنعشة والثانية في المساء لأن الأيام كانت حارة وجافة جدا. وتمت الدراسة في منتصف النهار.

ومرة أخرى حاول الحماس السياسي التعويض عن اللاكفاءة. لم يعرف جاو أي شيء عن بناء الطرق والصخور والأحجار التي جمعناها ورصفناها لتشكل الطريق، لم يكن بينها ما يجمعها معا، وكلما مرت شاحنة انهار الطريق تحت العجلات.

في نهاية يوليو، امتطيت القطار إلى شنغهاي متشوقة إلى أطول إجازة تمتعت بها خلال سنوات عدة، متشوقة إلى وجودي مع العمة الكبيرة ومع ابن أخي الجديد، إلى الحديث مع أخي الثاني وطلب نصيحته. أردت ان أرى هسياو جاو وأملأ أذنيه بمتاعبي ومشاكلي.

كتب هسياو جاو قائلا إنني يجب عند الذهاب إلى البلد ومقابلة والديه ألا أذكر مكان دراستي الجديد ونظام الدراسة نصف اليومي. يجب أن أتصرف كما لو كنت لا أزال في بيه - دا، أدرس بدوام كامل. هذا يعني أنني - بالنسبة إلى عائلته - طالبة جامعية ستشغل يوما ما منصبا جيدا يمكن أن يفيد ابنها الأصغر - وهو هدف لا يمكن تحقيقه إذا كنت أعتني بأشجار التفاح. كما أن هسياو جاو كان يخاف أن أتحدث في السياسة. نفرت من نصحه وإرشاده وتمنيت لو أنه لم يحاول أن يخبرني ما يجب أن اقول وافعل. ومع مسيرة القطار نحو الجنوب تساءلت ما إذا كان من الآن فصاعدا يجب أن ألبي مقاييس أهله فقط.

لم يجعلني لقائي بوالدي هسياو جاو متوترة كما كنت أظن. أجريت محادثة جيدة مع زوجة أبيه وعلمت منها أنها هي أيضا كانت طالبة جامعية، وهذا خيار نادر بالنسبة إلى فتاة في ذلك الوقت. أصبحت سيدة أعمال بمفردها وانخرطت في سوق الأوراق المالية مثل «الثلج في يونيو» كما قالت، في عالم الرجال ذلك، مما شكل صدمة لها ولعائلتها. بقيت عزباء حتى تزوجت لاو جاو في أوائل الأربعينيات من عمرها. وخلال غارات الحرس الأحمر تعرضت للهجمات والمذلة واضطرت أن تفتح خزانتها المعدنية في

بنك الصين وتقدم كل مجوهراتها وأوراقها المالية وسنداتها ونقودها الأجنبية. وتحملت آلاما أكثر مما تحمل زوجها.

خلال ذلك الصيف وافقت عائلة هسياو جاو رسميا على علاقتي به. أما العمة الكبيرة فلم تستطع أن تخفي ابتسامتها لأيام كثيرة بعد تقديمي هسياو جاو لها.

عندما عدت إلى المعسكر في نهاية أغسطس للمساعدة في قطف التفاح، شعرنا بالارتياح بأن عملنا الشاق قد أثمر. كنا أول من تذوق طعم الفاكهة اللذيذ من دون مقابل. ذكرنا جاو بقواعد جيش التحرير الوطني الثلاث ونقاط الانتباه الثماني. ولكن الجميع تجاهلوها بمن فيهم أعضاء الحزب والمدرسون بعد عودتنا إلى المعسكر، امتدح جاو النظام الحديدي لطلاب قسم اللغة الإنجليزية. بصعوبة استطعت أن أحتبس ضحكتي.

في بيه - دا، بدلا من عودتنا إلى مهاجعنا الأصلية، أقمنا في مبنى مؤلف من أربعة طوابق قرب البوابة الجنوبية القديمة، وهو مبنى مشيد من الألواح الخرسانية المسبقة الصنع. كانت هناك اثنتا عشرة غرفة على كل جانب من الدهليز الطويل الرطب، وكانت المراحيض والحمامات في النهاية. كان البناء من الداخل مظلما وكئيبا، ولكن العيش مع ثلاثين فردا في كوخ ترابي الأرضية جعلني إخاله الجنة.

كانت إحدى إنجازات الثورة الثقافية هي السماح للشعب الصيني برؤية بروز وسقوط أبطالهم وكأنهم أحصنة خشبية تدور في المدن الترفيهية. في شهر نوفمبر من ذلك العام عادت مجموعة جيان تشنج إلى السلطة وجرى شجب دنج - هسياو - بنج.

وكالمعتاد، أجبرنا على الاشتراك في الخطابات والمهاترات، ولكن عندها كانت الثورة الثقافية تدخل عامها التاسع وبعد عشرة أشهر من الهدوء والاستقرار النسبي، ملّ الناس كل ذلك. في اجتماعات الدراسات السياسية، قرأ البعض بصوت عال وتحدثوا وأحيانا غفوا. اغتنمت الفرصة لحفظ المفردات الجديدة. انتشر هذا الانفراج في الجسم الطلابي وأصبحنا أكثر حرصا على مشاعر بعضنا. بدأ التوتر الذي لازمنا طويلا بالانفراج، عندها تذكرت أحد قوانين نيوتن: كل فعل هناك رد فعل مساو ومعاكس له.

وبدا كما لو أن الطقس طالب بالتغيير أيضا. أتى شتاء ١٩٧٥ مبكرا وباردا بالرياح المتجمدة القادمة من سيبيريا. تمزقت حوامل الملصقات التي صمدت في أمكنتها من بداية الثورة الثقافية. وبقيت درجة الحرارة تحت الصفر بكثير لأسابيع عدة مستمرة. وفي حين كنت في بيت قوس قزح أغلف كتل العجين المبخرة استعدادا لقدوم عام ١٩٧٦، تذمرت جدتها بأنها لا تستطيع أن تتذكر آخر مرة كان فيها طقس بكين بمثل تلك البرودة - تملكها شعور مخيف بأن السنة الجديدة - سنة التنين - ستكون مصحوبة بالصعاب. ذكرتني كلماتها بإشارة العمة الكبيرة المتكررة إلى مولدي المشؤوم. تحققت مخاوف جدة قوس قزح بعد أسبوع. انتهيت للتو من التدريب الجماعي الإجباري فوق أرض الملعب الرياضي وأسرعت إلى مهجعي وأنفاسي تشكل سحبا من الجليد أثناء الجري. كانت الممرات خالية إلى حد الغرابة ولكنني سمعت أصواتا وبثا إذاعيا قادما من الغرف.

اعتقدت وأنا أصعد، ولا بد، أن البرد أجبر الكثيرات من الطالبات على التخلف عن تمارين الصباح. جمدني انفجار من الموسيقى الجنائزية في مكاني.

لقد توفي رئيس الوزراء شو - إن - لاي بعد صراع طويل مع السرطان، ورئيس الوزراء موضع احترام معظم أفراد الشعب. كان شعوري تجاهه مختلطا - غالبا ما كنت أغضب حين أراه في الصحف وأفلام التلفزيون الوثائقية يقابل الحرس الأحمر والمتمردين ويقدم لهم التوجيهات والتعليمات ويمتدح حماسهم. وفي حين ركب الزعماء الآخرون «دوارة الأحصنة الخشبية»، بدا موقعه مستقرا، ولكني كنت أدرك أنه لو لم يكن شو - إن - لاي هناك لترميم ما تهدم ورأب الصدع لزادت معاناة البلاد ولدخلنا في حرب أهلية. وتساءلت بسذاجة ما إذا كان رئيس الوزراء يدرك أنه يتعامل مع شياطين أكبرهم الرئيس ماو.

ألقى موت شو - إن - لاي ظلالا قاتمة من الشك على المستقبل. لم أر في حياتي مثل هذا التدفق من الحزن العام. خشيت الحكومة أن يوفر رحيل شو - إن - لاي بؤرة للمعارضة فتحركت بسرعة لإصدار التعليمات أعلنت مكبرات الصوت في الحرم الجامعي ما فرض من قيود على إجراءات العزاء. لم يسمح بمراسم العزاء الخاصة، ولم يسمح لأحد بارتداء شارات الذراع السوداء، ووضعت قيود على ما يغطيه الراديو والتلفزيون. قامت جيانج - تشنج بزيارات متعددة إلى الحرم الجامعي مدعية بأنها تقوم بذلك نيابة عن الرئيس ماو. كان من الواضح أن زياراتها كانت تهدف أصلا إلى تخفيف وقع موت شو - إن - لاي.

ومع ذلك لم يبد أن أحدا يهتم. علقت الدروس على الرغم من أمر سلطات الجامعة باستمرارها. جمعت قوس قزح وقليلات أخريات كوبونات القطن من الطالبات من بكين وذهبن إلى مخزن قماش قريب لشراء القماش الأسود من أجل أشرطة الحداد. قامت الأخريات بصنع باقات من الزهور الورقية وكتبن ملصقات من القصائد التي تعبر عن أجزائهن. وانقلبت قاعة المحاضرات إلى قاعة حداد.

في كل مساء كنت أذهب إلى غرفة التلفزيون المكتظة دائما بالطالبات وأراقب مشاهد المواطنين المنتظرين خارج المستشفى لتقديم احترامهم الأخير لنعش شو- إن - لاي في سرادق غرب المدينة المحرمة.

لم ير أحد الرئيس ماو، وقفت أمام النعش أرملة شو- إن - لاي رفيقته المحببة لسنوات كثيرة من زواجهما الذي لم يثمر أطفالا.

عندما أظهرت الكاميرات جيانج تشنج تتقدم نحو النعش من دون أن تخلع قبعتها العسكرية - مما يدل على عدم الاحترام - ضجت الغرفة بتعابير الغضب. غادر بعض الطلاب الغرفة درءا للمتاعب بينما مضى الآخرون يصرخون ويلوحون بقبعاتهم، وهو أمر خطير في وقت كان فيه مجرد التلميح إلى معارضة جيانج تشنج يعني السجن.

دُعينا إلى اجتماع مهم للقسم في ١٥ يناير وأمرنا جميعا بالحضور. أعلنت الملصقات في الحرم الجامعي الأمر نفسه لجميع الأقسام. بعدئذ اكتشفنا السبب: فيوم ١٥ يناير هو اليوم الذي سيمر فيه موكب جنازة رئيس الوزراء شو - إن - لاي عبر

المدينة إلى المحرقة. ورغم مشاعري المختلطة، أردت أن أقدم احترامي للرجل الذي قال في وصيته إنه يريد أن ينثر رماده فوق أنهار الصين وجبالها لا أن يدفن مع رفاقه الثوريين في مقبرة هضبة الكنوز الثمانية.

في تلك الليلة رسمت وقوس قزح خطة وغادرنا في اليوم التالي كل لوحدها من أجل تمارين جري الصباح. وبدلا من الركض عبر الحرم الجامعي كما نفعل عادة، جرينا إلى الشارع. تجاوزنا اثنين من مواقف الحافلات لأننا رأينا مسؤولي الطلبة يقفون هناك لإعادة كل من سولت له نفسه عصيان أوامر الجامعة. استقللنا حافلة اكتظت بالكتل البشرية على نحو غير اعتيادي نقلتنا إلى شارع شانغان بعد رحلة دامت ثلاث ساعات تقريبا.

بعد ساعات، ظهر موكب الجنازة وعبر عينين غارقتين بالدموع رأيت نعشا مغطى بالأشرطة السوداء والصفراء. أطلق بعض أفراد الجمهور صرخات عالية بينما مد الآخرون أيديهم كما لو كانوا يحاولون إيقاف العربة المتحركة. أما الأطفال الذين أيقظهم بكاء أمهاتهم فقد راحوا يضربون الهواء بقبضاتهم. كانت الجنازة، من دون شك، أكبر جنازة غير منظمة في التاريخ الصيني حضرها أكثر من مليون شخص.

عندما عدت وقوس قزح إلى الحرم الجامعي والتحقنا بالآخرين الذين عصوا الأوامر كان الظلام قد خيم. كل البوابات، بما فيها الأبواب الجانبية - التي تبقى عادة مفتوحة حتى بعد منع التجول - كانت مقفلة. والآن تعيَّن علينا أن ندفع ثمن عصياننا. ها أنا في الثالثة والعشرين وما أزال أعامل كطفلة.

بعض الناس طرقوا على البوابات والآخرون بدأوا يتسلقون الجدران العالية. بعد نصف ساعة فتح الباب الجانبي. وعندما مررنا بكوخ البواب كان علينا أن نظهر بطاقات هوياتنا وتسجيل أسمائنا. وبعدها جمعنا حسب أقسامنا العلمية وفي حالتنا جرى اقتيادنا إلى «اليد اليمنى» جاو ونوابه - الأستاذة وانج والأستاذة لو ونائبة رئيس القسم السابقة. كان ثلاثتهم متجهمي الوجوه. ولم يضيِّع جاو- الذي كان يستشيط غضبا - أي وقت. هددنا قائلا «إذا كنتم تظنون أنني لا أستطيع أن أقوم بأي فعل تجاهكم، فإنكم مخطئون حقا، انتظروا حتى تتخرجوا أيها الشبان والشابات. عندئذ آمل أن تتذكروا هذه اللحظة، وإن لم تتذكروا، فسأكون هناك لأذكركم وأراكم، تذرفون دموعا لن تفيدكم».

وقبل أن يصرفنا، أمرنا بأن نسلم النقد الذاتي له شخصيا في اليوم التالي وننتظر المزيد من العقوبات.

هأنذا ثانية انتقد خطيا سلوكي الشخصي وأستنكر شيئا شعرت بأن لي الحق ان اقوم به. تجاهلت نصيحة هسياو جاو بالسير مع التيار. اخبرتني قوس قزح بأن جاو لا يقلقها. كانت تعرف أنها ستعود إلى وحدتها - مكتب بكين السياحي - بعد التخرج. ولكني قلقت جدا لتهديد جاو الصريح. من الواضح ان عصياننا وتحدينا لسلطته افقده ماء وجهه وتجمعت فكرة انتقامه كغمامة فوق رأسي.

لم أخبر هسياو جاو ولا أحدا من عائلتي بهذه الحادثة، كانت بكين في ذلك الربيع حافلة بالخوف والشائعات. كان معظم الناس لا يعرف شيئا عن رئيس الوزراء الجديد (هوا - جوو - فنج)؛ وأنا

أيضا لم أسمع به من قبل. إلا أن قوس قزح المطلعة دائما بحكم عمل والديها في مكتب الأمن العام كانت أكثر دراية بمجريات الأمور، وهي التي أخبرتني أن ماو نفسه هو الذي اختارها كحل وسط بين المعتدلين وراديكاليي جيانج - تشنج.

وعلمت من قوس قزح أيضا أن الرئيس ماو نفسه مريض جدا - وقد كان كذلك لسنوات عدة - وأنه يحتضر. بل قيل أن ماو - نظرا إلى أن مرضه يمنعه من الكلام - «يهمس» بتعليماته لرفيقة موثوق بها التي يفترض أنها الشخص الوحيد الذي يقرأ شفتيه. ولأنه كان يعاني مرض باركنسون فقد كان من الصعب قراءة ما يكتبه من ملاحظات حول الحزب والوثائق الحكومية، التي كان يدونها في الهامش كما اعتاد لسنوات عدة.

وبينما رقد ماو مريضا، استمرت غرائب الثورة الثقافية بالتراكم. كان مكتب الأمن العام في تلك الأيام - بناء على أوامر الحكومة المركزية - يفتش في المدينة عن قصة حياة جيانج تشنج التي كتبتها - روكسانا ويتكه وهي عالمة أمريكية متخصصة في التاريخ الصيني أجرت مقابلات مع جيانج تشنج بصورة سرية ومطولة في ١٩٧٢. كان العنوان هو «الرفيقة تشيانج تشنج» ولكنه ترجم إلى الصينية تحت عنوان «إمبراطورة في العاصمة الحمراء». كان الخط الرسمي هو أن السيرة الشخصية لا وجود لها وأنها مجرد دعاية غربية شريرة ضد زعيمنا المحبوب.

ومرة ثانية بدأت مطاردة السحرة ومرة ثانية جرى تصدي الأصدقاء والزملاء وأفراد العائلة بعضهم لبعض. كانت المطاردة هذه المرة «للإشاعات». وفي حين ظهرت الكتابات المعادية لجيانج

تشنج عبر الحرم الجامعي تنتقدها لكشف نفسها لكاتبة غربية، طلب من الطلاب والمدرسين الإبلاغ ضد أي شخص يعرفون أنه ينشر الإشاعات حول الكتاب.

عقدت اجتماعات متعددة. سألنا المسؤولون المتوترو الأعصاب «هل سمعتم عن الكتاب؟ أين سمعتم عنه؟».

طلب مني أن أجري حديثا «من القلب إلى القلب» مع شريكتي «هسياو شي وهسياو ليو سكرتيرة الحزب في صفنا».

علقت شن مشيرة إلى رحلتي لرؤية موكب جنازة شو - إن - لاي بقولها: «نشطت سياسيا في الفترة الأخيرة». لم أجب! حاولت بعدها ليو: «هل سمعت أي إشاعات حول رفيقتنا المحبوبة جيانج - تشنج؟» سؤال سخيف، لأن الرفيقة جيانج وكتابها كانا حديث الحرم الجامعي.

قلت لها «لم أسمع الكثير».

«ولكنك سمعت شيئا عن الكتاب، أليس كذلك؟».

«سمعت شيئا عن كتاب ما».

«أين سمعت عنه؟».

كنت أعرف أن ذلك ما يهمهم. بالطبع، سمعت كل المعلومات من قوس قزح.

«سمعت شيئا عنه في الحافلة عندما كنت في الطريق إلى المتجر».

تلك كانت نهاية الحديث. أنهت ليو النقاش بالتفوه بخط الحزب: الواقع أنه ليس هناك كتاب من هذا النوع، والعملية ليست سوى مجرد دعاية غربية، مؤامرة لتلويث سمعة زعيمنا المحبوب.

لم يتوقف الحداد على رئيس الوزراء شو - إن - لاي. في أواسط مارس، قبل أسابيع من تشنج منج (مهرجان تكريم الموتى) تحدى المواطنون في بكين مراسيم الحكومة بوضع أكاليل تكريم شو - إن - لاي على قاعدة نصب أبطال الشعب في ساحة تيان آن مين. ومع مرور كل يوم أتى المزيد من الناس إلى الساحة - عشرات الآلاف يغنون ويقرأون القصائد ويلقون الخطب ممتدحين ذكرى شو - إن - لاي. وقد عبروا بكلمات رمزية ومشفرة عن كرههم المكتوم تجاه جيانج - تشنج وزبانيتها. وفي كل ليلة تأتي الشاحنات لإزالة الأكاليل؛ وفي اليوم التالي تُستبدل بأخرى جديدة.

لم يحدث مثل هذا العمل الجماهيري العفوي منذ إقامة الجمهورية الشعبية في عام ١٩٤٩. أردت أن أشارك، ولكن قبل أن تغادر قوس قزح إلى بيتها بعد ظهر يوم الأحد، قبل يوم واحد من احتفال تشنج فنج، حذرتني من الذهاب إلى الساحة.

توسلت قائلة «أرجوك أن تصغي إليّ هذه المرة يا هسياو يي. قال لي أبي وأمي إن هناك رجال شرطة بالملابس المدنية في كل مكان لعدة أيام وهناك كاميرات مراقبة في جميع أنحاء الساحة. وإذا ظهرت في هذه الصور فستلاحقك طوال حياتك». وتابعت قوس قزح قولها إن والدها لم يعد إلى البيت لعدة أيام وإن الميليشيا وجيش التحرير الوطني متمركزون داخل قاعة الشعب الكبرى. «شيء كبير سيحدث يا هسياو يي وأنا خائفة - ابتعدي».

كانت على حق، ففي ٥ إبريل أصبحت ساحة تيان آن مين ساحة معركة. اصطدم عشرة آلاف شرطي ورجل ميليشا وجندي مع المتظاهرين، ضرب الآلاف واعتقل المئات، وسالت دماء جديدة على

النصب. وفي اليوم التالي، بررت الحكومة الضرب والاعتقال بالكلام المنمق المعتاد، أما المظاهرات الجماهيرية لتكريم رئيس الوزراء شو - إن - لاي فقد وصفت بأنها «حوادث ساحة تيان آن مين المعادية للثورة» واتهم دنج تشياو - بنج بأنه مهندسها.

أغرقنا فيما بعد بجلسات الدراسة السياسية المتوقعة: قراءات الصحف والمناقشات «التي لا نهاية لها والتي لم يقدم فيها أي فرد وجهة نظر شخصية».

أجبرنا على كتابة التقارير الشخصية التي أوضحت مواقفنا وكتبت كالآخرين ما أرادني القادة أن أكتبه.

عندما سمعت بعد بضعة أسابيع أننا - طلاب السنة الثانية في قسم اللغة الإنجليزية - وأساتذتنا سنعقد صفوفا قصيرة الأجل خارج الحرم الجامعي، رحبت بالأخبار بذراعين مفتوحتين. أخذ السياح يفدون إلى الصين بأعداد متزايدة، ولكن حاجز اللغة بقي مشكلة. سمعت أن المسافرين الأجانب يصفقون بأذرعتهم كالأجنحة ليشيروا إلى أنهم يريدون تاكسي إلى المطار وأن بعضهم يقلد البط لاقتراح مطعم بط في بكين. قال اليد اليمنى جاو إنه قد حان الوقت لنخدم وطننا وشعبنا. تساءلت فيما إذا كان يدرك أنه لم يبق لدينا الكثير لنقدمه بسبب منهجه الراديكالي المعادي للتربية.

دعت خطة جاو، إلى إرسال نصفنا إلى مطار بكين لتعليم العاملين على متن الرحلات الجوية، والنصف الآخر إلى مدرسة تدريبية لسائقي التاكسي. نعود لنتابع دراستنا ونعلم اللغة الإنجليزية في الوقت نفسه. ندبت قوس قزح إلى المطار واتجهت أنا إلى الضواحي الشمالية الغربية في رحلة تستغرق ساعة

بالحافلة إلى مدرسة سائقي التاكسي في موقع تبلغ مساحته ثلاثة آلاف متر مربع محاط بأشجار الحور الباسقة.

ابتهج لاو- هو - المدير لوجودنا هناك لتعليم سائقيه اللغة الإنجليزية. بدا من بريق عينيه أنه توقع المعجزات.

فرزنا أنا وشريكتي هسياو شي مع ثلاثة سائقين واجتمعنا بعد ظهر كل يوم لتدريب اللغة الإنجليزية. كان الشيء الأول الذي تعين علينا أن نعلمهم إياه هو كيف يقولون «يعيش الرئيس ماو»، ثم «قم بخدمة الشعب من كل قلبك»، ثم انتقلنا إلى العبارات العملية مثل «السائق الصيني لا يتقبل البخشيش».

وجدت نفسي أستمتع بالدروس، إذ رأيت آخرين ممن يقدرون اللغة التي أحببتها وقضيت الكثير من الوقت أحاول تعلمها. عملت بجد لإعداد التمارين وابتهجت للفرصة الذهبية لأتعلم مفردات جديدة مختلفة وأطرح جانبا تلك العبارات السياسية التي لا فائدة منها والتي أقحمت في عقولنا في الجامعة. ومقابل عملنا الشاق، أعد لاو - هو سيارات لتعيدنا إلى الحرم الجامعي أو إلى بيوتنا عند الحاجة. كما أنه نظم رحلات لنا إلى المناطق السياحية كالسور العظيم وقبور فنج.

في كل مرة سرت فيها بجانب أحواض الزهور التي أحاطت بمسكننا وبجانب جرار الماء الفخارية تسبح فيها الأسماك الذهبية وهي تسترق النظر من خلف الزنبق، كنت أتساءل كيف يمكن أن يكون رد فعل «اليد الأولى» جاو فيما لو رأى هذا الجو «اللاثوري»، فنحن الآن حسب نظريته، لا بد قد انقلبنا جميعا إلى رجعيين بورجوازيين. والحق أن غياب الاجتماعات والمناقشات

السياسية المكثفة التي كانت تعقد في بيه - دا، كان كل فرد منا يهتم بشؤونه فقط وحتى أعضاء الحزب أصبحوا دمثين.

في الحقيقة، الوقت يطير كالسهم، وخصوصا عندما يجلب الضحك والمتعة. في أواسط يوليو حجزت تذكرة القطار إلى شنغهاي وبدأت أعد الأيام حتى مغادرتي في التاسع والعشرين وهو موعد أول قطار متاح.

قبل يومين من مغادرتي المفترضة، تصورت نفسي أقابل هسياو جاو في محطة شنغهاي، أجلس حول الطاولة في المنزل، أتحدث مع العمة الكبيرة وأهدهد ابن أخي فوق ركبتي. عندما شعرت بالنعاس، عدت إلى المهجع. وعندما مررت بجانب إحدى جرار الماء، قفزت سمكة ذهبية عاليا في الهواء وسقطت على البلاطات حيث تلوّث في الغبار. أسرعت بالتقاط السمكة وأسقطتها ثانية في الجرة، وعندها لاحظت وجود سمكات أخرى على البلاط - بعضها ينتفض وبعضها ملقى بلا حراك. ولكنني لم أعرها المزيد من الاهتمام.

في تلك الليلة حلمت بأنني في القطار إلى شنغهاي. وأثناء انطلاق القطار نحو الجنوب تمايل بانتظام وهدهدتني أصوات الدواليب. وبعدها تزايدت هدهدة القطار وتردد صدى الصرخات داخل العربة وتبع ذلك أصوات كقصف الرعد. أحدهم كان يصرخ باسمي.

«هسياو يي! هسياو يي! اخرجي!».

كان أول شيء رأيته عندما فتحت عيني هو تصدع كبير في السقف ورأيت خلاله سماء حمراء. بعد ذلك سمعت قصفا رعديا.

قفزت من سريري المتأرجح. اهتزت الأرض بعنف لدرجة أنني سقطت على ركبتي. أمسكت ببنطالي وقميصي وانطلقت في طريقي فوق ألواح الأرضية الخشبية المهتزة. وعندما خرجت إلى وابل المطر مادت الأرض فسقطت منكبة على رأسي في حفرة مملوءة بالمياه. أنهضتني اثنتان من زميلاتي في الغرفة وهما ترتجفان في ملابسهما الداخلية المشبعة بالماء. واحتشدنا معا طلبا للدفء تحت الألواح الخشبية التي لم تنفع كثيرا في إبعاد ذلك التدفق المخيف الذي انفتحت عنه السماء الحمراء.

عند الفجر توقفت الأرض عن الارتجاج ولكن المطر استمر في الهطول. مباشرة بعد انبلاج أول أشعة الصباح ظهر لاو على دراجته وثيابه مبللة. أخبرنا أن هزة أرضية أصابت بكين وتيانجين وتانجشان وهي مدينة تقع إلى شرق بكين.

سمح لنا بالعودة إلى مهجعنا لنجمع حاجياتنا فقط. وصلنا خبر بأن علينا ألا نعود إليها فقد أصابت المباني أضرار جسيمة واعتبرت غير مأمونة وخصوصا تلك المباني المشابهة لمهجعي المبني من البلاط الأسمنتي. امتلأت مستشفى الجامعة بالمصابين وقد أصاب معظمهم الهلع فقفزوا من النوافذ عندما قذفتهم الهزة الأرضية من نومهم. بعدها بدأ طلاب بكين بمغادرة مدرسة التاكسي إلى بيوتهم.

ومع انقضاء النهار أكدت الأخبار الإذاعية أن تانجشان كانت المركز الحقيقي للهزة الأرضية التي سجلت ٥,٦ على مقياس رختر. وبالنظر إلى الأضرار في بكين فلا بد أن الدمار في تلك المدينة الأخرى الكثيفة السكان كان رهيبا. طلب من سكان بكين أن

يحافظوا على الهدوء وألا ينطلقوا لشراء المواد الغذائية لتكديسها في البيوت. ولم يفلح هذا الطلب سوى في انشغال بالهم أكثر وأكثر.

بعد ظهر ذلك اليوم قررت أن أذهب إلى بيت قوس قزح لأنه يقع قرب محطة بكين وأنا سأغادر إلى شنغهاي في اليوم التالي. كانت قوس قزح في البيت مع والدتها وكان والدها وأخوها في المكتب منذ أن ضربت الهزة المدينة بدا أنهما سيبقيان هناك إلى ما لا نهاية. في تلك الليلة جلسنا نحن الثلاثة في باحة الدار الهادئة نصغي إلى المطر يتساقط فوق مظلاتنا، نتحدث ونلقي نظرات قلقة على مجموعة القوارير التي وضعتها والدتها رأسا على عقب فوق البلاطات كوسيلة إنذار مبكر بدائية. كنا جميعا خائفات ننتظر صدمات ما بعد الهزة التي ستكون - كما قالت الإشاعات - أسوأ من الهزة الأولى. وعلى رغم إعادة الكهرباء إلى المنطقة كان الناس لسبب ما خائفين من إشعال المصابيح.

أفادت إذاعة الـ «بي. بي. سي» أن الهزة بلغت ٨ على مقياس رختر. كما انها قدمت الكثير من المعلومات الإضافية حول الأماكن المتضررة وأعداد الموتى والمصابين التقديرية. كانت هذه التقديرات أعلى بكثير من الأرقام التي أعطتها وسائل الإعلام الصينية التي خففت من الكارثة بكل الطرق. وفي الحقيقة كانت وسائل إعلامنا لا تزال تخصص قدرا كبيرا من المكان والزمان للهجمات السياسية ضد دنج - هسياو - بنج. ملأني سماع الـ «بي. بي. سي» بالغضب. إذا كانت الحكومة تستطيع الكذب حول قراءة مقياس رختر، وهي أمور يمكن رصدها في أماكن أخرى من العالم وتبادل المعلومات

حولها، فما الذي لا تستطيع أن تكذب حوله بما يلائم أغراضها؟ قلت لنفسي إنني يجب أن أكون قد اعتدت على الكذب الآن.

جاءت قوس قزح لتودعني في المحطة وتساعدني بحقيبتي القماشية وكيس يحزمه حبل رفيع انتفخ بالبطيخ الأخضر الذي اشتريته في ذلك الصباح وهو الغذاء الوحيد المتوافر في السوق. وصلنا قبل ساعة لاننا سمعنا انه منذ الهزة الأرضية اكتظ كل قطار متجه نحو الجنوب سواء كان لدى الركاب تذاكر أم لا.

كانت الساحة خارج المحطة كمخيم لاجئين. وفجأة انتصب الناس حولنا واقفين وخرجوا من الأبواب هلعين. قرقعت النوافذ وطرطقت صحون السجائر المنتصبة بقربنا رغم عدم وجود أحد بقربها. وقبل أن نستجمع أنفسنا ونجري إلى الخارج انتهى الاهتزاز. كانت هزة صغيرة ولكن أعصاب كل فرد تمزقت.

تأخر قطاري كثيرا عن الموعد. وعندما ركبت القطار أخيرا، وضعت البطيخات الأربع بعناية تحت مقعدي الذي كان لحسن الحظ قرب النافذة. كان القطار ممتلئا بأقصى طاقته: وقف الركاب الذين لم يحصلوا على بطاقات حجز مسبقة في الممرات وحتى في الحمامات.

خلال نصف ساعة، دخل القطار محطة تيانجين حيث اندفع بحر هائم من الأجسام نحو العربات التي مازالت تتحرك، من الواضح أن تيانجين تأثرت أكثر من بكين، ومع تكرر الهزات البَعْدِيّة بدأ الناس يخافون على حياتهم.

كان الناس بثياب بالية، معظمهم من دون متاع، يستميتون للهروب من المدينة، صرخوا ولوّحوا بأيديهم يتوسلون الدخول

وهم يضربون ويركلون جدران ونوافذ العربات. تراجعت عندما بدأ أحدهم قذف صخرة مقابل نافذتي. بعد عشرين دقيقة من هذا الهرج والمرج، تقدم القطار قليلا وزحف مغادرا المحطة.

ضحك هسياو جاو عندما رأى متاعي «بطيخ أخضر؟ أحضرتها كل هذه المسافة من هناك؟» ضحك بصوت أعلى عندما رأى أن اثنتين منها طريتان ولينتان.

قلت بصوت ضعيف «ليس هناك ما يضحك! أتمنى لو استطعت أن أشتري المزيد كي لا أضطر لإخفائها تحت المقعد».

شعرت العمة الكبيرة بالارتياح لرؤيتي في البيت سليمة ومعافاة. قالت لي «يا آه - سي! هل أدركت أن هذه سنة التنين؟ منذ بدأت السنة والأشياء السيئة تحدث الواحدة بعد الأخرى. أولا: مات رئيس الوزراء شو- إن - لاي، ثم الماريشال جو - ده والآن هذه الهزة الأرضية. لا أعلم إذا كانت هذه نهاية الأحداث. إنها تماما كحياتك. لا يعرف المرء ماذا سيحدث بعدئذ».

تساءلت ماذا ستعتقد إذا علمت أن الرئيس ماو يحتضر. وكنت مسرورة لعودتي إلى المنزل. الآن وأنا في سن الرابعة والعشرين وقبل سنتين من تخرجي، بدأت بالتفكير في مكان سأعيش فيه وأي عمل سيوكل إلي. مازلت أنام مع العمة الكبيرة عندما أكون في البيت وكنت مدركة تماما أنها تأسف للمكان الخالي في سريرها عندما أكون بعيدة عنها.

قضيت مع هسياو جاو أكبر وقت تسمح به مناوبات عمله في أحواض الفحم نتغذى مع شركائه أو نستريح في بيتنا تحت رقابة العمة الكبيرة التي لا تسمح لنا بالانفراد. وكمعظم من هم في

سننا كنا غالبا ما نلجأ إلى الشوارع في الليل حيث الجو أكثر برودة وحيث سمحت لنا الظلمة بالتظاهر بأننا لوحدنا. كان الانفراد دائما مشكلة ثنائيات العشاق لأن التقاليد الاجتماعية تآمرت مع واقع أماكن السكن المكتظة مما يجعل تحقيقه مستحيلا تقريبا.

تركزت معظم أحاديثنا على تخرجي وأي نوع من الأعمال سيوكل إلي وأين سنعيش. قال هسياو - جاو ذات مساء كمفاجأة لي:

آمل أن يوكل إليك عمل في بكين. ناقشت هذا مع والدي ونعتقد أنه سيكون هناك طلب عظيم على خريجات اللغة الأجنبية وسيوكل إليك عمل مرموق.

«ولكن علينا أن نعيش في شنغهاي».

«نعم ولكن والدي يقول إنه لا يبالي مادام أن موقعك الجديد سيمكنك من إيجاد عمل لي أفضل من الذي أقوم به الآن. في هذه الحالة لا أمانع في مغادرة شنغهاي».

قلت لنفسي، أنا التي ستمانع. كنت قد قررت أن أبذل قصارى جهدي للعودة إلى المدينة والعناية بالعمة الكبيرة ولو كان في ذلك بعض من التضحية.

ولكنني احتفظت بعهدي لنفسي محجمة عن إغضاب خطيبي وأبيه.

بعد ثلاثة أسابيع من بداية عطلتي الصيفية، أمرتني برقية أن أعود إلى بكين في الحال، ودعت بسرعة هسياو جاو وعائلتي، كان القسم العلمي الذي أنتمي إليه يشكل فريق إغاثة للذهاب إلى تانجشان.

عدت مسرعة إلى بكين فوصلتها في ٢٩ أغسطس... كان علينا أن نذهب إلى تانغشان خلال أسبوعين حسب البرنامج المعد وإن لم يحدد تاريخ العودة - وهذه إشارة غير مشجعة. كانت جيانج تشنج قد زارت بيه - دا داعية الطلبة والأساتذة لمساعدة تانجشان وتقديم «إسهام ذي معنى». كان جاو، اليد الأولى، على أحر من الجمر لتنفيذ أمر امبراطوري أصدرته زوجة الرئيس، سرعان ما أصبح طلاب السنة الثالثة من قسم اللغات الغربية وآدابها بيادق في هذه اللعبة لتحقيق الخطوة السياسية.

وفي حين بدأ البعض بتنظيم الأطعمة وأواني ومعدات الطبخ، ساعدت في إنشاء ما سمي بـ «أقفاص الأرانب». كان طول هذه المساكن من ألواح الألياف المسبقة الصنع ١٥ ياردة وعرضها ٥ ياردات وارتفاعها ٢,٥ ياردة، ولم يكن لها أرضية أو نوافذ بل فتحة فقط من كل طرف. وكل قفص استوعب ٣٠ مرقدا في طابقين - ١٥ في كل جانب. تفاخر جاو بمساكننا ومعداتنا لأننا لم نضف أي مشكلة إلى سكان تانجشان. وبهذه الروح نفسها رفضت جيانج تشنج وعصابتها أي مساعدة تقدمها الأمم المتحدة والبلدان الأخرى: خافت أن تفقد الصين ماء الوجه أو أن يتسرب الجواسيس إلى البلاد تحت غطاء جهود الإغاثة.

وأكد جاو أيضا أنه لم يسمح لأحد باحضار أي كتب أو مواد دراسية - باستثناء «الأعمال المختارة لماو تسي تونج». قال بصرامة إننا يجب أن نظهر إخلاصنا وروحنا الثورية. أصبح من الواضح لي أكثر فأكثر وأنا أصغي إلى هذه الأنظمة المضحكة أن أشخاصا مثل جاو ليسوا سوى مهرجين يرثى لهم يؤدون المساخر الشريرة.

تساءلت ما إذا كان جاو يبيع روحه عن وعي ليرضي طموحاته السياسية أو ما إذا كان مجرد أحمق بسيط. هل كان يعتقد حقا أن ضحايا تانجشان الفقراء سيبالون أو يتضررون إن جلبنا بعض الكتب للقراءة؟

في وسط استعداداتنا المسعورة بعد ظهر اليوم السابق لمغادرتنا، استدعينا ثانية من خلال لعلعة مكبرات الصوت في جميع أنحاء الحرم الجامعي: طلب منا جميعا أن نذهب إلى قاعات طعامنا الخاصة للاستماع إلى إعلان ذي أهمية عظمى. وكلمات «ذات أهمية خاصة» كثر استعمالها إلى درجة أنها أصبحت تعني بالنسبة لنا عكس ذلك: كان بعض الناس يجلسون يتحدثون أو يلعبون الشطرنج، والبعض يقرأون وآخرون يحيكون.

ولكن هذه المرة أثبت الإعلان أنه مهم. ظهر أزيز في مكبرات الصوت تبعته موسيقى جنائزية. ثم تردد صدى صوت مشؤوم وميكانيكي عبر غرفة الطعام: «رسالة إلى كل الحزب والجيش وشعب الوطن! يؤسف اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني واللجنة الدائمة لمؤتمر الشعب الوطني ومجلس الدولة لجمهورية الصين الشعبية أن تعلن أن القائد الرئيس ماو تسي تونج قد فارق الحياة في الدقيقة العاشرة، بعد منتصف الليل، من صباح ٩ سبتمبر ١٩٧٦ في بكين».

كانت أخبار موت «قائد مسيرتنا المحبوب» صدمة بالنسبة لي، وإن كانت متوقعة بعض الشيء. وعلى رغم أن الصحافة التزمت بالخط الرسمي القائل إن ماو سليم معافى، وإنه تولى شخصيا جهود الإغاثة في تانجشان، فإن ذلك لم يخدع

الكثيرين. وأخيرا مات ماو، والآن كآخر تمثال لبوذا يزاح من المعبد الذي أوجده بنفسه.

مس الموت حياتي مرات كثيرة، ولكنني في هذه المرة لم أعرف كيف أستجيب. فالرجل - تقريبا الإله - الذي تعلمت أن أحترمه منذ ولادتي، والذي سافرت إلى بكين قبل سنين لرؤيته، والذي بدا فوق الاضطراب السياسي، كان أيضا اليد السوداء التي قادت فوضى واختلال الثورة الثقافية. لم أعبده قط ولن أحزن من أجله.

قطع النشيج المنكسر القلب والبكاء الهادئ عليَّ أفكاري وأعادني إلى الواقع. تذكرت أن عليَّ التصرف بما تمليه المناسبة. أطرقت رأسي بسرعة ومخطت أنفي وفركت عيني. وللمرة الأولى أدركت أن القدرة على التمثيل والمهارة فيها أمر خاص جدا.

تأجلت مهمة الانقاذ في تانجشان: من الواضح أن عبادة قائدنا المتوفى المهيبة كانت أهم من مساعدة الضحايا الذين يعانون من الهزة الأرضية. قلبت إحدى قاعات الطعام إلى قاعة حداد وصُفَّت أكاليل الورق على الجدران بينما تدلت الأشرطة السوداء من السقف. في المقدمة وضع نعش مغطى بعلم الحزب الشيوعي بمطرقته ومنجله الصفراوين والمتصالبين فوق خلفية حمراء. وعلمنا أن النعش يجب أن يحرس كل الوقت و«سيتشرف» كل طالب بالوقوف حارسا له مرتديا بزَّة جيش التحرير الوطني حاملا بندقية.

إن فكرة الوقوف كحارس بجانب نعش فارغ، والتظاهر بأن ماو في داخله أصابتني بالقشعريرة. أملت أن تكون مناوبتي في النهار. ولكنني ندبت وهسياو شي لمناوبة الساعة الثامنة مساء بعد يومين.

وصلنا إلى مطبخ قاعة الطعام قبل عشر دقائق حسب الطلب، وأعطيت كل منا بزّة جندي لم تلمسها مكواة. تجرجرت ساقا بزّتي على الأرض، أما ذراعا سترتي فقد أخفيتا يدي ونزلت حافة قبعتي تحت أذني وحجبت رؤيتي. لففت الساقين والكمّين إلى الأعلى وحاولت إبقاء القبعة خلف أذني واتخذت موقعي.

ناولني الحارس المغادر بندقية قديمة ثقيلة أسندتها إلى أضلاعي لأنني لم أكن أعرف الطريقة المثلى للإمساك بها.

لقد كان نصيبي ونصيب عائلتي من الشدائد التي سببها لنا ماو كبيرا، بل كان من الصعب تصور الآلام التي انتابت الشعب الصيني بأكمله.

مر نصف الساعة ببطء، والطالب الذي أتى ليحل مكاني رمقني بنظرة وانفجر ضاحكا. وسرعان ما وضع يده على فمه مدركا الاحترام الصامت للمكان، لكن عينيه رقصتا فوق يده. ناولته البندقية وغادرت بسرعة.

انتقدتني هسياو شي ونحن عائدتان إلى المهجع: «كيف يمكنك أن ترتكبي مثل هذه الخطيئة الرعناء! ألم يكفك ما شاهدت من صور لجنود وبنادق!» ثم انفجرت ضاحكة هي الأخرى على الرغم منها.

أثناء وقوفي بجانب النعش كنت أمسك البندقية عاليها سافلها (أي سبطانتها نحو الأسفل. فلا عجب إذا كان من الصعب إبقاؤها في مكانها).

بعد يوم واحد من الصلاة التذكارية الوطنية التي أقيمت في ١٨ سبتمبر على روح ماو، أعلن جاو أن الوقت قد حان «لتحويل أحزاننا إلى قوة» والذهاب إلى تانجشان.

تقع تانجشان في سهل الصين الشمالي على بعد حوالى ١٠٠ ميل إلىَ الجنوب الشرقي من بكين وهي عاصمة مقاطعة هبيه. إنها - بالمقاييس الصينية - مدينة حديثة نسبيا نشأت حول مناجم الفحم، ومن ثم ازدهرت بعد التحرير لتصبح مركزا صناعيا رئيسيا خصوصا في إنتاج الفولاذ. فاقم نمو تانجشان السريع الكارثة، لأن المباني الحديثة - وخصوصا شقق ناطحات السحاب - بنيت على عجل وغالبا من قطع كبيرة من الخرسانة المسبقة الصنع. والأسوأ من ذلك أن سكانها البالغين ١,٤ مليون نسمة قد تمركزوا في رقعة لا تزيد على ٥٠٠٠ ميل مربع. كانت الليلة حارة بصورة غير عادية مع رطوبة عالية.

قبل أن نمتطي الشاحنات العسكرية التي كانت ستأخذنا إلى تانجشان، أعطي كل واحد منا خيطا مجدولا من بصلات الثوم. أمرنا جاو بقوله: «يجب أن تأكلوا بضعة فصوص كل يوم لمحاربة الإسهال».

كذلك نصحنا جاو بأن نقوم بمراقبة يقظة لـ «شركائنا» إذ يجب عدم التصوير أو كتابة الملاحظات أو اليوميات أو المذكرات.

لم أكن لأتنبأ قط بما كان ينتظرني، خلال الأسابيع الستة الماضية أمدتنا مصادر الأخبار الحكومية بكثير من المقالات والإذاعات عن نضال أهالي تانجشان البطولي ضد الكارثة، وكيف أنهم أثبتوا انهم «أسياد الطبيعة». لم يسمح للزوار غير الرسميين بدخول المدينة ولم يسمح لأي من السكان الأصحاء بمغادرتها.

سحب سقف الشاحنة القماشي إلى الخلف ليظهر هيكل الشاحنة البشعة الفولاذي ويعطيها مظهر حيوان أخضر

بأضلاعه المكشوفة. صعدت وأمسكت أحد هذه الأضلاع للاستناد: عرفت أننا سنقف محشورين معا كامل الرحلة. اندفعت قافلتنا عبر أكواخ مهلهلة كبديل مؤقت بناها مواطنو بكين.

بعد حوالى ساعة مررنا بجدران متساقطة وبيوت متهدمة. سارت الشاحنة مهتزة ببطء حتى توقفت عند ضواحي فتجتاي - وهي مدينة صغيرة بين تيانجين وتانجشان أصيبت بثانية أسوأ هزة. لم تبق هناك أي منازل قائمة، وما كان مدينة أصبح الآن أرضا يبابا من الحصى والآجر المبعثر وبلاط الأسطح المتكسرة.

وعلى رغم انني كنت راغبة في أن أفعل ما أستطيع، أصبحت أكثر هلعا كلما رأيت المزيد من الدمار من الشاحنة. ماذا سيأمرني جاو أن أفعل؟ هل سأكون جزءا من فريق بحث أمشط الأنقاض بحثا عن الجثث؟ وماذا عن شروط معيشتنا؟ يقول الناس إن المرض ينتشر بعد الفيضانات أو الهزات الأرضية: هل سنشرب الماء الملوث عن غير قصد؟

أصبح النهار جافا وحارا جدا. كان قد بلغ بي التعرق وألم القدمين والاختناق بالغبار مداه، نزلت من الشاحنة وقدماي ضعيفتان ومتصلبتان من الرحلة الطويلة الشاقة.

لم تكن أي من تخيلاتي المسبقة على قدر البؤس الذي أبصرته عيناي. وعلى عكس التقارير الإخبارية فإن اهتزاز الأرض الغاضبة سحق المدينة بكاملها ليمحوها عن الوجود. امتد الخراب إلى مسافة بعيدة، وبدت تانجشان وكأنها مدينة احرقتها فأبادتها الغارات والقنابل.

ما فائدتنا؟ بضعة طلبة جامعيين لا يملكون أي معدات سوى أيديهم العارية؟ كانت رائحة البارود والغبار تنتشر في الهواء الحار والجاف. وعلى الرغم من أن الشعور بالصدمة لم يفارقني، فقد بدأت أساعد في تفريغ المؤن وإعداد مطبخ وأماكن للسكن. في غضون ساعات قليلة أصبحت «أقفاص الأرانب» التي شيدت لنا منظرا لا ينتمي إلى مشهد الدمار حولها.

اشتركنا في مرافق المراحيض مع مجموعة من السكان المشردين والمعسكرين في مجمع قريب محاط بالأسوار. برزت ثلاثة انابيب ماء من الأرض بجانب ممر بين المجمعين. وبجانب «أقفاصنا»، وجد مستودع ذو جدران متصدعة وأسقف متداعية استخدمناه كمكان للاستحمام. ولما كانت المنطقة بكاملها تحمل إشارات تحذر الناس من المواقع حيث مازالت قطع من المباني منتصبة، ولما كانت الهزات الثانوية مازالت نشطة، فقد كنا نغتسل بسرعة غير عادية ونعود مسرعين إلى مساكننا.

كنت متعبة من الرحلة الطويلة فأويت إلى سريري ولكن صورا مرعبة طردت عني النوم لساعات. استيقظت أشكو من الرطوبة والبرد، وفي ضوء القمر الذي أطل عبر الفجوات في السقف استطعت أن أرى أنفاسي تشكل سحابة كثيفة، هبطت درجة الحرارة إلى الصفر. قبل ساعات كنت أرتدي قميصا قطنيا رقيقا والآن هأنذا أرتجف في فراشي.

في صباح اليوم التالي مضغت فصا من الثوم، كما كان متوقعا مني، وأنا أجلس مقرفصة مع الآخرين بجانب النار المتقدة التي حرك فوقها الطباخ وعاء كبيرا من عصيدة دقيق الذرة الصفراء.

الثوم اللاذع جعلني أتقيأ. أمسكت بقية الفصوص في راحة يدي أنتظر العصيدة لتنزلها صحيحة.

جرى تذكيرنا ثانية بضرورة السير مباشرة إلى موقع العمل المعين وعدم مغادرته، وبعدها انقسمنا إلى مجموعات من خمسة أفراد حيث جرى اقتيادنا عبر فيض من الحصى والمباني المحطمة والطرق المسدودة. لم تكن هناك شارات شوارع أو أي علامات أخرى.

قادت صفّي شابة جميلة في حوالى العشرين من عمرها اسمها جانج. ومن الحديث معها التقطت بعض المعلومات التي لم يوفرها «اليد الأولى» جاو. كان معسكرنا على بعد نصف ميل تقريبا من مركز الهزة الأرضية والذي كان سابقا القسم الصناعي من المدينة. وبالقرب منه يقع مصنع فولاذ تانجشان ومصنع نسيج كبير، وإلى الغرب يقع مصنع الأسمنت ومصنع خزف حيث عمل هسياو جانج لمدة سنتين. أما المخازن والفنادق والمستشفى العام لمكتب منجم فحم كابي - لوان (وهو الأكبر في المدينة) فتقع في مركز المدينة.

ولدت هسياو جانج وترعرعت في المنطقة التي أقمنا بها. وعائلتها المؤلفة من أربعة أفراد عاشت في منزل من طابق واحد من الآجر والخشب الذي نجا بأعجوبة من الكارثة. كانت إصابتها الوحيدة ندبة بطول بوصتين على جبينها، لكن عمها الذي كان يعيش في جزء آخر من المدينة قتل. قالت لنا إنها شعرت بأنها محظوظة بالمقارنة مع معظم العائلات، ولكن عندما قادتنا في المنطقة المدمرة حيث ترعرعت ملأت الدموع عينيها.

لم يكن موقع عملنا أكثر من جبل من البلاطات الأسمنتية المكسورة والآجر وبلاط الأسقف. وحالما بددت شمس الصباح الضباب، بدأنا بتصنيف وتكديس الآجر وبلاطات الأسقف الصالحة لإعادة الاستعمال. وسرعان ما تبللت بالعرق وانكشطت بشرة أصابعي. من حين إلى آخر كنت أجد لعبة أو إناء طبخ أو قطعة من الأثاث متشظية - وهي التذكرة الوحيدة على أن أناسا حقيقيين كانوا يعيشون هنا. وعندما ظهر عضو من جسم يد أو قدم أو بعض الشعر المعفر بالغبار - من تحت الغبار والحصى جريت من الخوف، وأحيانا كانت روائح العفن من الأجسام المدفونة طاغية إلى حد كبير.

لم نلبس أي أقنعة لحمايتنا من الغبار أو الروائح الكريهة، ولم تكن هناك معدات سلامة من أي نوع. لم أتقدم بأي شكوى ولم يتقدم أي شخص آخر: كان من العار أن نتحدث عن أي متاعب شخصية وسط مثل هذا الدمار. قبل أن أغادر شنغهاي دست العمة الكبيرة بعض كفوف القماش وسط حاجياتي، ولكني ترددت في لبسها ولم أذكرها للمدرسة التي ضمدت يدي. لم أشأ أن أُنتقد لخوفي من المشاق، فمثل هذا الانتقاد يصمني باللاثورية. فقط بعد إقناع جاو بإمكان إصابتنا بالعدوى ومن ثم العجز أصبح ارتداء الكفوف مقبولا رسميا. وبدا أن كل شخص كان قد جلبها ولكنهم - مثلي - خشوا ارتداءها.

وبعد بضعة أيام، وحين كنا ننتظر - متعرقين ومتسخين - عشاءنا من الملفوف والحساء والفطائر المبخرة، أتت هسياو جاو وعرضت أن تأخذنا لزيارة المصنع حيث كانت تعمل. عندما تناولنا

طعامنا حصلنا على إذن من سكرتير الحزب. وبعد مسيرة عشرين دقيقة، ونحن نطوف حول بلاطات الخرسانة المهشمة وأكداس الآجر الموجودة في كل مكان، وجدنا أنفسنا أمام مبنى رمادي مؤلف من طابق واحد بدا كشيء غريب وسط الأرض اليباب. وعلى رغم أن المصنع كان قد تهدم فإن المستودع الذي بناه الروس في عام ١٩٥٠ بقي سليما ما عدا نوافذه المهشمة.

تكدست داخل المبنى المرتفع السقف صفوف فوق صفوف من الصحون والفناجين وسلطانيات الأرز الصينية دون خلل فوق الأرضية الأسمنتية لم يمسسها أي أذى. ولأيام عدة وليال بعد وصولنا تسببت الهزات البَعْدية المتكررة بالمزيد من الدمار والمزيد من الأسى. ومع ذلك هنا تحت أنابيب «النيون» الباهتة الطنانة قدمت الصفوف المرتبة من الخزف الصيني السليم مشهدا من الراحة والهدوء غير المتوقع إلى درجة أنني بدأت بالبكاء. لم يتكلم أحد.

رفعت صحنا بهدوء ونفخت عنه الغبار. قالت هسياو جانج إن الصحون هي من المراحل الأخيرة من الإنتاج. تلصق النماذج على الصحون وتشوى للمرة الأخيرة. ومن دون تفكير تفحصت الكدسة وأزلت عدة صحون مكسورة ووضعتها جانبا. وعندما استدرت رأيت للمرة الأولى أن هناك آخرين في المستودع يراقبوننا - نساء وأطفال يجلسون فوق فرشاتهم وتحت شبكات البعوض كالأشباح.

في الأول من أكتوبر - العيد الوطني في الصين - استمتعنا بأول إجازة لنا بعد انقضاء اسبوعين كاملين، فقضيت هذا اليوم في غسل ملابسي المتسخة.

وبعد يومين انتقل فريقنا نحو الغرب - ليس بعيدا عن المنهج المتهدم التابع للبلدية. خلال فرصة الغداء طلبت من هسياو شي - قائدة مجموعتنا - الإذن لأتمشى حول المجمع. توقعت الرفض ولكنها قالت إنني أستطيع الذهاب إذا رافقني الطالب هسياو هو: ثنائي «المراقبة المعتاد».

ومع ذلك كنت مسرورة للذهاب مع هسياو هو، فهو رجل واقعي من كمونة في ضواحي بكين لانني شككت في قدرتي على مواجهة مثل هذا المنظر الرهيب بمفردي. تحمل القسم المركزي من المدينة - الذي عانى أسوأ ما في الهزة - معدل وفيات قدره ٨٠ في المائة، والسبب الرئيسي في ذلك هو النوعية السيئة للمباني المنشأة، في هذا القطاع قامت نُزُل عدة امتلأت بالمسافرين من رجال الأعمال.

كان المستشفى الهائل بمجمعه المركزي البالغ خمسة طوابق والجناح الغربي البالغ سبعة طوابق قد افتتح قبل أشهر قليلة فقط، وباستثناء الطرف الغربي حيث بقيت بضع غرف معلقة على طبقة رقيقة تبقت من جدار يبلغ ارتفاعه حوالى ٣ طوابق، تهاوى المستشفى الذي تبلغ مساحته ٦٦٠٠ ياردة مربعة، ناثرا جبالا من الأنقاض فوق مساحة أكبر بكثير من عدة ملاعب كرة قدم، ومن بين الأنقاض برزت هياكل أسرّة معدنية وأبواب نوافذ وأثاث متكسر. تساءلت كم من الأشخاص العاجزين والصارخين قد انسحقوا تحت الانهيار الظالم الذي لم يرحم أحدا. انقلب حزني إلى غضب من الحكومة التي سمحت بمثل هذه الإنشاءات الرديئة، ففي جميع أنحاء البلاد أقيمت مبان مشابهة كأمر مفروغ منه، بما في ذلك مهجعي في بيه - دا.

بعد أربعة أيام عدت متعبة ومتثاقلة إلى معسكرنا أتصبب عرقا، وقد علاني الغبار لأجد أن جاو قد أبعد في سيارة جيب عسكرية. ولم يسمح له حتى بأخذ حاجياته. وبعد عدة أيام من رحيله المفاجئ، وعندما كنا في طريقنا إلى موقع العمل، أمرنا أن نتوقف لإعلان مهم.

خيم على المعسكر جو من التوقعات، انتشرت الشائعات كالنار في الهشيم. ربما اندلعت الحرب مع السوفييت، ربما هاجم تشيان - كاي - تشك الأراضي الصينية من معقله في فورموزا. بعد عشر سنوات من الثورة الثقافية وآثارها المدمرة أصبحت الصين ضعيفة وسهلة المنال لمن يهاجمها من جهة أو أخرى.

وقف رجل زاهد نحيل من بيه - دا فوق صندوق قرب موقد الطبخ وطلب الانتباه.

صاح بنبرات مدوية ومبتهجة بالنصر «لقد سُحِقت عصابة الأربعة! لقد اعتُقِلوا دون أن يبدوا أي مقاومة! أعفي «اليد الأولى» جاو من سلطاته». أخبرنا أن وجودنا في تانجشان كان خطأ - بل مثالا على تزلف جاو لجيانج تشنج ومجرميها. بينما اعتقدت أنا على العكس أن هذه كانت المرة الوحيدة التي تبرر أي انقطاع عن الدراسة.

كان علينا العودة إلى الحرم الجامعي في اليوم التالي. لم يتضمن حديثه ولو كلمة واحدة من الاعتراف بعملنا الشاق أو بقيمة ما قدمناه من مساعدة. لم نكن نستحق، في رأيه، غير اللوم؛ إذ كنا في نظره نقوم بعمل أملته العصابة. لم يكن هذا غريبا عن مواقف سابقة: الخطأ أصبح فجأة صوابا، وانقلب الصواب فجأة إلى خطأ.

ولكن فرحي لسقوط جيانج تشنج وملايينها من الزبانية سرعان ما فقد جذوته. وحتى ما أملته، في أن يكون هذا نهاية للحركة السياسية الرهيبة الهدامة التي بدأت قبل عشر سنوات، بدأ يتلاشى أمام إدراكي أنني لن أنال سوى نكران رسمي للجهد البسيط الذي قدمته في تانجشان.

في الصباح كان هناك وداع دامع لهسياو جانج والكثيرين من الناجين والمعترفين بالجميل ممن أتوا لوداعنا. لم يكن لدي شك في أن تانجشان ستنهض ثانية، وستكون أفضل وأحدث، وسيكون دمارها مجرد ذكرى حزينة. لكنني لم أكن متأكدة على الإطلاق أن تخريب الثورة الثقافية سيجري إصلاحه.

كانت بكين في حالة احتفالية. كانت طقوس الـ «دازي باو» تشابه كثيرا طقوس الثورة الثقافية، فقد ألصقت الملصقات الصغيرة الجديدة في كل مكان، وسار الناس في الشوارع يحملون اليافطات والاعلام الورقية، ولم يتغير شيء سوى شعارات وأسماء الأشرار. لم أتوقع عودة مظفرة من تانجشان، لكن أغضبني الاستقبال البارد الذي كان في انتظارنا في أعين أولئك الذين حلوا محل مؤيدي جيانج تشنج في الجامعة، كانت مهمتنا الإنقاذية مجرد خدمة لطموح جيانج تشنج السياسي للاستيلاء على السلطة بعد وفاة زوجها.

يوما بعد يوم وأسبوعا بعد أسبوع غرقت في مستنقع الاجتماعات والمناقشات التي تشجب مجموعة جديدة من «الساقطين» حلّ اسم جيانج تشانج وأسماء أتباعها الكثيرين، الذين وضعت علامة × سوداء كبيرة قربها، محل أسماء دنج -

هسياو - بنج ومؤيديه. نُسب كل عمل خاطئ خلال السنوات العشر الماضية إلى عصابة الأربعة، ونُسبت كل هفوة في القسم إلى جاو الذي اختفى من حياتنا إلى الأبد.

شاركت في الابتهاج القلبي للناس في كل البلاد لشعورنا بأننا قد نكون تخطينا مرحلة الجنون ورميناها خلف ظهورنا، لكني لم أستطع إلا أن أتساءل كيف أن هذه المجموعة المؤلفة من أربعة أشخاص - التي لم تكد تعرف قبل عشر سنوات - استطاعت وحدها أن تخرب بلدا سكانه ٩٠٠ مليون نسمة. ألم يكن لهم زبانية؟ ألم يستفد أحد سواهم من سياساتهم الراديكالية؟ لقد حدث سقوطهم بسرعة في أعقاب وفاة ماو.

أعلنت القيادة الجديدة برئاسة رئيس الوزراء الجديد - عن بناء ضريح في وسط ساحة تيان - آن - مين ليضم رفات ماو. يا له من خداع! فمن جهة، لامت الحكومة العصابة لكل سوء طرأ خلال العقد الماضي، ومن جهة أخرى استمرت في إحاطة قائدها الحقيقي بالتمجيد الأبدي والاحتفاظ بالنظام السياسي الذي جعل الثورة الثقافية ممكنة.

أثر الانقلاب السياسي الذي اكتسح الحرم الجامعي على دراستي. ولدهشتي وسروري، سمح لي بقراءة الأدب الأجنبي على رغم أن معظمه كان من النسخ المختصرة. ووزع الأساتذة علينا نسخا من «التوقعات العظيمة» و«الأوقات الصعبة» لديكنز «والأخت كاري» لدرايزر، وهم لا يزالون يرتعدون خوفا. هذه الكتب كانت مأمونة نسبيا لانها كشفت الجانب المظلم من المجتمع الغربي. وفي صف آخر، درسنا «جين إير» و«ريبيكا»، مع الروايتين

اللتين سمحتا للتفسير السياسي المتوقع: كانت «جين» ضحية البورجوازية وقد استغلت البطلة الشابة «ريبيكا» من قبل السيدة البورجوازية الغنية. لم نتحدث مطلقا عن الجوانب الرومانسية لهذه الكتب: فقط، إن كل ما يحكم المجتمع الغربي أيام ديكنز وفي الوقت الحاضر هو المال. لقد أظهر خروج هذه الكتب إلى ضوء النهار سرعة التغيرات ومداها.

فتحت المكتبة أقبيتها السرية - كما يقال - وقدمت كل كتبها للطلاب والمدرسين. وعادت إلى الرفوف المجلات والقواميس الحديثة باللغات الأجنبية في ظل تحذير ملصق على الجدار: «مراجع فقط» أو «اقرأ مع توخيك الحذر من الرؤى البورجوازية».

بعد ظهر أحد الأيام في أوائل نوفمبر أوقفتني سكرتيرة القسم وأنا في طريقي إلى المكتبة. قالت لي «يا هسياو يي! لك رسالة هاتفية».

إحداهن ادعت أنها قريبة لي، دعتني إلى فندق تشيان مين في الساعة السابعة، لم تذكر المتحدثة اسمها.

قلت لنفسي لا بد أن هناك خطأ ما، فمنذ موت والدي لم تعد كلمة «قريب» تعني لي شيئا. ففقرنا ووضع يتمنا أخاف معظم أقارينا خشية أن نعتمد عليهم ماليا. عندما هاجمنا الحرس الأحمر لم يساعدنا أحد. لقد اعتبرنا أنفسنا دائما وحيدين. إذن من كانت هذه القريبة التي تقيم في فندق فخم مقصور على أصحاب السلطة والمال؟ أخذ الفندق اسمه من تشيان مين - البوابة الخارجية للمدينة المسورة القديمة - ويقع قرب الطرف الجنوبي من ساحة تيان آن مين.

بفضول، ولكن بحذر، بدأت رحلة الساعتين إلى مركز المدينة فوصلت مبكرة نصف ساعة. ذكرت التعليمات أن مقابلتي للغريبة الغامضة ستكون عند الباب الأمامي لمجمع الفندق لأنني لن يسمح لي بالدخول وحدي. كل الفنادق - بل أي مبنى عمومي على أي حال - محاطة بالأسوار ولا يستطيع أحد سوى كبار المسؤولين وضيوفهم تجاوز حراس البوابات.

اتخذت موقعا على رصيف الشارع المزدحم تجاه البناء القديم الرائع بسقفه البارز وأفاريزه المتجهة إلى الأعلى، كان الشارع خفيف الإضاءة، ولكن عبر الأبواب الزجاجية أظهرت الأضواء الساطعة جماهير الضيوف.

تمنيت ألا تكون الرسالة التي تلقيتها خاطئة، فقد كنت أتوق لفرصة زيارة فندق من الداخل للمرة الأولى في حياتي. في الساعة السابعة عبرت الشارع وأريت البواب رسالتي الهاتفية التي كتبتها السكرتيرة لي، لكنه لم ينظر إليها.

قال متهكما «أتريدين أن تنطلي علي مثل هذه الحيلة؟».

أجبت على إهانته بنظرة ثابتة «هل تظن أنني قضيت ساعتين في الحافلة لكي أخدعك؟» سمح لي بالمرور، لكنه طلب مني أن أقف عند أسفل سلم الدرج العريض أمام الفندق لكي يستطيع مراقبتي. وعندما اقتربت من المكان شاهدت امرأة قصيرة القامة نسبيا وذات شعر أبيض تقف على الدرجة العليا وتحدق فيّ. قدرت من شعرها المقصوص بانتظام والمضموم خلف أذنيها، ومعطفها العسكري الأنيق والكبير الحجم المتدلي فوق كتفيها أنها شخص مهم. لم

أرها من قبل. استنتجت أنها لا يمكن أن تكون مصدر الرسالة، كنت على وشك الانصراف عندما تكلمت. «هسياو يي؟».وقفت محتارة. «آه - سي؟».

ما أغرب أن أسمع اسم عائلتي من شفاه غريبة. والشيء التالي الذي لاحظته هو أن البواب ظهر بجانبي.

قالت المرأة «لا بأس أيها الرفيق، أعتقد أنها حفيدتي آه - سي التي رأيتها في الصور فقط».

قال الرجل بفتور قبل أن يعود إلى مكانه «آه! رائع!».

قلت لنفسي «حفيدة؟» جدتاي ماتتا قبل أن أولد، وأعرف تماما كيف تبدو زوجة جدي.

«أنا يي - بو يا آه سي» يي - بو تعني أخت الجدة. أنا الأخت الصغرى لجدتك لأبيك. كنت أعيش في تشنج - يانج أيضا.

«إنك عمتنا من مقاطعة جيانج هسي؟» كدت ألفظ التعبير الذي نستعمله عادة عندما كنا نتحدث عنها «عمتنا الثورية». كانت دائما عضوا مخلصا ونشيطا في الحزب، وهربت من تشنج يانج لتتجنب زواجا رتبته العائلة - وانضمت فيما بعد إلى الثورة الشيوعية.

قالت وهي تبتسم «هذا أنا - تلك العمة من جيانج هسي حيث توجد أختك الصغرى».

«كيف أحوال أختي؟ هل رأيتها أخيرا؟».

لقد بقيت قلقة عليها خلال السنوات القليلة الماضية. مازالت رسائلها مليئة بالاكتئاب لم يزدها حظي السعيد في الالتحاق ببيه - دا إلا شعورا بالمزيد من الاكتئاب.

ذكرت أختي الخامسة في رسائلها أنها عثرت على العمة وزارتها وعائلتها في نانشانج. كان زوج العمة نائب حاكم مقاطعة جيانج هسي قبل الثورة الثقافية، وهو الآن في إجازة مرضية دائمة براتب كامل. أعيدت العمة إلى منصبها المرموق في الاتحاد النسائي في المقاطعة. وعلى رغم أنها وزوجها ادعيا - عندما طلبت أختي الصغرى منهما أن ينقلاها من المزرعة - أنهما لا سلطة لهما، فإن أولادهما الثلاثة قد دخلوا الجامعة بعد قضاء الحد الأدنى البالغ سنتين من العمل في المزارع المحلية.

ملأني رفضهما مساعدة أختي - التي بقيت في المزرعة لمدة سبع سنوات - بالغضب الشديد. غالبا ما تمنيت أن أقابل عمتنا الثورية وجها لوجه لأقول لها رأيي فيها. ولكنني الآن احتويت غضبي ونفوري، فالأمور الآن في تغير.

قادتني إلى الفندق الذي كان يغص بممثلي الدوائر الحكومية، مثل الاتحاد النسائي ووزارة الزراعة والوزارة الثانية لصناعة الآلات، وقالت لي إنهم جميعا هنا لاجتماعات مهمة. أخبرتني بعبارات مستهلكة فارغة أن هدفهم هو استتباب النظام بعد حالة الفوضى وتصحيح ما صدر من أحكام خاطئة. في غرفة طعام كبيرة وفخمة مملوءة تماما بالطاولات المستديرة الكبيرة المغطاة بالقماش الكتاني وصحون الأطباق الشهية تحدثت العمة عن أعمالها، لم أستطع أن أركز انتباهي على ما راحت تتحدث به فقد أُخِذت بما رأيته حولي من وفرة وغنى. ناقض الطاعمون الشعار الذي سمعته طوال حياتي: «ليعطِ كل حسب قدرته وليُعط

كل حسب حاجته». كان الناس يلتهمون الطعام حسب استيعابَ معدتهم.

بعد الغداء قادتني العمة إلى الأعلى وقدمتني إلى زملائها الكثيرين قائلة لهم إنني حفيدتها وإنني طالبة لغة إنجليزية في بيه - دا مما أزعجني كثيرا. لم أكن حفيدتها ولا أريد أن أكون كذلك. كانت تستخدمني لتتباهى ليس إلا. وما قولها إنني طالبة في بيه - دا سوى طريقة للتبجح، قاصدة بأنها مهمة ولها سلطة كافية لتدخلني إلى إحدى أفضل الجامعات في الصين.

عندما انتهت هذه الجولة العظيمة كانت حنجرتي جافة، ووجهي يؤلمني من الابتسامات الصفراء المنافقة. بقيت مرتبكة بشأن دعوة العمة، وفضلا عن ذلك كان الإحباط يتأجج داخلي ويلسعني بناره. لم نصل بعد إلى غرفتها. كنت أنتظر ذلك كي أتحدث عن أختي.

أعلنت العمة أنها اتخذت الترتيبات لأبقى معها لليلة واحدة، وافقت على ذلك فأخذتني إلى الطابق الثالث وقادتني إلى أفخم جناح رأيته في حياتي.

كانت أرضية غرفة الجلوس الواسعة من الخشب الصلب وكانت الغرفة مؤثثة بالكنبات المخملية. وعلى طاولة في إحدى الزوايا وضع جهاز تلفزيون كبير. خلف الستائر المخملية الثقيلة تقع غرفة نوم تحتوي على سريرين مزدوجين وطاولتين تتناسبان معهما. كانت السجادة الصوفية المصنوعة باليد تقريبا بسماكة لحافي في مهجعي ذي الأرضية الإسمنتية.

قدمتني العمة إلى ضيفتها وهي امرأة طويلة وقوية في العمر نفسه تقريبا (يا آه - سي! هذه صديقتي لاو - باي». «نادني ماما باي» قالت المرأة بلهجة بكين الواضحة، وهو طلب غريب من شخص قابلته للتو.

وأثناء استحمامي فكرت كيف اتوسل مساعدة العمة. سأخبرها إن اضطرني الأمر كم عانت أختي طويلا من اكتئابات عميقة وكم أخاف على سلامتها، على رغم أن هذا القول سيفقد الأخت الخامسة ماء وجهها.

بعد نصف ساعة خرجت من غرفة الحمام التي ملأها البخار. كانت المرأتان لا تزالان تتحدثان وتتذكران الأيام الخوالي.

قالت العمة وهي تجذبني إليها «انظري إليها، إنها تشبه أختي».

شعرت بأن على عمتي أن تشير إلى والديّ بطريقة أو بأخرى، فأي تجاهل لذكرهما لن يدل سوى على افتقادها للكياسة. عرفت جدتي - اختها التي ماتت منذ زمن طويل - فقط من الصور المصفرة التي صادرها الحرس الأحمر أثناء الغارة.

انتظرت وانتظرت واختلست النظر إلى الساعة، متمنية أن تتوقف المرأتان عن الكلام، في نزقي بدأت أتململ. عندما تجاوزت الساعة العاشرة والنصف، دعت العمة لاو - باي لتقضي الليلة في الجناح. عندها لم أستطع أن أسيطر على نفسي أكثر من ذلك.

سألتها بفظاظة «ماذا عن أختي الصغرى يا عمتي؟ الآن بعد أن سقطت عصابة الأربعة، هل ستساعدينها؟ لا يحتاج إخراجها من المزيلة إلى الكثير من الجهد، أليس كذلك؟».

توقفت عن الكلام مدركة أن الملاحظة الأخيرة كانت وقحة وأن الدموع مـلأت عيني. لماذا لم أستطع أن أكون أكثر ديبلوماسية؟ أدهش انفجاري لاو - باي.

ربتت العمة على ظهري وهدأت من روعي «اهدئي، اهدئي، أحوال اختك جيدة في المزرعة، زارتنا مرارا ولم تذكر أي مشاكل ولم تطلب مساعدتنا، لا أفهم لماذا تهتمين بها إلى هذا الحد».

كل هذه الأكاذيب كانت لمصلحة لاو - باي. كانت أختي يائسة إلى درجة أنها اقتربت من الانتحار لوقت طويل. ولكن العمة تابعت لتؤكد للاو - باي أنها بذلت اقصى جهودها لتساعد أختي بدون فائدة. ومن طريقة كلامها ادركت انني لا أستطيع أن أتوقع أي دعم منها، بالإضافة إلى ذلك خفت أن أكون قد تجاوزت حدودي وأفسدت الأمور بالنسبة إلى أختي. أردت أن أغادر على رغم الوقت المتأخر، لكنني كنت ادرك انه لن تكون هناك أي حافلات تنقلني إلى الطرف الغربي من المدينة.

عرضت كلتا المراتين أن تقاسماني السرير لكنني أبيت. لففت نفسي في اللحاف على السجادة بعيدة عنهما قدر الإمكان، وحالما شعشع ضوء النهار في الشق بين الستائر الثقيلة، غادرت دون أن أوقظهما.

في الحافلة وبخت نفسي ثانية، إن اضطرت أختي الصغرى للبقاء في المزرعة بقية حياتها فلن يلام أحد سواي. شتمت نفسي طوال طريق العودة إلى الحرم الجامعي.

بعد يومين، وردت رسالة هاتفية أخرى تطلب مني العودة إلى الفندق فمزقتها إربا إربا. ما أزال لا أعلم لماذا اتصلت بي عمتنا

الثورية فجأة، أو لماذا أظهرت الاحتقار لعائلتي والاهتمام بي، ولم أهتم لذلك.

ازداد الأمر غموضا عندما هاتفتني لاو باي في أحد أيام السبت بعد لقائنا بقليل لتخبرني أن عمتي غادرت بكين محبطة، لأنني لم آت إليها في الفندق. بدت لاو - باي صدوقة. دعتني إلى بيتها لأقضي عطلة الأسبوع. قالت إنها أرملة وحيدة وستسعدها رفقتي، وإذا وافقت فسترسل سيارة الوزارة لتنقلني.

شعرت بالإغراء، سمعت من حديثها مع العمة أنها أرملة مسؤول كبير في وزارة القطارات، وتعيش في بيت كبير في المدينة، وأحببت فكرة قضاء عطلة الأسبوع في بيت جميل. وبالإضافة إلى هذه الإغراءات، كان هناك إمكان أن تساعد ماما باي أختي الصغرى إن لم تساعدها ييي بو.

وبدلا من أن تأخذني إلى إحدى ناطحات السحاب في شانجان آفينو حيث - حسب معلومات «قوس قزح» - يعيش الكثيرون من المسؤولين الكبار في الدولة والحزب، انعطفت سيارة الوزارة إلى منطقة أكواخ وتوقفت أمام مسكن من طابق واحد - هو واحد من حوالى اثني عشر مسكنا آخر - في منطقة هادئة. بدا أن لكل بيت جدرانا من قصب مجدول وسقفا من القش، وهو أسلوب غريب من البناء في المدينة. قادني السائق إلى الباب وأدخلتني خادمة في أواسط العمر، قدمت نفسها إلي بأنها آه - يي، وعادت إلى المطبخ.

حيّتني ماما باي بالترحاب وبصوت عميق وجاد، وعلى رغم ان شعرها كان قصيرا ومدسوسا بدبابيس خلف أذنيها بالطراز اللاأنثوي لكبار الموظفين كانت ترتدي جاكيتا رصاصيا حديثا بدلا من الجاكيت الماوي الشائع. قادتني في جولة في البيت

المؤلف من ثلاث غرف نوم تزينه غرفة جلوس ومنطقة للطعام وكماليات غير مألوفة في بلد يعيش معظم عائلاته في غرفة صغيرة واحدة ومطبخ مشترك. كانت الأرضية اللماعة المصنوعة من الخشب الصلب، والحمام والمطبخ المغطيان بالبلاط يفوقان التصور. لاحظت أن السقف والجدران من الجبس وسألتها كيف يمكن ذلك وقد بني البيت من الأغصان والقش، فأغرقت في الضحك. قالت إن البيت مبني من الآجر وسقفه مبلط. أما الأغصان على الجدران الخارجية والقش على بلاط السقف فهي لتبريد المنزل في الصيف وتدفئته في الشتاء، وأضافت بابتسامة عريضة أن ظهور البيت أقل روعة مما هو في الحقيقة هو ميزة إضافية، فمظهر البيت الخارجي تدليس، والموظف الكبير يمكن أن يعيش في رفاهية بينما يتظاهر بعكس ذلك.

ضحكت ماما باي وقالت «لقد خدع مظهر البيت طالبة جامعية مثلك، هي حيلة ناجحة، أليس كذلك؟».

أثناء تناول الشاي في غرفة جلوس مريحة أخبرتني ماما باي عن عائلتها، فابنها الأكبر ضابط جيش محترف يعيش مع زوجته في نان جنج - أحد مراكز مناطق الصين العسكرية العشر. وجيان - جوو ابنها الأصغر الذي يعني اسمه بناء البلد - قائد فصيل في حامية بكين. وتعيينه في الضواحي الشرقية يمكنه من قضاء بعض عطلات الأسبوع في البيت. كان جيان - جوو قد تقدم بطلب لترك الجيش. وتركه للقوات - كضابط - سيكون مختلفا عن ترك أي جندي عادي مسرح من الخدمة.

كان يطلق على الضباط تسمية «منقولي المهنة» مثل «اليد الأولى» جاو ويضمنون عملا جيدا في الحكومة. وكعضو في الحزب سيكون مستقبل جيان - جوو زاهرا وسعيدا.

وعلى رغم أنني تفهمت اعتزازها بولدها، فإن تبجحها أزعجني، فهي إما أنها لم تدرك ما عانيت وما عانى معظم الناس في مثل سن ابنها ولا نزال نعاني، أو أنها لا تكترث. لم أستطع أن أعرف ما إذا كان عماها إراديا أو جهلا، ولكنني بدأت آسف للموافقة على البقاء معها أثناء عطلة الأسبوع لمرافقتها.

وأثناء حديثنا كانت آه - يي مشغولة في المطبخ كما لو كانت تعد وليمة، لماذا تبذل مثل هذه الجهود لتجهيز العشاء لثلاثة أشخاص فقط؟ وجاءت الإجابة عن السؤال عندما - ويا للمفاجأة - دخل إلى الغرفة شاب يرتدي بدلة عسكرية. كنت متأكدة أن ماما باي أخبرتني على الهاتف أنها ستكون وحيدة خلال العطلة الأسبوعية.

حياني بابتسامة عريضة قائلا «كم من الوقت انتظرت يا هسياو يي؟».

سألت بارتباك «انتظرت؟».

مدّ يده بسرعة قائلا «أنا جيان - جوو - الابن الأصغر في العائلة، ربما أخبرتك الوالدة بعض الأشياء عني، إنني سعيد برؤيتك هنا».

«يشرفني أن أصافح أحد أفراد جيش التحرير الوطني المحبوب، من الواضح أنني لست في حاجة لأن أخبرك من أنا».

كان جيان - جوو الذي يكبرني بسنة واحدة - رجلا بهي الطلعة ذا وجه دائري وخدين ورديين. وجهه الطفولي جعلني أتساءل كيف استطاع أن يحافظ على سلطته على مرؤوسيه الأقوياء في الجيش.

بعد العشاء الذي تميز بأحاديث متفرقة عامة، انتحت ماما باي بنفسها لمشاهدة التلفزيون الملون في غرفة نومها. ورغم جهودنا لنكون ودودين، وجدت وجيان - جوو أن حديثنا كان كعربتين تسيران على خطين متعاكسين وهذه نتيجة طبيعية لخلفيتينا وتربيتينا المختلفتين تماما. أما الموضوع المشترك الذي وجدناه فهو الكره لعصابة الأربعة وخصوصا جيانج - تشنج. أدركت أن كبار الموظفين يكرهونها أكثر من المواطنين العاديين على رغم أن آلام الفئة الأخيرة كانت في رأيي أكثر عمقا. لم يذكر اسم ماو - تسي - تونج في حديثنا ولو مرة واحدة.

قضيت ليلة مع ماما باي دون أن يغمض لي جفن. كانت الفرشة الطرية واللحاف المنعدم الوزن كماليات غريبة جدا علي، ووجدت أن من الغريب أن أشترك في سرير مع شخص غير العمة الكبيرة. بعد الافطار أصر جيان - جوو أن يسير معي إلى محطة الحافلة. كان يوما باردا ولكن السماء كانت زرقاء صافية. سرنا على الرصيف لفترة في صمت قبل أن يقف أمامي ويسألني بلهفة: «ما رأيك في شخصي؟».

فوجئت وقلت ضاحكة «أعتقد أنك شخص جيد».

اندفع وهو ينظر في عيني وقال «أنا أميل إليك حقا كما تعلمين. أشعر كأنني اعرفك منذ وقت طويل، أعلم أنك ستتخرجين خلال سنة أو نحو ذلك، وعندها سأكون قد تركت الجيش، ربما يقلقك أين سيكون تعيينك للعمل، لا تقلقي بهذا الشأن، من شبه المؤكد أن والدتي ستحصل لك على عمل في بكين».

شعرت كما لو أنه قذف بكوب من الماء البارد في وجهي، وفجأة اتضح لي كل شيء. لقد كنت بيدق مرتبي زواج، وكما اعتدت في معظم تجاربي الحياتية أجدني أمام سخرية جديدة من سخريات القدر. امرأتان شيوعيتان أصليتان، من المفترض أنهما انصرفتا عن كل التقاليد الإقطاعية، تحاولان أن تزوجاني إلى هذا الشاب الصدوق الذي ظن كل الوقت أنني كنت أدرك ما يحدث.

كيف يمكن أن أكون مغفلة ساذجة بحيث لا أفهم ما يجري؟

وكيف يمكن أن تعاملني هاتان السيدتان المسنتان؟ بالنسبة إليهما سيكون تزويج يتيمة مثلي إلى شاب غني وحسن الصلات مثل جيان - جوو مثل إسقاط فأرة في وعاء من الأرز، فلن أكون إلا مطيعة وممتنة إلى حد الهذيان. بالنسبة إليهما، ماذا ستكسب عائلة جيان - جوو؟ لماذا فضلتاني عن غيري من الشابات المتنفذات؟ أولا: نظرا إلى عدم وجود والدين لي، سأكون قادرة على تكريس كل اهتمامي لوالدة جيان - جوو؛ ثانيا: اعتبر الشماليون مثل ماما باي أهالي شنغهاي أكثر ثقافة من الفتيات المحليات؛ ثالثا: انني رفيعة الثقافة. تابع جيان - جوو ثرثرته كما لو أنه قرأ أفكاري «للغة الإنجليزية اختصاص رائج الآن، وستكون مهنتك مطلوبة جدا، يمكن أن نعيش مع والدتي هنا أو نجد شقة خاصة بنا بعد أن نتزوج، أيهما تحبين؟».

سألته بتهكم «نتزوج؟ ألم تخبرك العمة المحبوبة أن والدي كان رأسماليا مدانا وأنني ورثت دمه الملوث؟ ألم تخبرك أن لي صديقا في شنغهاي؟».

لم يرتبك جيان - جوو «أعرف كل ذلك، لقد قابلت عمتك، أخبرتني كل شيء عن والديك المتوفين ويؤسفني ذلك. ولكن نظرا لأن والديك توفيا قبل سنوات كثيرة، أعتقد أن التغيرات القادمة لن تسمح لخلفيتك الطبقية بأن تعيقك. أما بشأن صديقك فهو مجرد صديق، أليس كذلك؟ فالأمر ليس كما لو كنتما مخطوبين».

تصاعد غضبي، يبدو أن العمة التي رفضت أن تستفسر حول والدي المتوفين أو أحوال إخوتي وأخواتي لم تشعر بالغضاضة لجعلهم مادة حديث مطول مع الغرباء، وعلى رغم أنها هي ذاتها هربت من زواج مسبق الترتيب، لم يراودها الحرج لاستخدامي توددا إلى ماما باي، رفيقتها في السلاح ذات النفوذ الواسع.

نظرت إلى وجه جيان - جوو البريء والمتلهف، فلم أستطع أن أغضب منه، لكنني كنت مغرورة جدا إلى حد منعني حتى من التفكير بإقامة علاقة معه.

تمتمت قائلة «إنني آسفة، لا أعتقد أنه من اللائق أن أتخلى عن صديقي بسهولة». ودعته على عجل وعدت إلى الجامعة.

الحقيقة أنني شعرت بأني محمية ومقيدة بعلاقتي مع هسياو جاو.

في الصين، عندما تبدئين في «مواعدة» شخص ما تصبحين سجينة تستبعدين كلية عن الآخرين من الجنس الآخر. ليست هناك درجات من الارتباط، فكل شخص يعرف أنكما ثنائي، ويكفي هذا الآخرين فهما. وكامرأة مرتبطة برجل في شنغهاي، كنت في مأمن من مغازلة الآخرين، معظم النساء تتزوج أول رجل

تواعده، تماما كما فعلت والدتي وكما ستفعل أخواتي، والمرأة التي تشكل فردا من الثنائي سينظر إليها الناس كامرأة متحللة إن أقامت صداقات مع رجال آخرين. وحتى أولئك الفتيات اللواتي ينفصلن عن أصدقائهن يزدريهن الأصدقاء والعائلة إذا بدأن بالمواعدة مباشرة. إنها إحدى موروثات المجتمع الإقطاعي الذي كان يتوقع أن تبقى المرأة التي توفي زوجها وحيدة طيلة حياتها بغض النظر عن عمرها.

ومع ذلك، بدأ مفهوم جديد للحب يتبرعم داخلي عبر قراءتي للروايات الغربية مهما حاولت أن أنكره. تساءلت كيف تكون الحال لو جريت الحب الرومانسي العميق غير متأثرة بالواجب والقواعد والمصلحة. ليت الحب في مجتمعنا لم يكن خليطا من الأخلاقيات الاقطاعية والعقيدة الشيوعية!

لم أجب على مكالمات ماما باي أو أذهب إلى بيتها عندما دعتني ثانية.

بعد أسبوعين وفي صباح أحد أيام الأحد وعندما كنت في طريقي إلى المكتبة، وجدت جيان - جوو في انتظاري على الرصيف خارج المبنى. أراد أن يتحدث إلي - عرضيا كما قال - أي أنه لن يتحدث في موضوع علاقتنا. صحبته معي إلى مهجعي وجلسنا هناك. أريته كتبي المقررة وأسمعته شريط «لينجوا فون»، أبدى اهتماما عظيما بعملي وأثناء الحديث بدأت أميل إليه أكثر فأكثر.

فكرت عميقا طويلا خلال الأسبوعين الماضيين، لو وافقت على إنهاء علاقتي بهسياو جاو وتزوجت جيان - جوو لأصبح لي مستقبل مأمون زاهر، ومكان رائع للعيش دون المزيد من القلق حول المال. بعد حياة من الفقر وحركات سياسية مدمرة، تقت إلى وجود مستقر

وهادئ. لقد دغدغ انجذاب شاب كجيان - جوو إلى كل ما لدي من عقد نقص. بدا ذكيا وجديا، كما أنني فطنت إلى أنني باستخدام نفوذ عائلته أستطيع أن أساعد أخوتي وأخواتي والعمة الكبيرة، ومن شبه المؤكد أنني سأخرج أختي الصغرى من تلك المزرعة اللعينة.

ولكن لي صديقا في شنغهاي وعدت ألا أتركه، وعلى رغم أننا افترقنا لمعظم الوقت بعد أن غادرت المزرعة، فإنني وهسياو جاو نحب بعضنا بعضا. عندما كنا معا لم نتحدث كثيرا عن المستقبل كثنائي، ولكن كان من الواضح لنا ولجميع من حولنا أننا سنتقاسم المستقبل. ألزمني الواجب ألا أتخلى عنه.

ولذلك، عندما ودعت جيان - جوو عند البوابة الخارجية للجامعة طلبت منه ألا يأتي لرؤيتي بعد الآن. أطرق برأسه ووافق.

في ربيع ١٩٧٧ - السنة الثالثة لي في بيه - دا، جرى تعيين شاب بريطاني ليعلمنا اللغة الإنجليزية المحكية للمساعدة في إعدادنا للعمل في حقل التخرج. خصص هذا المشروع - بالتنسيق مع مكتب السياحة - فرقا من طالبين أو ثلاثة طلاب للمجموعات السياحية كأدلاء ومترجمين.

كان مايكل - كما طلب منا أن ندعوه (بدلا من لاو - شي أي مدرس) - رجلا طويلا في أواخر الثلاثينيات من عمره، ذا أنف أحمر كبير ووجه حيوي. دعا نفسه بفخر صديق الشعب الصيني وأخبرنا أن أهله يمتلكون متجر كتب في لندن يروج الكتب والمجلات الصينية.

كان مايكل المدرس الأجنبي الثاني، والأولى امرأة أمريكية تزوجت طبيبا صينيا اسمه يي. طلبت منا أن نناديها يي - ما -

هسي - لي، وهو اللفظ الصيني لاسمها الإنجليزي (مارشا)، ونظرا لاشتراكي وإياها في الاسم نفسه، وهو اسم غير شائع في شمال الصين، فغالبا ما كانت تجرني من مقعدي في الفصل وتجعلني أرقص معها في الممرات أو تدور حول نفسها عندما أرفض دعوتها بخجل. وغالبا ما كنت وصديقاتي نتساءل عما إذا كان جميع الأمريكيين منشرحي الصدر وخالين من الهموم، وربما معتوهين نوعا ما. ظننت أن كل الأجانب على الأرجح كذلك.

ولكن مايكل بدا خجولا وناعم الحديث ومؤدبا ورسميا، وعلى النقيض من الصينيين، يفتح الباب للطالبات ويصر على أن نسير أولا، شكرنا لجهودنا في الدراسة وحتى من أجل الإجابات الخاطئة في الفصل. ومن المدهش أنه يعتذر عندما يعطس، في حين أن بعض زملائي في الصف ينظرون حولهم بلا مبالاة بعد أن يبصقوا على الأرض. سلوكه كان جديدا بالنسبة إلي. ترعرعت في بيئة بدا فيها أنه لا يمكن إنجاز أي شيء من دون الصراخ والصياح وسمي فيها التهذيب والتجمل توافه بورجوازية.

في الوقت نفسه، جعلتني دروسه أدرك قصور لغتنا الإنجليزية وخصوصا في الحديث. شعرت أن معرفتي «كفطائر العجين المسلوقة في ابريق» جاهزة للتقديم، لكن من المستحيل إخراجها عبر الرقبة. توسع تدريس مايكل لينتقل إلى المكتبة وقاعة الطعام حيث أعطانا دروسا عملية. وحتى أنه دعا مجموعة منا إلى فندق الصداقة حيث يقيم ومعظم المدرسين الأجانب. الفندق مجمع محاط بالأسوار ويتضمن حوالى ١٢ مبنى ويقع على بعد ٤

محطات حافلات من بيه - دا. وهناك قدم لنا الشاي على الطريقة الإنجليزية.

أدهشني كبر شقته وكثرة كتبه - رفوف كثيرة من الروايات. وهو يمتلك آلة تسجيله الخاصة وجهاز راديو. ولكن المفاجأة الكبرى هي الطريقة التي يتصرف بها مايكل والأجانب الآخرون في صحبة بعضهم لبعض، إنهم منفتحون تجاه بعضهم يعبرون عن أفكارهم وآرائهم بحرية ويضحكون ويمزحون. بدوا واثقين وغير خائفين، ولا بد أنهم اعتقدوا أننا جميعا صبيانيون ومتخلفون عندما انكمشنا خجلين في مقاعدنا، واثنان منا يقهقهان بارتباك. ولكني تعلمت منذ الطفولة أن أحترس بأفكاري بعناية، ما لم أكن مع أصدقاء مقربين مثل قوس قزح. السنوات العشر الأخيرة علمتنا جميعا أن أي شخص يمكن أن ينقلب ضدنا، حتى الأصدقاء والعائلة.

بعد ذلك بوقت قصير، استدعيت مع طالبتين أخريين إلى مكتب رئيس القسم الجديد - هان - الذي استجوبنا عن الزيارة. ما نوع الأسئلة التي وجهها لنا مايكل؟ ما الموضوع الذي كان هو أكثر اهتماما به؟ ما الأجوبة التي تفوهنا بها؟ ماذا قال الآخرون الذين ذهبوا معنا إلى مايكل؟

في النهاية قيل لنا إن هناك تقارير تقول إن مايكل يبحث عن زوجة صينية، ولذلك فإن زياراتنا لمسكنه غير لائقة ويجب أن تتوقف، رغم وجود طلاب معنا.

كانت كلمات رئيس القسم هان مفزعة، لكنها لم تفاجئني. فالأجانب - وخصوصا الغربيين - لم يعدّوا عبر التاريخ مساوين

للصينيين. فقد عوملوا إما كسادة للعلوم والتكنولوجيا أو كشياطين غزوا بلادنا وأذلوها مرات كثيرة. وفي ظل نظام ماو جرى تصوير كل الأجانب كأعداء، حتى عندما تحالفت معهم الصين، وخصوصا أثناء الثورة الثقافية، اضطهد بلا رحمة الذين كانت لهم علاقات مع الأجانب، حتى وإن كانت هذه الاتصالات ضرورية في العمل الذي يؤديه المرء للحكومة. والصينيون الذين لهم أقارب في الخارج اتهموا بالتجسس وهوجموا، وحتى بعد سقوط عصابة الأربعة، طغى وسواس المملكة الوسطى القائل إن الأجناس الأخرى بربرية، وفي ظل العقيدة الثورية تعلمنا أن معظم الأجانب أعداء للشيوعية يحاولون دائما تقويضها، ونظرا لأن الأجانب افتقروا إلى «الأخلاقيات الاشتراكية» فيجب على النساء الابتعاد عنهم لإظهار كرامتنا.

تحذير هان الواضح أدى الغرض منه، فمنذئذ ابتعدت الطالبات عن مايكل وتجنبن الوجود وحيدات معه في غرفة الفصل. كنا نعرف أن أي اتهام ضدنا سيكون مدمرا، فالتخرج قادم ولم تشأ أي طالبة أن تدمر فرصتها في الحصول على عمل جيد.

منع مايكل من زيارة مهاجع الطلبة وغرف طعامهم. شعرت بالاستياء من أجله، بدا وكأنه يحس بأن هناك خطأ ما لكنه لم يوجه أي أسئلة. لقد عمل بجد ليكون مدرسا جيدا بتقديم نفسه، وقد ساعدتنا دروسه إلى حد كبير. كانت مكافأته تحاشيه على رغم أن الموظفين لم يقولوا أي شيء له بصراحة، فالأدب يمنع الصدق.

بعد بضعة أشهر سمعت أن مايكل تزوج امرأة يابانية في معهد اللغات الأجنبية في بكين، وهكذا بدا أن تحذير هان لنا كان لا أساس له، وربما كذبة لمنعنا من أن نكون صديقات مقربات من أجنبي. تابع مايكل التدريس في بيه - دا ولكنه حافظ على بعده عنا، لم ألمه على ذلك.

لازمني التحذير ضد الأجانب عندما حصلت على مهمة عملي الميداني في شهر يونيو حيث كنت أترجم لمجموعة من السياح الأمريكيين. كما هي العادة كانت معي شريكة مراقبة وهي زميلتي في الصف. أثناء الأيام الثلاثة من العمل مع الأمريكيين كنا لصيقتين إحدانا بالأخرى، نرفض أن نجلس مع أي سائح في الحافلة أو نتجنب أي إمكان لانفرادنا مع أي سائح. وعندما صفقت المجموعة لتقديمي المعد بعناية للقصر الصيفي، لم أعرف ما إذا كان علي أن أظهر اعتزازي، كما أردت، أو أتصرف بتواضع كما تقتضي التقاليد في مواجهة مجموعة من الأجانب. وهكذا بدلا من شكرهم على تهنئتهم هززت رأسي قائلة «لا، لا، لست جيدة، بما فيه الكفاية».

خبرة الأيام الثلاثة مع الأمريكيين أقنعتني أن أكثر المهن أمانا بالنسبة إلي هي أن أكون مدرسة لغة إنجليزية، حيث لا أتعرض للأجانب وأستطيع تجنب التوتر والمراقبة والخطر الذي لا بد أن يجلبه ذلك التعرض.

ذلك الصيف، ونحن نجهد لنختلي ببعضنا اكتشفنا - أنا وهسياو جاو - مكانا يجتمع فيه العشاق من الشباب في الليل. أنشئ شارع جديد - جاو جيا بانج - وذلك بردم مجرى خليج

صغير في الضواحي الجنوبية من المدينة. توسط الشارع العريض طريق مزروع بالورود والشجيرات الطويلة، وبين هذه الشجيرات كان الأزواج يقفون معا في الظلال، يتهامسون ويتبادلون القبلات والعناق. كانت حياة مصابيح الشارع هناك قصيرة، إذ غدت ضحايا المقاليع التي يحملها الخطاب المتحمسون. للمرة الأولى في حياتي لاحظت أن الناس تواقون للاهتمام بأمورهم الخاصة، ولا يعيرون أي انتباه لما يجري على بعد ياردات معدودة منهم.

من حين إلى آخر يتشتت العاشقون عندما يجوب عمال المدينة الذين يحملون المصابيح الكهربائية الشارع، ولكنهم سرعان ما يعودون إلى شجيراتهم بمجرد ابتعاد هؤلاء العمال عن الشارع الطويل. وجدت في هذه المغامرات البسيطة إثارة إضافية للقائي مع هسياو جاو، باستثناء تلك الأوقات التي كنا نكتشف فيها عدم وجود مكان لنا في الممر الظليل بعد رحلة طويلة بالحافلة.

عندما عدت إلى بيه - دا في شهر سبتمبر ١٩٧٧ بعد إجازتي الصيفية كانت الجامعة تعد لإعادة فرض الامتحانات على المستوى القومي. أعلن دنج - هسياو - بنج، الذي أعيد إلى السلطة مرة أخرى في شهر يوليو أن النتائج الأكاديمية ستكون المعايير الوحيدة لقبول الطلاب في الجامعات. وضع هذا القرار المهم نهاية مرحلة طلبة العمال - الفلاحين - الجنود.

كانت مشاعري بشأن هذا التغيير مختلطة. أعجبت بجرأة دنج وقراره السريع (كان ابنه طالب عمال - فلاحين - جنود) في إعادة البلاد إلى النظام وخصوصا مناداته بإنهاء الحملات السياسية والدراسات السياسية التي لا معنى لها.

ولكن في الوقت نفسه، ولدت مثل هذه التغييرات الأساسية إلى جانب الدعاية الدرامية لدي شعورا قلقا بخصوص مستقبلي. لقد صنفت كطالبة - عمال - فلاحين - جنود على رغم أنني نجحت في امتحان القبول في المزرعة. نظرا للطريقة التي انتقلت بها الأمور من طرف إلى نقيضه، خفت أن أصبح الآن مواطنة من الدرجة الثانية بعد عودة الامتحانات. ونحن طلاب العمال - الفلاحين - الجنود سنصبح كأولاد الجارية: أقل امتيازا داخل العائلة من أولاد الزوجة الشرعية.

ثبت أن قلقي في محله، بعد وصول الطلاب الجدد في ذلك الخريف أصبح الحرم الجامعي برميل بارود صغير، يعج بالنزاعات المستمرة بين الطلاب القدماء والجدد الذين مثلوا فترات سياسية مختلفة. أصبح طلاب العمال - الفلاحين - الجنود موضع السخرية وأطلقت عليهم تسمية الجهلة والمستفيدين بغير حق من الثورة الثقافية البغيضة في حين أن الطلاب الجدد اعتبروا أنفسهم ضحاياها. ملأ الجدل المتفجر قاعات الطعام وغرف الصفوف والمكتبة. ولكن ثانية لم يلم أحد الرئيس ماو - تسي - تونج قط.

عندما علم طلاب صفي اننا سنتخرج مبكرا، في فبراير، شعرت بالراحة والقلق في الوقت نفسه، سيتحدد مستقبلي خلال أشهر قليلة. هل صحيح أن تعيينات العمل تحدد قبل أن تطأ أقدام الطلاب أعتاب بيه - دا كما قيل سابقا؟ وهل سيظل الأمر هكذا؟

قررت أن أستطلع ذلك. أحد المدرسين - ني - يمكن أن يساعدني. إنه قريب لامرأة رقيقة القلب تعيش في جادة أشعة

الشمس الأرجوانية في شنغهاي... يبدو أنه رجل عالم في أواسط العمر وهو مدرس لامع ومطلع يهتم كثيرا بطلابه، قال إنه سيحاول الحصول على الجواب عن سؤالي إذا أمكنه ذلك. وعندما أتى الجواب تمنيت لو لم أطلبه.

قال «تهاني يا هسياو يي. أعتقد أنني أستطيع أن أعلمك - بعد أن أرسل ملفك إلى هناك - أنك قد عُيِّنت للعمل في جونج - داو - بو. يجب أن تكوني فخورة بهذا التعيين لأن مستقبلك بالتأكيد سيكون لامعا وسعيدا».

لقد عُيِّنت في الشرطة السرية - مكتب التحقيقات المركزي للحزب الشيوعي! كدت لا أسمع ما طفق المدرس يثرثر به بحماس حول عملي. كان ذلك جنونا، لا بد أن هناك خطأ، فأنا - ابنة الطبقة الرأسمالية البغيضة، والمتهمة بأن دمائي ملوثة، والمدانة في المزرعة بالمؤامرات المضادة للثورة والمحكومة بالسجن - سأعمل في دائرة الاستخبارات الصينية، وهي وكالة تعمل فيها صفوة الصفوة التي تتجسس على المواطنين بمن فيهم موظفو الحكومة والحزبيون في الداخل والخارج.

عندما أخبرتها بالأنباء اللامعقولة، لم تكد قوس قزح تسيطر على انفعالها. ولم يستطع كذلك أهلها الذين فرحوا كثيرا. أكدوا لي أن غمتي ومعاناتي الطويلة ستنتهيان في اليوم الذي أخطو فيه داخل المجمع العالي الأسوار والمسمى هسي يوان.

سألت والد قوس قزح قائلة «ولكن لماذا اختاروني من بين جميع الناس؟».

أجاب قائلا «ربما لأنك يتيمة، فإنهم يعتقدون أن لديك التزامات عائلية قليلة وبإمكانك أن تتفرغي كاملا للمنظمة. بالإضافة إلى ذلك، انقلب الوضع السياسي، ويجري قبول كثير من الناس الذين اضطهدوا».

هسي يوان - التي تعني الرحبة الغربية - هي المكتب الرئيسي الواقع قرب بيه - دا. ليس لدى معظم الناس فكرة عن مكانه ولكن والد قوس قزح كان يعرفه. كانت هسي - يوان مجمعا كبيرا من مباني الإدارة ذات الاكتفاء الذاتي، وتتضمن مساكن لموظفيها وعائلاتهم ومتاجر ومكتب بريد ومرافق أخرى ومدارس ومسرحا. كانت حقول التدريب العسكري والرماية التابعة لها تقع في نان - يوان في الضواحي الجنوبية لبكين.

كانت الإدارة تحت إمرة لجنة الحزب المركزية، وكان مخلصوها الجيدو التدريب والحوافز والبالغون ٣- ٤ آلاف هم الأسلحة القاتلة في الحملات السياسية التي وطدت نظام الصين الشمولي والدكتاتورية. خلال الثورة الثقافية أرسل مبعوثوها إلى مختلف أنحاء البلاد لتغذية القتال الفئوي، واشتركوا في الضرب والتدمير والسلب، متخفين كحرس أحمر في البزات الكالحة أو كمتمردين ثوريين في ثياب العمال. وتمكن المكتب بعد أن استقطب عددا من المتمرسين في اللغات الأجنبية، من إرسال عملاء سريين مهرة إلى السفارات الصينية في جميع أنحاء العالم، حيث تشكل مراقبة موظفي السفارة أنفسهم جزءا من مهمتهم. كذلك علمت من والد قوس قزح أنه عندما يقبل الشخص في الإدارة فإنه يبقى هناك طوال حياته. راح يؤكد لي ما

للوظيفة من مغريات، وبخاصة أنني سرعان ما سأصبح ولا شك عضوة في الحزب.

هل توقع الشيوعيون أنني سأمحو ذكرياتي التعيسة كالكتابة من اللوح؟ هل كانت لديهم أي فكرة عن أن عضوية الحزب بالنسبة إليّ ليست بطاقة شرف، لكنها لعنة وضيعة؟

للمرة الأولى في حياتي قررت أن ألعب دورا مباشرا في تخطيط حياتي. لم أستطع ببساطة أن أرفض تعييني في جهاز المخابرات: في الصين لا يستطيع الناس اختيار مكان تعيينهم، ففي كل سنة تحدد هيئة تخطيط الدولة حاجات كل الدوائر الحكومية، وتصبح مسؤولية وزارة التربية إيجاد الناس لتلبية هذه الحاجات، وقلما يكون لرغبة الفرد أي تأثير ما لم يمتلك وساطة.

إذا رفض خريج الجامعة قبول التعيين فلن يتوافر له عمل آخر، وهذا يعني حياة من البطالة والفقر والاعتماد على الآخرين. وفي حالتي لن أستطيع العودة إلى شنغهاي للعناية بالعمة الكبيرة، وهي أهم الواجبات، لأنني لن أتمكن من الحصول على الإقامة هناك. كنت أعلم أن علي أن أتجنب هذه اللعنة ولكن الحرص مطلوب.

كيف أستطيع الخروج من هذا المأزق بسلام؟ لا أستطيع أن أطلب نصيحة أي شخص في عائلتي لأن تعييني مازال سرا. ولذلك ذهبت لزيارة المدرسة تشن، التي مستني لطافتها ودماثتها في المزرعة قبل ثلاث سنوات.

قالت لي «لا أعرف أي نوع من النصيحة يمكن أن أقدمها لك، ولكنني لا أعتقد أن هناك أي ضرر في أن تخبريهم بمخاوفك. قد

يستمعون إليك وقد لا يفعلون ذلك، ولكن تستطيعين عندئذ أن تقولي لنفسك إنك قمت بالمحاولة، فأحيانا إذا كان للشخص أهل مرضى فعليه العناية بهم ولذلك صلة بالأمور».

قررت الذهاب إلى هسي يوان لأكوّن فكرة عن المكان بنفسي. في رأيي، أن لي الحق بفعل ذلك بعد أن أصبح ملفي الشخصي هناك. وافقت قوس قزح - التي ظنت أنني مجنونة لمحاولة تجنب وظيفة تتمناها - على الذهاب معي، إذ كانت فضولية. بعد ظهر أحد أيام ديسمبر الباردة غادرنا الجامعة مشيا على الأقدام وبعد ثلاثة أرباع الساعة وصلنا إلى هسي - يوان. بدا المجمع كحرم جامعي ذي بوابة رئيسية وأبواب جانبية، لكن التشابه ينتهي هنا.

كانت الأسوار عالية جدا، لم تكن هناك إشارة تحمل اسم المنظمة وكانت أماكن حراس الأبواب في خارج بدلا من داخل الأبواب. شعرنا أن كل حركة من حركاتنا تحت المراقبة فتقدمنا وقرعنا الباب.

كان هناك ثلاثة رجال في الداخل - اثنان منهما يجلسان حول مدفأة صغيرة، وآخر وراء طاولة قرب النافذة. أجاب الرجل المتوسط العمر خلف الطاولة على تحيتنا بوجه متجهم. سألنا قائلا «من أنتما؟ لماذا أنتما هنا؟ ما الذي تستطلعانه؟».

قلت متلعثمة، وقد لاحظت أن الرجلين حول المدفأة يحدقان بنا «إننا نبحث عن جونج - دياو - بو وأنا -».

سألنا أحد الرجلين «من قال لكما أن تأتيا إلى هنا ولأي شأن؟».

«لم يقل لنا أحد أن نأتي إلى هنا، كنا نتفرج فقط».

نابت قوس قزح عني قائلة «إن لها أمرا يعنيها هنا أيها الرفيق، ستعمل هنا خلال شهر أو نحوه بعد أن تتخرج من بيه - دا، وكل

ما تريده هو أن تتحدث مع الشخص المسؤول عن إدارة العاملين إذا كان ذلك ممكنا».

ها أنذا أقف ثانية - بعد أن بدأت الرحلة استعرضت المشهد مرات كثيرة في ذهني - أجدني غير قادرة على التكلم في اللحظة الحاسمة. ألقيت نظرة امتنان خاطفة على قوس قزح، وبدا الرجل خلف الطاولة مندهشا، اتجه نحوي وابتسامة ناعمة على وجهه وهو يهز رأسه.

«هل ستعملين هنا كما قالت؟». هززت رأسي.

سأل متشككا «ولكنك تريدين التحدث إلى شخص في إدارة العاملين، في كل حياتي الوظيفية هنا لم أقابل أي زائر مثلك أراد أن يقابل شخصا في الداخل قبل أن يصبح واحدا منهم». بقيت صامتة.

قال وهو يناولني قطعة من الورق وقلم رصاص: «اكتبي اسمك وعنوانك». أخذنا إلى غرفة أخرى حيث جلسنا على مقعد طويل. بعد لحظات سمعته يتحدث في الهاتف. عصرت يد قوس قزح بتوتر عصبي.

عاد الرجل بعد بضع دقائق «يا رفيقة يي، لا يستطيع أحد أن يتكلم الآن. قال لاو - ليانج إذا كان لديك شيء تريدين قوله فيمكنك أن تكتبيه. يريدك أن تعلمي أنه ما كان يجب أن تأتي إلى هنا شخصيا. ولا تعودي ثانية إذا لم يطلب منك ذلك».

خاب أملي لأننا لم نستطع الدخول، ومع ذلك شعرت بارتياح لأن كل الأشياء التي أردت قولها طارت من عقلي. طلبت من الرجل عنوان المراسلة. تبادل النظرات مع زميليه وابتسم، قال «عليك أن تسلميني الرسالة».

قلت لنفسي «حسنا، علي أن أعود لأقوم بذلك، أليس كذلك؟».

خلال الليالي التالية كرست كل أوقات فراغي لإعداد ما كنت أعلم أنها أهم رسالة علي أن أكتبها. في هذه الرسالة شكرت لاو - ليانج لثقته التي منحتني إياها المنظمة المحترمة، وللفرصة العظيمة التي منحت لي لأخدم الشعب والوطن... تعابير تقليدية خطرت على بالي من دون جهد يذكر، وتابعت قائلة إنني أواجه صعوبة مستعصية. تعلمت دائما كطفلة أن أحترم المسنين والعناية بالضعفاء هي واجبات ملزمة لأي مواطن ذي خلق. العمة الكبيرة امرأة عاملة بروليتارية لا أطفال لها، وحيدة ومريضة، تعاني ارتفاع ضغط الدم والتهاب المفاصل، وأنا من بين جميع أفراد العائلة أمامي الفرصة للعناية بها. وبعد تربية خمسة أطفال أيتام والعناية الآن بابن أخي البالغ أربع سنوات من عمره، أصبحت الآن في حاجة إلى المساعدة. أكدت على العلاقة الخاصة بيني وبين العمة الكبيرة المعروفة للجميع في الجوار. وتخرجي المنتظر هو الأمل الوحيد الذي يمكنها الاعتماد عليه، إن خوفي على العمة الكبيرة سيشتت انتباهي، ويتدخل في تفرغي لعمل المكتب إذا كنت بعيدة عنها، إلا إذا تمكن المكتب من المساعدة في نقل أختي الصغرى إلى شنغهاي لتكون معها، عندها سأجد حلا لمشكلتي وقلقي.

مهما كانت رسالتي بليغة فإنها عبرت عن الحقيقة، فأخي الكبير وأختي الكبرى يعيشان خارج شنغهاي، أما أختي الصغرى فمازالت في المزرعة. وأخي الثاني عاش مع العمة الكبرى لسنوات كثيرة، ولكن عندما تزوج تصدعت العلاقة بينهما، ذلك لأن العمة

الكبيرة - لشعورها بالغيرة والانعزال - لم تستطع أن تقبل زوجته دونج - لان. ارتفع التوتر إلى درجة أن أخي - عندما انتقلت زوجته إلى بيتنا - قسم الشقة إلى قسمين تاركا للعمة الكبيرة غرفة أخرى بالإضافة إلى غرفتها ثم تبادل المسكن مع عائلة أخرى. كنت غاضبة من أخي، ليس فقط لتخليه عن العمة الكبيرة، بل لتقسيمه بيتنا أيضا، على رغم أنه كان بإمكاني أن أتصور كيف أن العمة الكبيرة جعلت الأمور صعبة بالنسبة إليه وإلى زوجته.

انتابني القلق لجرأتي غير المسبوقة. مشيت إلى يي - يوان مرة أخرى وقدمت رسالتي. في الوقت نفسه، كتبت إلى هسياو جاو وطلبت منه أن يخبر العمة الكبيرة أن شخصا ما قد يزورها أو يزور لجنة المنطقة للتأكد من ادعاءاتي حولها. وبعدها انتظرت. تتابعت الأسابيع متثاقلة، وبعد شهر لم ترد أي أخبار. في أواسط فبراير أعلن رئيس القسم تعيينات الخريجين، أرسل معظمهم إلى مختلف الوزارات في العاصمة وعاد أحدهم إلى التيبت واثنتان إلى عواصم المقاطعات. لم يذكر اسمي، كنت الوحيدة التي لم تحدد لها جهة تؤول إليها. وذلك يعني شيئا واحدا، لا بد أن تعييني قد توقف: بما أنني ذاهبة إلى إدارة المخابرات فيجب ألا يعرف أحد بذلك.

أمضّني الهلع، لا بد أن رسالتي أغضبتهم أو أنها لم تلق آذانا صاغية. أكد لي رئيس القسم هان «حظي السعيد».

بعد يومين من مغادرة زملائي الخريجين للحرم الجامعي، ورد الخبر من - هسي يوان. لم يتخذ أي قرار، علي أن أترك حاجياتي في بيه - دا وأعود إلى شنغهاي أقضي فيها إجازة

التخرج التي تمتد لشهر كامل قبل التحاقي بالعمل. ركبت القطار ومعي حقيبة صغيرة فيها فنجانان من الصيني - هدية من هسياو جانج في تانغشان وقد حفر عليهما اسمها. قالت لي إنهما أول انتاج للمصنع الذي أعيد بناؤه، كانت تانجشان تنهض من بين الأنقاض.

فرح هسياو جاو كثيرا عندما علم من رسالتي أنني انتدبت لأكون عميلا خاصا. كان سعيدا لإنهاء أيامه كعامل تحميل وتفريغ على أرصفة ميناء شنغهاي والانتقال إلى بكين، حيث سيوفر له عملي عملا أسهل وأكثر احتراما. لم أخبره حتى وصلت شنغهاي بأنني طلبت استثناء. صعق للخبر «هل تعنين أنك رفضت عملا عظيما كهذا؟ يا آه - سي، إن تفكيرك غير سليم، اكتبي إليهم في الحال وأخبريهم أنك أخطأت».

«لقد وعدت العمة الكبيرة أن أعود إلى شنغهاي إذا استطعت لأعتني بها، بالإضافة إلى ذلك، فأنا أكره فكرة العمل مع هؤلاء الناس».

عائلة هسياو جاو أيضا، وخصوصا والده، اعتقد أنني كسرت آنية الأرز الذهبية «بسلوكي المتسرع الأهوج» بل لمّح إلى أنني، من دون عمل، لن أحصل على موافقته على الزواج من ابنه. توقف وهسياو عن الإلحاح علي لتغيير رأيي فقط عندما أخبرتهم أنني إذا عملت في جهاز المخابرات فإن علاقتي بهسياو ستكون في خطر، لأن العادة المتبعة هي أن يجد المكتب لي زوجا من داخل المنظمة.

كانت العمة الكبيرة أكثر دعما لي، أكدت لي أن تقاعدها سيطعم فمين. قالت إنني إذا بقيت من دون عمل ومن دون إقامة فلن يهم ذلك.

مضت ثلاثة أسابيع مشحونة بالشك والإحباط. خلال أسبوع واحد كان علي أن أعود إلى بكين، وأباشر عملي الجديد أو أرفض التعيين، فأصبح عاطلة عن العمل لبقية حياتي بل عبئا على العمة الكبيرة.

أتت لاو لوو، المديرة المتقاعدة للجنة المحلية، لتزورنا وقالت إن أحدهم سأل حول العمة الكبيرة وأحوالها الصحية.

سألت «إنه موضوع تخرج آه- سي، أليس كذلك؟» وعندما لم تسمع جوابا قالت للعمة الكبيرة «لقد أخبرنا الرجل كم كنت وفية لهذه المنطقة، وكم أنت في حاجة ماسة إلى شخص يعتني بك، آمل أن نكون قد ساعدنا فيما قلنا».

في اليوم التالي قررت أنني لم أعد أطيق المزيد من الانتظار. بعد الافطار توجهت إلى مكتب البريد لأجري مكالمة هاتفية خارجية. قررت أن أتصل بلاو ليانج في الادارة وأعرف مصيري.

كان على كل المكالمات الهاتفية الخارجية أن تطلب من عامل المقسم. استجمعت الثقة القليلة التي تبقت لي وطلبت عامل مقسم بكين، ثم قلت بكل ما لدي من الحزم «رجاء، صلني بجونج دياو بو (مكتب التحقيقات المركزي) للحزب الشيوعي الصيني».

«أليس لديك رقم هاتف؟».

لقد كذبت وأخبرتها باسم من أريد التحدث إليه «لقد نسيته في البيت».

«ما اسمك؟».

بعد حوالى دقيقتين فرقع صوت رجل غاضب على الخط «ماذا بحق السماء تظنين أنك فاعلة يا هسياو يي - تجرين مكالمة خارجية إلى هنا؟».

«هل هذا أنت يا لا ليانج؟ أنا آسفة إذا كنت قد أخطأت. أرجوك أن تسامحني لمهاتفتي إياك ولكنني متلهفة لمعرفة قرارك. آمل أن تتفهم موقفي».

هدأ قليلا «بالطبع أفهم الوضع، قرأت رسالتك بعناية ولكني أكره أن أتركك تذهبين، اسمعي، اتصلت بإدارة العاملين في حكومة شنغهاي البلدية - شخص يدعى فانج، لا أريد أن تهدر موهبتك في وقت تحتاج فيه البلاد إلى أناس يتقنون اللغة الإنجليزية».

في فترة الصمت التي تلت خفق قلبي، واهتزت سماعة الهاتف في يدي.

«ولكن إذا لم يجدوا عملا مناسبا لك أريدك أن تعيدي النظر في قرارك. على أي حال لا تتصلي هنا ثانية». قطع المكالمة قبل أن أتمكن من شكره.

لم أطق الانتظار حتى أذهب إلى البوند، حيث يقوم مركز الحكومة البلدي. في ذلك البناء الحجري الفخم الذي كان فيما مضى بنك شنغهاي - هونج كونج. كان يحرس قاعة المدينة على مدار الساعة جنديان في حالة الاستعداد التام. وعندما كنت أمر طفلة بقاعة المدينة تمنيت لو أدخلها في يوم من الأيام. وكثيرا ما تساءلت عن نوع الناس الذين يعملون هناك وشعرت بالتأكيد أنهم محظوظون.

بعد تردد طويل استجمعت شجاعتي واقتربت من أحد الحرس. حدّق فيّ لبضع لحظات قبل أن يرفع يده ذات القفاز الأبيض من دون أن يتكلم، مشيرا إلى اليمين مع الاحتفاظ بنظره إلى الأمام.

قال «المدخل الجانبي».

صعدت سلم الأدراج الضيق ودخلت بهوا مزدحما بأناس يقفون بانتظار أن يسمعهم أحد. بعد أن سجلت اسمي، وجهني أحد موظفي الاستقبال إلى غرفة انتظار في الأسفل ذات نافذة صغيرة عليها شبكة من القضبان تواجه الشارع. بدا أن بعض الناس في الغرفة أصحاب مصالح؛ كانت ثيابهم حسنة وكرروا النظر إلى ساعاتهم. ومن شذرات المحادثات استخلصت أن الكثيرين منهم كانوا هناك ليعرفوا حلول المواضيع المعلقة منذ وقت طويل التي سببتها الثورة الثقافية: إعادة تأهيل الأحياء والأموات، وإعادة البضائع والأموال والممتلكات المصادرة.

أخذت ألاحظ القادمين والمغادرين وفجأة شعرت بالتعب، التعب من الآخرين الذين يتخذون القرارات بشأن ماضيّ ومستقبلي، التعب من المعارك التي اضطررت لخوضها لكي أستمتع بحياة عادية. لم تكن لدي فكرة عن هذا الـ «فانج»، هل هو رجل أم امرأة، عجوز أم شاب، كما لم أستطع أن أخمن ماهية القرار أو ما إذا كان هذا الشخص، ذكرا أم أنثى، سيأتي أصلا. سأزف الخبر للعمة الكبيرة إن كانوا لا يريدونني أو يحتاجون إليّ؟ وكيف ستتطور الأمور بيني وبين هسياو جاو إذا اضطررت للعودة إلى بكين؟ سمعت أحدهم ينادي «يي - تنج - هسنج».

وقف رجل نحيل في الأربعينيات من عمره عند قاعدة السلم الرخامي. عندما اقتربت منه، أخذ النفس الأخير من سيجارته ورماها على الأرض وسحقها تحت حذائه الجلدي.

بادرني قبل أن أتمكن من الكلام «الرفيقة يي - تنج - هسينج. لا أستطيع أن أعطيك أي جواب الآن، لم نتخذ قرارا بعد. لقد أتخمنا أخيرا بكل أنواع التعيينات وإعادة التعيينات ضمن منطقة ولايتنا، آمل أن تتفهمي. بدا مخلصا. هززت رأسي، استدار ليذهب ولكني دعوته للعودة. قلت له «أيها الرفيق فانج. إن إجازة تخرجي على وشك الانتهاء وعلي أن أعود إلى بكين. وهذا ما أحاول تجنبه. أريدك أن تعلم انه لا يهمني نوع العمل الذي سأقوم به طالما أستطيع البقاء في شنغهاي والعناية بالعمة الكبرى». كانت الغرفة هادئة جدا وأعرف ان كل شخص كان يسترق السمع. بدا فانج متمالكا نفسه. من المرجح أنه يمر بهذا الموقف عشر مرات في اليوم على الأقل.

«ما رأيك في العودة خلال يومين؟ لنقل في العاشرة صباحا. آمل أن أستطيع في ذلك الوقت أن أخبرك عن التسوية التي سنتوصل إليها». استدار وذهب. خارج المبنى كان يوما جميلا من أيام أوائل شهر أبريل. نجحت الشمس في الظهور عبر الغيوم الكثيفة ولكنها هددت بالاختفاء في أي وقت، جالبة المزيد من زخات المطر. كان الهواء رطبا وثقيلا كقلبي، وأنا أسير في الشارع مثقلة بالشكوك والقلق.

سرت إلى البيت مستغرقة في التفكير. كان هسياو جاو يعمل في نوبة النهار في الأحواض ولن أراه حتى وقت متأخر بعد الظهر. ستعود أختي الثالثة إلى البيت خلال بضعة أيام مع زوجها هسياو تشن وهو عامل زميل لها في صفها في

سونج جيانج. كانوا يأتيان إلى شنغهاي من حين إلى آخر لزيارة العمة الكبيرة وابن أخي. تمنيت لو أستطيع التحدث مع أخي الثاني، كما فعلت طوال حياتي، وأطلب نصيحته ومواساته، ولكن غضبي منه لأنه تبادل نصف شقتنا مع عائلة غريبة أبعدني عنه. رفضت ان ازوره في بيته الجديد ولم يأت ليراني. لم أتصور أبدا أننا سنفترق بعد كل الذي مررنا به كعائلة. يا لمفارقات القدر: هذا الانشقاق الذي عزل العمة الكبيرة سيوفر العذر الرئيسي لعدم قبولي التعيين المكروه مع جهاز المخابرات!

خلال اليومين التاليين عددت الساعات حتى لقائي مع لاو - فانج. في صباح يوم الجمعة عرضت العمة الكبيرة أن تذهب معي إلى البوند. اعتقدت أنها إذا وقفت بجانبي بشعرها الأبيض وجسمها الضعيف فوق قدميها، فإنها ستمس قلب لاو فانج. أخبرتها أن القرار قد اتخذ الآن وغادرت الشقة من دونها، وإن كنت أحمل معي أفضل تمنياتها. سجلت اسمي لدى موظفة الاستقبال ومن دون طلب التوجيهات نزلت السلم إلى غرفة الانتظار كشخص متمرس يعرف طريقه. ظهر لاو فانج بعد وقت قصير. أشار إلي بأن أتبعه ودون كلام قادني إلى الأعلى إلى الطابق الرئيسي. جررت قدمي على الأدراج، بدأ قلبي في الخفقان، فقد كنت متأكدة من أن الأخبار سيئة وأنه لا يريد أن يعلمني بها في غرفته حيث أنهار أمام الآخرين وأفقد ماء الوجه. في الدهليز، التفت ليواجهني مبتسما، قلت

لنفسي إنه كان لطفا منه أن يبدي هذا الاهتمام، لقد افتقدت الصين نوع تهذيبه لسنوات كثيرة. كان يبتسم «بصورة اعتذارية». مد يده قائلا «تهانيّ يا هسياو - يي. تستطيعين البقاء».

الجزء الخامس

عكس الريح

١٩٧٨ - ١٩٨٧

تمتمت «أبقى؟».

«لقد كوفئ صبرك. قررت إدارة العاملين قبولك. تعالي معي.. اتجه لاو - فانج نحو المصعد. «سآخذك إلى مكتبك. يمكنك البدء في الأسبوع القادم عندما تنتهي إجازتك. سأرسل الاستمارات المناسبة في ذلك الوقت».

امتلأ ذهني بالأسئلة حول المكتب والقسم الذي كان لاو - فانج يشير إليه وتبعته عبر متاهة من الدهاليز المظلمة. وأخيرا توقف عند أحد الأبواب الذي علقت فوقه لوحة خشبية القسم السياسي. «ها قد وصلنا».

في المكتب الفسيح العالي السقف كانت معظم الطاولات فارغة. نهضت امرأة متوسطة العمر لدى دخولنا. قدمها لاو - فانج على أنها السيدة لاو - يان. أضاف وعلى وجهه ابتسامة عريضة لاو- يان مسؤولة أمور العاملين لإدارة الشؤون الخارجية لحكومة شنغهاي البلدية «أهلا بك يا هسياو - يي في دائرتنا. من المؤكد أننا نستطيع استخدام دماء جديدة». صافحتها وتطلعت حولي. لا شك في أن الغرفة كانت فخمة في يوم من الأيام بأرضية من الخشب القاسي وألواح من خشب البلوط تكسو الجدران، أما الآن فقد بدا الدهان متسخا ومتشققا والخشب متآكلا وغير مصقول. في الزاوية جلس رجل خلف طاولة يقرأ بجد واهتمام تحت الضوء القادم من نافذة كبيرة ذات إطار حديدي.

بعد مغادرة لاو - فانج، اصطحبتني لاو - يان في الدهليز إلى مكتب قسم الاستقبال حيث يتناهى إلى سمعك الكثير من

الجلبة حتى قبل أن تفتح الباب. وهنا - على نقيض القسم السياسي - بدا الجو مكهربا. كان الهواء مثقلا بدخان السجائر الذي ارتفع من عشر أو نحو ذلك من الطاولات. طقطقت مفاتيح الآلات الكاتبة وتردد رنين الهواتف في خضم الأصوات المدوية. راح العديد من العمال يصرخون في الهواتف وتقطعت محادثاتهم بتكرار «ألو. ألو» وهي عادة عالمية عندما يحاول الناس سماع بعضهم بعضا عبر خطوط الهاتف القديمة. لم يكن أحد في الغرفة يقاربني سنا. كانت لاو - يان قد عنت ما قالته عندما ذكرت أنني الدم الجديد. توجهت نحو طاولة لأقابل رجلا مكتنز الوجه في منتصف العمر.

مد يده قائلا «أهلا بك يا هسياو يي في قسم الاستقبال. هنا ستعملين». لقد صافحت أيدي في نصف الساعة الماضية أكثر مما صافحتها في حياتي بكاملها. قلت بهدوء وأنا لا أكاد أحتوي انفعالي «شكرا جزيلا لقبولي هنا». كان لاو - فو (نائب رئيس القسم) رجلا مهيبا متميزا ذا ذقن مزدوجة، حسن الهندام والملابس، وهو منظر نادر في تلك الأيام. لم أستطع إلا أن ألاحظ «كرش البيرة» وهو تعبير تعلمته في عملي الميداني مع السياح الأمريكيين، و«كرش البيرة» غير مألوف بين الرجال الصينيين. اصطحبني في رحلة استعرضنا خلالها الكثير من الأسماء والمعلومات.

شعرت كبطة بكين التي تجبر على ابتلاع المعلومات. وبينما كنت أثرثر، تبدت أخيرا ملامح عملي في ذهني المشدوه. سأعمل في قسم استقبال إدارة الشؤون الخارجية

لحكومة شنغهاي البلدية، الذي يتبع مباشرة الحكومة الفدرالية. كان قسمي الذي يضم أكثر من عشرين شخصا مسؤولا عن استقبال ثلاث فئات من الوجهاء الأجانب والعناية بهم ضيوف الدولة (جدو - ين) كرئيس الوزراء وحاشيته؛ ضيوف الحزب الشيوعي الصيني (دانج بن) من الحكومات والأحزاب الشيوعية الأخرى في العالم، على سبيل المثال الرئيس الروماني تشاوشيسكو. هؤلاء الزوار يقيمون عادة في قصور الضيافة التي يحرم منها السياح والأجانب الآخرون. وضيوف جمعيات الصداقة في البلدان الأخرى (يو - هسي) وهي عادة جمعيات غير حكومية مثل جمعية الصداقة الصينية - الأمريكية.

سألني لاو - فو «متى تستطيعين بدء العمل يا هسياو - يي؟». أجبته «غدا» لأنني لم أشأ أن يغيروا رأيهم.

قال مبتسما لتلهفي «في هذه الحالة، لماذا لا تبدئين الآن؟ يمكنك أن تذهبي إلى فندق جين جيانغ وتقابلي بعض زملائك وتتعرفي على إجراءات استقبال ضيوف الدولة.

أجبت مأخوذة «بالتأكيد». كنت متلهفة لإعلام العمة الكبيرة بالأخبار الحسنة فقد كنت على يقين أن كل دقيقة تمر تزيدها عصبية وقلقا.

تابعتُ قائلة «ولكن هل أبدو مقبولة؟». كنت قد غسلت شعري وارتديت أفضل ملابسي ولكنني لم أكن متأكدة من أن منظري كان ملائما لما كنت أعلم أنه فندق الثراء والسمعة الحسنة. «ستكونين على ما يرام».

بعد شعوري بالحرج لاعترافي بأنني لا أعرف أين يقع فندق جين جيانج، وافق لاو - فو على أن يأخذني إلى هناك. كان الفندق يقع على بعد مسافة عشرين دقيقة بالحافلة من البوند في منطقة الامتياز الفرنسي السابق، وهي منطقة متميزة بالمباني ذات الدورين الأوروبية الطراز التي يسميها أهل شنغهاي يانغ فانغ، أي المباني الأجنبية والشوارع التي تظللها أشجار الدلب على الجانبين.

يتألف مجمع الفندق من قسمين تفصلهما حديقة وقاعة اجتماعات صغيرة وقع فيها الرئيس نيكسون وشو - إن - لاي البيان المشترك الشهير بين الصين والولايات المتحدة في ١٩٧٢. وعبر طريق مصفوف بالأشجار يقع النادي الفرنسي المجهز ببركة سباحة داخلية وقاعة رقص والذي كان أحد مساكن ماوتسي تونغ الخاصة عند زيارته لشنغهاي. وبعد موته فتح المكان للسياح. أما مبنى الفندق الشمالي فقد استخدم للسياح العاديين والمسافرين من رجال الأعمال. في المبنى الجنوبي ينزل الضيوف الرسميون وقد أغلق لهذا في وجه العامة. أما المكتب الدائم لإدارة الشؤون الخارجية فيقع في المبنى المركزي المؤلف من ثمانية عشر طابقا و٢٥٣ جناحا. كانت الغرف الواسعة أماكن عمل ونوم العاملين في قسم الاستقبال الذين لهم ضيوف في الفندق. وكانت الشرفة المغلقة تخص لاو - فو سكرتير القسم الأكبر سنا بيننا.

في هذا الوقت أخذني الدوار بمجرد أنني فعلا سأعمل لصالح إدارة حكومية مهمة في أماكن فخمة. عندما التحقت ولاو فو بالآخرين لأجل الغداء في غرفة طعام كبيرة مملوءة بالأشخاص

من مكتب شنغهاي للأمن العام المسؤولين عن سلامة الزوار والصحافيين من وكالة أنباء شينخوا، أدركت المزايا الجانبية لعمل من هذا النوع. اقترحت قائمة الطعام المكتوبة على اللوح الصغير كرات اللحم أو أجنحة الدجاج وحساء المختارات الثلاث. اخترت الأجنحة. وعندئذ خطر لي أنني لا أملك مالا كافيا معي لهذا الوجبة الفاخرة. عندما وصل الطعام - حساء وأرز مبخر وطبق من أجنحة الدجاج الشهية المنظر فوق طبقة من الخضار المقلية - تمنيت لو عملت بنصيحة العمة الكبيرة وجلبت المزيد من النقود.

ارتبكت واستجمعت شجاعتي وهمست «يا لاو - فو» لا أعتقد أنني أستطيع أن أدفع ثمن هذه الوجبة. أخشى أن...

لا تقلقي بشأنها يا هسياو يي. معي بطاقات فندق إضافية للطعام. ستحصلين على بطاقاتك الخاصة عندما نعود إلى المكتب.

عندها شمرت عن ساعدي. أجنحة تعادل دجاجتين لي لوحدي! دهشت لعدد الطيور المذبوحة لتوفير هذه الوجبة. فالدجاج بالنسبة لمعظم العائلات العادية رفاهية يتمتعون بها في رأس السنة فقط عندما توفر الحكومة واحدة لكل عائلة بأسعار الدولة المعدّلة.

اكتشفت أنه بفضل البطاقات المقدمة كجزء من إعانة الطعام الحكومية في دائرتي، والأسعار «الخاصة» التي يقدمها الفندق تقريبا إلى موظفي الحكومة الذين ينتقون الفنادق لإقامة الأجانب المهمين - فإن وجبتي كلفت خمسة عشر سنتا - في بلد تنفق العائلة المتوسطة ثلاثة أرباع دخلها على الطعام. في ذلك الوقت كان ثمن سلطانية المعكرونة من دون خضار أو لحم مشترى

من إحدى البسطات في واحد من شوارع شنغهاي، عشرين سنتا.
قضيت بعد ظهر ذلك اليوم في الجناح ٢٥٣ مفتونة بكل شيء. على آلة كاتبة مجهزة بصينية لعدة آلاف من الحروف المصبوبة من الرصاص كان الموظف ينهي المسودة الأخيرة للخطاب الذي سيلقيه عمدة المدينة تلك الليلة على شرف رئيس وزراء دولة مالي.

أعد الآخرون طلبات للسيارات أو للإقامة في الفندق. كانت هناك ثلاثة أجهزة هاتف ملونة واحد لداخل الفندق وآخر لخط خارجي وثالث متصل بالحكومة المركزية والوزارات عبر رقم ثلاثي. هذا الأخير كان ببساطة يدعى «الخط الأحمر» نظرا إلى لونه القرمزي.

أصدرت لاو - غو تعليمات بشأن هذا الهاتف «ارفع السماعة حالما يرن وتجاهل كل شيء آخر، بما في ذلك المكالمات الأخرى».

استخدمت بعد ظهر ذلك اليوم كمراسل لتسليم الرسائل لمكتب مديرالفندق قوائم الطعام المترجمة لإدارة الولائم. وحيثما ذهبت حييت بحرارة وباحترام على رغم أنني كنت صغيرة السن ووجها جديدا. تعلمت بسرعة أن دائرتي مهمة ليس هناك روتين ولا نقاش أو جدل حين يذكر اسمها.

في نهاية اليوم وجدت لاو - فو وودعته.

اقترح وهو يقدمني لرجل حسن المنظر أبيض الشعر في الخمسينيات من عمره «لماذا لا تذهبين مع لاو - ليو وتساعديه في الوليمة الليلة؟».

قلت للمرة المائة في ذلك اليوم «بكل تأكيد. ولكنني لا أتكلم الفرنسية». ضحك لاو - ليو قائلا «ذلك لن يكون مشكلة.

سأضعك على طاولة العمال مع الصحافيين ورجال الأمن والسكرتيرات والحراس الشخصيين، وكما أرى تلك هي أفضل طاولة. لا أجانب. لا بروتوكول، مجرد أكل وشرب!» وقبل أن أغادر طلبت من لاو - غو (السكرتيرة) أن تساعدني لإجراء مكالمة إلى كشك هاتف منطقتنا لكي أستطيع أن أترك رسالة للعمة الكبيرة. عرفت أنها بحلول ذلك الوقت سينتابها المرض قلقا. بدت غو مستاءة جدا. وبختني بقولها «يا هسياو يي، لا تدعي أي فرد من عائلتك أو أي قريب أو شخص آخر يعرف مكانك عندما تتعاملين مع زعماء الدول الأجنبية والزوار المهمين. هذا مخالف للتعليمات».

بعد بضع دقائق دخلت سيارتنا خلف المجمع الخلفي لمركز معرض شنغهاي ووقفت أمام المبنى الذي تقع فيه قاعة المدينة للولائم.

بني المركز على الطراز الروسي الفخم المعروف سقوف عالية جدا وثريا ت كريستال كبيرة وسلالم أدراج رخامية مترامية بعرض الطريق. وقاعة الولائم، المكيفة الهواء والواسعة كملعب كرة القدم والتي تحتوي سجادة قرمزية اللون تغطي الأرضية من الجدار إلى الجدار، تقع في الدور الثاني. جمعت تسع طاولات مستديرة في الوسط (يمكن أن تتسع الغرفة لثلاثين) كل واحدة عليها أوان «صينية» لامعة وفوط مائدة من الكتان الهش المطوية على أشكال ورود أو طيور.

أثناء تناولي الطعام - وأنا محاطة بالرجال والنساء الصاخبات اللواتي يستمتعن بالطعام والشراب اللذيذ والوفير - ذكرت نفسي باستمرار أنني لا أحلم. قبل أربع وعشرين ساعة

كان من الصعب أن أبقي عيني حافيتين قلقا لإمكان إرسالي إلى بكين وقسري على مفارقة هسياو جاو والعمة الكبيرة وابن أخي الصغير لأقوم بعمل أمقته بقية حياتي. والآن أنهي يومي بوليمة تقام على شرف رئيس دولة زائر والمسؤولين الصينيين الذين كنت أراهم سابقا بالتلفزيون فقط. لم ألمس وجبة الثمانية أطباق تقريبا. ولم أستطع أن أتبين بوضوح الضيوف الأجانب لأنني لم أحضر نظارتي معي. لم تكن لدي فكرة عن محتويات الخطب الكثيرة. كنت أيضا مشغولة بالتركيز على آداب المائدة أقلد حركات الآخرين لأجنب نفسي الحرج. الشيء الوحيد الذي لم أشاركهم فيه هو الأنخاب الكثيرة وإفراغ كؤوس مشروب الأرز الناري المشهور في أجوافهم. فقد كنت ثملى من غير شراب.

عندما أنزلتني السيارة في سوق الأغذية خارج حارة أشعة الشمس الأرجوانية كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساء. ركضت باتجاه الحارة عبر منورنا وقفزت صاعدة السلم اثنتين اثنتين.

ناديت بأعلى صوت قائلة «عمتي الكبيرة. لقد عدت! لقد عدت!».

شُرِّعت الأبواب عندما استيقظ المبنى الساكن من رقاده. تجمع الجيران. وهسياو جاو - الذي كان ينتظر مع العمة الكبيرة - استقبلني عند سلم الأدراج.

«أين كنت؟ ما آخر الأخبار».

«لقد كدنا نموت قلقا، خاصة العمة الكبرى! حاولت الاتصال هاتفيا بقاعة المدينة غير أن البدالة كانت مقفلة. لم تأخرت كل هذا التأخير؟ وما الذي استقر عليه القرار؟».

لم أمله لغضبه. كيف كان يمكن لي أن أتنبأ بنتائج رحلتي البسيطة إلى وسط المدينة؟

قلت «حضرت الليلة وليمة أقامها عمدة شنغهاي للأصدقاء الأجانب».

«هل تعنين من النوع الذي نشاهده على التلفزيون؟» قاطعني لاو جينج الذي يعمل في مكتب التجارة الخارجية. ذكرتني كلماته أنني كنت قد رأيت فعلا فريقا ينتقل بمعدات الكاميرا بين الحضور.

قلت «نعم. وعلى الأرجح سأظهر في التلفزيون الليلة. تابعت صعود السلم. كانت العمة الكبيرة تنتظر في المدخل تستمع إلى الجلبة. بدت مرتبكة.

«فقط أخبريني شيئا واحدا يا آه - سي. هل ستبقين في شنغهاي أم لا؟ أنا لا أهتم بالولائم ولا التلفزيون».

ضممتها بقوة قائلة «يا عمتي الكبيرة أنا باقية هنا مقيمة معك. أستطيع أن أعتني بك من الآن فصاعدا».

بدأت العمة الكبيرة بالبكاء وبعدها بالضحك من الفرح. تمتمت قائلة «آه - سي عادت أخيرا».

تجمهر الجيران في شقتنا، يطلقون الأسئلة كوابل من الرصاص. أرادوا أن يعرفوا التفاصيل داخل الفندق، ترتيب الصحون فوق طاولات الوليمة، كيف يبدو الأفارقة، وكيف يتكلمون. هل بشرتهم سوداء حقا؟ وماذا عن كبار الموظفين؟

لا يستطيع الناس العاديون دخول الفنادق ولا يقابلون زعماءهم السياسيين الذين يبتعدون عن أعين الجمهور ويتوارون

خلف الستائر في سياراتهم التي يقودها السائقون. في المجتمع الذي لا توجد فيه انتخابات لقادة الأمة، يكون الزعماء مخلوقات غامضة. حاولت أن أجيب عن كل أسئلتهم وتمنيت لو أحضرت إلى البيت قائمة الطعام لإشباع فضولهم أوحتى زجاجة فارغة. فمع كل الأنخاب التي تتابعت، كان هناك الكثير للاحتفاظ بها.

طوال حياتي كنت أقرأ القصص الخرافية، أما الآن فقد بدوت كأني أعيش في واحدة منها. دخلت وخرجت من المبنى الفكتوري القديم على الوجهة المائية وأنا أظهر بطاقة هويتي وأهز برأسي للبوابين. دخلت إلى الفنادق الفخمة وحييت بابتسامات صدوقة. أصبحت مركز الأحاديث على مائدة الطعام في بيت هسيا وجاو.

أرسلت برقية إلى قوس قزح أنبئها بالأخبار وأطلب منها أن ترسل حاجياتي إلى شنغهاي.

خلال الأسبوع الأول ارتديت ملابس استعرتها من أختي الثالثة إلى أن تسلمت بدل الملابس الخاصة الذي أتى مع نصيحة بأن أنفقه فقط على الملابس الخارجية «لا الداخلية»، وطلب بأن أقدم إيصالات بمقدار ١٢٠ يوانا، أي بما يزيد عن راتب شهرين. عندما انتشر الخبر - عبر محادثات العمة الكبيرة في منطقة الغسل وفي أنحاء الحارة - بأنني تلقيت ثروة من الحكومة لأنفق على الملابس وأنني لم أعرف ماذا أشتري، اجتمعت عدة جارات في شقتنا في إحدى الأمسيات وجلبن ملابسهن المشتراة أو المستعارة. أرتدي ثوبا أوجاكيتا فيمتدحن مظهري إذ يتحدثن جميعا في الوقت نفسه عندما يحاولن اتخاذ قرار بما إذا كان علي أن أشتري مثله وأين جرى شراؤه وما

إذا كان صفقة جيدة. في الصين، يسمح الناس للآخرين بمعرفة كم دفعوا ثمن الأشياء ويكونون سعداء وفخورين عندما يكونون قد دفعوا أقل مما يظن الآخرون.

اقترحت السيدة زنج «اذهبي ليصففوا لك شعرك مجعدا كتلك الشابات في المجلات». لقد فعلت ذلك للتو أو «حرقته» كما تقول العمة الكبيرة «تاركة شعرها ككومة مبعثرة من سيقان الأرز». وقبل أن تتمكن العمة الكبيرة من مناقضة السيدة زنج، قلت لها إن بدل الملابس لا يمكن استعماله لتصفيف الشعر.

ثمنت عاليا مساعدة جاراتي. عندما كنت طفلة ارتديت الملابس التي تخلت عنها أختي وكذلك الملابس التي تخلى عنها أصحابها وملابس الحداد. وعندما كبرت ارتديت الأزياء غير الملائمة التي لا تصلح للجنسين ذات اللون الأخضر أو الرمادي أوالأزرق «الثوري». لم أكن أعرف أي شيء عن الأزياء ولم أرتد مطلقا الملابس الجيدة النوعية. في مكتبنا قال لي مديرنا لاو - لي إن مظهرنا «كواجهات العرض» - أول منظر يراه الأجانب من الشعب الصيني ككل وهي ملاحظة وجدتها غريبة لأن الأجانب يستطيعون بسهولة أن يمشوا في الشوارع ويروا بأنفسهم المواطنين بالملابس الرثة.

عرضت السيدة يان أن تفصل لي بعض الملابس وقبلت. طلبت من هسياو جاو أن يجمع إيصالات من أخواته. (كلهن غادرن مزارعهن وعدن إلى البيت في شنغهاي، بفضل رشوة قدمها والدهن للأشخاص المعنيين).

أحببت عملي. ولكن لا شيء في حياتي كاملا. منذ البداية بقيت بعض زميلاتي وخاصة المترجمات، بعيدات وعاملني ببرود.

ظنن أنني حصلت على منصبي عبر الاتصالات العليا لأنني توظفت نتيجة لمكالمة هاتفية من بكين. كلهن تقريبا توظفن إما من مكاتب السياحة أو الجامعات والمؤسسات الأخرى بعد سنوات من الخبرة العملية.

اشتعلت الغيرة عندما حان الوقت لسحب يانصيب المكتب. فالمترجمات والأخريات اللواتي يعملن مع الزوار الأجانب غالبا ما يتلقين هدايا التقدير. عندما يتسلم الموظف الكبير هدية، فإنه عادة يحتفظ بها، سواء كانت جهاز تلفزيون ملون أوهدية صغيرة. ولكن على صغار الموظفين والمترجمات أن يسلموا كل الهدايا، حتى لو كانت قلما، إلى السكرتيرة جو التي تسجلها وتخزنها. ومرتان كل سنة يجري السحب على هذه الهدايا. بعد أن التحقت بقسم الاستقبال بوقت قصير كان هناك سحب لكل موظفي الأقسام (السياسي، والدعاية والاستقبال). اعتقد الذين استاءوا من تعييني أنه يجب ألا يسمح لي بالاشتراك لأنني لم أساهم في العمل الذي جلب هذه الجوائز. رفضت لاو - جو الاستماع إليهن. ولم تزدد شعبيتي عندما ربحت الجائزة التي تلهف الجميع للحصول عليها وهي ساعة مقدمة من رئيس وزراء فرنسا.

وعلى رغم أن عملي كان ممتعا، وجدت أنني لا أستخدم اللغة الإنجليزية لأنني قضيت كل الوقت على التفاصيل اللوجستية للزيارات الرسمية، في حين كان رؤسائي الشيوعيون يمارسون الألعاب الديبلوماسية وزملائي يعملون كآلات اتصالات، كنت في دوامة من التفاصيل أتعامل مع طلبات لمقاعد الولائم من الموظفين الصينيين وزوجاتهم وسكرتيراتهم أو تأمين بطاقات

لحضور الحفلات الساهرة. في بعض المناسبات كان علي أن أتفاوض مع الموسيقيين المستاءين الذين يعزفون في الولائم المختلفة. وباستثناء ترجمة قوائم الطعام وشرح بعض الأطباق الغريبة للضيوف، لم تتح لي الفرصة لتكلم الإنجليزية فقرة منفصلة ولكنني ما زلت في شنغهاي.

في يونيو ١٩٧٨ بلغت السادسة والعشرين. كان هسياو جاو في التاسعة والعشرين تقريبا واعتقد والده أن الوقت قد حان لنتزوج ونكوّن عائلة. بعد ثلاث سنوات من العمل كعامل في أرصفة الفحم، حصل هسياو جاو على وظيفة في المقصف. ما زال يعمل ثلاث مناوبات تتبدل كل يومين بدلا من كل أسبوع ويحصل على يوم إجازة، الخميس. (في الصين، أسبوع العمل ستة أيام، وهكذا فإنني لن أرى هسياو جاو كما أحب. كما أنني لم أبق مع العمة الكبيرة بالقدر الذي أريده لأنني عندما كنت أرافق أو أضع برنامجا لوفد كان علي أن أبقى في الفندق).

وعلى رغم أن سياسة تخطيط العائلة الإجبارية التي تسمح بطفل واحد لكل عائلة لم تدخل حيز التنفيذ إلا بعد سنة، فإن الحكومة طالبت بالزواج المتأخر والإنجاب المتأخر. حجبت وثائق الزواج والمساكن عن الرجال والنساء دون الخامسة والعشرين والثانية والعشرين بالترتيب. تأهلنا انا وهسياو جاو للزواج ولكنني وجدت نفسي غير مستعدة لهذا الالتزام. منذ عودتي إلى شنغهاي لم يمر يوم لم أفكر فيه في أختي الصغرى العالقة في المزرعة. لقد بقيت هناك لعشر سنوات. ظهرت لكل من حولي قادرة وواثقة، وخصوصا بعد أن رفضت التعيين في جهاز

المخابرات، ليس فقط للحصول على عمل ممتاز آخر لم يستطع معظم الناس أن يحصلوا عليه من دون شبكة اتصالات واسعة اتساع شبكة العنكبوت. ولكنني في أعماقي أخفيت شكوكا كثيرة حول نفسي ومزقتني القرارات التي اتخذتها. لقد رفضت جيان - غو وبالتالي الفرصة لمساعدة أختي الخامسة باستخدام نفوذ عائلته. وانتقاما من النظام الذي أكرهه، تخليت عن فرصة عمل مرموق يمكنني من إفادة عائلتي كلها. حققت هدفي في العيش مع العمة الكبيرة والعناية بها ولكنني ضحيت بمصالح إخوتي وأخواتي. تساءلت عما إذا كنت قد اتخذت الخيارات المناسبة أو كنت في منتهى الأنانية.

ولكن شيئا واحدا كان واضحا لي لن يزيدني الزواج في هذا الوقت إلا الشعور بالذنب. أخبرت هسياو جاو وعائلته أنني أفضل الانتظار لبعض الوقت فبرنامجي في العمل الجديد مزدحم جدا وعلي أن أحسن لغتي الإنجليزية.

كان هناك أيضا مشاكل لوجستية. فلا عائلة هسياو جاو ولا عائلتي تستطيع أن تسكن ثنائيا آخر. فاثنتان من أخوات هسياو جاو عادتا من الريف لتعيشا مع العائلة. كنت أعيش مع العمة الكبيرة وابن أخي في شقة صغيرة مؤلفة من غرفتين. أرادنا هسياو جاو أن نتزوج ونشغل إحدى الغرفتين ولكن شقتنا كانت أيضا القاعدة لإخوتي وأخواتي عندما يأتون إلى شنغهاي. والأهم من ذلك كله أن كبريائي دخل في الموضوع ثانية. لم أشأ أن أتزوج وأدخل عائلة هسياو - جاو خالية الوفاض. فعلى رغم أنني كنت أعيل نفسي خلال السنوات العشر الماضية كعاملة مزرعة ثم

كطالبة، فإن كل ما لدي الآن هو الملابس التي تكسو ظهري. فحسب تعبير العمة الكبيرة ليس لدي حتى ولا بوصة من الخيوط أو قطعة من القماش كمهر لي. من المتوقع أن تمتلك العروس ما يسميه بعض الغربيين «صندوق الأمل» أكداسا من اللحف وأغطية الأسرة والأواني المنزلية وهكذا. فجميع لحفنا تصنع يدويا بعد توفير حصص القطن لسنوات طويلة بل يساهم الكثيرون من أفراد العائلة ببطاقات القطن المخصصة لهم منذ أن تكون البنت طفلة للمساعدة في إعداد مهر العروس أو يشترونها من السوق السوداء بأسعار أغلى بكثير.

أوضحت عائلة هسياو جاو - لكل فرد - أنها مستعدة للتعويض عن فقدان المهر وتحمل جميع مصاريف الزفاف والحفلة. عندما قلت ذلك للعمة الكبيرة، أغرقت في الصمت.

وأخيرا قالت «يا آه - سي! لن تدخلي إلى عائلته خالية الوفاض. فوالداك لن يغفرا لي إذا سمحوا بحدوث ذلك لك. دعينا نبدأ بتنسيق الأمور. وإلا فإن عائلتنا ستريق ماء وجهها وسيكون من الصعب عليك أن ترفعي رأسك أمام عائلته».

أقسمت لنفسي أنني لن أتزوج حتى أستنفد كل الوسائل لإعادة أختي الصغرى إلى البيت. زرت المكتب البلدي ومكتب المحافظة اللذين يعالجان أمور العودة من الريف، وعلمت أن الطريقة الوحيدة لعودة أختي هي اعتلال الصحة الذي يشهد به أحد الأطباء. والمرجحون للنجاح في العودة هم الذين يعانون من التهاب المفاصل. في ذلك الوقت كان التهاب المفاصل في الصين مرضا غامضا - لا يمكن تشخيصه بالعين المجردة أو اكتشافه

بفحوص الدم (ما لم تكن الحالة شديدة وتسبب مفاصل متورمة). ونتيجة لذلك شهدت السنتان الأخيرتان أعلى نسبة حوادث من التهاب المفاصل بين الشبان في تاريخ الصين، وخصوصا بسبب أولئك الذين يودون مغادرة الريف. أصدر الأطباء كثيرا من الشهادات الطبية من دون أن يروا المرضى واكتفوا برؤية ما وصلهم من رشوات.

شاعت الوساطة في ظل الشيوعية - وهي الفلسفة التي ذكرتنا مرارا بمبدأ خدمة الشعب. كانت الرشوة أقل استفحالا وإن لم تكن نادرة. كرهت دائما هذه الطريقة لإنجاز الأمور. في حالتي لم تكن أي من هاتين الطريقتين متاحة لي. لم تكن لي معرفة بأي طبيب ولم أكن أملك المال لدفع رشوة كبيرة. فكرت في مفاتحة عائلة هسياو جاو لاستدانة المبلغ ولكن كبريائي منعني. لم أشأ أن أكون مدينة لهم قبل أن أصبح زوجة ابنهم.

أتى الحل عن طريق عملي. في خريف ذلك العام، بعد أن عملت في القسم لما يقرب من ستة أشهر، دهشت حين أدركت أنني على معرفة بكثير من الناس في عدد من المصانع والكمونات والمدارس والمستشفيات والمؤسسات الأخرى المؤهلة لاستقبال الأجانب. أرتني زياراتي المتكررة مدى تعاون هؤلاء الناس العاملين في هذه الوحدات. كانوا دائما يحاولون إرضاء أفراد قسمي على وجه الخصوص لكي نستمر في إحضار الزوار إليهم.

في ذلك الوقت كانت الوحدات المفتوحة للأجانب نادرة، فقط المؤسسات المعتمدة والمسجلة في دفاترنا التي يعدها قسم الدعاية هي التي تقبل الوفود الأجنبية. هذه المؤسسات تحصل على سمعة

طيبة والذين يديرونها يحققون وجاهة عظيمة ويحصلون على مزايا سياسية. وعلى رغم أن الكثير من الوحدات تمنت هذه الميزة فإن القليل منها حصل عليها.

في ذلك الوقت كانت المستشفيات، التي يمارس فيها «الطب الصيني» السحري «والأساليب الطبية التقليدية الأخرى، أحد مصادر الاعجاب للأجانب القادمين إلى شنغهاي. وبذلك تعرفت على عدد لا بأس به من الأطباء الذين نعموا بما أغدق عليهم الأجانب من اهتمام. في هذا الوقت ألقيت على كتفي المسؤولية الكاملة لترتيبات الموائد وتوزيع بطاقات الحفلات أو العروض المسرحية المعدة للوفود الأجنبية. لأسباب أمنية، كانت هذه المناسبات حصرا على نخبة مختارة. واعتبر شرفا كبيرا إمكان رؤية الوجهاء الأجانب أثناء استمتاعهم بأفضل أداء فرق الرقص والأوبرا والفرق البهلوانية المحرمة على المواطنين العاديين. كانت هذه البطاقات لا تقدر بثمن وكان عدد منها بإمرتي.

حقق التوزيع المتميز لهذه البطاقات لي في نهاية شهر نوفمبر ظرفا يحتوي تقريرا طبيا وفحصا طبيا يشير إلى عدد مرتفع من الكريات البيضاء - كلاهما يحمل اسم الأخت الخامسة (يي - فنج - هسنج). وعلى رغم أنها لم تر الطبيب، جرى تشخيص حالة أختي الصغرى على أنها تعاني ألم مفاصل حادا يؤهلها للانسحاب من الريف بسبب مرضها. حملت الأوراق الخاتم الرسمي عليها - مستشفى جونج - شان، أحد أفضل مستشفيات شنغهاي.

عندما قرأت التقرير ارتجفت يداي. كان التزوير جريمة، ولكن محاولة تحقيق مكاسب شخصية باستخدام موقع دائرتي

وسمعتها جريمة أخرى - ربما الأسوأ بين الاثنتين - وقد يكلفني ذلك حياتي الوظيفية التي لم تكد تبدأ. أقسمت ألا أخبر أحدا حتى ولا هسياو جاو لأن التجربة علمتني أن السر يبقى سرا فقط إذا احتفظ به المرء لنفسه. بالإضافة إلى ذلك، لم أكن فخورة بما فعلت فقد شجبت طيلة حياتي هذا النوع من الأفعال. في اليوم التالي أرسلت الأوراق إلى الأخت الخامسة بالبريد المسجل.

هدأ بالي بعد أسبوعين عندما ذهبت إلى البيت ووجدت رسالة من الأخت الصغرى. صرخت ووثبت بعد قراءتها ودرت حول العمة - الكبيرة والرسالة في يدي. وحالما انتهت الإجراءات والمعاملات الرسمية، تمكنت أختي من المجيء إلى البيت بعد عشر سنوات في المنفى وستستعيد وثيقة إقامتها في المدينة من دون أي مصاعب. وأخيرا انزاح عن قلبي ذلك الشعور المضني بالذنب. نظرت إلى صورة والديّ على الجدار وتمنيت لو كانا هناك ليشاركاني فرحتي.

يقول المثل إن المصائب لا تأتي فرادى، ولكن الأخبار السارة تصل عادة أزواجا. بعد بداية السنة الجديدة ١٩٧٩ أي بعد شهرين من عودة أختي إلى البيت. اعطيت أختي عملا كعاملة دهان في منشأة إصلاح تديرها اللجنة المحلية وهو العمل الوحيد المتوافر للذين يعودون من الريف. كانت أختي دائما هادئة ومنعزلة ولكن عشر سنوات من المصاعب والبعد عن البيت أضافت حدة شديدة إلى مزاجها. لم يقم حظي الجيد الحالي الذي تناقله الجيران والأصدقاء بأي دور لتخفيف مرارتها في كل صباح، وكلما ارتديت ملابسي لأبدو مقبولة للزوار الأجانب وارتدت هي ملابسها لتنطلق لورشة الصباغ، كنت أشعر بعينيها وهما تشيان بالحسد.

وغالبا ما كررت «كلتانا عانتا ولكن معاناتك آتت أُكلَها. معاناتي تستمر لست أدري لِمَ هي الحياة في كل هذا الظلم».

كانت شهادة الصحة المزورة سرا مكنونا بيننا، لأنني وعدتها بألا أخبر أحدا. وعلى الرغم من استياء أختي من عملها، لم أستطع أن أتذكر آخر مرة كان فيها بيتنا مليئا بالحياة والسعادة هكذا. من المرجح قبل عملية والدي بقليل.

في وقت متأخر من إحدى أمسيات شهر يونيو دخل الأخ الأول إلى الشقة ففاجأنا جميعا، لأن زيارته نصف الشهرية لم تكن بعد. من الواضح أنه كان سعيدا يقذف بابنه إلى الأعلى بينما راح يخبرنا أنه قد تقدم بطلب إلى مدرسة الدراسات العليا لمعهد شنغهاي لأبحاث بناء السفن وأنه قدم إلى المدينة لأداء الامتحان. كان يحزنني دائما أن أخي الأكبر الذكي - الموهوب في الموسيقى والعلوم - قد أهدر السنوات العشر الأخيرة في العمل في إصلاح الأدوات في مقاطعة غريجون. لقد أرسل إلى المنفى مثلي ومثل أختنا الصغرى. وقد أهدرت سنوات دراسته للهندسة في جامعة جياو تونج. ولكن عندما أعيدت مدارس الدراسات العليا في ١٩٧٨، بحث عن طريق، للخروج من النفق، وعندما أعاد دنج - هسياو - بنج تأكيد التحديثات الأربعة وجد في ذلك فرصة له. قرر أن يركز على بناء السفن بدلا من اختصاصه في هندسة المركبات. كان في شنغهاي واحدة من أكبر صناعات بناء السفن في البلاد، وبالتالي إذا نجح فأمامه فرصة طيبة للعودة إلى البيت بحيث يكون مع ولده وأقرب إلى زوجته.

وهكذا درس صناعة بناء السفن للامتحانات لوحده منكبا على كل كتاب يمكن أن يصل إلى يديه. لقد اجتاز الامتحان العام وهو الآن في شنغهاي لاجتياز الاختبار الثاني الأكثر تخصصا. في سن الثالثة والثلاثين وكأب وكزوج منفصل عن زوجته منذ زواجهما قبل حوالى سبع سنوات تقريبا، كان الأخ الأكبر لا يزال يناضل لبناء عائلة وحياة جديدة.

في نهاية شهر أغسطس وردت الأخبار. جرى قبول أخي كأحد الطلبة الخريجين العشرة الوحيدين في معهد أبحاث صناعة السفن وسيعيش في البيت في جادة أشعة الشمس الأرجوانية خلال مواظبته على الدروس. عندما عدت إلى البيت في تلك الليلة استقبلتني ضحكات نابعة من قلب العمة الكبيرة وأختي الخامسة وأخي الأول وجيراني. حدّق بنا يي هسيا نج الصغير بعينين محتارتين. لا بد انه ظن اننا قد أصبنا جميعا بالجنون. كان صغيرا جدا ليدرك ماذا عنت تلك اللحظة لعائلتنا. بالنسبة إلي ثم أختي الصغرى ثم اخي الأول. لقد انتهى كابوسنا أخيرا. بعد عشر سنوات من الانفصال والبؤس عدنا جميعا إلى البيت.

في ربيع ١٩٨٠ انتقلت دائرتي إلى مجمع القنصلية العامة البولندية سابقا الذي يقع لحسن الحظ مقابل قاعة الولائم على بعد مجمع واحد من مدرستي الثانوية القديمة. إنه أحد أجمل المباني في المدينة حيث كان السكان المحليون يطلقون على الموقع الجديد «البيت الأبيض» لتميزه بمبنيين أنيقين من الحجر مؤلفين من ثلاثة طوابق تحيط به المروج وأحواض الزهور وهو أمر نادر في وسط شنغهاي. كان هناك مؤخرا ارتفاع حاد في عدد

الزوار الأجانب والسواح بالإضافة إلى المدعوين ولذلك انقسم الاستقبال الذي أعمل فيه إلى ثلاث مجموعات. شَكَّلتُ مع أحد عشر شخصا آخرين ما عرف بقسم «ضيوف الدولة» ولم أعد مرتبطة بالضيوف المدعوين من قبل الحزب الشيوعي أو الذين يأتون تحت رعاية جمعيات الصداقة باستثناء تلك الأوقات التي يتطلب فيها الأمر مساعدة إضافية كما في حال وفود كوريا الشمالية التي يرأسها كيم - إيل - سونج وكمبوديا برئاسة كينج - شك - لو الرجل الثاني في نظام بول - بوت.

وبفضل لاو - غو تلقيت كوبونا لشراء دراجة (كانت الدراجات مقننة في ذلك الوقت) وإن لم يتوافر لدي المال لأبتاع واحدة، فاشتراها لي والد هسياو جاو كهدية خطبة وقبلتها بامتنان عميق مع علمي الأكيد أنها كانت إشارة قوية إلى أن الوقت قد حان لكي نتزوج. عادت أختي الخامسة إلى البيت ولكن بقيت مشكلة العثور على مكان للسكن. وأتى الحل - مرة ثانية - من خلال عملي.

بين جميع زعماء المدينة الذين قابلتهم مرارا من خلال عملي، اعتبرت نائب العمدة جاو سياسيا محترما يختلف عن معظم زملائه الشيوعيين. ولكونه سفيرا سابقا لدى العراق وبلدان أخرى، فقد أصبح مسؤولا عن دائرتنا.

جعلني تعامله المحبوب والمهذب مع العاملين - وهذا نادر بين الرجال والنساء في مثل منصبه - أشعر بالارتياح في حضوره. بل كان من السهل علي أن أجيب على أسئلته المتعلقة بحياتي الخاصة. في إحدى الأمسيات وخلال حديث عرضي بعد إحدى

الولائم أخبرته أنني وخطيبي ننتظر قسم الإسكان في منطقتنا لتخصيص مسكن لنا (وهي مشكلة عامة تواجه الكثيرين من الأزواج الشباب) طلب مني أن أكتب له تقريرا يفصل حجم مسكني عائلتينا وعدد القاطنين وأعمارنا وغير ذلك، ووعد بإرساله إلى قسم الإسكان.

إن تتبعه مشكلتي سيعني ان زواجي - رغم دخولي عائلة زوجي الجديدة خالية الوفاض - سيأتي بأسرع مما توقعت وأنني سأحصل على شقة أفضل وأكبر من معظم الأزواج الآخرين. إن نظام توزيع المساكن - سيد كل البيروقراطيات - انقسم إلى ثلاثة مستويات المنطقة والمحافظة والبلدية. كان أهل شنغهاي يسمونها القريدس والسمك الصغير والسمك الكبير. تحكم المستوى البلدي في أفضل مساكن المدينة في حين التقط مستوى المحافظة البواقي ولم يحظ مستوى المنطقة إلا بالفتات. أرسلت تقريري إلى نائب العمدة بعد بضعة أيام. انتشرت الأخبار بسرعة في حارة أشعة الشمس الأرجوانية أن موظفا كبيرا يهتم بهذا الأمر. وهكذا عندما أخذ نائب العمدة آه - سي تحت جناحيه شاركت بالنبأ كل من تعرفه.

لم تبد العمة الكبيرة حماسا كبيرا لكوني سأصبح عروسا. فقد فشلت خطتها السرية في إغوائي وهسياو جاو بالعيش معها وذلك بعودة الابنة الخامسة والابن الأول إلى البيت. أقلقها ألا تستطيع أن تطلقني لحياتي الجديدة مزودة بمهر مناسب. ونظرا إلى أنها امرأة عزباء متقاعدة تعيش من تقاعد بسيط، وغالبا ما طلب منها أقاربها في الريف الدعم المالي،

لم تستطع أن توفر لي اللحف الستة المطلوبة. في أوائل نوفمبر - بعد أسبوعين من إرسال تقريري - تلقيت مكالمة هاتفية في العمل من امرأة في مكتب الإسكان البلدي طالبة مني أن أقابلها في بناء سكني في وسط المدينة في شارع هسيزانج (التيبت) على بعد حوالى ٢٠ دقيقة من مكتبنا على الدراجة. إنه مبنى سكني مؤلف من خمسة طوابق يعود إلى الخمسينيات وقد مررت به مرات كثيرة في طريقي إلى محطة القطار. قادتني المرأة إلى وحدة في الطابق الأول - وهو الترتيب السائد لشقق من غرفتين منفردتين تتقاسم المطبخ والمرحاض. تبلغ مساحة الغرفة التي أرتني إياها حوالى ١٦ قدما مربعا - الحجم المقرر لعائلة من أربعة أفراد حسب الدليل. بين الشرفة الأمامية والممر الجانبي كانت هناك حديقة ضيقة وكان هناك أيضا حوض أزهار في مؤخرة البناء. بالمقارنة مع شقتنا في حارة أشعة الشمس الأرجوانية، بدت هذه الشقة فاخرة. لها أرضية من الخشب الصلب (غير متوافرة في معظم الأبنية الحديثة) وهياكل نوافذ معدنية. ويزخر المطبخ بالماء الجاري وطباخ يعمل على الغاز (كنا لا نزال نوقد الفحم)، أما الحمام المشترك ففيه مرحاض بماء دافق. (كنا أيضا لا نزال نستعمل القصريات). موقع الشقة مناسب أيضا - عشر دقائق من منزلنا وعشر إلى وسط المدينة. قبلت المفتاح على الفور. تعرفت على جيراني في الغرفة الأخرى - عائلة لو والد ووالدة مسنين وطفليهما الكبيرين. وقبل أن تغادر المرأة أسرت لي أنها توقعت أن أرفض الشقة.

فسّرت ذلك بقولها إن معظم الناس يتوقعون مني أن أرفض الشقة الأولى لأنهم يعرفون أنه يمكن عرض شقة أفضل في المرة الثانية على اعتبار أن نائب العمدة وراء الطلب.

عندما وضعت مفتاح الشقة في جيبي، فجأة بدا كل شيء حقيقيا سأترك العمة الكبيرة وأبدأ عائلة خاصة بي. ضغط علي هسياو جاو ووالده أن أتزوج قريبا رأس السنة - الوقت الذي يفضله معظم الناس للزواج - بعد بضعة أشهر فقط.

في يوم الأحد بعد أسبوع عندما كنت وأختي الصغرى ننظف البيت، رمقت العمة الكبيرة بطرف عيني. كانت تجلس بتثاقل على سريرها وعيناها مغمضتان ويداها على صدغيها.

ناديت من الغرفة الأخرى «يا عمتي الكبيرة. هل أنت بخير».

لم أكد أسمع جوابها.

تمتمت قائلة «رأسي. أشعربأن سكاكين تنغرز في رأسي».

ركضت الأخت الخامسة إلى الغرفة.

لاحظتها أختي وقالت «إنها شاحبة اللون».

قلت لها «أعتقد أننا يجب أن نأخذك إلى المستشفى». كانت العمة الكبيرة في الثامنة والستين من العمر، وقد عانت من ارتفاع ضغط الدم لعدة سنوات. لم أشأ أن أجازف. قالت بصوت خفيض «لا. لا. اتركاني أتمدد فقط».

ساعدتها في الصعود إلى السرير حيث غطت مباشرة في نوم عميق.

عندما أيقظتها للغداء جلست فوق سريرها.

قلت بهدوء «يا عمتي الكبيرة. لماذا ترفعين ذراعك بهذا الشكل؟».

ارتفع ذراعها الأيمن كما لو كانت تستجيب لشعار سياسي في حشد جماهيري.

«ماذا تعنين؟ أنا لا أفعل شيئا كهذا».

أمسكت مرآة صغيرة أمامها. عندما رأت نفسها أطلقت صرخة خوف.

قالت «لا أشعر بذراعي في ذلك الوضع. ماذا أصابني؟».

استدعيت أختي الخامسة ثم جريت إلى أقرب هاتف عمومي في الحارة لاستدعاء سيارة إسعاف. في المستشفى نفسه حيث جرى تشخيص سرطان والدتي، علمت أن العمة الكبيرة قد أصابتها نوبة خطيرة وأن الأمر يتطلب فحصا فقريا لتحديد منطقة الدماغ المتأثرة. عندما ذهبت إلى الجناح بدت كأنها شاخت فجأة. تهدلت عينها اليمنى كما تهدلت زاوية فمها. ما زالت ترفع ذراعها فتبدو مضحكة بشكل غريب.

قضيت وأخي الكبير الليلة بجانبها وفي اليوم التالي رفعت يديها بينما لفها الأطباء والمرضات كالقريدس لإجراء الفحص الفقري. عندما دخلت الإبرة إلى عمودها الفقري أطلقت العمة الكبيرة صرخة مزعجة عالية. توسلت للطبيب أن يتوقف.

قال بكلمات لاذعة «هل تريدين عمتك أن تعيش أم تموت؟».

بينما انهمك الأطباء في عملهم، تساءلت في نفسي عما إذا كنت أنا السبب في آلامها وأن النوبة لم تكن تحدث لولا توترها الناجم عن مغادرتي القريبة. حثتني العمة الكبيرة مرارا وتكرارا أن أجعل بيتي مع هسياو جاو في الغرفة الثانية من شقة العائلة.

وعلى رغم رغبتي في البقاء بقربها، فقد كنت أشعر أن أختي الكبرى وأخي الأول أجدر بقاعدة منزلية في شنغهاي، وبالتالي لم أستطع الموافقة. ورفضي هذا أزعجها.

أظهر الفحص ان نوبتها غير خطيرة. قضيت مع أخوي الأسبوع التالي معها بالتناوب. وعندما أخرجت من المستشفى أكد لنا الأطباء أن ذراعها سيستأنف وظيفته العادية بعد شفاء بطيء.

وللمرة الأولى في حياتها كان الآخرون هم الذين يعتنون بها، وأتيحت لنا - الجيل الثالث من عائلة يي - الفرصة لتسديد ديوننا لكل ما قدمته لنا من مساعدة عبر السنوات الأربعين السابقة. قررت أن لن يكون هناك زفاف حتى تتعافى نهائيا.

في ١٣ أبريل ١٩٨٠، بعد خمسة أشهر، تزوجت هسياو جاو وقد تمكن والد زوجي من حجز قاعة طعام فسيحة في فندق بارك القريب بفعل وساطة قدمها زوج ابنته. كثيرا ما أخذني عملي إلى هذا الفندق لذلك كنت أفضل ألا تكون حفلة الزواج هناك لأن كثيرا من الموظفين يعرفونني. ولكن لم يكن لي رأي في المسألة. فعائلة العريس هي المسؤولة عن الزفاف والاستقبال.

سمحت السياسة الحكومية بثلاثة أيام لشهر العسل، ولكنني كنت قد تقدمت بطلب ثلاثة أيام إضافية باستخدام إجازات عملي الإضافي المتراكمة. قررت وهسياو جاو أن نقضي ثلاثة أيام في هانغ - جو - وهي مدينة ذات مناظر طبيعية على بعد ثلاث ساعات بالقطار باتجاه الجنوب، حيث يقطن بعض أقاربه وبعدها نذهب إلى وهسي بحيث نحاول تحديد مكان قبر والدي. قالت العمة يي - فنج إنها قادرة على أن تشير إلى المنطقة

التقريبية للقبر، ولكن ليس المكان بالتحديد. لا يزال المكان مزروعا بالمحاصيل.

رفض طلبي للإجازة الإضافية فقد كان من المقرر لوفد أمريكي أن يصل إلى شنغهاي في ذلك الوقت. ازدادت خيبة أملي عندما انتقدت لتقديم ذلك الطلب في المقام الأول.

سألتني لاو - فو التي رقيت إلى رئيسة قسم قائلة «لماذا تريدين الذهاب إلى هانغ - جاو؟ أمن أجل صعود الجبال والإبحار كالسياح من دون عمل أي شيء؟».

لم تكن تلك نهاية الأمر. بعد بضعة أيام استدعتني لاو - فو ثانية مصحوبة هذه المرة بالسكرتيرة لاو - جو. ونظرا إلى برنامجنا المضغوط الأصلي لزيارة مدينتين في ستة أيام ظننت وهسياو جاو أنها ستكون فكرة جيدة إذا طرنا عائدين إلى شنغهاي من هانج - جو وركبنا القطار إلى ووهسي. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن أحدنا قد ركب الطائرة سابقا وتصورنا أن ذلك سيكون متعة. ساعدني أحد مترجمي الإنجليزية القدماء في دائرتنا - لاو بنج - في حجز تذاكر الطائرة عبر أحد أصدقائه في مكتب سياحة المقاطعة هانج - جو. كان شراء بطاقات الطائرة يأتي في الصعوبة بعد الصعود إلى السماء. فالناس العاديون غير قادرين على الحصول على البطاقات لكثرة الطلب عليها من كبار الموظفين والمجموعات السياحية (التي تدفع بالعملات الأجنبية المرغوبة جدا) إضافة إلى أن الأمر يتطلب تقديم وثائق خاصة. لسوء الحظ تلقت لاو - جو الرسالة الهاتفية لتأكيد الحجز. ولاو - جو شيوعية حتى النخاع، يقظة لهذا فقد أبلغت الرئيسة في مكتبها،

اتهمتني لاو - فو بإسرافي البرجوازي - «بتبديد المال كالماء». أما واقع أن المال مالي فهذا لم يغير من الأمر شيئا. أضافت لاو - جو إنني في طلبي للرفاهية الشخصية سلبت الموظفين الشرعيين الذين يؤدون واجباتهم الحكومية من مقاعدهم على متن الطائرة. ثم طلبت على الهاتف صديق لاو - بنج في هانج - جو. وعندما أجاب على الخط ناولتني الهاتف.

أمرتني قائلة «ألغي التذاكر».

وخوفا من تلقي المزيد من الانتقادات «لإسرافي البرجوازي»، خاصة إذا علموا أن استقبال زفافي سيكون في فندق بارك، لم أخبرأحدا ولم أدع أحدا من المكتب. في يوم وليمة الزفاف. قضيت يوم العمل العادي في المكتب لتجنب الشكوك. تعلمت درسي. لقدعرفت صحة حكمة ماو الشهيرة «يمكن لشرارة أن تبدأ حريق البراري»، وقد اتخذت هذا القول مثلا لي إهمال بسيط يمكن أن يدمر حياتي بكاملها.

كان ثوب زفافي طقما رماديا - استفادة من تعويض الملابس الذي تلقيته. حاولت زوجة والد هسياو جاو من دون نجاح أن تقنعني بارتداء ثوب أحمر (الأحمر هو اللون التقليدي للزواج). بعد عقد من الألوان المقيتة التي أملتها الثورة الثقافية، شعرت بالغربة في الثياب البراقة. كما أنني لم أستطع أن أصالح نفسي مع فكرة إهدار المال على ملابس لا أرتديها سوى مرة واحدة، ولذلك توصلت إلى تسوية بارتداء كنزة قرنفلية تحت سترتي. كان غداء زفافي أكثر حادثة شخصية في حياتي استعراضية تورطت فيها، خططها وتكبد تكاليفها والد زوجي الجديد من

دون استشارتي. كنت أفضل غداء عائليا كالذي قدمه اخوتي. حجز والد زوجي عشر طاولات إلى إحداها جلست العمة الكبيرة وأخي الكبير وابنه أختي الكبيرة وزوجها وأختي الصغرى إلى جانب الأخت الصغرى ليو - تشن. لم يأت أخي الثاني ولا زوجته لأننا لم نزل غاضبين بعضنا من بعض بشأن تقسيم شقتنا. الطاولات التسعة الأخرى شغلها أقارب هسياو جاو وأصدقاء أهله الذين لم أكن أعرف الكثيرين منهم. ولكنني لم ألاحظ أن والد زوجي دعا الوالد الغني لامرأة كان قد خطط سابقا لزواج هسياو جاو بها.

كان الغداء رائعا أعد بعناية فائقة بكل تفاصيله وأطباقه العشرة. وفي منتصف الوليمة تجولت مع هسياو جاو على الموائد شاكرين ضيوفنا لمجيئهم ومعبرين عن تقديرنا لهداياهم - ومعظمها نقدية - التي قدمت لوالد زوجي. كنت سعيدة ولكني شعرت وكأني فأرة ريفية فقيرة جدا بأقاربي القلائل الذين شغلوا طاولة واحدة فقط بين أصدقاء عائلة هسياو جاو الأغنياء - بل ضيفة في زفافي.

فيما بعد، في شقتنا الجديدة مع أصدقائنا المقربين وأقاربنا، بدا لي أن كل واحد منهم أدرك تمام الإدراك أن الشيء الوحيد الذي جلبته إلى بيتي الجديد هو حامل خشبي مضعضع صنعه الأخ الأكبر ليحمل موقدنا الغازي ذا الرأسين. كان قد أمضى ثلاثة آحاد وهو يقيس ويخيط ويسمّر مقبعا نموذجيا وجده في كتاب مستعار. وعندما غادرت المجموعة الأخيرة من الضيوف في منتصف الليل، حدقت في غرفتنا المزينة بالأثاث الجديد وأكداس

اللحف الملونة وأغطية السرير والمعدات المنزلية الأخرى التي تفوق ما يقدرَ عليه معظم الأزواج الشباب.

لو اعتقدت أنني سأبدأ زواجي وحيدة مع زوجي الجديد لكنت مخطئة، لأنه لم يمض وقت طويل بعد عودتنا من شهر العسل في هانج - جو حتى ظهر هاي - روي كشيء دائم في منزلنا. كان هاي - روي صديق هسيا - جاو من أيام مزرعة السجن ولكنني لم أبدأ بالتعرف عليه حتى بدأت بمواعدة هسياو - جاو. كان موضوعا متكررا في أحاديث النساء نظرا إلى طرقه المتأنثة التي أكسبته لقب الحَمَل. وكانت من علاماته المميزة حقيبة كبيرة منسوجة من القش يحملها في جميع الأوقات؛ حقيبة من النوع الذي تستعمله النساء فقط. خلال السنوات الست هناك لم يعمل هاي - روي أبدا في المزرعة، وبدلا عن ذلك، عمل كربة بيت وخادمة لعدد من زملائه الرجال؛ ينظف المهجع ويجلب الماء ووجبات الطعام لهم ويغسل ملابسهم. وفي مقابل ذلك كانوا يتسترون عليه وينوبون عنه في الحقول.

كان هاي - روي يكبر هسياو جاو بسنة واحدة ولكنه صعب الإرضاء لا يتحمل حتى ولا ذرة من تراب على ملابسه. وكان معروفا أنه يعبد هسياو - جاو.

في البداية لم أعترض كثيرا علي مشاركته اليومية في حياتنا حتى ولا عندما عدنا من شهر العسل الذي امتد ثلاثة أيام ووجدنا سريرنا مرتبا كسرير في فندق، حيث اللحاف مطوي إلى ا لخلف، ومربعا من الشوكولاتة على الوسادة. ومن دون أن يخبرني أعطى هسياو - جاو صديقه مفتاح بيتنا. وفي

معظم الأوقات عندما أعود من العمل أجد أن هاي - روي قد أعد عشاءنا وغسل ملابس هسياو - جاو وعلقها لتجف على أعمدة الخيزران. في إحدى الليالي وجدت أن ملابسي قد غسلت أيضا - حتى ملابسي الداخلية.

استأت من تدخل هاي - روي في شؤوننا المنزلية، تدخل وافق عليه زوجي الجديد من دون التشاور معي. ولكن في نظر الآخرين كان هاي - روي شخصا طيب القلب وليس مؤذيا. أكد جيراني أنني محظوظة للحصول على صديق «مساعد». على أي حال، في تلك الليلة عبرت عن هواجسي لهسياو - جاو الذي لم يتعاطف معي. وبدلا عن ذلك، أكد لي أن هاي - روي شخص ضعيف لا يشكل تهديدا لي أو يسبب أي أذى. قال «إنه وحيد فقط وبحاجة إلى الرفقة، وهذا كل شيء». لم أفهم في البداية ما كان يعنيه ولا معنى كلمة «تهديد» ولكنها ذكرتني بحادثة ذكرها عندما كان في المزرعة. بعد ظهر يوم أحد استيقظ هسياو جاو على شخص يطبع قبلة على جبينه. كان الشخص هاي - روي. أخبرني هسياو - جاو أنه صفعه على وجهه وحذره من فعل ذلك ثانية.

على رغم أنني قرأت التعابير«لوطي» و«سحاقية» في المجلات الأمريكية لكني بالفعل لم أفهمها. بالإضافة إلى ذلك، صدقت الخط الحكومي الرسمي القائل إن هذه الممارسات لا وجود لها في الصين. لم يخطر ببالي أبدا أن هاي روي لوطي. على أي حال، بدأت أتساءل لماذا لم يواعد هاي - روي الفتيات ولو مرة؟ ولماذا يكرس حياته لهسياو - جاو؟ وبدأت أسأل نفسي من المتطفل الحقيقي، هل هو هاي روي أم أنا؟ فمنذ اليوم الذي أجبرت فيه

على حزم حاجياتي والذهاب إلى مزرعة السجن حلمت بأن يكون لي مكانٌ خاص حيث لا أحتاج فيه إلى طي ملابس في كيس الوسادة أو صندوق من الورق المقوى تحت السرير أو أتقاسم السرير مع عمة أو أخت أو زميلة في المزرعة، مكان أستطيع فيه أن أرتب الأشياء حسب إرادتي.

ترددت في مواجهة زوجي وقررت معالجة المشكلة بصورة غير مباشرة. وبمساعدة إحدى اخوات هسياو جاو حاولت أن أوفق بين هاي - روي ومحاسبة شابة تعمل في مستشفى الأطفال. قاوم هاي روي المواعدة في البداية ولكنه لان في النهاية.

كانت الخطة أن يلتقيا في مسرح قرب بيتنا ويشاهدا العرض وبعدها يعودان إلى شقتنا حيث يستمتعان ببعض الخصوصية. عندها نكون أنا وهسياو قد غادرنا في المساء السابق على مواعدة هاي - روي الأولى، نظفت المنزل وأعددت بعض الأطعمة الخفيفة لهما. في اليوم التالي عندما كنت وهسياو جاو نستعد للمغادرة، اندفع هاي - روي عبر الباب لوحده ومن الواضح أنه كان منزعجا. أخبرنا أنه حالما قدمتهما أخت هسياو جاو لبعضهما وتركتهما في المسرح، ودّع الفتاة وهرب. لقد أوضح أنه لا يهتم في مقابلة أي فتاة أخرى ثانية. تلك كانت النهاية. استمر هاي - روي في كونه الفرد الثالث في عائلتنا، لم أكن أريده ولكن زوجي رحب به. لم أفهم أبدا الطبيعة الحقيقية للعلاقة بينهما.

أما الفرد الثالث الحقيقي لعائلتي فقد أتى من دون تخطيط، حسب تصنيفات تعليمات تحديد النسل. كنا، هسياو وأنا قد قررنا أن ننتظر لسنة قبل إنجاب الأطفال ولكن بعد حوالى ستة أشهر

من زواجنا - في بداية أكتوبر - وجدت أنني حامل. والحقيقة أنني لم أشعر بالأسف قط، بل كنت فرحة. منذ لحظة تأكيد حملي بدأت أشعر بأنني ملتصقة بالحياة الجديدة التي تنمو في داخلي وتطلعت إلى اليوم الذي أحصل فيه على طفل صغير أعتني به. ولكني سرعان ما أدركت النتائج الكاملة لكلمة «بدون تخطيط». أُخبرت بأنني لن أستطيع الاستمرار في الفحوص الروتينية في المستشفى الذي حددته وحدة عملي حتى أحصل على إذن بإنجاب طفل من مستوصف المنطقة. فالشهادة ضرورية للتأكد من أن حملي جرى ضمن الخطط العائلية العامة للجنة المنطقة التي تحدد ويحزم عدد الأطفال الذين ينجبون كل عام.

بعد عودتي وهسياو جاو من هانغ - جو بوقت قصير طرقت امرأة من اللجنة بابنا، تطلب معرفة ما إذا كنا نخطط لإنجاب طفل مباشرة أوما إذا كنا نستخدم موانع الحمل. أزعجتني وقاحتها ولكني لجمت لساني وقلت لها إننا نخطط للانتظار بعض الوقت. امتدحت قرارنا وغادرت تاركة خلفها علبة من أكياس منع الحمل. في هذا الوقت تقريبا نشرت كل صحيفة رئيسية وثيقة مفتوحة من اللجنة المركزية للحزب الشوعي تعلن سياسة «طفل واحد/عائلة واحدة» والتي حملت وزنا قانونيا كبيرا. أصابني الكرب لأنني لن أستطيع تحقيق حلمي بإنجاب خمسة أطفال كما فعلت والدتي. ولكنني كنت من الجهة الأخرى أدرك أزمة السكان التي تواجهها الصين.

ذهبت إلى المستوصف المحلي وطلبت إذنا لإنجاب طفل. بعد فحص دقيق لبطاقة هوية وحدة عملي وكتاب إقامتي تفحصت

الموظفة، وهي سيدة في الثلاثينيات تحمل سمات وتصرفات المرأة المهنية، دفترها وهزت برأسها. قالت «إنك غير مسجلة في الخطة. لا أستطيع أن أصدر وثيقة». قلت بلهجة آمرة «ماذا تعنين. إنني حامل. ها هو ولدي الأول».

وأضفت قائلة «إنه الطفل الوحيد الذي سأنجبه».

«أدرك ذلك، ولكن ليس من المفترض أن تكوني حاملا الآن».

«ولكنني حامل. ماذا تتوقعين أن أفعل؟».

كان سؤالي سؤال العارف، ولكنها فسرته حرفيا «عليك أن تجهضي نفسك. هذا ما نتوقع منك أن تفعليه».

فشلت في كبح غضبي فقلت «كيف يمكنك أن تقولي شيئا كهذا؟ يبدو الأمر كأنك تتحدثين عن مفتاح ضوء. أشعليه عندما تكونين في الخطة وأطفئيه عندما لا تكونين. كيف يمكن أن تكوني قاسية إلى هذه الدرجة؟».

طلبت أن أقابل الشخص المسؤول عن المستوصف أو رئيس اللجنة المحلية. بعد دقائق وقفت أمام امرأتين في أواخر الخمسينيات. الأخت منج - التي تعيش في المبنى المجاور لمبناي - هي نائبة المدير. ابتسمت ابتسامة عريضة قبل أن تفتح فمها. وبدا أنها تعرف كل شيء عني كيف حصلت على شقتي وتفاصيل حول عملي وحتى كيف ساعدت جيراني الأقربين أن يضعوا ابنتهم الكبيرة في مستشفى الأمراض العقلية (المستشفى الذي أقود إليه الزوار الأجانب أحيانا). بعد نصف ساعة غادرت المكان والشهادة في يدي. كنت أعلم أن الأخت منج قد منحتها لي ليس بدافع العاطفة ولا بسبب

قدرة حججي على الاقناع بل بسبب نفوذ وحدة عملي. ولكنني لم أهتم.

كنت وهسياو - جاو في غاية الانفعال. تطور حملي من دون أي حادثة. لم يكن هناك ضغط لإنجاب صبي من أي جانب من العائلة نظرا إلى وجود ورثة من الجانبين. كنت أفضل بنتا.

بالنسبة إلى كل من حولنا كنا - هسياو جاو وأنا - ثنائيا نموذجيا. إذ كانت مشاعري الأولى تجاهه قائمة على الواجب والالتزام، فقد وقعت في حبه عندما حملت. فقلما رفعنا أصواتنا بعضنا على بعض. وبدا أننا نعيش بانسجام مع هاي - روي الذي قضى كل دقيقة فراغ في بيتنا (كان يعيش وحيدا في شقته الواسعة على بعد ١٥ دقيقة على الدراجة ويعمل مراقبا في مصنع يوظف العجزة لتجميع الأجزاء الكهربائية). في كل شهر وفي يوم دفع الرواتب كنت أقدم راتبي إلى هسياو جاو بعد اقتطاع ما أحتاج إليه لبطاقات الطعام. وأحيانا أطلب منه بعض المال لشراء بعض الحاجيات الشخصية. قالت لي أختي الثالثة إن معظم النساء - وهي منهن - لسن واثقات إلى هذا الحد من أزواجهن. أنذرتني بقولها «ضعي بعض المال جانبا لحماية نفسك». قلت لها إنني لست بحاجة للحماية، لقد وثقت بهسياو جاو في تعامله مع المال أكثر مما أثق بنفسي.

وما لم أقله له هو أن إعطاء راتبي لهسياو جاو (وهو أعلى من راتبه بكثير) كان طريقتي للوفاء بما أنا مدينة به له ولعائلته لفرش بيتنا الجديد ونفقات الزواج. لم يطالب هسياو جاو بهذا الدين، ولكن كل شيء في الشقة ذكرني دائما بذلك. استمتعت

بالحياة الجيدة التي وفرها أهله لنا ولكنني حسدت الآخرين على المتعة التي تقاسموها في تأثيث شققهم معا. فكرت دائما بسعادة أختي الثالثة وزوجها بعد أن اشتريا كنبة من توفيرهم المشترك.

عندما رأيت ملابس داخلية جديدة في درجي وملابس جديدة أيضا في خزانة الملابس أدركت أنه ليس من الضروري أن أطلب مالا إضافيا من هسياو جاو. عندما سألته لماذا اشترى هذه الأشياء بدلا من أن يتركني أشتريها بنفسي. قال إنني قد أشتري الأشياء الخطأ أو أدفع كثيرا لأنني لا أمتلك الخبرة الواسعة في الشراء. بدأ يعتني بحاجاتي الأخرى - من دبابيس الشعر إلى دبابيس الفوط الصحية - حسدني جيراني على حظي الجيد لأنني مدللة بهذا الشكل. في نظرهم كنت امرأة سقطت في جرة من العسل ولذلك لم أستطع تذوق الحلويات لمدة طويلة، ولكنني لم أوافقهم الرأي. انسحق استقلالي وكرامتي اللذان اكتسبتهما بالعمل الجاد عندما أدركت أن زوجي يعتقد أنني عاجزة عن التعامل بالمال وغير جديرة بالمتعة والسعادة البسيطة التي أشعر بها عند شرائي لأشيائي الشخصية.

وما يسمى بالحلاوة انقلب إلى حموضة عندما زرت العمة الكبيرة خلال فرصة غدائي في أحد أيام شهرمارس ١٩٨١. كنت حاملا لستة أشهر. اتصلت بي أختي الخامسة في اليوم السابق لتقول لي أن العمة الكبيرة تعيش على الخضار المخللة لعدة أيام بانتظار راتبها التقاعدي لتشتري طعاما طازجا. لقد أرسلت كل مالها لأخيها الأصغر في قرية عائلة تشن الذي كتب إليها يشتكي من أن الشتاء القاسي قتل معظم حيواناته التي خطط

أن يبيعها في الربيع. والعمة الكبيرة - من كبريائها - رفضت مساعدة الأخت الخامسة.

لم أعد أزور العمة الكبيرة بانتظام كما اعتدت أن أفعل لأني كنت أعاني من نوبات الإغماء ولم يسمح لي بركوب الدراجة لعدة أشهر. عندما اكتشفت عوزها كنت عاجزة عن المساعدة لأنني لم أكد أمتلك أي نقود في حقيبتي. ولم أستطع أن أذهب إلى البنك لسحب المال إذ لم يكن لي أي حساب بنكي.

كرهت أن أطلب المال من هسياو جاو ولكن لم يكن لدي أي خيار. في تلك الليلة طلبت منه ٥٠ يوانا - حوالى راتب ثلاثة أسابيع. خطر على بالي ذلك المقدار بالذات لأن العمة الكبيرة كانت قد أعطتني المبلغ نفسه في يوم زفافي، وهو مبلغ كبير بالنسبة إليها. أعطيته إلى هسياو جاو مع الهدايا النقدية الأخرى من أخي وأختي. لم يخبرني أبدا كم من النقود أعطي إلينا يوم الزفاف ولم أسأله.

قال «يجب أن تنتظري يوما أو اثنين حتى أتمكن من الذهاب إلى البنك». عرضت عليه «أنا أستطيع الذهاب لسحب المبلغ».

«لا.لا.لا تستطيعين لأن الحساب باسمي».

رنت في أذني كلمات الأخت الثالثة. كنت على وشك أن أسأله لماذا لم يفتح حسابا مشتركا كما يفعل معظم الأزواج ولكنني افتقدت شجاعتي. ذكرني ثانية أنني وعائلتي من يحتاج إلى المساعدة المالية. شعرت بأنني معتمدة على هسياو جاو وعائلته منذ تزوجنا - وخصوصا زوجة والده الكريمة التي أمطرتني بالنقود يوم عيد ميلادي ويوم علمها بحملي. كان العيش في هذه

البيئة غير المتوازنة سيئا بما فيه الكفاية، وسيكون الوضع أسوأ بكثير لو ظن أنني أستغله. ابتلعت كلماتي.

في العمل قلل حملي من فرص الاحتفاظ بلغتي الإنجليزية. اقتصرت على العمل المكتبي. ومن الواضح أن بطني المرتفع لم يمثل صورة جيدة للأجانب. بالإضافة إلى ذلك، كنت لا أزال عضوا جديدا في الفريق وحتى بعد ثلاث سنوات من العمل لايزال العمل المكتبي والاتصالات الهاتفية من نصيبي.

في الوقت نفسه أصبح طفلي نزقا. كثيرا ما أيقظني رفسه في الليل. وقبل أسبوعين من تاريخ ولادتي المفترض، جررت نفسي إلى البيت، منهكة بعد طول انتظار حار عند موقف الحافلة بعد العمل. بعد العشاء - على رغم أن الطفل كان هادئا - شعرت بالانزعاج. أتت الآلام قبيل منتصف الليل.

غادرت وهسيا جاو الشقة ووقفنا في الشارع نبحث عن سيارة أجرة. وأخيرا ركبنا الحافلة إلى مستشفى لوو - وان للنساء والأطفال حيث فحصوني وأخبروني أن ولدي سيأتي خلال ٢٤ ساعة. ولأن التجديد والإصلاح في المستشفى قلل عدد الأسرة فقد أرسلت إلى البيت. قضيت الليلة من دون نوم، أحارب الألم، وأخاف من الآتي.

عندما بزغ الفجر قال لي هسياو جاو إنه ذاهب إلى العمل. لم أكد أصدق أذني. «ألن تبقى معي؟».

«علي أن أذهب يا آه - سي. إن معي مفتاح مؤن المقصف».

فكرت أنهم لن يموتوا إذا فاتتهم بضع وجبات ولكنني لجمت لساني. وبدلا من ذلك قلت له «ماذا سأفعل إذا احتجت إلى مساعدة؟».

«الجيران في البيت. سأحاول أن أترك العمل مبكرا. أنا متأكد من أنني سأعود إلى البيت قبل أن يحدث شيء».

بعد بضع دقائق من مغادرته انفجر الماء. قفزت من السرير خائفة وساقي وثوب النوم مبللة. لم تكن الساعة قد بلغت السادسة بعد والجيران أيضا لم يستيقظوا بعد. كان المبنى كله هادئا. خفت ولم أعرف ما أفعل. نظفت نفسي وارتديت ملابسي بسرعة واختطفت الحقيبة التي أعددتها في الليلة الماضية وغادرت الشقة. كان علي أن أصل إلى المستشفى. إنها مسيرة ١٥ دقيقة في الشوارع المزدحمة للوصول إلى أقرب موقف للحافلات وكنت أخشى ألا أنجح في الوصول. أثناء عبوري الشارع أوقفت سيارة أجرة. ركضت إلى السيارة وأنا أصرخ بأعلى صوتي وألوح بيدي باهتياج شديد. ضغط السائق على الفرامل وقفز من السيارة.

رجوته قائلة «ساعدني من فضلك» ذلك لأن سائقي سيارات الأجرة اعتباطيون بشأن الركاب والوجهات. يجب أن أصل إلى المستشفى».

وبدلا من توجيه الكثير من الأسئلة فتح الشاب الباب الخلفي وساعدني في الدخول وطلب مني الاستلقاء. وبعد رحلة ١٥ دقيقة متأرجحة صرَّت مكابح السيارة للوقوف، فقفز السائق إلى الخارج ودار حول السيارة بسرعة وساعدني في الخروج. رفض أن يتركني عند مدخل المستشفى وأصر على مساعدتي في صعود السلم إلى غرفة التسجيل. مسَّتني مساعدته في الأعماق فسألته عن اسمه واسم الشركة التي يعمل فيها. أبى وغادر من دون أن يقول أي كلمة.

نظرت المرأة خلف الطاولة - الأقل اهتماما بي - إلي بصرامة قائلة بفظاظة «أين عائلتك؟».

«أتيت لوحدي. لا يعيش معي أحد بعد» سلبتني الآلام أنفاسي. سال الماء على ساقي إلى الأسفل.

«لم تأت مع أحد؟ هناك مسيرات جيئة وذهابا عليك قطعها لدفع الرسوم وشراء الأوراق الصحية الخاصة التي ستحتاجين إليها و...».

توسلت إليها قائلة «ارجو أن تدخليني الآن. إنني مبللة حتى العظم».

أجابتني بجفاء وقد بدات تطلب المساعدة «حسنا. لماذا لم تقولي ذلك في المقام الأول؟».

حملت إلى إحدى الغرف وتمددت على سرير منخفض. كان الألم لا يحتمل. كانت حولي اكثر من عشر نساء يأنن ويصرخن. كنت منهكة وغير قادرة على التنفس الكامل بين التقلصات. وبدا أن الممرضات غير مهتمات بتقديم المساعدة أو الراحة لأي منهن. وقفن حولنا يتبادلن الأحاديث. عندما كانت إحدى النساء تصرخ «ساعدوني! إنني أعاني الما رهيبا» كانت الممرضة تصرخ مجيبة «يا أخت! هذه هي الأمومة من الأفضل أن تتعلميها الآن».

سقطت المرأة المسكينة بجانبي من فوق السرير الضيق من الألم وزحفت على الأرض. وافتها إحدى الممرضات ولكن بدلا من مساعدتها استهزأت بها.

أغمضت عيني في تقزز. وصل هسياو جاو حوالى الظهر فلمحته وأنا في طريقي إلى غرفة الولادة. كان معه هاي - روي.

في الغرفة ستة أسرة وكرسي قابلة في إحدى الزوايا. كانت معظم الأسرة مشغولة ولم تكن هناك فواصل بينها ولا ستائر ولا خصوصية. كانت إحدى النساء تلد وهي تصرخ من الألم عندما وصلت. بعد أن وضعت على سرير وأخذت ممرضتان تجهزاني للوضع. رأيت رجلين في رداء أبيض متسخ يتجولان في الغرفة كما لو كانا في نزهة.

ارتبكت بشدة وسألت الممرضات «ماذا يفعل هذان هنا؟».

قالت إحداهن بجفاء «لا تخافي. لن يتذكراك». لقد رأوا كل ذلك من قبل. بالإضافة إلى ذلك، لماذا تهتمين؟ لن تعودي إلى هنا ثانية، أليس كذلك؟».

بدا أن العاملين والجو كله كان يخدم غرضا وحيدا مفاده أن إنجاب الأطفال شقاء لا يوصف وتساءلت فيما بعد إذا كان ذلك قد هيئ لتعزيز سياسة «ولد واحد لكل عائلة».

في حوالى الساعة الثانية والنصف بعد ظهر ذلك اليوم أتت طفلتي إلى هذا العالم صحيحة معافاة. ألقيت عليها نظرة خاطفة فقط عندما رفعتها الممرضة إلى الأعلى وأعلنت أنها بنت وزنها ٦ أرطال وثلاث أونصات. أبعدت مباشرة حسب تعليمات «العلم والضرورة» «التي تقول إن الأم بحاجة إلى الراحة ويجب ألا ترى طفلها لمدة ٤٨ ساعة وبعدها يمكن أن تبدأ عملية الإرضاع. استلقيت هناك وحيدة أنتظر أن أعاد إلى الجناح، وتمنيت لو استطعت أن أحضن ابنتي.

كان جناح ما بعد الولادة الصغير كمهجع جامعة ذا اثني عشر سريرا وممرا ضيقا بينهما. وضعت قصرية في منتصف الغرفة

الحارة والرطبة وانتشرت الرائحة المتخمرة في الهواء. لم تكن هناك نوافذ مفتوحة لأن الخرافات تمنع الاتصال بالهواء النقي أو النسيم بعد الولادة. بعد احتساء بعض حساء السمك الذي جلبته لي زوجة أب هسياو جاو، استغرقت في نوم عميق.

أيقظني البكاء. كان الجو مظلما. في السرير المجاور لي بكت امرأة شابة - بمرارة. شخص ما اضاء النور. فكرت في أنها فقدت طفلها فحاولت تهدئتها. حاولت تهدئة خاطرها فقلت لها «سترين طفلك قريبا».

أتاني صوت من جانب الممر الآخر «ولدت طفلة وزوجها هو الابن الأوحد لعائلته. لم يزرها احد منذ ولادة الطفلة. وزوجها ليس لطيفا معها ايضا».

قلت للمراة الشابة «الرجاء ان تحاولي ألا تبكي. تقول العمة الكبيرة ان ذلك سيؤذي عينيك إذ بكيت في الشهر التالي للمخاض». شعرت بأنني حمقاء حالما خرجت الكلمات من فمي. ما نوع هذه التعزية وانا اقص عليها حكاية من حكايات العجائز؟ لذت بالصمت وتذكرت مرة اخرى ان الشيوعية لم تستأصل الموقف الإقطاعي القائل في ان المراة هي الملومة في كل قضايا الإنجاب. كنت ممتنة لأن رد فعل زوجي تجاه ولادة ابنتي كان سعيدا.

بعد يوم آخر من الانتظار، تلقيت ابنتي أخيرا لأحضنها. ففككت البطانية الرقيقة بسرعة وتفقدت يديها وقدميها. وظهر أن عشرا من الاثنتي عشرة في الغرفة أنجبن بنات. جلب الضحك والحديث أثناء إرضاع أطفالنا اول ابتسامة لوجه جارتي. لكم تأملت أن تبقى ابتسامتها! في اليوم الرابع بعد إزالة قطب

الخياطة سألت من حولي إذا كانت أي منهن في غرفة الانتظار نفسها كما كنت. أربع نساء منهن كن فيها، وقد أيدنني في تقديم شكوى رسمية إلى سلطات المستشفى. كانت المرة الأولى في حياتي التي أرد فيها على الإذلال وشعرت بالرضى لذلك. خسرت الممرضات مكافأة الشهر. اختار والد هسياو جاو اسم تشي كاسم الجيل لحفيداته وهكذا أسمينا ابنتنا تشي - منج (التنوير).

عندما عدت إلى البيت بدأت، ولو ببعض التردد، فترة النفاس التي تلي الولادة والتي تلتزم المرأة بالبقاء في بيتها تماما. وهي عادة قديمة تحدت بالبقاء كل الحركات السياسية والعلوم الطبية. فالنظام الصارم الذي يجب اتباعه يشبه بصرامة نظام تخسيس الوزن تطلب على رغم ما نعرفه من حقيقة لكون بعض الأشهر ثلاثين يوما وبعضها واحدا وثلاثين يوما وأحدها ثمانية وعشرين يوما. كان علي أن أعصب جبيني بقطعة قماش ضيقة للمحافظة على حرارة جسمي.

منع علي تسريح شعري (فهذا يسبب ضياع الشعر والصداع الدائم) والقراءة أو مشاهدة التلفزيون (فقد يؤذي هذا البصر) وتنظيف الأسنان بالفرشاة (فقد تتضرر الجذور وتسقط الأسنان) والحمام أو الدوش (فقد تتبدد حرارة الجسم) وقص الأظافر أو الشعر (كل من الشعر والأظافر قد ينقلب أبيض). وكان علي أن أبقي جسمي طوال الوقت مغطى لحمايته من أي نسمة من الهواء. سمح لي بغسل الأعضاء التناسلية ولكن باسفنجة وبالماء الساخن فقط.

أمـا النظام الغـذائي المطلوب فـقـد شـمل البـيض المخـفـوق مع السكر البني مـرتـين في اليوم والحـسـاء لزيادة إدرار الحليب. لقـد أنتـجـت الكثـيـر مـن الحليب الذي يزيد عـن حـاجـة تشي - مـنج الصغيرة. وهنا أيضـا نافست عادات الفطرة السليـمـة. فبدلا من رمي الفائض في الحوض، تعلم هسياو جاو أن يرشه على الحائط - وإلا فإن حليبي سيتوقف عن الإفراز نهائيا.

انطبـخت في عـرقي لشهـر كامل من الحـرارة الشديدة. وحـالما انتـهت فـتـرة النفـاس اندفـعـت إلى الحـمـام العـمـومي ليـومين مـتـتـاليين قـبل أن أشـعـر أنني نظيـفـة مـن جـديد. ولم يكن من الغريب أن تكون زيارتي الثانية لطبيب الأسنان لتآكل أسناني.

عندمـا انتـهت إجـازة ولادتي، طلبت تمديد المدة شهـرا بخـصم ٤٠٪ من راتبي كما يسمح بذلك في كثير من المعامل، ولكن طلبي رفض. غـيـر أن نوبة مـن التـهـاب الثـدي أبعـدتني عن مـكتـبي لأسبوعين آخرين.

وجب علينا - هسياو جاو وأنا - أن نجد شخصا يعتني بتشي - منج، التي كانت لم تبلغ الشهرين من عمرها عندما اضطررت إلى العودة إلى العمل. كانت العمة الكبيرة منشغلة بيي - هسيانج أما زوجة والد هسياو جاو التي لم يكن لديها أولاد فلم تكن مهتمة بالعناية بالأولاد الآخرين. كذلك لم تكن حضانة المنطقة لتقبل الأطفال دون السنة من العمر.

كان الحل الوحيد أمـامنا هو طلب المساعدة من جارتنا جراني جانج. إنها ربة منزل طوال حياتها وتعتني بزوجها المتقاعد وزوجة والدها المسنة وابنين أعزبين. وافقت جراني جانج في النهاية على

العناية بتشي - منج أثناء عملي بعد أن وعدتها بأن أعود إلى البيت في ساعة الظهيرة على دراجتي لإرضاعها.

في خريف ١٩٨١ دخلت الصين السنة الثالثة من سياسة دنج - هسياو - بنج الاقتصادية الجديدة التي تدعو إلى «فتح الأبواب على العالم الخارجي وتنشيط الاقتصاد»، في سبتمبر - بعد شهر من عودتي إلى العمل - جمع القسم السياسي مجموعة من الشباب العاملين في الدائرة. قرأ علينا الرئيس وثيقة من «تعليمات الدائرة الداخلية» الصادرة عن مكتب الأمين العام في بكين. أُلقي القبض على فنانة اسمها لي شوانج اتهمت بإقامة علاقات ممنوعة مع ديبلوماسي فرنسي. اعتبر اتصالها جريمة فعلا لأن العلاقة بين الصينيين والأجانب ترقى إلى التجسس. كنت معتادة على جلسات الدراسة السياسة المصممة «لتقوية أنظمتنا المنيعة ضد إغراءات الغرب» ولكن هذه كانت هي المرة الأولى التي سمعت فيها أن الحكومة بشكل عام تتدخل في علاقة بين عرقين. إنها الممارسة القديمة القاضية بقتل الدجاجة لإخافة القرود.

حكم على لي - شوانج بسنتين في معسكر عمل. وكانت الرسالة واضحة للجميع.

في نظر زملائي، يبقى الشباب أمثالي (كنت في الثلاثين تقريبا) عرضة للفساد الآتي من الغرب.ونظرا إلى عدم كوني عضوة في الحزب، فقد اعتبرت على وجه الخصوص الأكثر عرضة لذلك. كذلك فواقع كوني لم أتقدم بطلب للانضمام إلى الحزب الشيوعي قط جعلني الهدف الأول للفحص الدقيق والانتقاد.

في أحد الأيام كنت أقف في طابور الكافتيريا، عندما مررت زميلة لي بإصبعها بوقاحة على حاجبي. ألجمتني المفاجأة. فحصت بعناية رأس إصبعها ثم ابتسمت لي.

«ذكر أحدهم في الاجتماع مؤخرا أنك تصبغين حاجبيك. أردت فقط أن أتأكد».

لم تتقدم بأي اعتذار. دفع الارتباك الدموع إلى عيني فغادرت المقصف من دون أن آكل. من المرجح أنها ظنت أن علي أن أشكرها لتبرير وتأكيد براءتي.

بعد أسابيع - وبينما كنت في قاعة استقبال المطار مع عدد من زميلاتي ننتظر وفدا كبيرا، تركزت عينا لاو - فو الهائمة علي ثم انخفضت إلى قدمي. سألتني «ما هو عرض كفة بنطلونك؟» تبدو أعرض من العادية. هل تلبسين بنطالا عريضا من الأسفل وتقلدين الزي الغربي؟».

في الحقيقة، كان هذا النوع من السيطرة جزءا فقط مما كان علي أن أواجهه فيما بعد عندما بدأت في النهاية أمارس الترجمة الشفهية في ١٩٨٢ بعد أن انضم بعض الخريجين الجدد إلى المكتب. كان رئيسي لاو - بنج مرشدا وملهما لي. وهو مترجم لغة إنجليزية ذو خبرة واسعة، شيوعي قديم وقد علمني أن الترجمة ليست - كما يعتقد الكثير من الناس - مجرد لعب دور كآلة تحويل اللغة.

كان علي أيضا أن أراقب اي ملاحظات رعناء قد يتفوه بها مسؤولونا الذين - كما لاحظت منذ زمن طويل - يصبحون أحيانا ثرثارين وتنطلق ألسنتهم تحت تأثير الكحول على موائد العشاء.

حقا، ليس المترجم من ينقل ببساطة ما يقال من دون تحمل مسؤولية المحتوى المنقول. أشار لاو - بنج أيضا إلى أنه ليس هناك شيء اسمه مسألة ثانوية عند التعامل مع الأجانب. كل شيء مهم ويجب نقله والإخبار عنه.

تعلمت أيضا تفاصيل إعداد خطة استقبال للزوار. توفر وزارة الشؤون الخارجية وإدارة المخابرات المعلومات الضرورية حول هدف كل زيارة، وآراء ومعتقدات الضيوف السياسية ومعلومات عن أذواقهم واهتماماتهم السياسية. كان علي أن أجد لكل ضيف مسؤولا صينيا يكافئه مكانة تبعا للبروتوكول، وبعدها، أقترح خط سير الأماكن التي سيزورها مع تذكر توجهات الصين السياسية واهتمامات الوفد.

فعلى سبيل المثال، أخذ المدافعون عن حقوق الإنسان دائما إلى سجن شنغهاي البلدي لمقابلة السجناء «السعداء» الذين يظهرون وهم يعملون برسم الصور والنحت في غرفة نظيفة وحسنة التجهيز. كانت أغطية الأسرة دائما نظيفة مهفهفة في الزنزانات وكان قدر الطبخ الصيني الواسع المليء بالطعام الشهي المغذي بارزا للعيان. بعدها يشرح المضيف كيف تجري إعادة تأهيل السجناء بطريقة إنسانية، بما معناه أن بلدا يعامل سجناءه بطريقة مستنيرة كهذه ليست لديه مشاكل حقوق إنسان. والحقيقة أن الكثيرين من الأجانب قد خُدعوا بهذه المسرحية. كما نفذت زيارات مشابهة إلى الكمونات «النموذجية» والمصانع والمناطق السكنية.

كان الجانب الآخر من خطة الاستقبال توفير مستوى الأمن وتدبر «تخفي» الشرطة السرية كمترجمين أو حراس أمن أو

موظفين. بعد أن تغطي الخطة كل هذه البنود تلتفت إلى التعليماتَ المتعلقة بالطعام والإقامة المناسبة للضيوف، وبعدها ينظر رؤساء الأقسام مليا في الخطة قبل إرسالها إلى الجهات العليا للحصول على الموافقة النهائية.

عندما يزور الصين وفد حكومي - سواء من دولة حليفة أو أمة مصنفة كمعادية - يتشكل فريق من قسم الدعاية لكتابة تقرير يومي بعد جمع المعلومات من المترجمين واستنطاقهم هنا يترتب علينا أن نقدم تقارير وافية عن الأسئلة التي طرحها الأجانب والموضوعات التي بدا أنهم مهتمون بها والأشخاص الذين قابلوهم وحتى الأشياء التي اشتروها وسرعان ما يتضح أن المترجم ليس في منأى عن المراقبة أيضا بل هو في قلبها.

أصبت بخيبة الأمل العميقة لأنني بعد أن انتظرت كل هذا الوقت وجدت أن استخدام لغتي الإنجليزية في عمل مهم كالترجمة لم يجلب لي الرضا الذي آملته. كان علي أن أكون حذرة من كل «غريب»، على سبيل المثال، استدعيت إلى مكتب قسم الدعاية في أحد الأيام حيث ناولني موظف متجهم قطعة من الورق وطلب مني أن أقرأها بصوت عال وأقدم له ملاحظاتي. لم يخف تهذيبه المزيف مقاصده. قرأت الورقة بحذر. إنها مقالة من مجلة أرسلت إلى إدارتنا من السفارة الصينية في دبلن، كتبها أحد رؤساء ايرلندا السابقين بعد أن زار وزوجته شنغهاي قبل بضعة أشهر وكنت مترجمتهم. في مقالته، كتب الايرلندي حول سياسة دنج - هسياو - بنج الاقتصادية الجديدة في الريف ووصف زيارته إلى عائلة أحد المزارعين في واحدة من الكمونات خارج شنغهاي.

عندما تحدث المزارع عن المحاصيل التي زرعها في أرضه الخاصة به (بالمقارنة مع عمله في حقول الكمونة العامة) كان يتقد بحماس خاص.

لماذا لم أقدم تقريرا عن هذا الميل «للزراعة الخاصة» التي أظهرها الفلاح؟ هذا ما أراد الموظف أن يعرفه. من الواضح أن ذلك الفلاح يحتاج إلى «المزيد من التعليم» ويجب ألا يسمح للزوار أن يزوروا تلك العائلة وعلى الأرجح الكمونة كلها أبدا. قلت إنني لا أتذكر أن أحدا عبر عن هذه الآراء وإلا فإن ملاحظاتي كانت ستشير إليها. لا بد من أن الايرلندي قد اخترعها أو ظن أنه شعر بتفضيل الزراعة الخاصة من قراءته عيون الفلاحين. كيف يمكن أن أكون مسؤولة عن تأويل الأجنبي لأشياء لم يقلها الفلاح؟ لم يقتنع الموظف المتجهم الوجه ولم أترك من دون نقد أو من دون تقرير سلبي في ملفي إلا بعد أن أكد ادعائي مسؤول كبير في دائرتنا كان معي أثناء تلك الزيارة. ولكنني تعلمت درسا. فمنذ ذلك الوقت بدأت أسجل كل صغيرة وكبيرة في دفتري. عندما رافقت إيملدا ماركوس في رحلة تسوق في منتصف الليل عبر مخزن الصداقة (كان على المخزن أن يبقى مفتوحا حتى تنهي مشترياتها) سجلت جميع الأشياء التي اشترتها وهي تهرع من نضد إلى آخر عشرات أثواب قماش الحرير وصناديق من الأعمال الفنية والحرفية، وأكداس من سيقان الخنزير الكاملة والمحفوظة بطريقة خاصة. كما سجلت انزعاجها من أن كل الأحذية في المخزن لم تكن على مقاس قدميها.

على الرغم من شعوري بالألم والأسى كل مرة اضطررت فيها لتقديم التقارير المفصّلة، فقد كنت قادرة على الاحتفاظ بشعور الغبطة لدى مقابلتي لأشخاص من بلدان أخرى أو التحدث بالنيابة عنهم، وقد يعود هذا إلى أن كل الصينيين تقريبا، بعد ثلاثين سنة من الانعزال عن بقية العالم كان يحدوهم الفضول لمعرفة العالم الخارجي. كان معظم من تعاملت معهم من ضيوف الصين من الشخصيات المرموقة، ومع ذلك فقد وجدتهم على غاية من اللطف والتواضع على عكس المسؤولين الصينيين الذين تميزوا بالقسوة والتكبر. وسواء كان الأجانب أفراد عائلات ملكية أو زعماء دول أو من كبار السياسيين أو موظفين عاديين يرافقونهم فقد كانت الغالبية العظمى منهم ودودين ومتواضعين.

ذات مرة فقدت ملكة الأردن عدسة لاصقة عندما كانت على وشك مغادرة الفندق. انضمت إلينا ونحن نفتش الأرضية بحثا عن العدسة المفقودة. وفي مناسبة أخرى شكرت صوفيا، أميرة موناكو، كاتب مخزن لأنه لفت نظرها إلى تنسيل في جواربها.

أما القائد الليبي، العقيد القذافي فقد كان يمثل نوعا آخر من المشاكل. كنت أتطلع إلى رؤية رجل سمعت عنه كثيرا ووصفته البلدان الغربية بأنه مجنون، بينما اعتبرته الصين صديقا عظيما بين الشعوب العربية. في خريف ١٩٨٢ تلقى ترحيبا حارا عندما زار بكين.

وقبل عودته إلى ليبيا اقيمت وليمة كبرى على شرفه في شنغهاي بدعوة من عمدة المدينة. عندما وصلت إلى قاعة الولائم علمت أن القذافي رفض الحضور كان غير راض عن المحادثات في

بكين. كان رفضه حالة غير مسبوقة في خرق البروتوكول. تمركزت بجانب جهاز الهاتف اتصل مباشرة بفندقه وكان علي أن أنقل تقدم المفاوضات الجارية عندما حاول أناس مختلفون ثنيه عن قراره واستيائه. فشل الجميع. وحل محله نائبه. اختصر القذافي زيارته وغادر في اليوم التالي. وفي المطار كان جل ما رأيت منه هو حركة عباءته السوداء الملتفة وهو يركب الطائرة.

في كل ربيع تقريبا يأتي إلى الصين وفد أمريكي مؤلف من الشيوخ والنواب والنائبات عندما يكون مجلس الشيوخ في إجازة. يصلون دائما على متن طائرتهم ويجلبون معهم مأكلهم الخفيفة ومشاريهم بما في ذلك الماء لتنظيف أسنانهم. أتذكر قدوم عضو مجلس الشيوخ روبرت دول وهو رجل صدوق وذو صوت جهوري. عندما دعيت وزملائي إلى جناح استقبال الوفد «لتناول الشراب» قدم لي قطعة من المعجنات. لم أستطع أن أصدق عيني. كانت قطعة المعجنات مغطاة بالكريمة موضوعة في داخل علبة من القصدير. تساءلت كيف صنعت؟ هل وضعت الكريمة قبل أن تختم العلبة أم بعد فتح العلبة؟

كان عمدة نيويورك «إيد كوخ» رجلا شيقا. في أحد الأيام عندما كان يتجول في الشوارع الضيقة في القسم القديم من شنغهاي محاطا بقوة من حرس الأمن والمراسلين رأى عامل تنظيف شوارع يشغّل مكنسة تعمل بمحرك لها ثلاث عجلات. هرب كوخ من مرافقيه وأقنع الرجل أن يدعه يشغل المكنسة. ورغم معارضة مرافقيه الذين حاولوا إقناعه أن نفايات نيويورك أثقل بكثير من نفايات شنغهاي فإن كوخ، عبر مضيفه الصيني،

تقدم بطلب لشراء أربع وعشرين من المكانس لتشحن إلى نيويورك. قضيت وزملائي ساعات على الهاتف نحاول إتمام الصفقة. ولكنني لم أعرف ما إذا ظهرت مكانس شنغهاي الصغيرة في مدينة ناطحات السحاب.

كانت زيارة الرئيس ريغان إلى شنغهاي في ربيع١٩٨٤ حدثا كبيرا، ولكن ما أتذكره أكثر من أي شيء آخر هو السبب الذي جعلني أقضي وقتلا طويلا مع السيدة شولتز، زوجة وزير الخارجية. حذّرنا موظف من القنصلية الأمريكية في شنغهاي من جمع السيدة ريغان والسيدة شولتز في برنامج زيارة واحد لأنهما لاتتفقان. وجدت السيدة شولتز امرأة لطيفة وودودة عندما سرت معها في حديقة أكاديمية شنغهاي للموسيقى وحضرت الحفلات الموسيقية معها. فهمت فيما بعد ما قصده الموظف الأمريكي عندما اشتكت مترجمة السيدة الأولى - في شنغهاي في تقرير عرضي - عن طريقة السيدة ريغان الإمبراطورية التي حرصت دائما أن تكون أمام الكاميرا وتعاملت أحيانا بطريقة سمجة مع المترجمة.

في ربيع ١٩٨٣، ندبت لترتيب زيارة دافيد لانج، رئيس حزب العمل النيوزيلندي. في خطتي للاستقبال أشرت إلى أن السيد لانج سيكون على الأغلب رئيس الوزراء القادم، ولذلك يجب أن نفرز له موظفا صينيا رفيع المستوى لمرافقته كما يقتضي البروتوكول. عندما أعيدت خطتي أخبرت أن تنبئي ليس صحيحا لأنه مبني فقط على استطلاعات الرأي العام ويجب ألا يؤخذ بجدية. وأنه لن يخصص موظف حكومي لمرافقة السيد لانج وستوكل إلي أنا هذه المهمة.

تعلمت الكثير من السيد لانج كيف يعمل النظام السياسي في بلده وفي البلدان الديموقراطية الأخرى، وآراءه في الشؤون الدولية. إنه رجل عظيم ومفعم بروح الفكاهة. قال لي إنه يحتاج إلى المقعد الخلفي كله في السيارة لو لم يخضع لعملية إزالة الشحم من كرشه الكبير. (أصبح لانج رئيس وزراء نيوزيلندا في عام ١٩٨٤).

عندما عاد لانج إلى شنغهاي في زيارته الرسمية في خريف السنة نفسها، طلبني بالاسم. كنت حينها أدرس في كلية الشؤون الخارجية في بكين وعلى الرغم من أنني كنت قادرة على مقابلته بسهولة فقد قيل له إنني غير موجودة (من قبل نفس الموظف نفسه الذي أخبرني أن استطلاعات الرأي التي تتنبأ بانتخابه ليست صحيحة).

كان لزيارة لانج التي دامت ثلاثة أيام تأثير عميق في حياتي. بدأت أنقل اهتمامي من الأدب الإنجليزي إلى الأنظمة السياسية وإلى تاريخ واقتصاد وثقافة البلدان التي أرسلت زوارا إلى الصين. أدركت كم كانت ترجمتي غير كافية من دون هذا النوع من المعرفة وكان هذا أحد الأسباب التي دفعتني لتقديم طلبي لبرنامج دراسات عليا مدته سنتان في قسم الدراسات الدولية في كلية الشؤون الخارجية.

كانت هناك أسباب أخرى أيضا. كان أحدها التحرش الجنسي البشع والمذل من رئيسي لاو بنج. عندما بدأت العمل أخطرتني إحدى زميلاتي أن لاو بنج قد يلاحقني، فأنا شابة و- في نظرها - جذابة. عندما نكون وحيدين في المكتب كان يلمس ذراعي أو كتفي فيما اعتقدته طريقة ودودة ولكنه لم يتجاوز ذلك.

أعجبت بقدرات لاو - بنج وخبرته وقدرت طريقة مساعدته. ذات مرة عندما كنت لا أزال جديدة في مجال الترجمة الشفهية والبروتوكول عملنا معا مع المراسلين الصحافيين الذين يشكلون جزءا من وفد رئيس الباكستان. في إحدى الأمسيات كان علينا أن نرافقهم إلى مكتب البرق والبريد في البوند وهو المكان الوحيد ا لذي يستطيع الصحافيون الأجانب أن يرسلوا منه البرقيات. كان المحررون سكارى مما انعكس على تصرفاتهم التي غدت بذيئة ومهينة. حاولت الاحتفاظ بالهدوء وخفت إن حاولت أن أدافع عن نفسي أن أزيد من غضبهم وأساهم في تأزيم الأمور، ولكن هجومهم أصبح جنسيا بل تمكنوا في النهاية من حشري في زاوية الغرفة. من حسن الحظ أن لاو بنج دخل الغرفة في تلك اللحظة. دفع المراسلين عني وأخذني إلى سيارة وأعادني إلى الفندق. في أحد اجتماعات اليوم التالي اقترح ألا ترسل المترجمات للعمل في ساعات متأخرة مع الرجال الأجانب منذئذ أصبح عملي المسائي مع الزائرات الأجنبيات فقط.

في ذلك الخريف زارت رئيسة الوزراء البريطانية مارجريت تاتشر شنغهاي . اختاروني لقراءة الترجمة الإنجليزية لخطاب العمدة في المأدبة لأن المترجمين في مكتبنا ظنوا أن لغتي الإنجليزية ذات «لكنة بريطانية».

كان لاو - بنج لطيفا إلى حد أنه قضى بعض الوقت يدربني لكي أقرأ الخطاب بطلاقة ومن دون أخطاء. ولكن في شهر مايو التالي تحطمت أوهامي حول قدوتي ومرشدي عندما جذبني إليه

وقبلني حينما وجد نفسه وحيدا معي في جناح المكتب في فندق جين جيانج.

أفلحت أخيرا في تحرير نفسي من قبضته وهربت من الغرفة مشوشة مضطربة. تساءلت في نفسي ما الذي فعلته لتشجيع ذلك النوع من السلوك؟ خفت من مواجهته، ولكن عندما رأيته ثانية بعد نصف ساعة فقط، تصرف وكأن شيئا لم يحدث. كنت صلبة طوال حياتي، ولكنني في هذه الحالة لم أكن أكثر من دجاجة مرتعشة. كان لا بنج رجلا قويا ومحترما في الدائرة ولم أمتلك الشجاعة لمجابهته.

لو لم أعجب به ولو لم يساعدني كثيرا لكان من السهل علي أن أكرهه. ولكنني لم أفعل. كنت خائفة فقط من البقاء معه. حرصت في خططي للاستقبال من تجنبه وعمدت إلى اقتراح موظف آخر يشاركني المهمة. ولكنه كان نائب رئيس القسم وكان يغير اقتراحي ويضع اسمه.

في خريف ١٩٨٣ دعي لاو بنج ليحاضر لمدة ثلاثة أشهر في كلية السياحة التي افتتحت مؤخرا في شنغهاي. رحبت بهذه الاستراحة الطويلة، ولكن عندما كان غائبا تلقيت ظرفا معنونا إلي بخط يده. في الظرف لم تكن هناك رسالة بل بضع صفحات مطبوعة على الآلة الكاتبة. بدأت أقرأ ثم رميتها على الأرض من التقزز.

وصفت الصفحات عدة مناظر جنسية بكثير من التفصيل. ارتجفت بشدة فمزقت الصفحات إلى قطع صغيرة لكي لا يراها أحد. بعد ذلك بسنوات علمت أنها منسوخة من كتاب عشيق الليدي تشاتر لي.

دخل لاو - بنج إلى المكتب في اليوم التالي وتحدث معي بصورة عفوية كما لو لم يحدث شيء. شعرت بالرخص والخجل. كنت أعرف أنني لا أستطيع أن أخبر أحدا عن تحرشه لأنه ليس هناك من يحميني من غضب موظف متنفذ. ولكنني قررت أن أحاول ترك المكتب إذا حانت الفرصة.

بالإضافة إلى خوفي من لاو - بنج ومعاناتي الحقيقية من وطأة المراقبة، أنهكتني متطلبات العمل. كنت أستدعى دائما، وأحيانا أعمل سبعة أيام في الأسبوع، وفي بعض الأوقات لعشر أو اثنتي عشرة ساعة في اليوم. كنت في بعض الأحيان أودع مجموعة زوار في محطة القطار وأنطلق بعدها مباشرة إلى المطار أستقبل مجموعة أخرى. تعبت وأنهكت أعصابي وتدهورت قدرتي على التركيز. ذات مرة قضيت فترة طويلة بعد الظهر في معهد أبحاث شنغهاي للعلاقات الدولية أترجم لوفد أمريكي. كان الموضوع الرئيسي هو حادثة ووترغيت بعد ذلك ذهبت مباشرة لمقابلة روبرت ماك فارلين وزوجته. ونظرا إلى ما أشيع عن تورطه في الفضيحة، كلفني رئيسي ألا أشير إلى ووترغيت على الإطلاق. أحيانا كان من الصعب فصل الأمور عن بعضها.

تعرضت أيضا لضغط متزايد للانتساب للحزب. قد أكون ألطف عباراتي إن اعترفت فقط بكراهيتي للحزب لأنه دمر عائلتي ودمر طفولتي ولكنني أدركت أنه لكي يترقى المرء ويصبح موثوقا في أي منظمة فالأمر يتطلب بطاقة عضوية الحزب. على المرء أن يتقدم للعضوية (كان أعضاء الحزب أقل من ٥٪ من السكان) ويمر عادة عبر عملية اختبار طويلة قد تطول أحيانا

لعدة سنوات لا يستبعد فيها أحيانا الاضطرار إلى طلب معروف من زملاء أعضاء في الحزب لدعم الطلب. اشترى الكثيرون الهدايا وقدموا الخدمات لأعضاء الحزب وتذللوا لهم. كان من المفترض أن تكون عضوية الحزب ميزة وشرفا، هذا ما ذكرنا به دائما أن العضو مخلص وموثوق ورجل شريف. غير أن ما عشته من تجارب أثبت لي عكس ذلك. خلال عملي في شنغهاي أتيحت لي فرص عديدة للدراسة في البلدان الأجنبية. كنت أتوق أن يجري اختياري، ولكنها ذهبت جميعها لأعضاء الحزب فقط. سأبقى دائما موظفة صغيرة وعضو إدارة غير موثوق بها تماما ما دمت رفضت التقدم للعضوية.

ومع ذلك لم أستطع أن أحمل نفسي على ذلك ولا حتى عندما انضم أخي الكبير للحزب كشرط لترقيته إلى منصب مدير التنمية الاقتصادية في جزيرة ديشان، حيث وافق على العيش لكي ينضم إلى زوجته وابنه بعد إحدى عشرة سنة. أصبح أخي عضوا فوريا عندما ترقى.

فكرت في التقدم بطلب للدراسة في بكين، وإن ترددت عندما عرفت أنني لن أستطيع اصطحاب تشي - منج معي لأنه يفترض في الطالبات أن يعشن في مهاجع يتقاسمنها مع ٣ أو٤ طالبات أخريات. شعرت بالذنب حتى لمجرد التفكير في تركها لمدة سنتين. من جعلني أتخذ قراري هو زوجي.

قال لي هسياو جاو على العشاء ذات مساء أنه قبل كعضو في الحزب. فقدت القدرة على الكلام. لم يخبرني حتى بأنه تقدم بطلب. بعد كل الأحاديث الطويلة عن معاناتنا في المزرعة

والهجمات على أهلي خلال الثورة الثقافية وإذلال أهلي وعائلتي، ذهب وانضم إلى الحزب الشيوعي. حاول هسياو - جاو أن يصالحني قائلا إنه كان بحاجة إلى العضوية للحصول على عمل أفضل، ولكننا لم نتبادل الكلام بعد تلك الليلة. للمرة الأولى منذ أن تزوجت شعرت بالضياع وبأن الشخص الذي أحببت قد خانني. صدم قراري بالتقدم بطلب للذهاب إلى بكين كل فرد.

كتب أخي الكبير قائلا يا آه - سي! إن ابتلاع المزيد من قوارير الحبر لن يساعدك في تحسين وضعك. إنك تجلسين على كرسي يستعد الكثيرون للموت من أجله. ما تحتاجين إليه الآن هو التقدم السياسي. «لم يمت تعليمه الخاص الذي حارب وناضل في سبيله إلى عمله الحالي إلا بما ندر. استجابت العمة الكبرى كما توقعت.

كانت أختي الخامسة قد تزوجت في العام الماضي من هسياو ياو الذي التقت به في المزرعة، والذي انضم اليها، بعد زفافهما، للعيش في جادة أشعة الشمس الأرجوانية. الآن ليست لدي مخاوف بشأن ترك العمة الكبيرة ولكنني عندما أخبرتها بخططي تأوهت قائلة «لماذا أنت مستاءة دائما يا آه - سي؟ لماذا لا تستقرين كالآخرين من أفراد العائلة؟ إنهم لا يمتلكون حتى نصف ما حصلت عليه. دعيني أفهم. على الأقل حاولي».

عندما فشلت حججي - التي لم تتضمن تجربتي مع لاو - بنج ولا عدم رضائي عن زوجي - أن تحركها، لجأت إلى حيلتها المعتادة.

«أستطيع أن أفهم لماذا تتركينني - امرأة مسنة لا فائدة منها - ولكن ماذا بشأن ابنتك الصغيرة المسكينة»؟

وصفت كلية الشؤون الدولية نفسها بأنها مهد الدبلوماسيين الصينيين، وتدار بصورة مشتركة من قبل وزارتي التربية والشؤون الخارجية. أما برنامج السنتين الذي يبدأ في شهر سبتمبر فهو مفتوح للجميع من مترجمي اللغة الإنجليزية الشفهية في البلاد وموظفي قسم الشؤون الخارجية في المدينة والمقاطعات إلى موظفي الوزارة نفسها. يقدم البرنامج تشكيلة واسعة من المقررات تاريخ العالم والاقتصاد الدولي والاقتصاد السياسي والأدب الإنجليزي والترجمة الفورية.

في شهر يوليو - عندما كانت تشي - منج في الثالثة - قُبل طلبي. سأتلقى راتبي وأنا في الكلية فقط إن وقعت عقدا يضمن استمراري في العمل في دائرتي بعد إنهاء دراستي. وبمبادرة مني رتبت أموري بأن يرسل ربع راتبي إلي في كل شهر والبقية إلى هسياو جاو.

لا تستطيع جارتنا، الجدة جانج، التي اعتنت بتشي - منج أثناء النهار أن تعتني بها لمدة ٢٤ ساعة في اليوم. فزوجها يعاني من مرض القلب ووالدة زوجها تتطلب عناية ايضا. وعلى رغم أن هسياو جاو كان يعمل في مناوبة النهار بانتظام فقد شعر بأنه لا يستطيع العناية بتشي - منج لوحده مؤكدا النظرة الصينية السائدة بأن العناية بالأطفال مملكة المرأة وحدها. عادة، يمكن اللجوء إلى جدود الطفل ولكن أهل هسياو جاو غير مهتمين بالعناية بابنتي، لم يكن هاي روي خيارا واردا بالنسبة لي بغض النظر عن فرحته التي عبر عنها بصراحة لسفري، واستمراره في المجيء إلى شقتنا يوميا، كل يوم بعد العمل ليأكل معنا. كان قد

أكد لي أنه سيعتني جيدا بتشي - منج - وعلى الأرجح أفضل مني - لأنني لم أكن دائما موجودة عند الحاجة إلي. استمر في غسل ملابس هسياو جاو وتشي - منج أحيانا. وفي الغالب أعد العشاء - وهو ترتيب كرهته على الدوام وإن لم أستطع أن أفعل شيئا بشأنه - لأن هسياو جاو وجده مفيدا ولم يشأ مناقشته. كنت أعلم أن هاي - روي رأى أن مغادرتي إلى بكين تمهد الطريق لوجود أكثر دواما في عائلتي ولكني كنت مصممة على معارضته.

وهكذا فتشت عن روضة أطفال ليلية. ومرة ثانية ساعدتني سمعة مكان عملي. تمكنت من تسجيل تشي - منج في مدرسة تديرها البحرية. كانت معظم المعلمات أفراد عائلات رجال البحرية. أخذنا - هسياو جاو وأنا - البنت إلى هناك قبل أسبوع من مغادرتي لكي تعتاد المكان. لعبنا معها في الباحة وانطلقنا مسرعين من البوابة حينما حان وقت الذهاب.

الصرخة العالية التي حلقت فوق الجدار لازمتني طوال الأسبوع إلى أن ذهبت لاصطحابها في عطلة نهاية الأسبوع. عندما بحثت عنها صباح الاثنين لأستعيدها. وجدتها مختبئة تحت سرير الجدة.

اشتقت لابنتي الجميلة سلفا حتى قبل أن أغادر. لو قال هسياو جاو أنه سيكون وحيدا من دوني وطلب مني تغيير رأيي لفعلت ذلك. ولكن ذلك لم يحدث ولم يدهشني ذلك. وعلى رغم أن كل شخص ظن أن ذهابي إلى كلية الشؤون الخارجية تغيير في المهنة، فقد أردت الابتعاد عن هسياو جاو - على الأقل لبعض الوقت - وأملت أن يوقظ غيابي الحب الذي كنت أشعر به تجاهه. لقد

دخلت قفص الزواج معتمدة أن العيش المشترك وإنجاب طفل سيقربنا من بعضنا، ولكن ببطء حصل العكس. وجدت أنني أحتفظ بأفكاري في داخلي بدلا من مشاركته بها وأمسك عن التعبير عن رأيي بدلا من تبيانه بحرية - وخصوصا في المسائل السياسية. لم نعد نضحك. لم نعد شريكين. إذا لم أستطع مشاركة زوجي في مشاعري الكامنة، فإلى من أستطيع اللجوء؟ نما في داخلي خوف عميق ورعب من الوحدة.

تذكرت محادثة أجريناها في أيام زواجنا الأولى عندما امتدحت هسياو جاو بأنه ابن مطيع وبأن شعوره بالواجب تجاه أبيه وزوجة أبيه قوي جدا.

أجابني قائلا «هذا صحيح يا آه - سي. إنك الثالثة على قائمة عنايتي بعد أبي وزوجة أبي».

أوجعني اعترافه لأنني لم أتخيل أنه شعر بهذه الطريقة، ولذلك رددت عليه ردا حادا قائلة «حسنا. من الخير أن والدي ميتان وإلا لكنت الثالث بالنسبة لي أيضا».

تساءلت أين سأجد نفسي على قائمة رعايته الآن. خطر ذلك ببالي وأنا أحزم حقيبتي للرحلة.

وبكثير من الأفكار المتناقضة في رأسي ركبت القطار لأعود إلى المدينة التي غادرتها وأنا أتنفس الصعداء قبل ست سنوات.

لم تتغير بكين كثيرا في السنوات الست الماضية. كانت كلية الشؤون الخارجية، وهي مؤسسة حصرية لتدريب دبلوماسيي الصين، تقع في غرب المدينة قرب حديقة الحيوانات. كان الحرم الجامعي محاطا بسور فيه بوابة يقف أمامها حاجب. ونظرا إلى

عدد طلابها الذي يقل عن مائتي طالب، بدأت الكلية تقدم دورات لمجموعات خارجية مثل دورتي لكسب المزيد من الدخل. كان في برنامجي حوالى أربعين طالبا نصفهم من الوزارة والباقي من إدارتها في المدينة والمقاطعات. كان معظمنا متزوجا وقد تركنا أطفالنا في مواطننا وكان على الجميع أن يعيشوا في الحرم الجامعي. خصصت لي غرفة صغيرة في المهجع أتقاسمها مع امرأتين أخريين.

ابتدأت الدورة أولا بتوزيعنا إلى مجموعات تبعا لقدراتنا. امتحنتنا مدرستان أمريكيتان - الآنسة بوتو سيك والآنسة جونز - في اللغة المقروءة والمكتوبة.

أرسلت إلى الصف الأول، أي المجموعة المتقدمة التي ضمت بشكل رئيسي موظفي الوزارة، غير أن هذا التقسيم دفع مجموعة الوزارة لازدراء الآخرين، الذين بدورهم أقسموا على الانتقام متمتمين أنه عندما يقع موظفو الوزارة تحت أيديهم في المستقبل، فسيواجهون أوقاتا صعبة. انحشرت والثلاث الأخريات - اللواتي وضعن في الصف الأول - بين الفئتين. يا لها من طريقة لبدء الدراسة!

وعلى رغم أننا كنا جميعا راشدين بالغين فإن صفنا نظّم وأدير حسب السياسة الاعتيادية. كان لدينا سكرتير حزبي وعريف اختارتهما الكلية لقيادتنا والتنسيق مع سلطات المدرسة.

وعلى الرغم من أن الأنظمة الخاصة بالإقامة في الحرم الجامعي طوال أيام الأسبوع فإن طالبات بكين كُنَّ يذهبن كلما سنحت لهن الفرصة. ولما كنت أقيم مع طالبتين منهما فقد

استمتعت بغرفة المهجع وحدي معظم الوقت. بعد ست سنوات من الترحال المضني، سعدت بالسلام والهدوء النسبي في حياة الكلية، وخصوصا في نهاية الأسبوع. افتقدت تشي - منج بصورة رهيبة وراعني أنني لم أفتقد هسياو - جاو على الإطلاق.

كانت المدرستان الأمريكيتان قد درّستا سابقا في أقطار أخرى قبل المجيء إلى الصين. في جلسات الدراسات السياسية علمنا أنهما من المبشرات. وقد أخطرنا بالحذر منهما والإبلاغ عن أي محاولة لتحويل العقيدة. هاهنا إحدى القدر. عرفت طوال حياتي أن المبشرين قدموا خدمات للحكومات الأجنبية الإمبريالية في الموجة الأولى من الغزو الثقافي. ومع ذلك استخدمت الكلية السيدتين بوتو سيك وجونز لأنها لم تضطر إلى أن تدفع لهما أي رواتب، ذلك أن جمعية المبشرين قد تكلفت بذلك. كلتا المرأتان كانتا في الثلاثينيات وكانت السيدة جونز مهندمة دائما تستخدم مساحيق التجميل بعناية. وبدت بوتو سيك على عكس ذلك - بسيطة وغير متزينة، شعرها قصير كشعر الرجال. وأعدتا دروسا ممتعة وإن لم تتصل فعلا بواقعنا. إذ تمحورت حول التسوق في المتاجر الأمريكية الكبيرة والعمل في مطبخ من الطراز الأمريكي أقيم مؤقتا في غرفة الصف. في ذلك الوقت لم تكن في الصين متاجر كبيرة كالموصوفة في الدروس، ومعظم البيوت تقاسمت المطابخ مع العائلات الأخرى وطبخت على مواقد الفحم. ومع ذلك استمتعت بدروسهما التي فتحت لي نافذة لألمح منها الحياة اليومية للعائلة الأمريكية إلى جانب المفاهيم الاجتماعية والثقافية. لم تحاولا إدخال الدعاية الدينية إلى الصف.

كل شيء سار بسلاسة إلى ما قبل عيد الميلاد بأسبوع واحد عندما دعتانا جميعا إلى حفلة في غرفة الصف. علمتانا ترتيل أغاني عيد الميلاد والألعاب. وقبل أن نغادر تلقت كل منا هدية مع الشرح بأن العادات الأمريكية تقضي أن يفتح المرء الهدية مباشرة ولا يأخذها إلى البيت ويفتحها على انفراد كما يفعل الصينيون. وجدت نفسي أحمل نسخة جديدة من (العهد الجديد) بحوالى حجم الكتاب الأحمر الشهير للرئيس ماو. وعندما تلفت حولي وجدت أننا جميعا أعطينا هدايا متطابقة.على حد علمي كان الإنجيل على رأس قائمة الكتب الممنوعة، وكان المخلصون الجمركيون ومكاتب البريد متيقظين دائما لمصادرتها. أدركت أن المتاعب ستهل علينا.

أعلن سكرتير الحزب يانج في الفصل نهاية اجتماع عيد الميلاد. وبعد بضع ساعات دعا إلى اجتماع في المكان نفسه ورافقه نائب رئس الكلية جيانج. طلب منا أن نحضر الإنجيل معنا ونسلمه. بعضنا - بمن فينا أعضاء الحزب - أفاد أنه أضاع هدية عيد الميلاد. كنت واحدة من هؤلاء المهملات. لم تكن لدي أي مشاعر قوية تجاه الإنجيل، كما لم أكن من المدافعين عن حرية الأديان. ولكنه تحدٍ لموقف الكلية المستبد ولتناقض مؤسسة التعليم العالي، التي تظهر خوفا من الكلمة التي يمكن أن تدمر سلطتها.

على رغم قصة الإنجيل، استمتعت بصفوفي ومضى الفصل الدراسي بسرعة. عدت إلى شنغهاي خلال عطلة الشتاء متلهفة لرؤيةابنتي وقضاء أكبر قدر ممكن من الوقت معها في الأسبوعين القادمين. عندما قابلني هسياو - جاو في محطة القطار اتضح لي أنني في الواقع لم أفتقده منذ شهرسبتمبر، وأن أملي في أن

تتجدد مشاعري تجاهه لم يتحقق. لم أفاجأ عندما علمت أن هاي - روي كان معه كل يوم يغسل وينظف ويتأكد أن عشاء هسياو - جاو كان جاهزا عندما يعود إلى البيت من العمل. ولكن الذي فاجأني هو عدم انزعاجي بالقدر الذي كنت أتوقعه. بدا واضحا لي الآن أن حبي لهسياو - جاو قد انزلق وانزلق معه حلم تآلف روحينا.

زرت العمة الكبيرة وأختي وفرحت لأن أختي الصغرى بدت راضية بزوجها الجديد وأن العمة الكبيرة بصحة جيدة. عندما عدت إلى بكين استقبلتني قوس قزح في محطة القطار كما في الأيام الخوالي. كانت قد تركت مكتب السياحة قبل بضع سنوات وانتقلت إلى عمل أفضل في مكتب الإحصاء السكاني التابع لمجلس الدولة. أخبرتني أن لدى المكتب بعض الوثائق باللغة الإنجليزية عن مؤتمرات الأمم المتحدة حول سكان العالم التي يجب أن تترجم إلى اللغة الصينية. هل أنا مهتمة بترجمتها في أوقات فراغي؟ سيكون الدفع سخيا.

قبلت وابتهجت عندما اكتشفت صحة كلامها فسبع ساعات من السهر التي أنتجت ألفين من الحروف الصينية أكسبتني حوالى راتب شهر كامل. توالى ورود الوثاق إليّ، ولكن عملي الإضافي سرعان ما أثير في اجتماع أعضاء الحزب. وفي حديث من القلب إلى القلب مع عضوة الحزب هسياو يي - والذي يعني إمكان تدخلها في عملي - قالت لي إنني لما كنت أتلقى راتبي خلال وجودي في المدرسة فلا يسمح لي إلا بالقيام بالعمل المدرسي فقط، وإنه يجب أن أقضي وقت فراغي في مساعدة زميلاتي

اللواتي تخلفن أو في قراءة ماركس ولينين لتعميق فهمي للشيوعية. علمت أن هذه النصيحة هي تغطية «لمرض العين الحاسدة» - غيرة زميلاتي في الفصل لكفاءتي في اللغة الإنجليزية والفرصة لاكتسابي نقودا إضافية. كما قدمت لي هسياو يي أيضا نصيحة مجانية بأن وجودي في الكلية وفر لي فرصة عظيمة للتقدم لعضوية الحزب، فقد بدأ الآخرون القلائل غيرالحزبيين في صفي عملية الانتساب.

أفلحت جهودها في تحقيق شيء واحد غيرت برنامج عملي الإضافي. كنت أحيانا أعمل في بيت قوس قزح وأحيانا في المهجع خلف الباب المقفول عندما تذهب زميلاتي في الفرقة إلى بيوتهن. هذه الحيلة ذكرتني بأيامي في بيه - دا عندما اضطررت لإخفاء دراساتي «غير السليمة» سياسيا. جلب الفصل الدراسي الجديد معه مدرسا جديدا، لأن السيدة جونز لم يتجدد عقدها، ولم أعرف لماذا. كان بديلها إنجليزيا اسمه أونيل وهو شاب لطيف مولع بالكتب، ذو وجه ضيقا، نصفه مغطى بذقن كبيرة. ابتسامته الخجول كانت حاضرة دائما، ودروسه كانت ممتعة وتحمل الكثير من التحدي، كما كنا دائما، منخرطين في مناقشات جادة معتمدة على الصحيفة الإنجليزية التي يحضرها معه إلى غرفة الصف.

المشكلة الوحيدة كانت رائحته. كانت رائحة جسمه قوية إلى درجة أننا غالبا ما كنا نفتح نوافذ غرفة الصف قبل وصوله ونترك الباب مفتوحا للحصول على نسمة من الهواء حتى في أيام الشتاء البارد. ولكنه كان حالما يدخل الغرفة يخلع جاكيته ويغلق الباب والنوافذ ويوقعنا في الفخ من جديد.

دعا عريف الصف إلى اجتماع خاص. لم نكن نعرف إذا كانت رائحة أونيل تصدر لأنه لا يغسل ثيابه أو جسمه بانتظام أو كليهما معا، ولكننا كنا نعرف أن شقق المدرسين الأجانب كانت مجهزة بالماء الجاري. قلت على سبيل النكتة «لماذاأيها الشباب لا تجرون معه حديثا من القلب إلى القلب؟ أو تأخذونه إلى الحمام العمومي؟». لم يضحك أحد.

وخلال المناقشة اللاحقة التي وجدتها مسلية جدا قررنا أن الحل الوحيد المنقذ لماء الوجه (والأنف) هو التناوب على الجلوس في المقدمة. ولا أعرف ما إذا استغرب أونيل تطلع وجوه جديدة إليه في كل يوم. لكنه لم يقل أي شيء وبقي صدوقا ومفيدا ومبعثا للرائحة. في تلك السنة عاد إلى إنجلترا لينهي الدكتوراه.

انصرفت السنة الدراسية بسرعة فائقة لانشغالي الكبير في الدراسة والأعمال الإضافية. وقبل أن أغادر في ذلك الصيف علمت أن مكتب الشؤون الخارجية لمجلس الشعب الصيني يحتاج إلى مترجمة للوفد البرلماني الأسترالي الذي يزور بكين وشنيتانج وهسيان وشنغهاي وجوانج جو. وهذا يعني أنني في حال قبولي أستطيع ترك الرحلة في شنغهاي، وهكذاتكون رحلتي إلى بلدتي قد تم دفع أجرها.

خلال الرحلة عاملني الجميع - السياسيون وزوجاتهم وأفراد حاشيتهم - بطريقة ودية وبالمساواة مع أنفسهم. مسني ذلك إلى الأعماق. وفي المساء بعد أن طرنا إلى شنغهاي، أراد الأستراليون زيارة فندق السلام لأنهم سمعوا أن إحدى فرق الجاز القديم تعزف فيه. أثناء استماعنا إلى الموسيقى دعاني السيناتور من كويتزلاند

- السيد شيل - لمراقصته فقبلت. وفي فندق جين جيانج انتقدني لاو - فو بشدة، مشيرا بتهكم إلى أن الرقص مع أجنبي ليس جزءا من أوصاف عملي. كان يجب أن أرفض دعوة شيل بحزم.

في يوم رحيلهم أهداني الأستراليون حقيبة تسوق تحتوي على جاكيت صوفي وقميص لابنتي. ثمّنت هديتهم ولكنني قلت لهم إنه لا يسمح لي بقبول الهدايا الشخصية ثم ودعتهم وغادرت جناحهم. وبعد ذلك بوقت قصير تلقيت مكالمة هاتفية من السيدة شيل تطلب مني أن أقابلها في الطابق الأرضي لأنها تريد أن تقوم بالتسوق في اللحظات الأخيرة. وفي المتجر أعطتني طردا ملفوفا بورق بني عادي.

قالت «إننا جميعا نريد تقديم ذلك لابنتك يا آنسة يي. أرجو أن تقبليه. لن يعرف أحد. خذيه كهدية من الأستراليين العنيدين!».

في الخارج، استمرت السيدة شيل في الضحك طوال الطريق إلى السيارة كما لو أنجزت للتو مهمة تجسسية سرية. في تلك الليلة ضممت ابنتي وقبلتها، ثم قدمت لهسياو جاو بافتخار رزمة سميكة من أوراق العشرة يوانات. كنت قد جمعت ما يساوي راتب سنة.

تلك كانت طريقتي للتعويض عن ابتعادي عن البيت وعجزي عن العناية بتشي - منج. إنه المال الذي كسبته بمفردي.

بعد ست سنوات من الزواج ما زلت دون حساب بنكي خاص. اقترحت على هسياو جاو أكثر من مرة أن نفتح حسابا مشتركا ولكنه لم يفعل ذلك. احتفظ بالسيطرة الكاملة على ماليتنا ولم أعرف أبدا كم من المال قد وفرنا. ولكنني قررت أنني في الوقت

الذي انتهي فيه من الكلية سأكون قد وفيت ما شعرت بأني مدينة به له ولعائلته عندئذ سأفتح حسابي الخاص.

سعدت بعودتي إلى البيت وحاولت أن أنسجم مع هسياو - جاو. تركت قضية عضويته في الحزب تضمحل، فلم يكن هناك أي خيار آخر. ذلك الشهر كان أسعد شهر في حياتي لأنني أمضيت كل يوم مع تشي - منج نذهب لرؤية العمة الكبيرة ونمشي في المنتزه ولمجرد كوننا معا. كانت تشي - منج فتاة جميلة، وعندما كنت أراقبها وهي تلعب مع الأطفال الآخرين كنت أتمنى لو كان لها أخ أو أخت لكي لا تفتقدني كثيرا عندما أبتعد عنها.

تحققت أمنيتي بطريقة قاسية. عندما لم تأت عادتي الشهرية في نهاية شهر أغسطس بدأت أقلق. في المستوصف المحلي تأكدت مخاوفي كنت حاملا، أخبرني الطبيب أن علي أن أجري إجهاضا في الحال، وتركني وحيدة أجلس فوق مقعد خشبي طويل.

إنها قصة قديمة معروفة في كل بيت. فأكياس منع الحمل السيئة جعلت كل إمرأة في عائلة هسياو جاو وعائلتي تجري على الأقل إجهاضا واحدا. طلب من بعض النساء بإلحاح ربط أرحامهن حالما يلدن طفلهن الأول مع مكافأة إجازة أسبوع مدفوعة. معظم النساء رفضن ذلك خوفا من عدم التمكن من إنجاب طفل آخر إن حدث أي مكروه لطفلهن الوحيد. وبعضهن أملن أن تغير الحكومة سياستها بعد بضع سنوات. ولكن كان وضع لولب لمنع الحمل إجباريا إذا حملت المرأة مرة ثانية. ومنذ أن وضعت أختي الثالثة لولبها قالت لي إن عادتها الشهرية أصبحت كابوسا شهريا يصاحبه ألم رهيب وغزارة تدفق.

اصبحت مشوشة، تمنيت لو أستطيع الاحتفاظ بطفلي ولكنني كنت أعلم العواقب جيدا. قد تكون النتيجة المباشرة فقداني لعملي ونهاية دراستي. هسياو جاو سيعاني أيضا. بل سيطرد على الأرجح من الحزب ولن يترقى أبدا بقية حياته. ولكن الضحيتين الحقيقيتين ستكونان تشي منج والطفل الجديد. ستكون تشي منج مواطنة من الدرجة الثانية محرومة من المدارس وموصوفة بأنها طفلة «لعائلة غير شرعية» وستجبر على الوقوف في آخر الطوابير للحصول على أي شيء بدءا بالمدارس إلى تلقي العلاج الطبي. سيعيش طفلي الثاني حياة المنبوذ، لا بطاقات تموين ولا عناية طبية، وعلى الأرجح لا تعليم، وبالتأكيد لا فرصة للتعليم العالي.

قضيت ليالي كثيرة وقد جافاني النوم. ورغم يقيني مما سيحدث لم أستطع تحمل فكرة إجراء الإجهاض. كان هسياو جاو سلوى كبيرة لي ببقائه مستيقظا معي يبادلني الحديث حول الموضوع. لم تكن المواساة من طبعه، ولكنني كنت أعلم أنه يلوم نفسه أيضا لبؤسي. فرحت لأن تشي - منج عادت إلى المدرسة الداخلية. لم أكن أستطيع مواجهتها وأنا أعلم أنني على وشك تدمير أخيها الصغير أو أختها الصغيرة.

وأخيرا ذهبنا وهسياو بنج إلى المستشفى نفسه الذي ولدت فيه تشي - منج. دهشت حين رأيت صفا طويلا للتسجيل لعملية الإجهاض. أتى الأزواج مع زوجاتهم وبدا الجميع متجهمين. كانت غرفة الانتظار هادئة على غير العادة. وعندما وصل دوري أخبرت أن عليَّ العودة بعد أسبوع. في طريقي إلى الخارج سمعت امرأة

متزوجة تخبر زوجها عن تاريخ إجهاضها يوم إجهاضي نفسه وبعد خمس عشرة دقيقة. لم أصدق ما سمعت. تساءلت عن عدد الإجهاضات التي يجريها المستشفى كل يوم وكل سنة؟ غطيت فمي بيدي لأخفي بكائي، وحاول هسياو جاو - من دون نجاح - أن يواسيني عندما غادرنا المستشفى. حاولت أن أكون منطقية وهادئة في الأيام التالية، ولكن الحقيقة أصابتني بالبؤس. لم تعد لدي شهية للطعام، لأنني شعرت بطريقة غريبة أن الغذاء الجيد سيعطي طفلي آمالا كاذبة. تذكرت ما أخبرتني به إحدى الجارات عندما كنت طفلة أن السجناء المحكوم عليهم بالإعدام يعاملون برفق في الليلة السابقة على يوم إعدامهم فتقدم لهم وجبة شهية، بل وحتى الخمر، لأن تقاليدنا تقول إن شبحا جائعا لن يحصل على الراحة الأبدية. ماذا سيحدث لشبح طفلي الجديد؟

بعد أسبوع من السهر والعجز عن تناول الطعام ذهبت إلى المستشفى فأدخلت إلى غرفة الانتظار. عندما وصل دوري رأيت طاولة عمليات في وسط الغرفة محاطة بستة أشخاص يتحدثون كما لو كانوا في نزهة. لم أكن أعرف ما يستلزم الإجراء ولم يخبرني أحد. صعدت إلى الطاولة كما أمرت وقد تملكني الرعب. وبدأ العمل.

عندما انتهى كل شيء عدت إلى غرفة الانتظارللاستراحة لمدة نصف ساعة وأنا أشعر بالفراغ والكآبة. وعندما كنت أوقع للخروج، قالت لي الممرضة «لن تضطري للعودة إلى هنا. فكل شيء قد تم إجراؤه».

عندها فقط أدركت أن لولب منع الحمل قد أدخل إلى

الرحم. لم يطلب أحد موافقتي لذلك. وسيسبب لي الجهاز المشاكل نفسها التي سببها لأختي الثالثة. فالنوع المستخدم في الصين لايتصل به خيط، وبالتالي لا يمكن إزالته إلا بالجراحة. فالمقصود هو دوامه. وبدا لي أن جسمي أيضا خاضع لسياسة الدولة.

عندما عدت إلى الكلية متأخرة لمدة أسبوع، احتفظت بالسبب لنفسي، واخترعت قصة حول متاعب في المعدة. لاحظت زميلتاي في الغرفة هدوئي غيرالمعهود، وربما خمنتا مشكلتي لأنهما حاولتا مواساتي. أملت أن تشفي جراحي مع مضي الوقت.

حاولت زميلتي في المقعد - هسياو وانج - من بكين أن ترفه عني بقولها «على الأقل ليس لمدرسنا الجديد - بيل - رائحة كريهة كرائحة أونيل».

ضحكت للمرة الأولى منذ فقدت طفلي. وتابعت تقول إن الطلاب يستمتعون بدرس هذا المدرس الكندي الذي اختلف عن درس الأمريكيين أونيل.

كان بيل - كما كان يحب أن يدعى - شابا أسمر نحيلا حاضر البديهة. منذ البداية - عندما قدمت نفسي وشرحت له (كاذبة) سبب وصولي متأخرة - أحببت الطريقة التي أدى بها دروسه. فبدلا من الجلوس وبدء موضوع القواعد والقراءة بعدها - كما فعل الأساتذة الأجانب الآخرون - كان يفتتح الدرس بنقاش لمدة عشر دقائق بادئا بالسؤال «ما الجديد؟». ومنذ اليوم الأول لدوامي دهشت حين رأيت كيف كان كل فرد - بمن فيهم الصامتون عادة - يتوق للمشاركة في النقاش. يبدو أن بيل قد اعتمد في تدريسه على

تكليف أحد الطلاب بتحضير موضوع من الصحيفة أو من حياته الشخصية. وبعدها يشارك الطلاب في المناقشة. كان تمرينا جيدا في اللغة الإنجليزية الشفهية رفع مستوى جدية الفصل. رأيت كم كان كل شخص مرتاحا، وحتى بعض أعضاء الحزب المتصلبين عادة لم يرغبوا في البقاء خارج دائرة النقاش. كان بيل يتمتع بروح عالية من الفكاهة وبدا أنه يستمتع بكل دقيقة من دروسه.

ولكن في أحد الأيام - بعد أن التحقت بالصف بوقت قصير - تمادى أحد الطلاب من بكين - هسياو تشي عندما سأل بيل سؤاله المعتاد «ما الجديد؟» أجاب تشي أن قصة رهيبة تنتشر في الجوار. اعتقل صاحب مطعم لقتله الفتيات الشابات من خارج بكين، اللواتي يأتين إلى العاصمة للبحث عن عمل غير مشروع. وتخلص القاتل الرهيب من جثثهن بتقطيعها واستخدامها لحشي الفطائر التي يبيعها في منشآته. وفجأة خيمت غمامة سوداء على الصف.

بدا بيل مذهولا ولكنه لم يكن أكثر منا صدمة. كان التقرير سيئا بما فيه الكفاية، ولكن نقله إلى أجنبي كان أسوأ. اعتبرت الصين الجريمة شيئا يجب إخفاؤه لأنه سيجعل الصينيين - الذين يفاخرون بإحدى أقدم الحضارات على وجه الأرض - يفقدون ماء وجههم. يقول أحد أمثالنا إن العارالعائلي يجب ألا يعرف خارج العائلة. في تلك الأيام نادرا ما ذكرت الصحف حالات الجريمة، وخصوصا جريمة مروعة كهذه. لم يكن من الصعب التنبؤ بأننا سندعى إلى اجتماع حالما ينتهي الدرس ويغادر بيل الغرفة. بعد أن قام تشي بنقد

ذاتي أمام الفصل، وبخه رئيس القسم وزملاؤه الطلبة لافتقاره إلى الاحتراس وعدم «التمييز بيننا وبينهم». يجب أن نتذكر دائما أنه يجب عدم الوثوق بالأجانب كما يجب على المرء ألا يأتمنهم على أسراره. لم تكن تلك نهاية القصة. أنذرنا رئيس القسم فنج أن بيل كان - كما يدل ملفه - معروفا بأسلوبه المتباسط في التدريس الذي يتبعه ليطمئن طلابه ويشجعهم على الحديث. هذه المعلومة لوحظت عندما كان يدرس في جامعة هارين للعلوم والتكنولوجيا قبل بضع سنوات. وجعل فنج الأمر يبدو كأن بيل يقوم بأعمال تجسسية لسماحه لطلابه باستخدام اللغة الإنجليزية في المحادثة. عندما انتهى الاجتماع العام تخلف أعضاء الحزب لعقد اجتماع آخر نظرا لأن تشي كان عضوا في الحزب، أغاظني ذلك. لو كان بيل صينيا لكانت مهارة جذب الطلاب نحوه ميزة حسنة، ولكن لأنه ليس كذلك فلا بد أن لديه دوافع مضمرة. رغم كل هذه التحذيرات بقي المدرس الكندي محبوبا من طلابه.

خلال فصل الخريف عملت بجد وباستمتاع عظيم في دراساتي. غادرت قوس قزح مباشرة بعد رأس السنة ١٩٨٦ إلى الاتحادالسوفييتي لحضور برنامج قصير الأجل حول إحصاء السكان تحت رعاية الأمم المتحدة. ستكون خارج البلاد لستة أشهر. وقبل مغادرتها اتخذت الترتيبات لكي أخلفها كمدرس لغة إنجليزية لموظفي مكتبها، وأضافت أنني أستطيع - خلال غيابها - أن أحبس نفسي داخل الكلية كل الوقت إن لم تكن لدي اهتمامات أخرى.

طوال الأشهر الماضية كنت آخذ راحة كبيرة في الحديث إلى قوس قزح كلما سنحت لي الفرصة للذهاب إلى شقتها. وعلى رغم مرور عشر سنوات على نهاية الثورة الثقافية فأنا لم أشعر قط بالراحة للتعبير عن آرائي أو المشاركة في أفكاري أمام زميلاتي الطالبات. بذهاب قوس قزح لم يبق لي من أتحدث إليه. وجدت من السهل أن أسجل الأشياء في مذكراتي اليومية. أعطانا بيل واجبا يتطلب منا أن نكتب عددا من البنود في المذكرات اليومية في كل أسبوع؛ ليجمع بعدها دفاتر مذكراتنا ويقرؤها ويقوم بالتصحيح والتعليق كتابة. وجدت نفسي أكتب أكثر فأكثر، أخبره عن نفسي وأتطلع إلى يعيد واجبي. شعرت بأني أستطيع أن أثق به وأن أفكاري ستكون في أمان عنده. وفي كل مرة يعيد فيها دفتر مذكراتي كنت أقرأ ملاحظاته بشوق ثم أمزق الصفحات لكي لا يراها أحد. وجدت أن مدرسي مستمع جيد، بتفهم، من دون تشنج. لم يسأل أبدا أسئلة شخصية أو سياسية، كما يفعل معظم الأجانب. في إحدى المناسبات، أشار إلى إمكان ذهابي إلى مكتبه لمحادثة وممارسة اللغة الإنجليزية الشفهية كما يفعل الطلبة الآخرون، لكني ترددت. لم أكن أريد أن يراني أحد معه وحدنا. إنه رجل متزوج وأنا امرأة متزوجة وحتى اتهامي بعدم اللباقة سيكون مدمرا. لم يمح النسيان بعد حادثة لي شوانغ. في أحد أيام الربيع طلب مني بيل أن أتخلف بعد خروج الطلاب لمناقشة واجبي. وظهر أنه يريد أن يسألني على انفراد عما إذا كنت مهتمة بتعليم الإنجليزية إلى ابنة امرأة من هونغ كونغ اسمها اليانور وهي صديقة للعائلة، ولها أحيانا تعاملات تجارية في الصين،

تعيش وابنتها في مجمع قرب الكلية. كانت الفتاة في الثالثة عشرة من عمرها وتواظب على مدرسة متوسطة وتريدها والدتها أن تتلقى دروسا إضافية في اللغة الإنجليزية مرتين في الأسبوع.

اقترح قائلا «يمكنك التفكير في هذا الموضوع وإخباري. ونرحب بك في شقتنا هذه الليلة لمقابلتها».

كنت قد قابلت زوجة بيل من قبل، وكنت أراها من حين لآخر في الحرم الجامعي. كما كنت أعرف أطفاله الثلاثة جيدا لأنهم يأتون إلى عرض الفيديو الأسبوعي في الكلية. عندما قابلت اليانور وابنتها روينا أحببتها في الحال، والتزمت بإعطائها دروسا في اللغة الإنجليزية.

وهكذا كانت الأيام مليئة. فأنا إما غارقة في كتبي المدرسية وإما أعلم في مكتب روينا. استخدمت دراجة قوس قزح في الجيئة والذهاب، ولم أخبر أحدا عن تحركاتي.

حرصت على عدم تفويت أي من دروسي وواجباتي أو اجتماعات الدراسات السياسية حتى لو اضطررت أحيانا للتخلي عن عشائي. ولكن الشكوك والأسئلة ارتسمت على بعض الوجوه وخصوصا وجوه المسؤولين الحزبيين. أرادوا أن يعرفوا كل حركاتي خارج الحرم الجامعي. الشخص الوحيد الذي شاركني سري هو أستاذي بيل ولم أخف عنه سروري في إبقاء الفضوليين وزملائي محبي الاستطلاع في الظلام.

بدأت أزوره في مكتبه - رغم توجسي من ذلك - كلما واجهت مشكلة بشأن دروس روينا. كنت أترك الباب نصف مفتوح دائما وأتحدث إليه بصوت أعلى من المعتاد لكي يسمعني الآخرون. كان بيل يجلس فوق

كرسيه ويستمع إليَّ بانتباه، وقلما قدم نصيحته الشخصية بل كان يتركني أتلمس الحلول بالتنفيس عن مشاكلي بالحديث عنها.

وجدت نفسي أذهب إليه أكثر فأكثر واتحدث عن أشياء مختلفة من تدريسي إلى قراءاتي في الأدب الإنجليزي وأحيانا حول سياسات كليتي وصفي. عندئذ فقط أدركت أنني متحدثة، ودهشت من أن لدي أشياء كثيرة لأقولها لأجنبي. كانت صراحته شديدة وذكاؤه منعشا وساعداني على التعبير عن نفسي أكثر وأفضل. أصبحنا صديقين حميمين.

ولكن في إحدى ليالي شهرمايو وأنا وحيدة في غرفتي، أدركت أنني منجذبة جدا لبيل، هذا الكشف المفاجئ أرعبني، إنني زوجة وأم.

عندئذ حاولت أن أتجنب حتى الاتصال البصري به في الصف. في الليل بدأت أصحو باكية من الكوابيس التي رأيت فيها نفسي مرسلة إلى مزرعة السجن، وأن تشي - منج قد أخذت مني إلى الأبد. وهكذا عندما تلقيت الرسالة من هسياو جاو يقول فيها إنه يفكرفي رحلة إلى بكين مدتها خمسة أيام مستخدما إجازته الإضافية المتراكمة، اجبته برقيا أحثه على المجيء بأسرع ما يمكن. بعد أسبوعين وصل زوجي وابنتي ومعهما هاي - روي.

قابلتهم في محطة القطار وأمسكت بابنتي في سيارة الأجرة طوال الطريق إلى الحرم الجامعي، وأنا ما زلت تنهشني كوابيسي. عرضت عليَّ زميلتاي في الغرفة استخدام المهجع لكي لا يقيم هسياو جاو وتشي - منج في غرف الكلية المخصصة للزوار. كما تحدثت إلى جميع المدرسين بمن فيهم بيل، أطلب الإذن بالتغيب عن الدروس لبضعة أيام.

طوال الأسبوع عذبني الشعور بالذنب والخجل. قضيت مع عائلتي كل يوم نزور الأماكن الجذابة في بكين، وخلفنا دائما هاي - روي. في الليل كنت أضم تشي - منج بذراعي إلى أن يغفو كلانا، غير أن هسياو جاو كان يوقظني لأنتقل إلى سريره. وبعد أن ينام هو، كنت أعود إلى تشي - منج أقضي معها بقية الليل.

بعد أن غادرت عائلتي وهاي - روي إلى شنغهاي تابعت تجنب بيل. كانت الدراسة تقترب من نهايتها. سأتخرج بعد شهر أو نحو ذلك. قررت أن أترك عملي التدريسي في نهاية شهر يونيو لكي أركز على امتحاناتي. ولكن كان من الصعب تجنبه. كنت أراه كل يوم في الصف أو متحدثا إلى الطلاب في الدهليز، وقد كلفني الأمر كل الانضباط الذاتي لأتجنب التحدث معه.

وفي أحد الأيام، طلبت مني زميلتان من صفي معروفا. فأكبر طفلين من أطفال بيل عائدان إلى كندا مبكرا، وطلب من إحداهن أن تذهب معه إلى المطار لتترجم له تحسبا لأي مشاكل. ولكن كان من المعروف جيدا أن بيل لا ينسجم مع مكتب الشؤون الخارجية في الكلية، ونظرا لكونهما عضوان في الحزب لم ترَ هو وتشي من المناسب أن يراهما أحد وهما تساعدانه. طلبا مني أن أذهب بدلا عنهما فوافقت. قلت لنفسي إنني أشعر بأني مدينة له لأنه وجد لي عمل تدريس روينا. الحقيقة هي أنني أردت أن أكون معه ولو لفترة قصيرة.

بعد عدة أيام طلب مني أن ألقاه في مكتبه بعد العشاء. كدت أرفض ولكني قلت له سآتي إذا توفر لي الوقت. عندما وصلت تحدثنا لبضع لحظات ثم ابتسم بيل وقال «عيد ميلاد سعيد ياليف (ورقة)»، ووضع هدية على طاولة القهوة التي بيننا.

ناداني ليف (ورقة) بعد اليوم الأول عندما شرحت له معنى لقبي في اللغة الإنجليزية. أضاف قائلا «العادة في الغرب هي تقديم هدية في عيد ميلاد إنسان يهمك، وعليك أن تفتحي الهدية الآن- فهذه عادة أيضا».

كانت الهدية رواية «أبناء وعشاق» للكاتب د. ه. لورنس - أحد الكتاب المفضلين عند بيل».

لم يقدم لي أحد هدية عيد ميلاد. إنها ليست من عاداتنا. كان بيل يعرف أنني أحب القراءة، ويدرك صعوبة الحصول على مثل هذه الروايات في الصين. تأثرت كثيرا لاهتمامه وشكرته بمصافحته.

قال «هيا! إننا أصدقاء ياليف» قال ذلك وضمني إلى صدره.

كان قلبي يخفق رغم معرفتي أن أحدا لن يرانا. ولكن شعرت بالسعادة لكوني قريبة منه.

جلسنا وتحدثنا طويلا. سألته إذا كان يفتقد طفليه فقال «نعم». كنا جميعا نعرف أنه يحب أطفاله كثيرا. عندما علقت بأنه الآن سيكون لديه وزوجته وقت أكثر ليذهبا معا إلى الأماكن المختلفة، تجهم وجهه.

تمتم بحزن «لا. لا أعتقد ذلك. نحن... لم نعد ننسجم معا. نحن ننام في غرفتين منفصلتين منذ عامين كاملين».

فوجئت حين أخبرني بمثل هذه الأمور الشخصية وهو ذاك الشخص المعتد نفسه، ولم أعرف كيف أرد.

قال بابتهاج مزيف «على أي حال، دعينا لا نفسد حفلة عيد ميلادك. ما رأيك بالمزيد من الشاي؟».

بعد فترة، غادرت مكتبه بعد أن وافقت على أن أذهب إلى مركز المدينةِ معه في اليوم التالي لمساعدته في شراء سجادة ليرسلها إلى والديه.

التقينا عند موقف الحافلات لأن الأمر قد يسبب إزعاجا لي لو شاهدنا نغادر الحرم الجامعي معا. ذهبنا إلى ليو - لي - تشانغ و هي منطقة تسوق مشهورة في جنوب ساحة تيان - آن - مين. كان يوما حارا ثقيل الوطأة، وبعد أن اشترى بيل السجادة تجولنا نروي النكات السخيفة حول الزوار ذوي الملابس الغريبة. في سيارة الأجرة اقترح بيل أن نذهب إلى فندق بكين لتناول شراب بارد.

قال بعصبية «هنالك شيء أريد أن أقوله لك».

كان المشرب المكيف في الرواق كالواحة بعد حرارة الشوارع القائظة. وكان المكان نصف فارغ، فوجدنا طاولة في الخلف. اشترى بيل بيرة لنفسه وشراب برتقال لي وتناولنا شرابنا بصمت. في متجر السجاد حيث اتخذ بيل الترتيبات لشحن السجادة إلى تورنتو كنت في المؤخرة اتعامل مع الكتبة والروتين الحكومي بالطريقة التي اتبعها في شنغهاي بالنيابة عن الزوار. ولكن في المشرب وأنا أجلس معه وجها لوجه فقدت فجأة القدرة على الكلام.

تمتم قائلا «يا ليف، (ياورقة)، أريد أن أعترف بشيء. لأسابيع عدة كنت في صراع مع قرار اتخذه متسائلا فيما إذا كنت قادرا على البوح أو عدمه. ولكن بما انك ستغادرين إلى مدينتك خلال الأيام القادمة ولن أراك ثانية، قررت أن أعترف بأنني أحبك».

ترددت كلماته كالرعد في اذني. حدقت في سطح الطاولة وأنا أتذكر كوابيسي مدركة جدا وجودي في مكان عام مع أجنبي.

تابع بيل قائلا وهو يدير كأسه الفارغة على الطاولة «آمل ألا تأخذي فكرة سيئة عني».

همست «وأنا أحبك يا بيل. ولكن ذلك خطأ. إنه خطأ جسيم».

نظرت إليه. فضح وجهه المفاجأة فهو لم يكن يدري شعوري نحوه.

مرت لحظات قال بعدها بمنتهى الهدوء «اسمعي. ليس هناك خطأ في حب شخص ما، لم نطارد أو نغوي بعضنا، لقد وقعنا في الحب دون أن نعني ذلك. لم أدرك... ربما كان علي ألا أقول شيئا».

صمتنا لفترة طويلة ثم اقترح قائلا «لنتناول العشاء هنا. أول وآخر وجبة لنا معا».

تناولنا الطعام في قاعة طعام الفندق. دارت بي الأفكار وكدت لا أمس طعامي. في الحافلة وفي طريق العودة إلى الحرم الجامعي، وقف بيل بجانبي. لم نتكلم. عندما اقتربنا من الكلية نزلنا في موقعين مختلفين ودخلنا من بوابتين مختلفتين.

وحيدة في مهجعي في تلك الليلة، استعدت المشهد في ذهني كما يعاد شريط فيديو. إنه الحب الذي قرأت عنه، وإن لم أؤمن بأنه حقيقي أو ممكن، ليس في حياتي على أي حال. لم تكن هناك قبلة ولا تعبير جسماني من أي نوع، ولأنه حدث في الزمن الخطأ وفي المكان الخطأ فإن حبنا لا يمكن أن يصبح حقيقة. إنه ممنوع مرتين حب بين شخصين متزوجين، وبين صينية وأجنبي. ولكنني سعدت لأننا فتحنا قلبينا كل منا للآخر. ولن أندم على ذلك طوال حياتي رغم أنني لن أراه ثانية.

كان ذهني بحرا من الارتباك وأنا أحاول الاستعداد للامتحانات. لم أر بيل كثيرا.

ظللت أفكر بشيء قالته لي صديقتي هسياو وانج قبل بضعة أسابيع. قالت إنها شعرت بأن بيل منجذب إليَّ واستشهدت بالمثل المألوف زلة واحدة قد تسبب حزنا دائما، «إنك لست حمقاء لترتكبي مثل هذه الخطيئة على حساب مستقبلك المهني وعائلتك وابنتك. أنتما الاثنان تعيشان في عالمين مختلفين».

هزئت منها قائلة «لا تكوني سخيفة يا هسياو وانج. كم خيالك خصب». «كانت ملاحظتها قائمة على الحدس فقط، ولكن المثل كان مناسبا. فعلى رغم وجود أشياء مشتركة بيننا فإنه كان من المفترض أن نعامل بعضنا كغرباء لا يسمح لهما بالتفكير ولا بالشعور أنفسهما. علي أن أواجه الحقيقة. وعلي أن أكون حذرة. فإذا لاحظت صديقتي فلربما لاحظ الآخرون أيضا.

اتخذت الترتيبات للسفر إلى شنغهاي بأسرع ما يمكن بل قبل الميعاد الذي خططت له، وانتقلت إلى الحرم الجامعي لأقضي الأيام القليلة الباقية في شقة قوس قزح. فوجئت ولكنها لم تسألني عن أي شيء ولم أتبرع بتقديم أي ملاحظات. لم أستطع أن أشارك في سري حتى من ربطتني بها صداقة قوية كثيرة. لم يكن الوقوع في حب رجل آخر أمرا أستطيع أن أفخر به.

ولم أودع بيل عندما غادرت الكلية. ظننت أن ذلك أفضل لي وله للحفاظ على نسخة من ذكرى جميلة. ولكنني لم أستطع أن آكل أو أنام جيدا. ولأنني كنت وحيدة في شقة قوس قزح طوال النهار فقد شعرت بالوقت يجرجر نفسه بطيئا متثاقلا. وعندما كانت وزوجها في البيت كنت أضطر للتظاهر بالابتسام، وبأن كل شيء

على ما يرام، وإن كدت أصاب بالجنون وأنا أحاول أن أمنع نفسي من التفكير في بيل.

في اليوم السابق لمغادرتي بكين ذهبت إلى هاتف عمومي وطلبت رقم كلية الشؤون الخارجية، رفع بيل سماعة الهاتف عندما أوصلتني موظفة المقسم برقمه الفرعي. فوجئ بسماع صوتي. قال إنه تفهم لماذا تركت الكلية باكرا ولكنه تمنى أن يراني ثانية. كانت محادثتنا مليئة بفترات الصمت. شعر كلانا، بالهجران ولم نعرف ما سنقول.

كانت السيدة العجوز المسؤولة عن الهاتف العمومي ترمقني منذ أن انتقلت إلى الكلام باللغة الإنجليزية. خلال إحدى فترات الصمت في مكالمتنا قرعت بقبضتها على الطاولة.

نهرتني قائلة «تحدثي باللغة الصينية! إنك صينية أليس كذلك؟ من تحادثين؟ لماذا توقفت عن الكلام فجأة؟».

لا تريد أن تتركني وحدي. غطيت فتحة الكلام وقلت لها بعد أن استنفدت كل صبري إنني أتحدث إلى شخص لا يتكلم إلا الإنجليزية.

«في تلك الحالة يجب ألا تحادثي ذلك الشخص على الإطلاق. كيف أعرف أنك لا تقولين كلاما ممنوعا؟»

وقفت عندئذ بنظرة مصممة على وجهها. أخبرت بيل بسرعة أنني أريد أن أراه أيضا مرة أخرى.

أخبرني بيل أن زوجته خارج المدينة مع بعض المدرسين الآخرين، وأنه وحده مع ابنه البالغ ست سنوات من العمر. قال «تعالي للعشاء. ستكون المرة الأخيرة التي نتقابل فيها».

بعد أن خيم ظلام تلك الليلة دخلت مجمع الكلية من الباب الجانبي وصعدت سلم الدرج المظلم إلى الطابق الخامس من مبنى سكن المدرسين. كان ابن بيل قد نام سلفا في فراشه. أما بيل فقد أعد وجبة العشاء وإن لم يستطع أي منا أن يأكل الكثير. جلسنا وتحدثنا، كلانا يمسك بيد الآخر، متعلقين بكل لحظة تمر. بقي فنجانا الشاي مكانهما لم نلمسهما وأصبحا باردين.

وأخيرا اضطررت للمغادرة أعطاني بيل مظروفا سميكا وطلب مني أن أقرأ الرسالة التي احتواها في القطار في اليوم التالي. تعانقنا وكلانا يذرف الدموع. قبَّل كل منا الآخر لمدة طويلة وبقوة، وبعدها اختفيت هابطة الدرج المظلم من دون أن أنظر إلى الخلف.

ودعتني قوس قزح وزوجها في محطة القطار في اليوم التالي. حاولت رغم كل ما تملكني من اكتئاب أن أتحدث معهما، ولكني وجدت نفسي أبحث بقلق بين الوجوه حولي آملة أن يكون بيل قد تجاهل تحذيري بألا يأتي، وإن كنت في الوقت نفسه خائفة من مجيئه. وأخيرا أزف موعد القطار فودعتهما وركبت القطار الذي سيعيدني إلى أرض الواقع». كانت في حقيبة يدي رسالة بيل التي كنت أتشوق إلى قراءتها منذ الليلة السابقة.

يقول المثل إن المصادفة تؤلف قصصا جيدة، ذلك أنني قبل أن يغادر القطار لاحظت وجها مألوفا في إحدى عربات القطار. إنه أحد إخوة هسياو جاو الأكبر منه، الذي كان في بكين للتجارة. تفاوض بسرعة لتغيير مكانه كي يتمكن من الجلوس مقابلي قرب النافذة، وخلال بضع لحظات كان قد ملأ فنجاني شاي لنا، وفتح

علبة من الفستق المحمص، ونثر بعض قطع من الحلوى فوق سطح الطاولة وأخرج مجموعة من ورق اللعب.

قال «يا لها من مصادفة سعيدة. الآن ستمضي رحلة العشرين ساعة بسرعة. إنه المفضل لدي بين إخوة هسياو جاو. كان الأخ الثاني في العائلة، رجلا ممتلئا في أواسط العمر ذا وجه صدوق صريح. في الظروف العادية كنت سأرحب بصحبته، ولكن رسالة بيل تنتظر في حقيبة يدي وأردت أن أقرأها بمفردي بعيدة عن العيون. مارسنا لعبات الورق الواحدة بعد الأخرى وخسرتها جميعا تقريبا، رغم تحريض ونصيحة زملائي في المقعد. بعد ساعتين تقريبا تدحرجت عربات الغداء الصغيرة في عربة القطار يدفعها الخدم الذين يبيعون الوجبات المعلبة والخمر والوجبات الخفيفة. اشتريت زجاجة من خمر الأرز لأخ زوجي. وأحدث كرمي الزائف النتيجة المرجوة فعندما كانت أخبار الساعة العاشرة تنطلق من مكبرات الصوت كان قد غرق في نومه منكفئا على ظهر مقعده.

فتحت المظروف، كانت هناك ست أوراق كتبت على الوجهين بخط اليد على شكل مذكرات يومية خلال الأيام القليلة الماضية. أغرورقت عيناي بالدمع. كان بيل أديبا إلى جانب كونه مدرسا؛ إذ نشر روايته الأولى في ذلك الربيع، وعبر عن نفسه بصورة مؤثرة. كتب في رسالته كيف كان يشاهد إحدى حفلات بافروتي الموسيقية المذاعة من قاعة الشعب الكبرى على التلفزيون، وكيف كنت في ذهنه وهو يصغي إلى أحد ألحان بوتشيني الرائعة.

«ماذا تقرئين يا هسياو يي؟».

رفعت بصري لأجد أخ هسياو جاو يحدق في. لم تكن لدي فكرة كم من الوقت مضى وهو يراقبني. مد يده واختطف الأوراق من يدي.

صرخ يقول ويوقظ الركاب النائمين «هيه! هذه ليست لغة صينية. ما هذا؟ لماذا تبكين؟».

ألححت عليه قائلة «اخفض صوتك». وقفت وأخذت الرسالة من يده إنها قصة كتبها أستاذي. إنها عاطفية جدا. «يضحك وهو لا يزال تحت تأثير الخمر «سمعت أن الأجانب يجيدون صناعة الأفلام السينمائية، ولكني لم أعلم أنهم يستطيعون الكتابة أيضا. ما موضوعها؟ لماذا لا تترجمينها لي؟».

أيد المسافرون الآخرون طلبه. تمنيت لو اشتريت له زجاجتين من الخمر.

قلت «إنها قصة حول سيدة شابة أرسلت لتعمل في مقاطعة هايلونج جيانج أثناء الثورة الثقافية. هل أنتم جاهزون؟».

بدأت بتأليف قصة محاولة - بجد - أن أجلعها مملة قدر الإمكان. سرعان ما اشتكى أحد المسافرين قائلا إنه سمع من القصص الحزينة ما يكفيه طوال حياته وعاد للنوم. وسرعان ما هدهدت الجميع ليغفوا، عندها دسست الرسالة في حقيبة يدي واستأنفت لعب الورق مع أخ زوجي.

كان هيساو جاو وتشي - منج في المحطة لتحيتي. بلغت ابنتي الخامسة في ذلك الصيف. بدت صحيحة الجسم وثقيلة الوزن بين ذراعي. سعدت لرؤيتهما معا وارتحت لعودتي إلى البيت ولحياتي العادية. سيكون لدي شهر قبل أن أعود للدائرة.

لم يسعدني وجود هاي - روي في شقتنا عندما وصلنا إلى البيت. عندما استأذن هسياو جاو من عمله بعد الظهر ليقابلني فعل هاي - روي الشيء نفسه لتنظيف شقتنا. بعد الرحلة الطويلة من بكين راقبت هاي - روي منهمكا في أمور تافهة في المطبخ، ولاحظت تقرب تشي منج منه وتصرفها الطبيعي معه.

في ذلك المساء - بعد أن أوت تشي منج إلى النوم - فتحت الموضوع مع هسياو جاو. قلت له «أشعر كأني غريبة في بيتي بوجود هاي - روي. تشي - منج تصغي إليه قبل أن تصغي إلي. أليست لي كلمة تسمع في هذه العائلة؟».

كنت أعلم أنه لا يريد تغييب وجود هاي - روي عن حياتنا، وإن كنت غير مستعدة لثورة غضبه.

أجاب وعيناه تلمعان «الآن وقد عبرت الجسر تريدين أن تحرقيه. هاي - روي عرض مساعدته عندما احتاجتها تشي - منج بينما كنت أنت بعيدة جدا عنا. فنحن الثلاثة مدينون له بالكثير، هذا ما أعتقده. بالإضافة إلى ذلك، ماذا تظنين جيراننا سيقولون إذا تخلينا عن هاي - روي؟ وهل فكرت في شعور ابنتنا؟».

أدركت أن ابتعادي عن زوجي وابنتي بحثا عن «تطوير للذات لا ينتهي» بمتابعة دراساتي كان موضوعا متكررا للأقاويل بين جيراننا والآن يجابهني به زوجي وجها لوجه. لم يعرفوا الأسباب الحقيقية التي دفعتني للذهاب إلى بكين، ولكنهم أجمعوا على مديحهم لهاي - روي والمساعدة التي قدمها.

بعد سبع سنوات من الزواج والنضال للوفاء بديوني لهسياو - جاو، بإعطائي راتبي له كاملا، بدأت أشعر بأني حرة ماليا. أما الآن

فـأنا فـي رأي زوجي مـدينـة لهـاي - روي الذي تطفل على حـيـاة عـائلتيَ بنجـاح كـبـيـر دون اسـتـشـارتي ولـو لمرة واحـدة، يـبـدو أن الطريقـة الوحيـدة التـي أسدد بهـا ذلك هي السكوت. إنهَا حَبَّة مُرة يصعب ابتلاعها وقد عمقت الأسفين بيني وبين هسياو جاو.

ومع ذلك سعدت لقضاء أغسطس حرة من دون عمل. إنه الشهر الأشد وطأة في شنغهاي بطقسه الحار والرطب. هو الشهر الوحيد الذي رحبت فيه بالمطر أملا في تعديل الحرارة، غير أن الأعاصير صاحبت المطر أحيانا. أردت أن أكون بجانب ابنتي ولذلك أخرجتها من المدرسة الداخلية وسجلتها للالتحاق في شهر سبتمبر - عندما أعود إلى العمل - بمركز رعاية نهاري تديره اللجنة المحلية. أستطيع أن أوصلها كل صباح في طريقي إلى العمل ولكن بسبب ساعات عملي غير المنتظمة لا أستطيع أن أصطحبها من المدرسة إلى البيت بعد انتهاء الدوام. وعلى رغم أن هسياو جاو كان قادرا على القيام بهذه المهمة لأنه لم يعد يعمل بنظام المناوبة، فقد أصر على أن يقوم هاي - روي بذلك. أغضبني ذلك وإن احتفظت بصمتي؛ إذ لم أرد المزيد من الخلاف مباشرة بعد عودتي إلى البيت.

وجدت أنني غير قادرة على نسيان بيل مهما حاولت. في ساعات بعد الظهر الحارة - عندما كانت تشي - منج بغفوتها - كنت أخرج الرسالة وأعيد قراءتها. وجدت نفسي متعلقة بكلماته وأفكاره وحبه وتفهمه. عندئذ كنت أنظر إلى ابنتي الغارقة في النوم وأشعر بالذنب ينهش داخلي. بقيت أكرر أن كل شيء بيننا قد انتهى ولن يرى أحدنا الآخر ثانية. ولكنني لم أستطع أن أحمل نفسي على تمزيق رسالته.

بعد أسبوعين، عكرت صفو الشهر الهادئ المسالم الذي عقدت عليه الآمال بقضائه مع عائلتي مكالمة هاتفية، وصلت إلى كشك الهاتف المحلي من دائرتي طالبة مني أن أعود في الحال. لم يعط المتكلم سببا لذلك، ولم يترك اسمه. لم يكن هذا غريبا. طلبت من الجيران مراقبة تشي - منج وذهبت على دراجتي. أثناء سيري في الشوارع الرطبة والحارة حاولت أن أفكر في ما هية الأمر الطارئ. عند البوابة أخبرت أن علي التوجه ليس إلى مكتبي بل إلى القسم السياسي.

بدأت أشعر بالذعر. كل شيء كان يوحي بالمتاعب لقد أمرت أن أقطع إجازتي وأعود إلى ما كنت أسميه «قسم غسل الدماغ». هناك سبب وحيد فقط لا بد أن علاقتي مع بيل في بكين كشفت بطريقة ما ونقلت إلى دائرتي. ربما تعقبتني تلك السيدة العجوز القذرة في كشك الهاتف العمومي قرب شقة قوس قزح، أو ربما سمعنا الموظفون في فندق بكين في ذلك اليوم، أو ربما رآني أحد أصدقائي المتطفلين وأنا أزور بيل في شقته في تلك الليلة الأخيرة.

ورغم أني كنت أشعر بحرارة لاهبة من رحلتي السريعة على الدراجة، تملكتني قشعريرة باردة وأنا أقف خارج القسم السياسي في الطابق الثالث. تساءلت عما إذا كنت سأعتقل مباشرة أم أعطى فرصة لشرح الموضوع. هل سيدعوني أرى ابنتي مرة أخرى قبل أن يبعدوني؟ نادى أحدهم بابتهاج من داخل الغرفة «ادخلي ياهسياو يي!».

أقنعت نفسي بضرورة التزام الهدوء. في الداخل قابلت لاو - ليو نائب مدير القسم. ابتسم بدفء ورحب بعودتي بمصافحة

قوية وهنأني باسم القسم على إنجازي المتميز. لقد اطلع على درجاتي التي أرسلتها كلية الشؤون الخارجية. تهلل وجهه وقال «تلقينا تقارير عظيمة من الكلية ونحن فخورون جدا بك». شعرت بالارتياح إلى درجة أنني نسيت للحظة سر الاستدعاء السريع.

وسرعان ما قدم لاو - ليو الجواب. «خلال أسبوعين سيقوم العمدة وانج برحلة تستغرق عشرة أيام إلى سان فرانسيسكو وفانكوفر وهونج كونج وقررت الإدارة أن ترسلك معه كمترجمة. طلب مني أن أخبرك فورا لأنه سيكون هناك الكثير من الترتيبات. يجب أن تتصلي بقسم «المدن الأخوات» بأسرع ما تستطيعين.

العمدة وانج هو في الحقيقة عمدة سابق تقاعد منذ عدة سنوات، وإن كان لا يزال يحتفظ بلقبه السابق. اتصلت بالقسم الذي أنشئ خصيصا للاتصال بالمدن الكثيرة عبر العالم المتآخية مع شنغهاي. هناك أعلمتني لاو - كانج - رئيسة القسم المتوسطة العمر وذات المقدرة المعقولة، لا المتميزة باللغة الإنجليزية - أنها والعمدة وأنا سنرافق فريق شنغهاي لكرة السلة من الرجال الذي سيزور سان فرانسيسكو كجزء من اتفاقيات التبادل الثقافي. وعندما يطير فريق كرة السلة في طريق العودة سنتابع نحن الثلاثة إلى المعرض في فانكوفر ثم نتوقف في هونج كونج حيث يعقد العمدة وانج اجتماعات تجارية عدة.

فوجئت بهذه المهمة. فحتى تلك اللحظة كنت أرى الكثير من زملائي وهم يمنحون فرصة السفر أو الدراسة في الخارج، ولكنهم جميعا كانوا أعضاء في الحزب، وقد قيل لي أكثر من مرة أن «وعيي السياسي» لم يتطور بعد فأنا حتى لم أتقدم بطلب

للانتساب للحزب. أستطيع فقط أن أفترض أن درجاتي العالية في كلية الشؤون الخارجية المشهورة منحتني «الوعي السياسي» الكافي. علي أي حال، ها أنا أتمتع بالثقة - ربما ليست الكاملة لأن لاو - كانج سيكون شريكي المكلف بمراقبتي بوصفه عضوا حزبيا. كان الخبر كاسحا، تأثر الجميع. فلن أذهب إلى الخارج فقط بل سأذهب مع موظف كبير وليس إلى أحد بلدان العالم الثالث، بل إلى كندا الرأسمالية وهونج كونج والولايات المتحدة، وهي بلدان يتشوق كل فرد لزيارتها.

كان الأسبوعان الأخيران من «إجازتي» سلسلة من «التلكسات» إلى وجهات سفرنا ورحلات تسوق للهدايا التي سيوزعها العمدة وملابس أفضل لنفسي (كما طلب المكتب) ووثائق سفر بما في ذلك جواز سفر «مهمة» أخضر اللون. وهذا الأخير شيء جديد. لم يكن يسمح للمواطنين الصينيين بالحصول على جوازات سفر. والذين يسافرون إلى الخارج يمنحون جوازات سفر تؤخذ منهم بعد عودتهم إلى الوطن.

انفعلت لإمكان أن أطأ أرضا أجنبية للمرة الأولى في حياتي غير مدركة الكيفية التي ستخطفني بها رياح التغيير مرة أخرى.

بعد رحلة طيران شبه مستمرة لمدة ثلاث عشرة ساعة إلى سان فرانسيسكو عن طريق هونج كونج لم أستطع خلالها النوم ولو لحظة واحدة بدأت عملي اليومي مباشرة لأن العمدة وانج كان ينتظرني في فندقه. كانت سان فرانسيسكو رطبة وباردة بعد الطقس الحار في هونج كونج. عند الظهر انقشع الضباب، وفي طريقنا إلى غداء رسمي دهشت لرؤية شوارع وسط المدينة

مـزدحـمـة بالناس الذين بدوا كـأنهم في طريقـهم إلى الشـاطئ. النساء، خصوصا الفتيات، بدون كأنهن يـرتدين القليل، بعضهن بصعوبة سترن أجسامهن بصورة لائقة.

لم أكن أقـدر أن أحصـي عدد الاجـتمـاعـات والوجبـات وحـفـلات الشاي والمحادثات التي ترجمت خلالها كل ذلك اليوم وحتى المساء. في منتصف الليل ذهبت مع لاو كـانج إلى منزل عـائلة أمـريكيـة تنتمي إلى الجمعية الأمـريكيـة للصداقـة مع الصين، والتي عـرضت أن تأوينا. في وقت مبكر من صباح اليوم التـالي أسرعت إلى مـركز المدينة حيث فندق العمدة ثم إلى القنصلية الكندية للحصول على تأشيـرات لدخول كندا. عندمـا عدت ألقت نانسـي مضيفتنا نظرة علي، وقـالت لي إنني بحـاجـة إلى بعض النوم. وعدت أن توقظني في الوقت المناسب لأقوم بواجبـات التـرجـمـة أثناء مـأدبة العشـاء التي يقيمها فاينشتاين عمدة سان فرانسيسكو على شرف العمدة وانج. استغرقت في النوم العميق حالما وضعت رأسي على الوسادة.

ما حدث بعد ذلك أقنعني أن هنـاك شيئا اسمه القدر.

اهتمـام نانسي ورعايتها تحـول إلى كارثة فقد تلقت بعد ظهـر ذلك اليوم مكالمة هاتفـيـة من صديقـة لهـا اضطرت على إثرها أن تغادر المنزل وقد نسـيـتني ونسيت إيقـاظي. عندمـا فـتـحت عيني كـانت السـاعـة بعد السادسة. كنت متـأخـرة بصورة رهـيبـة. خـرجت راكضة من المنزل بهلع أبحث عن سيارة أجـرة. عندمـا وصلت إلى الفندق كانت جماعتي قد رحلت. قالت الرسالة التي تـركت لي إنهم سـئمـوا الانتظار ولم تتضمن أي تعليمـات أو معلومـات عن موقع الوليمة. أدركت أن عدم تزويدي بالمعلومات كانت وسيلة نقد

عنيف لي، وأن العقوبة ستأتي لاحقا. هأنذا، بعد يوم واحد من استلامي مهمتي أفسد عملي بالكامل. لم يكن هناك أحد أستطيع أن أتصل به لأعرف أين سيكون العشاء، فحسب البروتوكول، لم تكن أماكن الاجتماعات معلنة. وقفت في ردهة الفندق خائفة وتائهة.

وفي أثناء التنقيب في جيبي عن ربع دولار لأتصل بمنزل نانسي وجدت بطاقة أعطانيها في اليوم السابق أمريكي صيني يعيش في المدينة. ربما سمع أين سيكون العشاء. اتصلت به مستنجدة وقد بلغ اليأس مبلغه. لم يكن يعرف الموقع، ولكنه اقترح أن أذهب إلى الاستاد الرياضي حيث سيلعبون مبارة كرة السلة. ربما يعرف المكان أحد ممن لهم صلة بالفريق الصيني.

سألت نفسي في سيارة الأجرة أي نوع من المترجمين أنت؟! عندما وصلت إلى الاستاد بعد أن فشلت في إيجاد أي شخص يستطيع مساعدتي وجدت زاوية جلست فيها وحيدة بعيدة عن اللاعبين والمدرب يائسة ومتشوقة إلى الوطن. تمنيت لو كنت مع تشي - منج وهسياو جاو وحتى فكرة حضور هاي - روي كانت مستساغة. لم ألعب كرة سلة في حياتي ولم تكن لدي فكرة عما يجري أمامي. عندما حل الفاصل بين الشوطين قطع سلسلة أفكاري مترجم فريق شنغهاي هسياو يوان.

قال بالصينية «ياهسياو يي، هنا مراسل يريد أن يتحدث إليك».

بجانب هسياو يوان وقف أحد الرجال الغربيين - رجل سمين متوسط القامة بذقن سوداء هائلة ونظاراته ذات إطار ناتئ كالقرون يمسك بيديه دفترا وقلما.

تابع هسياو يوان «لقد أجبت بعض أسئلته ولكن يبدو أنه يريد طرح المزيد. علي أن أعود إلى اللاعبين».

ماذا يحدث؟ كيف عرف هذا المراسل أنني هنا؟ لم يكن من المفترض أن أكون في المباراة في المقام الأول، ولماذا يريد التحدث إلي؟ إنني مترجمة العمدة وانج. لا شأن لي بالفريق ولا أعرف الفرق بين كرة السلة وكرة العجين. عندئذ خطرت لي فكرة باردة هل اكتشف أنني فشلت في الظهور في وليمة العشاء فتعقبني ليكتب مقالة مزعجة يفقدني فيها ماء الوجه المترجمة تفضل كرة السلة على وليمة عشاء فاينشتاين؟

سألته «ماذا تريد أن تعرف؟».

كان هسياو يوان يراقبني منذ أن جلست على كرسيه. ولكن المراسل وقف بيننا عن قصد كما لاحظت.

قال بهدوء «يا آنسة يي، اسمي توم وأنا لست مراسلا. إنني ابن عم بيل، مدرسك الكندي».

بدا متوتر الأعصاب. وعندما تحدث خربش على دفتره كما لو كان يدون ملاحظاته. على عكس الرجل الغريب العريض المنكبين الواقف أمامي، كنت مرتبكة ولم أستطع أن أصيغ جملة صحيحة. كنت خائفة.

حين كنت وحيدة في جناح العمدة في ذلك الصباح أنتظره لينهي تناول إفطاره في غرفة الطعام، اتصلت على بيت بيل في أونتاريو، مندهشة لسهولة إجراء مكالمة على بعد أكثر من نصف القارة. كل ما أردته هو سماع صوته، أجابت زوجته. عندما عرفت بنفسي وطلبت بيل أخبرتني بتوتر أنها تعلم ما دار بيني وبين

زوجها. وقبل أن تقول المزيد أغلقت الخط وأنا أشعر بالخزي لأن بيل أخبرها عني وأريكتني طريقتها الفظة.

كنت أعلم أن كلمة «ابن عم» بالإنجليزية يمكن أن تشير إلى شخص على أحد جانبي العائلة. هل هذا الرجل الغريب توم ابن عم زوجة بيل؟ هل أتى ليسبب لي المتاعب، ليفضحني كعشيقة بيل السرية؟ بدا كأنه يحس بتوتري العصبي. سحب صورة من جيبه الصدري ووضعها فوق دفتر المذكرات. أظهرت الصورة ولدي بيل، اللذين ساعدت في تسفيرهما من مطار بكين في الصيف قبل الماضي. هززت برأسي، معترفة بهما. قال توم «اسمعي. أتيت إلى هنا لأبحث عنك لأن بيل اتصل بي وطلب مني أن أحاول مقابلتك وأسلمك رسالة. وبالمصادفة إنني أعيش هنا. يريدك أن تتصلي به بالهاتف. هذا كل شيء».

شعرت بالسخف لرد فعلي المفرط وابتسمت معتذرة. كتب توم رقم هاتف وهو يغطي ما كتبه، ثم مزق قطعة الورق من دفتره وأعطاها لي. إنه الرقم نفسه الذي طلبته من قبل في ذلك اليوم.

قلت له إني لا أريد مزيدا من الحرج «لا أستطيع أن أطلبه. أرجوك أن تخبره ذلك».

اضطررت لتكرار ذلك ثلاث مرات على الأقل لأن توم لم يرد أن يقبل بجوابي. أصر قائلا «على الأقل أخبريني أين تقيمين لكي يتمكن هو من طلبك»فعلت ذلك عندما كان هسياو يوان يتجه نحونا. كتب توم الرقم وأغلق دفتر مذكراته بسرعة ثم صافحني بدفء وشكرني بصوت عال على هذه المقابلة.

جلست هناك حتى نهاية المباراة تائهة في أفكاري. وعلى عكس العمة - الكبيرة لم أكن أؤمن بالقدر كثيرا، ولكن ما حدث في تلك الليلة كان أحد تجليات القدر دون أدنى شك. لقد استطاع توم أن يجدني فقط لأنني كنت في المكان الخطأ.

عندما أنزلوني عند بيت نانسي فيما بعد، أعددت نفسي لغضب لاو كانج. ولكن نانسي وصلت أولا وشرحت لي أن غيابي عن وليمة العشاء كان غلطتها. أكدت لكلينا أنها ستقول الكلام نفسه للعمدة وانج في اليوم التالي. شعرت بالارتياح لأن لاو كانغ اكتفت بالتعبير عن استيائها بعبوس هادئ. لم يتحسن مزاجها وينقشع غمامها عندما أعلمتني نانسي بعد نصف ساعة، عندما كنت ولاو كانج نأوي إلى فراشينا، أن لي مكالمة هاتفية من شخص يقول إنه كان مدرسي الكندي وأستطيع أن أتلقى المكالمة في غرفة الجلوس.

كيف عرف أنك هنا؟».

سألت لاو - كانج باللغة الصينية «من هو هذا المدرس يا هسياو يي؟

قلت وأنا أغادر الغرفة بسرعة «إنه مدرسي في كلية الشؤون الخارجية». حاولت أن أبدو مبتهجة وأنا أتكلم مع بيل لأنني علمت أن لاو - كانج ستحاول بكل الوسائل أن تستمع. أخبرت بيل عن الرحلة واستقبالنا والإنطباعاتي عن المدينة متحدثة بصوت عال كي تسمعني لاو كانج. ولكنني اضطررت لاختصار المكالمة.

سألت لاو كانج حالما دخلت غرفة النوم «كيف عرف أستاذك رقم هاتف نانسي؟».

«إنني أعطيته اسمها في رسالة عندما أخبرته بالرحلة. كان اسمها على البطاقة التي أعطيتني إياها في شنغهاي - هل تذكرين؟ من السهل الحصول على رقم هاتف أي شخص في أمريكا الشمالية إذا كنت تعرفين اسمه والمدينة». كان جوابي سريعا ومنطقيا متسقا مع المعرفة التي اكتسبتها أثناء تصفحي لدليل الهاتف في الفندق. في اليوم التالي أكدت نانسي ما قلته للاو - كانج التي بدا أنها تستمتع بعملها كمراقبة لي عندما سألت عن كيفية الحصول على هاتف شخص ما.

قالت لراحتي الشديدة «نعم، الآنسة يي محقة تماما».

إذا كانت مناظر ونظافة سان فرانسيسكو بهجة ومتعة فإن فانكوفر - على الأقل المنطقة حول فندق بان - باسيفيك بعمارته الهائلة المروحية - كانت بلاد الأساطير في الأرض. وسَّع معرض ١٩٨٦ خيالي إلى أبعد الحدود. بمنجزاته التي لا تصدق في مجالات العلم والتكنولوجيا وخصوصا «السيناسفير»، حيث حاولت أن أختبئ من القطار المتحرك على الشاشة عندما اندفع بسرعة نحوي مباشرة. ذهلت كليا وتساءلت كيف يمكن أن تكون الحياة مختلفة هكذا على الجانب الآخر من المحيط الهادئ. اتصل بي بيل في ذلك المساء كما وعد - استطاع أن يتعقبني إلى الفندق - وفي المساء التالي كانت لاو كانج يقظة كالعادة تريد أن تعرف بعد المكالمة الأولى لماذا يهاتفني «باستمرار». شرحت لها أن تعاملي من الغربيين علمني أنهم مدمنون على الهاتف كما ندمن على الأرز فبدت مقتنعة.

في المساء التالي استفدت من الرفاهية التي يوفرها الفندق الخيالي - هاتف الحمام، تلقيت مكالمة بيل هناك، وفتحت ماء الحمام لإخفاء كلماتي. لم تستزد لاو كانج بأية معلومات.

شعرت بالتعاسة عندما أقلعت الطائرة من فانكوفر. كنت أغادر كندا حيث يعيش بيل، بلد حر متزن، كما لمست خلال إقامتي فيها لمدة يومين فقط. عندما ودعت بيل في بكين قبل حوالى الشهر لم أفكر أبدا أنني سأتصل به ثانية. ولم يفكر هو بذلك، وهذا هو السبب - كما شرح لي على الهاتف - الذي جعله يخبر زوجته عني عندما سألته مرة بعد مرة عما يزعجه.

في هونج كونج استطعت أن أكلمه ثانية. عندما صعدت إلى متن الطائرة المتوجهة إلى الصين عرفت أكثر من أي وقت مضى أن حبنا حقيقي، حتى لو لم نستطع أن نعبر عنه بأي طريقة تقليدية. لم أعد خائفة من العقاب الذي يمكن أن ينتظرني في شنغهاي. لم أصدق الوعود التي قطعتها لي نانسي بشأن تغيبي عن الوليمة، ولكنني لم أعد أهتم بذلك لأنني اكتشفت أنه لا أنا ولا بيل نريد أن نتخلى عن حبنا. منذ وفاة والدي كان بيل الشخص الأول - بمن في ذلك هسياو جاو وكل أفراد عائلتي - المستعد للنضال من أجلي كما وعد. حتى مجرد التفكير فيه جعلني أشعر بالسعادة ومن دون خوف.

اتفقت وبيل أثناء محادثتنا الهاتفية أن نتراسل، واقترحت أن نستخدم أسلوب حرب العصابات يرسل رسائله بالتناوب مرة إلى منزلي ومرة إلى مكتبي؛ لنقلل فرصة الانتباه التي قد تثيرها

رسائله، وأرسل رسائلي إلى مدرسته في باري - أنتاريو. لنحافظ على المظاهر بأننا مدرس وتلميذة يتراسلان احتراما للذكرى كان بيل يرسل رسائله إلى اليانور في هونج كونج كلما سنحت له الفرصة، طالبا منها أو من إحدى زميلاتها تحويلها إليّ عندما تقوم برحلة إلى الصين.

كانت الرقابة على البريد الخارجي أمرا علنيا في تلك الأيام. لم تبذل الحكومة أي جهد لإخفاء الحقيقة بأن المراسلات القادمة والخارجة تفتح بصورة روتينية وتقرأ دون علم مرسلها أو المرسلة إليه. والبريد المرسل إلى دائرتي يمكن أن يستثنى، ولكنه بمجرد وصوله تفحصه عيون «الراشدين» سياسيا والفضوليين. كنا دائما نسأل عن الرسائل التي نتلقاها من الخارج، كان علينا أن نسلمها إذا اقتضى الأمر. كانت علاقة حب مع أجنبي لا تزال ممنوعة على أي فرد من أفراد الشعب بوجه عام، وكانت بالنسبة إلى امرأة في وظيفة حساسة كوظيفتي تعتبر جريمة.

تسلمت مرة بالبريد نسخة من رواية «ذهب مع الريح» من زائر استرالي كنت قد ترجمت له. وعلى رغم أنني لم أعلم بأن هذه الهدية الكريمة، التي لم أطلبها، قد أرسلت لي، فقد انتقدت على ثلاث جبهات الأولى لأنني «طلبت» هدية، والثانية لأنني استلمت أدبا بورجوازيا، والثالثة أنني تسلمت قصة حب من رجل وأجنبي أيضا. صودر الكتاب. لم يكن هناك أي مفهوم للممتلكات الشخصية في الصين في ظل «حزب تقاسم الملكية».

وفي هذا السياق، فإن التراسل مع أجنبي أحبه ويحبني يمثل - لنقل أقل ما يمكن - بعض التحديات. لتجنب فحص الرسائل، تبرعت بأن

أحضر الرسائل بنفسي من البواب حال وصولها، وبهذه الطريقة أستطيع أن أضع رسائل بيل في جيبي قبل أن تصل إلى المكتب.

أرسلت رسائلي من مكاتب بريد مختلفة من دون عنوان المرسل. وفي كل مرة تلقيت فيها رسالة من بيل، كنت أفحص المظروف بدقة لأرى ما إذا كان قد فتح بالبخار. أحيانا كنت أستطيع أن أكتشف ذلك، ولكنني أعرف من تدريبي الشخصي أن هذا الإجراء لم يترك عادة أثرا كبيرا. كان كلانا يسجل تاريخ أحدث رسالة تصله لكي يعرف إذا ما ضلت الطريق.

بالتأكيد لم تكن هناك لغة حميمة في رسائلنا في هذه الظروف. ولكن في إحدى المرات في ظل ادعاء إرسال كلمات أغان عاطفية إليَّ لتحسين لغتي أدخل بيل في وسط الأغاني مقاطع من تأليفه. ليقول لي كيف يشعر تجاهي وكم يفتقدني. الآن تأكدت من أنني كنت سأفلح كعميل سري رغم أنني رفضت الفرصة بعد تخرجي في جامعة بكين.

وفي الوقت نفسه حدث تغييرات سارة في العمل. أُزيح هم كبير عن كتفي، فقد تقاعد لاو - بنج ولن تكون هناك تحرشات منه. حل محله لاوجون، وهو رجل واقعي لطيف عائد منذ أربع سنوات من الخدمة الديبلوماسية في أفريقيا. بوجود ثلاثة موظفين أصغر مني سنا، وبعد ثلاث سنوات من الدراسات العليا وجدت نفسي لم أعد في المراتب الدنيا. وضع لاو جون الكثير من ثقته في شخصي، ولكنه كسكرتير حزبي حثني أكثر من مرة على أن أقدم طلبا للانتساب إلى الحزب الشيوعي. في كل مرة كنت أرفض بأدب مؤكدة له أنني سأعطي القضية تفكيرا عميقا وجديا.

سرعان ما كانت عودتي إلى العمل في الإدارة مملوءة بالاستعدادات لزيارة ملكة إنجلترا، التي كان من المقرر أن تزور شنغهاي مع الأمير فيليب في خريف ١٩٨٦ - رحلتها الأولى إلى الصين. قبل أشهر من وصولها أصبحت قصة إقامتها موضوعا ساخنا. بدا أن كل فندق مشهور في المدينة يريد أن يستضيف الملكة ومجموعتها - من فندق جين جيانج المشهور إلى فنادق المشاريع المشتركة الجديدة مثل الشيراتون، إلى بيوت الضيافة المحترمة مثل هسي جياو - بيت ضيافة العناية الغربية، وهو أحد أمكنة إقامة ماو الأخرى عندما ينزل في شنغهاي. لأيام طويلة، ذهبت والآخرون في قسمي في رحلات تفتيشية نتفحص الغرف المفروشة، وتمطرنا الوجبات الفاخرة والهدايا لمساعدتنا في اتخاذ القرار.

وأخيرا وقع الاختيار على بيت ضيوف هسي جياو، وهو عقار من مبان متعددة على طراز الفيلات ومروج شاسعة وحدائق.

قبل عدة أيام من وصول الملكة نفسها، وصل اليخت الملكي «بريتانيا». عرض قائد فرقة اليخت أن يقدم حفلة موسيقية واختارني الآخرون لأكون مسؤولة الاتصال المؤقت. في ليلة الحفلة ذهبت إلى الملعب حيث ستعزف الفرقة. فقط عندما وصلت إلى الباب تذكرت أنه المكان نفسه الذي وقفت فيه قبل ثماني عشرة سنة أنتظر مع المدرسة تشن الحافلة التي ستأخذني إلى مزرعة السجن. الآن لا توجد لافتات ملونة تخفق في الهواء، ولا أغان ثورية تدوي من مكبرات الصوت، ولا بكاء من عائلات ستفترق. قدمت فيما بعد المختارات التي ستعزفها الفرقة، وهكذا امتلأ الملعب الذي أعاد ذكريات أليمة بالموسيقى الممتعة.

على الرغم من محاولاتي العديدة، فقد فشلت في التخلي عن مشاعري تجاه بيل، وفي قبول واقع لي فيه زوج وعائلة ووظيفة. تساءلت في نفسي إذا كان من الممكن حب رجلين في الوقت نفسه، ولكني أدركت أكثر فأكثر أن مشاعري تجاه هسياو جاو أصبحت إلتزاما وواجبا أكثر منها حبا، وعرفت أيضا أنني لم أشعر تجاهه بما شعرت به تجاه بيل، ولم أشعر بعاطفة مثلها طوال حياتي. كان بيل الشخص الوحيد في العالم الذي لم أكن بحاجة إلى أن أخفي عنه أي شيء، ولكنه ذهب، أو هكذا ظننت. في نهاية شهر أكتوبر قال إنه يريد أن يأتي إلى شنغهاي في عطلة عيد الميلاد، ولكنه لن يحجز بطاقته حتى أخبره إن كنت أريده أن يأتي أم لا؟ سببت لي رسالته ليالي ساهرة كثيرة، ولكنني في النهاية قررت أنني للمرة الأولى سأفعل شيئا مختلفا. طالما التزمت بالقواعد والأنظمة والتزمت بمعايير الآخرين. كتبت له «نعم» بالخط العريض.

بعد شهر ذكرتني الأحداث بأن المشاكل قدري ونصيبي، فقد وقعت في مأزق سياسي من جديد. في شهر نوفمبر انفجرت المظاهرات في شنغهاي، بدأها طلاب الجامعة وهم يطالبون بالإصلاح السياسي. كانت بعض ملصقاتهم جريئة إلى درجة أنها طالبت بإنهاء احتكار الحزب الشيوعي للسلطة، وإنهاء الشمولية والبدء في نظام تعدد الأحزاب. كان ذلك إحدى مفارقات القدر لأن أهالي شنغهاي غالبا ما وصمهم الصينيون الآخرون «بالجبناء» بسبب عدم انغماسهم المسبق في القضايا السياسية بعد التحرير.

ملأت المظاهرات الشوارع الرئيسية وعرقلت السير وأعاقت الدخول إلى المدينة، واكتظت بها مساء ساحة الشعب، وكما هي الحال دائما، انتشر بين الجماهير رجال الشرطة السريون بالملابس العادية، عندما بدا وكأن العمال سينضمون إلى مظاهرات الطلبة، تصرفت السلطة بسرعة لمنع مجابهة رئيسية.

في إحدى الليالي اخذت تشي - منج إلى ساحة الشعب لنرى سبب الاضطرابات. كثيرا ما كنت هدف الحركات السياسية. هذه المرة شعرت بالتأثر وقررت المراقبة. قال هسياو جاو «إنها ليست فكرة حسنة. قد تكون هناك مشاكل».

أجبته «إنهم مجرد طلبة. ونحن لا نشارك في المسيرات في الشوارع، إننا نتمشى. فما الضرر المتأتي من ذلك؟».

وبعد تردد قرر هسياو جاو أن يصاحبنا. امتلأت الساحة - التي تبعد حوالى مسير عشرين دقيقة من شقتنا - بمجموعات تصرفت بشكل حسن والتنظيم ملحوظ، وهم يديرون المناقشات والمناظرات أو يستمعون إلى الخطابات. كانت تلك الممارسات متحضرة وهادئة دون قعقعة أو طبول أو ترديد شعارات - لا شيء يماثل تلك الحركات السياسية في صباي. ارتاح هسياوجاو واسترخى قليلا. تمشينا بين الجماعات نستمع إلى المناقشات وتشي -منج جاثمة على كتفي هسياو - جاو.

بعد ساعات - حوالى الساعة الحادية عشرة - بدأت الشرطة والميليشيات تخترق الجماهير وتفرق التجمعات، مكررة «اذهبوا إلى بيوتكم، تأخر الوقت، اذهبوا إلى بيوتكم واستمتعوا بنوم عميق لكي لا تتأخروا عن عملكم في الغد».

كان خطابهم لينا عطوفا كعطف الأهل المهتمين. حتى أن إحدى الشرطيات سألتني «لماذا أحضرت طفلتك إلى شيء كهذا؟»، لم أجبها وأملت أن تساعد هذه المظاهرة على تشجيع الإصلاح، وتسجل بداية مرحلة تكبر فيها تشي - منج في حرية وسلام أكبر من الذي نعمت بهما.

في اليوم التالي انتحى بي لاو جون جانبا لحديث خاص. قال لي إنني شوهدت قبل أيام أسير مع مظاهرة الطلبة.

قال «لم أقل لك شيئا عندئذ، ولكني الآن علمت أنك شوهدت في ساحة الشعب في الليلة الماضية». سألته بسخط «ماذا تعني - أسير مع الطلبة المتظاهرين؟ لقد حشرتني حركة السير في طريقي إلى البيت وكنت أنتظر عند تقاطع طرق أثناء مرور الاستعراض. أما بشأن ليلة أمس فما الخطأ في الفضول؟ كيف يمكن لنزهة مع عائلتي أن تسمى عملا سياسيا؟».

ألح لاو - جون بصوت هادئ «اسمعي يا هسياو يي. ألا تريدين أن تصنفي على أنك متعاطفة مع الطلبة. لقد حذرت الحكومة مرارا من ذلك. كوني عاقلة وانضمي إلى الحزب. هناك ستستخدمين موهبتك بالكامل».

كانت كلماته اللطيفة والمهذبة تحذيرا واضحا. انفجار المظاهرات في أنحاء البلاد في ذلك الشتاء أعطت الحرس القديم الفرصة «لتنظيف البيت» وإزاحة المتراخين مع المتظاهرين وتشديد قبضتهم على المواطنين العاديين. كانت هناك تحذيرات صريحة على الصفحات الأولى من الصحف الرئيسية مدعية أن تأييد التحديثات الأربعة ليس كافيا يجب على جميع الصينيين

أن يساعدوا في الكفاح ضد «التلوث الروحي». أرسلت مع مجموعة من زملائي في الدائرة إلى دورة دراسية سياسية لمدة أسبوعين في النادي الدولي، حيث جرى تنظيمنا في مجموعات لقراءة الوثائق ومقالات رؤساء التحرير والبحوث السياسية وبالطبع مناقشتها بكل إخلاص.

يا لها من مفارقة أن يصل بيل بعد ذلك بأسبوع في وسط الحملة الثانية، حملة «المعركة ضد التلوث الأصفر» النفوذ الغربي وطريقة حياته الهابطة. ذكرت نسبة الطلاق المتزايدة في الصين - التي نشرتها الإحصاءات أخيرا - كمثال على تآكل الأخلاق الاشتراكية. وككل «شيء سيئ» آخر في الصين تقريبا وضع اللوم على النفوذ الغربي وفساد الأخلاق الحتمي الذي رافقه.

كنت قد خططت أن أقابل بيل في المطار، ولكن أفراد مكتبي سيكونون هناك في استقبال أحد الوفود، ولذلك ذهبت مباشرة إلى فندق الشيراتون. أظهرت بطاقة دائرتي إلى البواب وبصورة رسمية صافحت بيل الذي تراقبه عيون كثيرة. وفي أثناء انتظارنا للمصعد، أشار بيل إلى كاميرات فيديو عديدة موجهة نحونا. كنت قد قرأت وسمعت عن تقارير «مظفرة» كثيرة نتجت عن غارات على الفنادق كالشيراتون. كان عدد من النساء والرجال خلف الحواجز تسميهم الصحف عاهرات وتشهر بهم لتدميرهم سمعة الصين أمام العالم.

وكما في رسائلنا خلال الأشهر الماضية، أظهرنا تحفظا عظيما في غرفته في الفندق. كنا حذرين من خطر العلاقات الوثيقة؛ فجلسنا وتحدثنا ننظر إلى حركة المرور تحتنا في الشارع القليل

الإضاءة. وكان موظفو الفندق الفضوليون دائما يقاطعوننا بقرعهم على الباب محضرين أولا قوارير الماء الساخن ثم أكياس الشاي ثم الفناجين، وبعد وقت قصير عرضوا علينا طي السرير. بدا واضحا لي أن وقت المغادرة قد حان. كانت الساعة قد جاوزت العاشرة، وهو الوقت الذي حدده مكتب أمن المدينة، الذي يحكم مواعيد الزوار من الصينيين للفنادق المفتوحة للأجانب.

وفي اليوم التالي وباستخدام إجازة ساعات العمل الإضافية المتراكمة طلبت من لاو - جون إجازة يوم إضافي لزيارة مدرسي الكندي. بملء إرادتي قدمت له اسم بيل واسم الفندق مع علمي التام بأن لاو - جون سيتأكد من ذلك ويكتشف أنني قلت له الحقيقة ويتناسى الموضوع، كنت على حق. خلال زيارته للمدينة التي استغرقت ستين يوما استمر بيل بتغيير الفنادق أربع مرات لكي لا يراني أحد أزور الفندق نفسه يوما بعد يوم. عندما كان يغادر أحد الفنادق، كان عليه أن يذكر محل إقامته التالي، وكان عادة يذكر اسم فندق لا ينوي المكوث به - يركب سيارة أجرة إلى هناك وينتظر قليلا ثم يركب سيارة أجرة أخرى ليخفي وجهة سيره.

حاولت أن أراه قدر الإمكان، بل افلحت في رؤيته مرة ليوم بكامله تقريبا، بينما لم أتمكن من رؤيته في أوقات أخرى لأكثر من ساعة أو ساعتين كل مرة. قبل أن يغادر بليلة واحدة سألني ما إذا فكرت في السفر إلى الخارج للدراسة. كان كل منا يعرف ما يعني ذلك. فالصيني لا يستطيع الحصول حتى على جواز سفر ناهيك عن مغادرة البلاد. والطريقة الوحيدة لمغادرة البلاد هي

الدراسة في الخارج. قلت له نعم - أريد أن أكون معه وأردت أن أترك الصين. ولكني لم أقل إن ذلك شبه مستحيل بالنسبة إليّ، فالذهاب إلى بلد آخر للدراسة متاح فقط لأبناء الأشخاص المتنفذين أو ذوي الصلات أو الأقارب وراء البحار، وللأشخاص ذوي الميول السياسية «الصحيحة». أرسل كل المترجمين في دائرتي تقريبا ما عداي «إلى الخارج» للدراسة على حساب الحكومة، لكنني ما زلت غير منتسبة للحزب الشيوعي وزادت الاتهامات الأخيرة لي الأمور سوءا.

كانت الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها الدراسة في كندا هي أن تقبلني جامعة كندية مجانا مع الإقامة والطعام، بكلمات أخرى أن أحصل على منحة دراسية عالية. أما الدعم الخاص فلم يكن مقبولا من وحدة عملي. كنا نعلم أنا وبيل أن ذلك شبه مستحيل.

بعد مغادرة بيل أصبت بارتفاع شديد في الحرارة استيقظت في الليل والنهار وأنا مبللة بالعرق من الكوابيس أو الاشتياق المؤلم لبيل وحبه. شعرت بصورة أقوى من أي وقت آخر أن مشاعري تجاهه شيء لا يستطيع أحد حرماني منه.

لم يضع بيل أي وقت. سرعان ما تلقيت رسالتين من جامعتين في تورنتو تصفان برامج دراساتهما العليا. تضمنت كل مجموعة معلومات ميزانية تكاليف المعيشة للطلاب الأجانب. وتأكدت أسوأ مخاوفي. فالمطلوب أكثر من ١٥ ألف دولار، لذلك وجدت الأمر مستحيلا ولا أمل يعقد عليه. وضعت الرسائل جانبا وتابعت روتيني اليومي أشغل نفسي وأحاول النسيان.

من بين كل ما مررت به من أحداث في مهنة الترجمة، وكل من قابلتهم من ملوك وملكات ورؤساء وموظفي حكومة ووجهاء كانت زيارة ولي عهد تايلاند أهم ذكرى على الإطلاق.

جاء فريقه المتقدم في أوائل ١٩٨٧، مباشرة بعد رأس السنة الجديدة، وكان المقرر أن يصل هو في الربيع. ولما كان التواصل بين التايلانديين والصينيين يحدث باللغة الإنجليزية فقد ألحقت بالمجموعة. كان الأمير مهذبا، وإن كان متكبرا، وفي مثل عمري، وكان يحب تمارين الركض كل يوم. اضطرت الحكومة لإخلاء منتزه هواي - هاي قرب فندق جين - جيانج من الناس وأحاطته بالحرس. ركضت معه ومع فريق حراسه واللاسلكي بيدي.

بعد ظهر أحد الأيام، بعد أن عدنا إلى الفندق ونحن نلهث من الركض، قابلت موظفين من معرض شنغهاي التجاري للفنون والحرف أتيا لقبض ثمن المواد التي اشتراها الأمير في اليوم السابق. أخذتهما إلى جناح الأمير وقرعت الباب. انفتح الباب ووجدت نفسي أحدق في أعلى رأس أصلع.

إنه رجل عجوز خادم للأمير وكان راكعا على ركبتيه. صدمني هذا المشهد الفكاهي فرجعت خطوة إلى الوراء. في داخل الجناح كان الخدم الذين يرتدون ملابس فضفاضة يجيئون ويروحون عبر الممر وكلهم على ركبهم. أريت البواب الفاتورة وأخبرته أنني أتيت لقبض المبلغ، وطلبت أن أتحدث مع ضابط الاتصال الذي عرفته من الفريق المتقدم.

تلا ذلك كثير من الكلام باللغة التايلاندية بين الأشخاص الراكعين. سمعت صوت الضابط والأمير ولكني لم أستطع

رؤيتهما. بعدئذ لوح لي الرجل العجوز لأدخل. تقدمت خطوة إلى الأمام فهز رأسه بعنف، مشيرا بأصبعه نحو الأرضية وساحبا كمي. أرادني أن أدخل على ركبتي.

ظننت أن الصينيين لم يعودوا يركعون. اختفى الركوع عند التحرير. وتخيلت نفسي أيضا وأنا أتعثر في أرجاء الممر ولم أستطع إخفاء ابتسامتي. هززت رأسي وعدت إلى الوراء وسلمت الفاتورة إلى الرجل العجوز وغادرت.

وبسبب ما حدث على يخت الملكة في الخريف السابق لم تكن لدي مخاوف من تسببي في خلاف دولي لرفضي الركوع. كانت الملكة ستقيم استقبالا على ظهر اليخت بريتانيا. وأرسل الوفد مع الدعوات رسائل تشرح البروتوكول المتبع لأن بريتانيا في نظرهم أرض بريطانية. ومن بين القواعد المتبعة قاعدة مفادها أنه يجب على المدعوات ارتداء ملابس طويلة تمس الأرض، ويجب أن ينحنين عندما ترحب بهن الملكة. أخبرنا لاو-لي رئيس دائرتنا أننا يجب ألا ننحني أمام الملكة. علق قائلا «قد يكون اليخت «بريتانيا» بريطانيا، ولكنه يرسو في المياه الصينية، والصينيون لا ينحون».



كان بيل في ذلك الوقت يشعر بالاحباط لتحطم آماله في تدبير منحة لي تساعدني على المجيء إلى كندا، فهو لم يكن يعرف أين يذهب للحصول على المال المطلوب من الطلبة الأجانب. وازداد شعوره سوءا عندما أخبرته عن عقبة أخرى. ليس

توافــر المال لديه مــا يهم فلـن توافق دائـرتي عـلى ذهابـي إذا كــان تمويلي من شخص كندي.

ونظـرا لتـزايـد أعـداد الطلبــة الصـينيين الـذين يدرســون في الخارج، أعدت الحكومة نظاما ثنائيا على مستويين فالفئة الأولى تتضمن الطلاب الذين توفدهم الحكومة، وهؤلاء تغطى نفقاتهم إمـا من وحـدات عملهم (أي الحكومـة) وإمـا يتمـتعون بمنح من حكومات أجنبية عن طريق اتفاقيات التبادل الثقافي أو البرامج الثقافية المشتركة. والفئة الثانية تتضمن الطلاب الذين يدرسون على حسابهم الخاص تحت إشراف الحكومة. وعليهم أن يبرهنوا أن لديهم منحة مقبولة أو دعمـا من قريب مبـاشر. ولا يسـمح بالدعم المالي الخاص المقدم من قبل أجنبي أو قريب غير مباشر.

صممت هذه القواعد لعرقلة محاولات المستعدين لبيع أي شيء «بدءا بروحهم وانتهاء بجسدهم» للحصول على دعم مادي من أولئك الأجانب المتعـفنين أو المسـتعـدين للانخـراط في النشاطات التجسسية مقابل المساعدة المالية. ولما كان طلاب الفئة الأولى تقريبا من أبناء كبار الموظفين، والفئة الثانية تتطلب المساعدة من أقارب مباشرين أغنياء، فإن النظام كالعادة كان ضد الأشخاص العاديين.

بعد رأس السنة ببضعة أسابيع كتب إليَّ بيل يخبرني بأن عائقا واحدا على الأقل قد أزيل، فقد اتصل بجامعة يورك في تورنتو ووجد شخصا مستعدا للمساعدة. في أواسط فبراير تلقيت رسالة من الدكتور لسدن رئيس كلية نورمان بيثيون يدعوني لقضاء سنة في جامعة يورك كباحثة زائرة لدراسة

الأدب الإنجليزي. سيسمح لي بحضور الدروس مجانا ولكن دون الحصول على وحدات معتمدة.

غمرتني الأخبار بالفرح. ولكن ما زالت هناك مشكلة نفقات المعيشة، ناهيك عن تكاليف السفر. فكرت للحظة بأعمامي في تايوان، ولكنني لم أكن أعرف حتى أسماءهم أو أماكنهم. بالإضافة إلى ذلك، فإن تعاملي مع التايوانيين سيجلب لي المتاعب.

حتى الآن لم أخبر أحدا بشأن آمالي، ولم أتحدث عن رسالة الدكتور لسدن، والغريب في الأمر أنني في تلك الليلة وجدت نفسي أقل انزعاجا من طريقة هاي - روي اللامبالية والتملكية في بيتنا. دائما اعتبرت نفسي مقاتلة، ولكنني انسحبت من المعركة للاستمتاع بنوع الحياة العائلية الذي أريده.

بعد أسبوع تلقيت رسالة أخرى من بيل. مع الرسالة وجدت طلبا لمنحة من منح تربويي أونتاريو للعلوم الإنسانية. ارتجفت يداي وأنا أقرأ المعلومات العامة والإرشادات. بدت المنحة مثالية لمن هم في وضعي، هدفها تشجيع ومساعدة الطلبة من البلدان النامية والأقل نماء، الذين يرغبون في متابعة الدراسات المتعلقة بالثقافة الغربية في السياق الكندي في مؤسسة تعليم عال في أونتاريو (كندا). تعطي الأفضلية لأصحاب الطلبات الذين يدعمهم «مدرسون تربويون داخل أونتاريو وانتهت بالقول إن مثل هذا الدعم ليس ضروريا». قرأت الأنظمة مرتين وأدركت أنني ألبي كل المعايير ولدي ميزة متمثلة في «دعم بيل»، لأنه كان مدرسا في مدارس أونتاريو الثانوية لسنوات. وبشعور متزايد بأن اليأس قد يتلاشى بدأت

أكتب المقالة المطلوبة لتقديم الطلب. قضيت عليها أياما كثيرة أطبع وأعدل وأخيرا أرسلتها.

في شهر مارس أتى إلى شنغهاي الحاكم العام لكندا جان سوفيه مصطحبا معه الوفد الوحيد الذي يتطلب مترجمين للإنجليزية والفرنسية معا، للعمل كفريق، نظرا لأن كندا رسميا بلد ثنائي اللغة. بالمقارنة مع الأمريكيين بدت الوفود الكندية - كبيرة أم صغيرة - أكثر تسامحا وأقل متطلبات. وبكلمات بسيطة، لم يسببوا لنا أي مصاعب. ولكن عندما كانت مجموعة الحاكم العام سوفيه على وشك الرحيل، أخبرني السكرتير الأول في السفارة الكندية في بكين - رجل يدعى ولسون - وهو هلع، بأنه ترك سلك آلته الكاتبة الكهربائية في الفندق. قال إن طائرتهم ستقلع قريبا ويعرف أنه لن يجد سلكا مماثلا في الصين. وتساءل إن كان بوسعي مساعدته.

طلبت الفندق وطلبت منهم أن يبحثوا عن السلك ويضعوه في سيارة أجرة ويرسلوه إلى في المطار. كنا نعرف أن الحاكم العام لن يؤخر رحيله من أجل سلك كهربائي، ولكن بدا أن الأمر يستحق المحاولة. أسرعت سيارة الأجرة فوق المهبط والركاب يصعدون إلى الطائرة. أمسكت بالسلك بيدي واندفعت إلى السلم وهو على وشك أن يفصل عنها. جرى السيد ولسون إلى درجات السلم وأخذ السلك وطبع قبلة مدوية على خدي طالبا مني أن أتصل به إذا احتجت يوما ما إلى أي خدمة.

كنت أعرف أنني سأوبخ من أجل القبلة، وجهزت نفسي لكلمات لاو - فو القاسية وأنا أهبط السلم للانضمام إلى الموظفين الذين لوحوا مودعين. ولكن قبل أن يبدأ لاو - فو نقده، امتدحني العمدة

جيانج لمساعدة ولسون، مضيفا أن القبلة على الخد تساوي مصافحة في الغرب. لاذ لاو - فو بالصمت.

كان العمدة جيانج جيه - مين قد تابع مسيرته ليصبح أحد أقوى الرجال في الصين. هأنذا قد سنحت لي الفرصة لأطلب خدمة من ولسون.

في زمن قصير جدا، أتى الجواب من لجنة المنح - مظروفا رقيقا من أونتاريو. خفت أن أفتحه. تنفست بعمق وسحبت الورقة الرقيقة. رسالة من رئيس المنح - ويليام تالبوت - أخبرتني أن طلبي للمساعدة المالية قد تمت الموافقة عليه - بمبلغ ٦٥٠٠ دولار، وهو المبلغ الذي تشترطه الحكومةالكندية لنفقات المعيشة. إذا كنت بحاجة إلى منحة سفر فيمكنني تقديم طلب لذلك أيضا. وأكدت الرسالة «إذا زادت الحكومة الكندية هذا المطلب فإن منحتك ستزداد تبعا لذلك». وجدت هذا التصريح حكيما، فقد هدأ مخاوف رؤسائي الذين ادعوا أن التضخم في البلدان الغربية في ازدياد.

كنت منقطعة الأنفاس تقريبا من الانفعال فنقلت النبأ والرسالة إلى لاو - فو الذي انتقدني مباشرة لتقديم طلب المنحة في السر. قال إن الأمر يجب أن يبحث على المستوى الأعلى بين مسؤولي الدائرة الخمسة الكبار (أربعة منهم لهم أبناء أو بنات أو أبناء أخ يعيشون في الخارج). كنت أول شخص من مكتبي تسنح له الفرصة ليصبح طالبا من الفئة الثانية تدعمه منحة اكتسبها بجهوده الخاصة. ذهبت إلى البيت وتماسكت لأخبر هسياو - جاو وهاي - روي أنني قد تسنح لي فرصة حقيقية للذهاب إلى كندا. صدمت

لأن كليهما هلل لأخباري المفاجئة. وهاي - روي الذي خرج عن طوره من الفرح عندما تقدمت بطلب إلى كلية الشؤون الخارجية قبل سنتين ونصف قفز الآن من مقعده وبسط ذراعيه من السعادة.

قال بجدية «لا تخافي على تشي منج. كانت رائعة عندما ابتعدت عنها في المرة الماضية وستكون الأمور أفضل الآن لأنها كبرت. في الحقيقة وفي رأيي الشخصي تصرفت بغيابك أفضل من تصرفها في وجودك.

التفت إلى هسياو - جاو. كان غير مبال كالعادة بوقاحة هاي - روي. ولم يظهر أي حزن لاحتمال تركه ثانية.

قال «هذا رائع. يمكنك أن تكوني رائدنا وتحصلي على الإقامة الدائمة في كندا. وبعدها أحضر تشي - منغ وهاي - روي للالتحاق بك عندما تستقرين. سمعت أن الحياة في كندا هي واحدة من الأفضل في العالم، أسهل مما يمكن لأي منا أن يتصور.

في اليوم التالي ذهبت إلى مكتب المدير، والهواجس تنهشني، لأعرف ما اتخذ من قرار بشأني، واكتشفت أن منحتي أصبحت قيد التحقيق. أرسلت الدائرة «تلكسا» إلى السفارة الصينية في أوتاوا للتحقيق في خلفيات منحة «تريويي أونتاريو للعلوم الإنسانية»، وليعرفوا ما إذا كانت لها أي علاقات مع تايوان. أخبرني نائب مدير المكتب - جو - أن ذلك إجراء ضروري، ذلك أن حكومة تايوان حاولت مرارا تجنيد الطلبة الصينيين للتجسس لحسابها بتقديم منح دراسية لهم. حاولت كبح غضبي. كان أمرا حسنا أنني لم أحاول الحصول على مساعدة عمومتي التايوانيين.

في نهاية شهر مارس وصلت الوثائق المطلوبة لطلب التأشيرة. بدا أن كل شيء يسير علي ما يرام، ولكن الروتين الحكومي - كالعادة - ما زال وفيرا.

في الوقت نفسه قررت أن أرتب بيتي قبل مغادرة الصين. شيئان يجب إنجازهما. الأول هو استخدام نفوذ دائرتي لنقل هسياو - جاو من مقصف رصيف الفحم إلى مكتب ادارة الميناء، وهو الهدف الذي عمل من أجله جاهدا لفترة طويلة سواء بشراء الهدايا أو دعوات الغداء للأشخاص المناسبين، وبالتصرف «السياسي الصحيح» قدر الإمكان كعضو حزبي جديد. كنت، لدى عودتي من سان فرانسيسكو، قد حضرت عدة ولائم أقيمت للأمريكيين من تلك المدينة وخصوصا المعنيين بأمور الميناء. وترجمت للمسؤولين من مكتب ميناء شنغهاي. ذهبت لمقابلة نائب المدير وأخبرته عن هسياو جاو وطلبت مساعدته. بعد أسبوعين، استكمل نقل هسياو جاو.

كانت رغبتي الثانية هي زيارة قبر والدي. قبل شهرين كتبت لي خالتي يي فنج تخبرني أنها توصلت أخيرا إلى اتفاق مع العائلة التي تفلح الأرض حيث دفن والداي. فنحن، مقابل دفعة مقدمة قدرها ٢٠٠ يوان ورسم يبلغ ١٠٠ يوان تدفع سنويا فيما بعد، سيسمح لنا بتحديد مكان القبر وإعادة بنائه. أما المبلغ الباهظ فهو تعويض للمزارع عن المنتجات التي سيخسرها.

مضت خمس وعشرون سنة على دفن والديّ واثنتان وعشرون على دفن والدتي وما زلت أشعر بالذنب لأنني لم أشق طريقي للخروج من القطار في ووهسي أثناء الرحلة العظيمة عام ١٩٦٦. وهكذا قررت وأختاي أن نذهب إلى تشينج يانج لاحتفال التشنج

مينج في ربيع ١٩٨٧. لم يشأ هسياو - جاو الذهاب - قال إنه يجب ألا يترك عَمله الجديد. لم أكترث طالما ذهبت معي تشي - منغ. أردت لابنتي أن تؤدي فروض الاحترام لجدها وجدتها وتتذكر من أين جاء أجدادها وأجداد أجدادها.

تشينج يانج لم تتغير كثيرا - ما زال الطريق الترابي هو نفسه عبر المدينة وعلى جانبيه المباني الهرمة نفسها. استبدل ببيت جدي ومتجره مسرح جديد من الآجر مؤلف من طابقين، تساءلت ما إذا كان رماد أجدادي قد دفن تحته.

غادرنا المدينة وذهبنا إلى قرية عائلة وانج حيث تعيش الخالة يي - فنج، عابرين الريف مشيا صفا واحدا عبر سدود الأرز الضيقة. اغرورقت عيناي بالدمع وأنا أتذكر إصرار والدتي على المشي علي الطرقات، بدلا من الممرات المرتفعة في سبخات الأرز وهي عائدة إلى شنج - ينغ بعد أن كدت أغرق في النهر في أحد أيام الشتاء، عندما كنت فتاة صغيرة. كم تمنيت أن أستطيع إخبارها أنني أم الآن.

أثقلت علي أعباء الأسرار التي لم أستطع أن أشارك فيها حتى أختي، على رغم أننا تحملنا الكثير معا عبر السنين. لم أستطع أن أتصور رد فعلهم لو أخبرتهم أن هناك فرصة جدية للتخلي عن زواجي من هسياو - جاو والإقامة في كندا لبقية حياتي. لم يكن أحد يعلم عن علاقتي مع بيل، فنحن البنات الثلاث قلما تحدثنا عن حياتنا الزوجية. لقد نشأنا كما نشأت أمهاتنا وجداتنا تزوجت الشخص الأول الذي تواعدت معه والتزمت بهذا الزواج، سواء نجح أم لا، وخصوصا بعد إنجاب الأطفال. قد تكتب الصحف عن

الازدياد في نسبة الطلاق، ولكن لم تعرف أي منا امرأة وضعت نهاية لزواجها بنفسها. تساءلت ما الذي ستظنه أختاي بي لو أخبرتهما عن رغبتي في الحصول على حريتي ولو كان الثمن حرماني من رؤية تشي - منج لفترة من الوقت.

بقيادة خالتي - يي - فنج، وجدنا القبر المقام حديثا قرب القناة، محاطا بالزروع الخضراء والأزهار الصفراء. حدقت في سطح الربوة الطيني الثقيل الذي علا القبر، وتمنيت لو استطاع والداي أن يسمعاني ويساعداني في محنتي. كل أولادهم نجوا من خضم مرير من الكوارث الإنسانية، ولكن آه - سي (الابنة الرابعة) مستعدة الآن لتنشر جناحيها. أمسكت تشي - منج بقوة وعاهدت نفسي أن شاهد قبر طويلا سينتصب هنا حالما أستطيع توفير بعض المال لأرسله إلى خالتي يي - فنج.

في تلك الليلة جلست وأختاي في السرير مع عمتي وتحدثنا حتى بزغ الفجر وابنتي نائمة إلى جانبي. أثناء ذلك الحديث الطويل سمعت للمرة الأولى عن زواج والديّ وتقلبات حياتهما وكيف أتت العمة الكبيرة إلى العائلة - وهي الحكايا التي تحجب تقليديا عن الجيل الأصغر. أزحت بالفرشاة خصلة من الشعر عن جبين تشي - منج المبلل، وفكرت أنه لن يكون هناك ابنتي بقصتي إلا أنا. وأكثر من أي شيء آخر أردت التأكد من أن تشي - منج لن تضطر إلى أن تعيش الحياة التي عشتها. قد يكون ذهابي إلى كندا خطوة كبيرة في هذا الاتجاه.

بعد حوالى الشهر انتهى ما يسمى التحقيق في المنحة الدراسية، وذلك عندما أرسلت القنصلية الصينية في تورنتو

«تلكسا» إلى دائرتنا تقول فيه إن هناك منحا لا تحصى في كندا وليس من الممكن تحريها كلها. أخبرني لاو - جون أن كل شيء يبدو على أحسن حال ولكن لم تتم الموافقة النهائية بعد.

«هسياو يي، أريد مساعدتك وأنا أقول لك أن الأمور ستتم بسهولة أكبر إذا أظهرت رغبتك في الانتساب إلى الحزب».

قدمت طلبي في اليوم التالي.

بعد أسبوع من احتفالات الأول من مايو استدعيت لمقابلة المديرة جو. طلبت مني أن أجلس وناولتني وثيقة الموافقة على ذهابي إلى كندا. شعرت بالارتياح إلى درجة الخدر. بعدما تحدثت إلي بشكل رسمي وحثتني على الدراسة الجدية وعدم خذلان الدائرة، أردفت بحذر أنها تتمنى أن أساعد أختها في الحصول على منحة «تربويي أونتاريو للعلوم الإنسانية» في العام التالي. قالت إنها ستجهز خلاصة لسيرتها الذاتية لآخذها معي. اختلفت نبرتها وطريقتها عما كانت عليه قبل بضعة أسابيع عندما كانت قلقة من أن تكون المنحة مؤامرة تايوانية.

كانت ردة فعل العمة الكبيرة على خططي متوقعة.

سألتني قائلة «لماذا تريدين الذهاب إلى بلاد تقول لي السيدة يان إنهم لا يشاركوننا حتى تقويم النهار والليل؟ كل حياتك أردت أن تكوني مع عائلتك. لماذا التغيير»؟ نظرت مباشرة إلى عيني. «هل هناك أي سوء تفاهم بينك وبين هسياو جاو؟ وماذا يحدث لتشي - منج؟ لقد تركتها بين يدي رجلين لفترة طويلة وهي بحاجة إليك يا آه - سي».

لسعتني كلماتها. تمنيت لو أستطيع أن أفاتحها بمتاعبي ومخاوفي كما كنت أفعل عندما كنت طفلة صغيرة. ولكن ذلك انتهى عندما أرسلت إلى مزرعة السجن. لم تعرف أبدا كما لم يعرف أي فرد في عائلتي حتى ولا هسياو - جاو تفاصيل استجوابي هناك ومحاولة انتحاري. تساءلت عن فائدة إخبارها بأسراري الآن؟ وكيف أستطيع أن أكشف عن أسباب رغبتي في مغادرة البلاد والعيش في كندا؟

في الأسابيع القليلة التالية كنت كالنحلة في الريح أطن جيئة وذهابا بين المكتب والبيت ومستشفى الشعب رقم واحد في شنغهاي. أجريت لي فحوص طبية من الجبهة إلى أظافر أصابع القدم، وانتظمت في الصفوف ساعات طويلة لأملأ المربعات المخصصة للطلبات المختلفة، ومشيت من غرفة إلى غرفة لكي أضغط وأعصر وأضرب بالمطرقة على مفاصلي - كل ذلك لإرضاء حكومتين أرادت كندا التأكد من أنني لست حاملا، وأرادت الصين أن تتأكد أنني لست مصابة بمرض الزهري، وهو مرض معيب يجعل بلادي تفقد ماء وجهها.

سُئِلت عن بطاقة سفري وأُخبرت أنني لن أحصل على جواز سفر قبل أن تكون بحوزتي بطاقة اجعلي البطاقة ذهابا وعودة لتثبتي أنك عائدة حسب البرنامج. اعترتني الدهشة. وصل جواز السفر وإن كان في وقت متأخر بعض الشيء للحصول على التأشيرة في الوقت المحدد.

اتصلت بالسيد ولسون في السفارة الكندية في بكين. لحسن الحظ أنه تذكر شريط الآلة الكاتبة الكهربائية وأصدر التأشيرة.

وأخيرا كان كل شيء جاهزا. ولكن الحذاء الصغير ما زال يؤلم.

استدعيت مرة ثانية إلى القسم السياسي وقيل لي أن علي أن أوقع عقدا مع دائرتي التي تمثل الحكومة ينص على أنني إن لم أعد في نهاية السنة، فأغرم ٢٥٠٠٠ يوان - أكثر من راتب ست وعشرين سنة! زلة لسان من لاو - ليو أفصحت أنه العقد الأول من هذا النوع في دائرتي، مصمم لي خاصة لأنني لست عضوا في الحزب، رغم أنني كنت قد تقدمت بطلب الانتساب.

سألت وأنا غاضبة لدرجة لم أستطع السكوت «كيف احتسبتم هذا المبلغ؟ هل الرقم يعتمد على معادلة معينة؟».

ابتسم لاو ليو وقال «ماذا يهم الآن؟ إنه المبلغ الذي ورد إلى ذهني. إنه لا معنى له، أليس كذلك؟ مجرد نظرية، لأنك عائدة. إننا جميعا متأكدون من ذلك. كان بإمكاني أن أضع مليونا».

غادرت بالسرعة الممكنة قبل أن يغير رأيه. طبعا، لم يكن توقيعي كافيا، بل تعين أن يوقع قريب مباشر أيضا. في تلك الليلة بعد أن غادر هاي - روي أخبرت هسياو جاو عن العقد.

قال ولدهشتي «لا أعتقد أن من الحكمة أن اوقع العقد يا آه - سي. أولا، أنت تعرفين جيدا أن الغرامة تعني كل ما وفرناه. وقد تصل الحكومة إلى شقة أهلي الجديدة. وأيضا إذا وقعت فلن أستطيع المجيء إلى كندا».

لم أزعج نفسي بتذكيره أن نصف ادخاره على الأقل قد أتى من مساهماتي. وتابع قائلا «لماذا لا تطلبين من إحدى أختيك؟ إنهما قريبتاك بالدم. والأهم من كل ذلك أنه ليس لديهما سوى القليل من المال».

أسكته قبل أن يتابع وركبت دراجتي إلى بيتي الحقيقي.

عرضت العمة الكبيرة في الحال أن تذهب معي إلى المحكمة «وتبصم» لأنها لا تعرف الكتابة. أخبرتها بأنها لا تستطيع لأن أقرباء الدم فقط هم المخولون بذلك.

قالت أختي الخامسة بهدوء «سأقابلك في مكتب محكمة المحافظة غدا في الساعة الثانية بعد أن انتهى من العمل. يا آه - سي! أنا وزوجي لا نملك الكثير من المال ولا أي ممتلكات. فإذا حان الوقت تستطيع الحكومة أن تأخذ ما تريد. لقد مررنا بمثل هذه المحن من قبل. وبالإضافة إلى ذلك، لا أصدق أن الشيوعيين سيرموننا في الشارع».

فيما بعد، عندما كنت أغادر، انتحت بي جانبا وقالت «يا آه - سي، لا تخافي. فلولاك لكنت ما زلت في المزرعة بلا زوج ولا طفلة».

في اليوم التالي بعد أن وقعنا العقد ووقفنا خارج قاعة محكمة المحافظة، أمسكت بيدي الاثنتين. أشارت ثانية إلى مساعدتي لها للهروب من المزرعة، وقالت «أشعر بأنني في حالة أحسن الآن يا آه - سي لأنني استطعت للمرة الأولى في حياتي أن أساعدك».

لم أدرك إلا فيما بعد عندما توافر لي الوقت لاستعراض كلماتها لي، أنها شعرت بأنني لن أعود.

في اليوم الثالث عشر من شهر أغسطس ١٩٨٧ استيقظت للمرة الأخيرة في شقتي وابنتي الصغيرة بين ذراعي. كان يوماً حاراً ودبقا. وصلت أختي الثالثة- في الليلة السابقة، وبقينا مستيقظين معظم الليل ولكننا لم نتحدث كثيرا. في الصباح تبادلنا قبل الوداع. كان عليها أن تغادر باكرا لتلحق بالحافلة إلى

سونج - يانج. اقترح هاي - روي أن يأخذ تشي - منج إلى أحد المتنزهات ليسهل الفراق وبالتالي قلت لها وداعا في بيتنا.

كررت المرة تلو الأخرى سأراك قريبا. وأنا أمسح دموعها وأحبس دموعي. وبدا أنها الوحيدة التي لم ترد أن أذهب.

بعد أن صعدت إلى متن الطائرة التابعة للخطوط الجوية الكندية نظرت من النافذة إلى شنغهاي وتذكرت آخر لقاء لي مع العمة الكبيرة. ذهبت لأراها بعد تسجيل تشي - منج في المدرسة الابتدائية المحلية، والذي كان عملية طويلة ومعقدة. عندما أخبرت العمة الكبيرة أنني نجحت أخيرا في تسجيل تشي - منج في المدرسة القريبة الوحيدة التي تقدم غذاء للطلبة، أمسكت يدي بيديها لفترة طويلة جدا. سالت الدموع من عينيها المتجعدتين. «إنك جاهزة يا آه - سي للابتعاد لفترة طويلة جدا، أليس كذلك؟ لم تنتظر جوابي. «لا تخبريني. أنت لست مضطرة إلى ذلك. كل ما أريدك أن تعرفيه هو أنني سأنتظرك هنا. ويا آه - سي، إنك تستحقين أي خير يأتيك، وخصوصا السعادة».

تابعت هز رأسي وأنا أجهش معها في البكاء. لم أستطع أن أتكلم. لم أعرف كيف أشرح لها لماذا تغادر الآن لفترة طويلة فتاتها الصغيرة التي اعتنت بها منذ أن كان عمرها عشرة أشهر والتي عادت إليها بعد عشر سنوات من الفراق. جلست معها في الغرفة التي تقاسمتها معها طوال حياتي وراقبت تشي - منج تلعب مع ابنة الأخت الخامسة لين - لين. بذلت أقصى جهدي لكي أريح هذه السيدة العجوز ذات الشعر الأبيض، التي كرست حياتها لعائلة ليست من دمها.

قضيت وتشي منج الأيام القليلة الأخيرة مع العمة الكبيرة ننام نحن الثلاث في سرير واحد. وببركاتها في قلبي لم أشعر بالذنب تجاه مغادرتي لابنتي. أصبح واضحا الآن أنني سأفعل ما لم يفعله أحد من عائلتي. قالت العمة الكبيرة دائما إنني مختلفة عن الآخرين.

وعندما استعددت لمغادرتها للمرة الأخيرة أخذتني جانبا وقالت «يا آه - سي، لا تقلقي بشأني وشأن ابنتك. لم تتمتعي بحب الأم وأنت تكبرين، ولكنها تمتعت به. لا تشعري بالضيم. عندما تكبر ستفهم تشي - منج أنها محظوظة لأن لها أما مثلك».

ولدهشتي أمسكتني وعانقتني وهي تحيطني بذراعيها - لأول مرة في حياتي أظهرت لي عمتي هذه المشاعر. ثم عرجت إلى غرفتها وأغلقت الباب.

وعندما هبطت السلم وأنا أمسك بيد تشي - منج لأمشي في جادة أشعة الشمس الأرجوانية كنت أفكر فيما قالته العمة الكبيرة، إنني كبرت من دون أن أعرف حب الأم. كم كانت مخطئة!

خاتمة

أكتب هذه الخاتمة وأنا مع بيل.

بدأت حياتي الجديدة في سن الخامسة والثلاثين - عندما يكون الناس عادة قد استقروا وانتهوا تراودني الهواجس فبينما لم تكن لدي أي شكوك بشأن ما تركته خلفي، لم أكن متأكدة أبدا مما سيأتي. عرفت بيل لفترة قصيرة. كنت أعرف أنه يحبني وأنني أحبه، ولكنني كنت مدركة بصورة جارحة أن الحب تختبره الظروف.

هل سيقبلني أهله - غريبة من عرق وثقافة مختلفتن - هل سيعاملونني بالحسنى؟ هل سيقبلني أولاده؟ هل أستطيع التكيف مع مجتمع يختلف بشكل كبير عن عالمي، رغم جاذبيته الواضحة؟ هل استطيع الحصول على عمل بحيث لا أصبح عبئا على أي كان؟

وماذا سيحدث إذا عانيت إخفاقا آخر؟ كيف أستطيع العودة إلى الصين، إلى هسياو جاو، وإلى حياتي التعيسة؟

لم يكن الانتقال صعبا بقدر ما تصورته. عندما دخلت إلى بقالة في تورنتو للمرة الأولى، طفقت أبكي حيث أذهلتني كمية الطعام وحجم المواد الموجودة على الرفوف. عجزت عن الكلام عندما أدركت أن بطاقات التقنين ليست مطلوبة.

في جامعة يورك استغرقت وقتا طويلا قبل أن أتمكن من الاشتراك في المناقشات الصفية. وجدت نفسي أحبس أنفاسي

عندما كان الآخرون يعبرون عن أنفسهم بحرية، يتحدون المدرسين وحتى ينتقدون الحكومة والسياسيين المشهورين.

بعد أن قابلني بيل في المطار في تورنتو بوقت قصير عرفت أن المنحة التي حصلت عليها من اختراعه وأن عنوان المراسلة هو بيت أخته وأن رئيس الصندوق الذي يهنئني هو أفضل صديق له - مدرس لم يترك توقيعه المكتوب بالخط العريض بقلم أسود ذي رأس من اللباد أي شك لدى زعمائي الشيوعيين حول مصداقية المنحة. المال أتى من حقوق كتاب بيل. لم يكن يستطيع أن يخبرني أن المنحة مفصلة لشخص واحد خوفا من أن يكتشف ذلك موظفو البريد. (الوثائق الخاصة بالمنحة منسوخة في الملحق).

عندما وصلت الأخبار في النهاية إلى دائرتي بعد سنتين أنني لن أعود إلى الصين، استدعيت أختي الخامسة للظهور في المحكمة. لم تستجب للطلب. وعندما سألتها عما حدث أجابت «لا شيء يا آه - سي، لا تقلقي».

الآن، ووفاء بوعد قطعته على نفسي، ينتصب شاهد قبر جديد أمام لحد والدي جانب القناة قرب تشنج يانج. كل ما أتمناه من كل قلبي ألا يسقط الشاهد ثانية. - هذا النوع من الأمل الذي لا يشارك فيه الصينيون فقط بل جميع البشر في العالم، لأن شاهد قبر منتصبا هو رمز الاستقرار.

لم أر العمة الكبيرة ثانية بعد أن غادرت شنغهاي ذات يوم من أيام أغسطس الحارة، فقد توفيت في شهر مايو ١٩٨٩ بعد أن عادت لتعيش أيامها الأخيرة في قرية عائلة تشن بوقت قصير. أخطرت بموتها بعد أسبوعين من الحدث. كم أتمنى لو بقيت العمة الكبيرة

على قيد الحياة لكي أخبرها كم كانت مخطئة عندما قالت إنني نشأت بعيدا عن حب الأم. فطوال حياتي - سواء عندما كنت أعيش في البيت أو بعيدة عنه - استمتعت دائما بحبها، الحب الذي يضاهي ذلك الحب الذي تمنحه أي أم.

دفن رمادها في قرية عائلة تشن - المكان الذي نفيت منه -لأنها كان ينظر إليها على أنها امرأة ملعونة بالحظ الأسود. آمل أن تكون قد أدركت قبل أن تموت أن الفتاة التي قالت إنها ستعيش حياة صعبة لأنها ولدت في سنة التنين هربت أخيرا من المصاعب.

عندما انفصلت عن هسياو جاو انتقم مني وجعل ابنتنا رهانا له. فهو لم يكن يقدر أن يتحمل أن يرى امرأة سلمته في يوم من الأيام وبمنتهى الإخلاص كل ما كسبته حتى آخر بنس تقريبا، وارتدت الملابس نفسها التي اشتراها لها منذ يوم زواجهما وقد أدارت له الآن ظهرها. لهذا لم يكن ليسمح لتشي - منج أن تزور أيا من أفراد عائلتي، كما منع عليهم الاتصال بها. كل رسائلي إليها أعيدت ممزقة قطعا قطعا. في شهر يوليو ١٩٩٤ عدت إلى الصين كمواطنة كندية لمجرد أن أنعم برؤيتها، وعندما علم أنني في المدينة، اندفع هاي - روي بغضب إلى شقة أختي الصغرى - المكان الذي ترعرعت فيه، وطلب منها أن تحذرني لكي أتوقف عن البحث عن مكان تشي - منج. وأكد لها أن آه - سي لن ترى ابنتها ثانية.

ذهبت إلى المدرسة الصيفية، حيث كنت أعرف أن تشي - منج تحضر دروس اللغة الإنجليزية. لم تكن هناك، ولم تسمع المدرسات باسمها. فقط عندما سمعت إحدى التلميذات لقب ابنتي، منج -

منج، قالت إنها تعرفها، اكتشفت أن تشي منغ تذهب إلى تلك المدرسة ولكن والدها غير اسمها لكي لا أستطيع تعقبها.

لمدة ثلاثة أيام متعاقبة كنت أذهب إلى شارع هسيزانج، إلى مجمع الشقق السكنية، حيث كنت أعيش عندما كنت متزوجة، وأقف على جانب الطريق آملة أن أنعم بلمحة لابنتي. لم أكن اجرؤ على أن أطرق الباب، ذلك أن هسياو جاو كان قد أخبر أقاربي بأنه سيضربني ويضرب تشي - منج إن أتيت لرؤيتها في منزلنا السابق. في اليوم الثالث رأيتها واقفة في الشرفة الأمامية. لوحت بيدي. غير أنها ما إن رأتني حتى جرت إلى الداخل. بعد بضع دقائق خرج هسياو - جاو يبحث عني؛ بعدها ركب هسياو - جاو وتشي - منج على دراجتيهما وأسرعا مبتعدين، وعندما جريت على الرصيف خلفهما تذكرت ذلك اليوم البعيد عندما أسرع أخي الكبير بجنون بجانب الحافلة التي ستأخذني إلى مزرعة السجن - مادا يديه ومناديا اسمي. وقبل أن أستطيع الوصول إليها، تبعت تشي - منج والدها لتختفي وراء زاوية الطريق وتبتلعها حركة السير. لم أرها لمدة سبع سنوات. كم هي جميلة وطويلة ونحيلة!

بعد تلك الحادثة انتقل هسياو جاو من المنزل دون أن يترك أي عنوان، وعندما قام أحد الأصدقاء ببعض التحريات في مخفر الشرطة المحلي، علمت أن هسياو - جاو قد رشا أحدهم هناك لحذف بعض المعلومات من ملفنا. يقول السجل الآن إنني امرأة عزباء كانت تعيش وحدها في تلك الشقة قبل أن تهاجر إلى كندا. بدا كأن البيت الذي تقاسمته مع زوجي وابنتي - وهاي روي - لم يكن له وجود أصلا. كانت العمة الكبيرة دائما تشكو لاعتقادها انه

قدر عليَّ أن أعيش حياة نضال وألم. إنها على حق. ولكنني - بحبها ومساندتها ومساعدتها وأحيانا مساعدة الآخرين وتصميمي - نجوت من الريح القارسة. إنني حرة الآن. لا أحد يرقبني من علٍ، ولا أحد يرفع تقارير بحقي المسؤولي الحزب يُفَصِّل فيها تحركاتي وأنشطتي. لا أحتاج إذنا من أي أحد للسفر إلى أي مكان. لي أفكاري الخاصة أعبر عنها وأدونها بمنتهى الحرية. لقد تلاشت كوابيس كنت أرى فيها والدتي وقد هربت إلى جزيرة نائية لتتحاشاني. توقفت تلك الكوابيس بمجرد أن بدأت في كتابه هذه القصة. ومع هذا لا تزال أمامي عقبة كأداء آمل أن أتغلب عليها. أتمنى أن وأجد مكانا لي ثانية في حياة ابنتي كي تكون أيضا حرة مثلي في يوم من الأيام.

أوريليا، أغسطس ١٩٩٦

المؤلفة في سطور

تنغ - هسنغ يي

- ولدت في مدينة شنغهاي عام ١٩٥٢ بالصين.
- ترعرعت في منزل أبويها مع إخوتها الأربعة ومع عمتها الكبرى.
- أرسلت إلى مزرعة سجن العمال في مقاطعة يانجسو، حيث تمكنت من دراسة اللغة الإنجليزية، والتقت أيضا بهسياو - جاو الذي أصبح زوجها فيما بعد.
- انتسبت إلى جامعة بكين عام ١٩٧٤، وبعد أربع سنوات تخرجت وانتدبت للعمل مترجمة لدى حكومة شنغهاي.
- في أثناء فترة الدراسات العليا في كلية الشؤون الخارجية في بكين، التقت مدرسا كنديا يدعى «بيل»، الذي أحبته وساعدها على الهروب من الصين بعد أن وفر لها فرصة الحصول على منحة في جامعة يورك في تورنتو.
- رجعت في عام ١٩٩٤ إلى مسقط رأسها في شنغهاي لتبحث عن ابنتها من زوجها السابق.

المترجم في سطور

عبدالهادي عبلا

- ولد في عام ١٩٣٦ بسوريا.
- حاصل على بكالوريوس في الفنون من جامعة ليفربول عام ١٩٦٢.
- حصل على شهادة مترجم محلف عام ١٩٨٣، كما عمل مدرسا للغة الإنجليزية في الجمهورية العربية السورية والمملكة العربية السعودية.
- له عدة ترجمات منها: «الخيام السوداء» و«حركات التحرر الوطنية» و«التاريخ السياسي والاقتصادي للشرق الأدنى في العصور الوسطى».

المراجعة في سطور

د. ليلى المالح

- من مواليد عام ١٩٤٧ في سوريا.
- حازت درجة الدكتوراه في حقل اللغة الإنجليزية من جامعة لندن عام ١٩٨٠.
- تعمل حاليا أستاذا مشاركا في جامعة الكويت وترأس فيها قسم اللغة الإنجليزية، وتعد أيضا مترجمة فورية في العديد من المنظمات الدولية المرموقة مثل: Unicef, Fao, Unrwa.
- لها عدد كبير من المؤلفات والترجمات والأبحاث: «القصة الزنجية» وهو بحث في الرواية الأمريكية، وترجمت ديوان عبدالوهاب البياتي إلى اللغة الإنجليزية ولكنه لم ينشر بعد.

إبداعات عالمية

343

ورقة في الرياح القارسة

تقدم سلسلة «إبداعات عالمية» رواية من السيرة الذاتية تدور أحداثها في الصين، تذكر كاتبتها تنغ - هسنغ يي الأحداث التي مرت بها منذ نعومة أظفارها حتى هربها إلى كندا، طلبا لحياة أفضل.
ويصف هذا العمل الأدبي الضخم حياة امرأة بذلت كل ما في وسعها كي تحمي نفسها وإخوتها وزوجها من الرياح التي عصفت بالصين إبان الثورة الثقافية وما تلاها من آثار بعد وفاة ماو، دافعة في مقابل ذلك ثمنا غاليا.
الجزء الأول عنوانه «رياح الدموع»: تبدأ فيه الكاتبة بذكر سبب ومعنى اسمها وترسم لنا صورة دقيقة عن وسطها الاجتماعي الذي ترعرعت فيه، وهو وسط بورجوازي خسر كل شيء عندما وصل الشيوعيون إلى سدة الحكم. «رياح الفوضى» وهو الجزء الثاني، سمي كذلك بسبب ما أتت به الثورة الثقافية من فوضى وغوغاء أدت إلى زيادة سوء أحوالها وأسرتها، وفي النهاية أرسلت إلى مزرعة سجن العمال في مقاطعة يانجسو، ويأتي بعد ذلك الجزء المركزي في الرواية المسمى «الرياح القارسة»، حيث تصل إلى منفاها في مزرعة السجن، لتتوالى عليها المواقف والاحداث؛ لتصبح أكثر نضجا ودراية بعد أن شحذتها الصعاب. كما عرفت أول تجربة حب حينما قابلت زوجها الأول هسياو - جاو. ثم نرى كيف تمكنت من الحصول على مقعد في جامعة بكين لدراسة اللغة الإنجليزية، وهو الشيء الذي سيغير كثيرا في حياتها. تتسارع الأحداث والتطورات السياسية في «رياح التغيير» عقب موت الزعيم الصيني ماو، وتظهر بوادر انفتاح وبروز فئة «بورجوازية» من منتسبي الحزب الشيوعي. في الجزء الخامس والأخير «عكس الريح» نجحت بعد جهد دؤوب في الحصول على وظيفة في إدارة الشؤون الخارجية لحكومة شنغهاي ووفر لها هذا العمل متنفسا ماليا منحها شيئا من الحرية النسبية أدت إلى خلاصها وانطلاقها كطير حر يوم أن يسر لها حبيبها مدرس الإنجليزية الهروب إلى كندا تاركة مآسيها خلفها، إلا أنها عام ١٩٩٤ عادت إلى شنغهاي للبحث عن ابنتها.
تعكس كثافة الرواية غزارة الأحداث والوقائع التي خبرتها الكاتبة فجعلت منها عملا أدبيا، كان وثيقة تاريخية مكتوبة بلغة إنسانية غير علمية؛ لتزيد من مصداقيتها، وتثير عواطف القارئ، وهي أصدق شيء عند الإنسان.

ردمك ٧ - ٩-١٠٩ - ٠ - ٩٩٩٠٦
ISBN 99906- 0 - 109 - 7